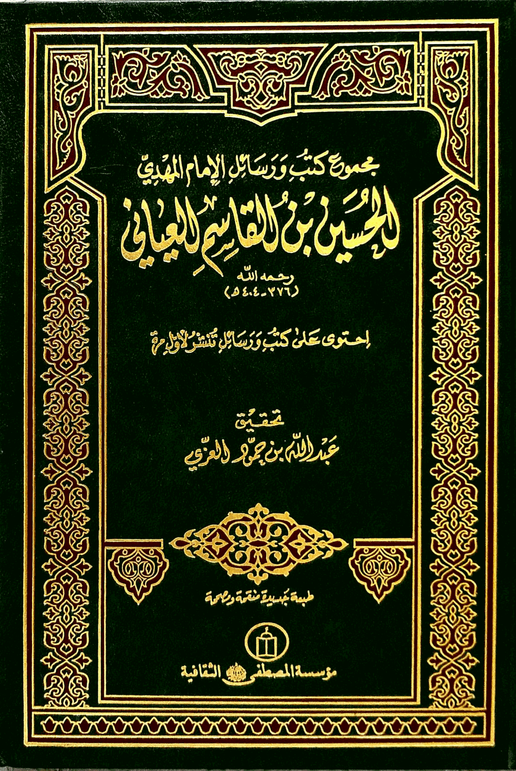

مجموع كتب ورسائل الإمام المهدي
الحسين بن القاسم العياني
رحمه الله
(٣٧٦-٤٠٤هـ)
احتوى على كتب ورسائل تنشر لأول مرة
تحقيق
عبد الله بن حمود العزي
طبعة جديدة منقحة ومصححة
مؤسسة المصطفى الثقافية

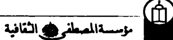
مجموع كتب ورسائل الإمام المهدي

الحسين بن القاسم العياني

مجموع كتب ورسائل الإمام المهدي الحسين بن القاسم العياني
تأليف: الإمام الحسين بن القاسم العياني رضوان الله عليه
تحقيق: السيد العلامة عبد الله بن حمود العزي
الطبعة: الأولى ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م

قياس القطع: (١٧×٢٤)
الصف والإخراج: مؤسسة المصطفى الثقافية
إخراج: خالد محمد عمر الزيلعي
رقم الإيداع بدار الكتب اليمنية: (٢٠٠٦/٨٠٥)





اليمن – صعدة
جوال: (٠٠٩٦٧-٧١١٣٧٧٧٦٢)، (٠٠٩٦٧-٧٧٣٣٣٩٢٠٢)، (٠٠٩٦٧-٧١١٦٦٤٧٥٩)
البريد الإلكتروني: almostafa.ye@gmail.com
hbhbhd@gmail.com

مجموع كتب ورسائل الإمام المهدي

الحسين بن القاسم العياني

رحمه الله

(٣٧٦ - ٤٠٤ هـ)

احتوى على كتب ورسائل تنشر لأول مرة

تحقيق

عبدالله بن حمود العزي

طبعة جديدة منقحة ومصححة



مؤسسة المصطفى الثقافية


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد:

فإن العقل البشري يجد في رسالة القرآن الخالدة من الموقع والمكانة ما لا يمكن أن يجده في سواها على الإطلاق، فهو وجد موقعه الأرقى ومكانته الأسمى مُذ جعله الله فيها مناط التكليف وأداة النظر ومستقر الخطاب، وعلامة التكريم الفارقة بين الإنسان وغيره من المخلوقات الأخرى.

وإذا كان الإسلام ـ كرسول وكرسالة ـ قد جاء ليعظم دور العقل ويقلده هذه المكانة الرفيعة أمكننا القول بأن رسالته الخالدة هي بامتياز رسالة العقل ومصدر تفعيله في اتجاه إدراك الحقيقة الكبرى لهذا الوجود وهي معرفة الله عز وجل المعرفة العقلية التي رتبت أعظم النتائج وأكبر التحولات في حياة الإنسان العاقل، ومن أهمها وأعظمها خروجه من عبادة المخلوق إلى عبادة الخالق، وما وفرته وتوفره هذه العبادة من معاني الارتقاء بالإنسان إلى الذروة من المجد والحرية والعيش الكريم والحياة الفاضلة، ولذلك اعتبرت هذه المعرفة أول العبادة وأساسها، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الزمر:١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[القمر:١٧]، وهنالك الكثير من الآيات الكريمة التي تختم بقوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وكذلك نجد في السنة النبوية عدداً من الأحاديث الصحيحة المثيرة لدفائن العقول، منها ما رواه الإمام أبو طالب عليه السلام بسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من أخذ دينه عن التفكر في آلاء الله والتدبر لكتاب الله، والتفهم لسنتي، زالت الرواسي ولم يزُل، ومن أخذ دينه من أفواه الرجال وقلّدهم فيه ذهبت به الرجال من يمين إلى شمال، وكان من دين الله على أعظم زوال»[(١)].

وقال الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام موضحاً أوجه العبادة وحججها: (والعبادة تنقسم على ثلاثة وجوه: أولها: معرفة الله، وثانيها: معرفة ما يرضيه وما يسخطه، وثالثها: اتباع ما يرضيه واجتناب ما يسخطه...إلى أن قال: فهذه ثلاث عبادات من ثلاث حجج احتج بها المعبود على العباد وهي: العقل، والكتاب، والرسول، فجاءت حجة العقل بمعرفة المعبود، وجاءت حجة الكتاب بمعرفة التعبد، وجاءت حجة الرسول بمعرفة العبادة، والعقل أصل الحجتين الأخيرتين؛ لأنهما عُرفا به ولم يُعرف بهما)[(٢)].

وهكذا أدرك أهل البيت عليهم السلام هذه القيمة الربانية الرفيعة لقضية العقل، فكان منهجهم هو منهج العقل القرآني المحمدي الذي لا يخشى الآخر ولا يأنفه؛ ولأنه لا يأنفه ولا يخشاه فهو لا يلغيه ولا يقصيه، بل ينفتح عليه

(١) أخرجه الإمام أبو طالب في الأمالي: ١١٥.
(٢) رسائل العدل والتوحيد: ١٢٤.

فيحاوره ويناظره ويخاطب فيه العقل والوجدان، مُعيداً صياغة ما لديه من القناعات العقائدية والفكرية على أساسٍ من قوة الحجة لا حجة القوة، وبذلك جسدوا وسطية الإسلام وسماحته وانفتاحه على الآخر، واستطاعوا من خلال هذه المعاني أن يقدموا الإسلام إلى الناس جميعاً ـ مسلمين وغير مسلمين ـ كما هو جيلاً آسراً، وقوياً دامغاً بحججه وأطروحاته في جميع ما يدعو إليه ويحذر منه.

من هنا وفي الوقت الذي نسمع فيه ونقرأ عن الدعوة إلى حوار الحضارات والثقافات المختلفة كواحدة من أهم الدعوات والقضايا المثارة في عالم اليوم، نجد أن أهل البيت عليهم السلام قد سبقوا إلى ذلك منذ سنين مضت وقرون خلت، بل وأظهروا مواقف أكثر تقدماً من حيث أنهم تجاوزوا مجرد الدعوة للحوار إلى ممارسة الحوار ذاته، وهذا التاريخ يطالعنا بالعديد من المحاورات والمناظرات التي خاض غمراتها أئمة أهل البيت عليهم السلام، ومنها:

١- مناظرة الإمام زيد عليه السلام المتوفى سنة (١٢٢هـ) مع احد النصارى:

تلك المناظرة الشهيرة التي دارت بين الإمام زيد ﷺ وبين راهب مسيحي ـ في مجلس الحاكم الأموي هشام بن عبد الملك ـ حول بشرية نبي الله عيسى بن مريم ﷺ، وهي مناظرة استطاع الإمام زيد أن يصل من خلالها إلى عقل ووجدان هذا الراهب المسيحي لينقله بقوة الحجة والبرهان من عقيدة التثليث ـ التي تؤله عيسى ﷺ ـ إلى عقيدة التوحيد بقول الراهب: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن عيسى كلمة الله ألقاها إلى مريم، وأنه عبد مخلوق[1].

(١) التحفة العنبرية ـ خ ـ.

٢- مناظرة الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام المتوفى سنة (٢٤٦هـ) مع الملحد:

ومنها أيضاً تلك المناظرة الشهيرة للإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام مع واحد من أكثر الملحدين خطراً وإثارة للشبهات في بلاد مصر.

وبرغم ما كان يُظهره هذا الملحد من خطورة، وما كان قد أحدثه من بلبلة في أذهان الناس إلا أنه لم يملك في نهاية لقائه مع الإمام القاسم سوى أن يتهاوى وحججه الباطلة، وأن يصبح من أهل الحق بقوله: (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأن كل ما جاء به حق، وتعست أمّة ضلت عن مثلك)[1]، حيث أسلم وحسن إسلامه، وكان يأتي إلى الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام ويتعلم منه شرائع الإسلام.

٣- مناظرة الإمام الهادي عليه السلام المتوفى سنة (٢٩٨هـ) للمجبرة:

ولئن كانت الأمثلة السابقة من مناظرات أهل البيت عليهم السلام قد كشفت لنا عن أسلوب التعاطي مع الآخر غير المسلم وضرورة الانفتاح عليه والحوار معه، فإنه يمكن اعتبار مناظرة الإمام الهادي عليه السلام للمجبرة نموذجاً آخرَ من التعاطي أو الحوار الذاتي مع الداخل (المسلم)؛ أي مع بعض المسلمين ممن عطّل العقل وقصر فهمه وعمل بالشبه والظن ، كالمجبرة والقدرية والمرجئة والمجسمة.

وفحوى هذه المناظرة أن الإمام الهادي عليه السلام لما فتح صنعاء سنة (٢٨٨هـ) اجتمع إليه قدر سبعين فقيهاً من فقهاء المجبرة، واختاروا من بينهم القاضي المحدث يحيى بن عبدالله النقوي، المتوفى سنة (٣٤١هـ) ليسأله عن مسألة

(١) انظر ذلك في كتاب الرد على الملحد، ضمن مجموع رسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام ج١/٣١٨.

خلق الأفعال ومنها المعاصي، ولما سأله: ما تقول يا سيدنا في المعاصي؟ أجابه الإمام الهادي عليه السلام بسؤال: ومن العاصي؟

فانقطع وسكت! فوبخه أصحابه، فقال: إن قلت الخالق العاصي كفرت، وإن قلت المخلوق العاصي خرجت من مذهبي.

فقاموا بأجمعهم وبايعوا الإمام الهادي عليه السلام[1].

وأصبح الشيخ النقوي ومن معه من العلماء من أبرز تلاميذ الإمام الهادي عليه السلام، ويقال: إنه تبعهم ما يقرب من سبعة آلاف ممن كانوا على مذهب الجبرة، قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة (تسعة حروف ردت ألوف).

ولو نظرنا في سر هذا التحول، لوجدناه بفضل إعمال الفكر وإجالة النظر، والتحرر من ربقة التقليد الأعمى.

تلك كانت نماذج سريعة من الحوارات التي تجعل كل الحضارات المنصفة مقرّة لأهل هذا البيت النبوي الشريف بالعلم والفضل، وقد تركزت حواراتهم المختلفة ولقاءاتهم المتعددة حول التدليل على فاطر الأرض والسموات، وتفنيد الشبهات المظلة والتمنطقات المزلة والاعتقادات المذلة.

فأي حوارات توازيها؟ وأي ثقافات تساويها؟ إنها حكمة الله منحها إياهم، وخصيصة اختصهم بها، ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا..﴾[البقرة: ٢٦٩].

---

(١) انظر: الإمام الهادي والياً وفقيهاً ومجاهداً: ٩٠، الإكليل للهمداني: ٢/ ١٥٦، المستطاب ـ خ ـ.

هذا المجموع

وهذا المجموع الذي بين يديك يمثل نموذجاً آخر على طريق الحوار وقرع الحجة بالحجة، احتوى على عدد من الرسائل العقائدية المتنوعة، ناقش فيها الإمام الحسين العياني عدداً من المواضيع المتعددة مع فرق كفرية عديدة كعبدة النجوم، وجعل المناقشة في بعض مسائله على شكل حوار افتراضي استخدم فيه أساليب متنوعة من الإيضاح والشرح والتبيين، وأظهر فيه قدراً مهولاً من العصف الذهني والتفكير العميق ما يجعل من الكتاب إضافة حقيقية إلى المكتبة الإسلامية، وشاهد صدق على قدرة مؤلفه على حل الإشكالات، وسحق كل الافتراءات، والتفنن في الذب عن العقيدة الصحيحة، وترسيخها والتدليل عليها بأدلة المعقول والمنقول، وقد اشتمل هذا المجموع على نوعين من المناقشة:

1. **المناقشة مع غير المسلمين:** وفيه تناول المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ مناقشة الفرق الكفرية، كالمتجاهلة، والدهرية، والطبائعية، والثنوية، ومنكري الألوهية، وعبدة النجوم والفضاء.
2. **المناقشة مع المسلمين:** وفيه تناول المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ مناقشة بعض الفرق المنضوية تحت الإسلام، كالمجسمة، والمشبهة، والنواصب، والمجبرة.

ويحتوي هذا المجموع على ثلاث وعشرين رسالة قسمتها إلى قسمين:

القسم الأول: اشتمل على سبع رسائل وهي:

1. **(المعجز الباهر في العدل والتوحيد لله العزيز القاهر)**

وفيه تكلم المؤلف ـ رحمه الله ـ عن الأدلة العقلية الدالة على وجود الله تعالى، والرد على الزنادقة والملحدين، وركز على بطلان ما تعتقده الفضائية،

والكلام عن الفضاء، ثم ذكر حدوث الأجسام.

ثم واصل ـ رحمه الله تعالى ـ الاستدلالات المبنية على أصول رائعة في المناقشة والاستنباط.

٢ـ (الرد على عبدة النجوم وغيرهم من فرق الملحدين)

وقد ابتدأه بتمهيد عن الحمد والثناء لله، وضرورة معرفته وأداء حقه، ثم استهل المناقشة بقوله: (إن سأل سائل مسترشد، أو قال قائل متعنت ملحد: كيف السبيل إلى معرفة الله جل جلاله وظهرت نعمه وأفضاله؟ وبم يعرف؟ وما معرفته؟).

ثم ساق الأدلة على هذه التساؤلات المهمة .. إلى أن وصل إلى النجوم وحكمة الله في خلقها والرد على عبدتها.

٣ـ (الطبائع)

ابتدأ فيه بالتساؤل عن الدليل على حدث السموات والأرضين، وهما أدل الدلائل على رب العالمين.

وبعد أن ساق الأدلة على حدثهما تساءل عن الأدلة على حدث الأصول المتناسلة وفروعها وبيان الصنع في عللها وطبائعها.

وهكذا نجده بهذه التساؤلات يقرر الإجابات الشافية، فيجيب عن كل تساؤل بأجوبة منطقية عقلية مقنعة، حتى وصل إلى الكلام عن الطبائع الأربع: (الماء، والنار، والهواء، والتراب).

٤ ـ (شواهد الصنع والدلالة على وحدانية الله تعالى وربوبيته):

وقد ذكر فيه بعد حمد الله تعالى والشهادة لـه قوله: «إن سأل سائل مسترشد أو قال قائل ملحد: ما الدليل على رب العالمين؟

قيل لـه ـ ولا قوة إلا بالله ـ: اعلم أيها السائل أنا نظرنا الإنسان فإذا هو أقرب الأدلة على نفسه، فلم يخل عندنا من أحد ستة أوجه لا سابع لها:

١- إما أن يكون خلق نفسه.
٢- وإما أن يكون قديماً لم يزل.
٣- وإما أن يكون حدث لعلة من العلل.
٤- وإما أن يكون هملاً رسلاً، لا من علة ولا من خالق.
٥- وإما أن يكون متولداً، لم يزل نطفة من إنسان، وإنساناً من نطفة إلى ما لا نهاية، ولا أصل، ولا غاية، ولا أول.
٦- وإما أن يكون من خالق محدث قديم حي.

ثم يستمر عليه السلام في مناقشة كل وجه من الوجوه، ويقرر وجه صحته من سقمه.

هـ (الرد على الملحدين وغيرهم من فرق الضالين)

وقد احتوى على عدة جوابات لمجمل فرق الإلحاد، وللفرق الضالة عموماً، واشتمل ذلك على هذه الأبواب:

١- باب الرد على الدهرية.
٢- باب الرد على أصحاب الكون.
٣- باب الرد على أهل الإلحاد في التولد.
٤- باب الرد على أصحاب الطبع.

٥- باب الرد على عبدة النجوم.
٦- باب الرد على الثنوية (عبدة النور والظلمة).
٧- باب الرد على المتجاهلة.
٨- باب الرد على من جحد النبوة.
٩- باب التوحيد.
١٠- باب الرد على الفضائية.
١١- باب المعرفة.
١٢- باب الرد على من أنكر قول آل محمد صلوات الله عليهم.
١٣- باب الحقائق.
١٤- باب الرد على من جحد نبوة محمدﷺ.
١٥- باب الرد على من جحد الإمامة.
١٦- باب الرد على من زعم أن الإمامة بعد النبيﷺ في ذريته وفي غيرهم من الأمة.
١٧- باب الرد على الإمامية.
١٨- باب الرد على الإمامية في صفة الإمام.

٦- (التوحيد والتناهي والتحديد)

وهو جزءان، تكلم في الأول عن دلالة المعرفة على الله تعالى، والرد على الملحدين، والرد في حدث الحيوانات ونهايتها، وكذلك الرد على الجوهرية، والفضائية، وأصحاب الصفات القديمة.

والثاني خصصه للرد على بعض المشبهة فيما يقولونه ويعتقدونه حول الله تعالى في مسائل الفناء، والإدراك، والعلم، والقدرة.

٧ـ (التوكل على ذي الجلال، والرد على المشبهة الضلال)

تناول فيه الرد على المشبهين لله تعالى، وبَيَّنَ بطلان معتقدهم، وضرورة العودة الصحيحة إلى تنزيه الخالق عن صفات المخلوقين، ووصفه بما وصف به نفسه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[الشورى: ١١].

والقسم الثاني اشتمل على ست عشرة رسالة وهي :

١ـ (كتاب الأفعال)

وفيه تكلم عن أفعال الله وأقسامها وبطلان تأثيرات الطبائع وقسم أفعال الله تعالى إلى قسمين، فعل اختراع وفعل تعليل ثم ناقشهما مناقشة جميلة.

٢ـ (كتاب بيان الحكمة)

أوضح فيه معنى الحكمة، ومظاهر الحكمة الإلهية في الكون وكيف يتوصل الإنسان لمعرفة الحكمة.

٣ـ (كتاب مهج الحكمة والفوائد)

وهو جواب على سؤال ورد من أحد أصحاب الإمام وهو رزين بن محمد يتعلق بألم الأطفال.

٤ـ (كتاب الأسرار)

بين فيه الحكمة من تكرار آيات القرآن الكريم بصيغ متعددة.

٥ـ (كتاب الرحمة وابتداء الله لعباده بالنعمة)

وفيه تكلم عن ضرورة معرفة الله تعالى، ومعرفة صفاته الذاتية، ثم تطرق إلى تفسير مظاهر رحمة الله لعباده.

وماذا تعني الإرادة والمشيئة؟ وماذا يعني البقاء والدوام؟

٦ـ (كتاب التوفيق والتسديد والآداب)

وفيه تكلم عن معاني التوفيق والتسديد، ثم تطرق إلى تفسير بعض الآداب كالشجاعة والجبن والسخرية، وعن الوقاية في السفر، وأشار إلى إيضاح بعض الإشكالات المتعلقة بالجنون، والمس، والعين، والإلهام، والوسوسة، وتكوينات الإنسان النفسية والعقلية.

٧ـ كتاب السيلين (العقل والنفس)

وفيه تكلم عن العقل والنفس، وقرن الحق بالعقل والباطل بالنفس، وأكد على ضرورة تحكم العقل بالنفس لمن أراد النجاة والابتعاد عن الهلكة.

٨ـ (كتاب الرد على أهل التقليد والنفاق)

وهو جواب على سؤال لأحد أصحاب الإمام وهو الحسن بن أحمد بن يعقوب. يتعلق بالتقليد وهل يجوز ؟ أم لا؟

٩ـ (كتاب الرؤيا)

وفيه ناقش مسألة وجود الله في الأماكن وهل هو وجود ذاتي أم علمي؟ وتطرق إلى الرؤيا في المنام وهل هي من الله أم من الشيطان؟

١٠ـ (كتاب الرد على من أنكر الوحي)

ولعل هذا الكتاب تابع لكتاب الرؤيا لتداخل المواضيع فيما بينها وفيه أوضح أن الوحي يأتي على درجات متعددة وطرق مختلفة وجعل منه الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له.

١١ـ (كتاب تثبيت إمامة القاسم بن علي)

أجاب فيه على بعض المشككين في إمامة والده الإمام الجليل القاسم بن علي العياني.

١٢ـ (كتاب مختصر في التوحيد)

أوضح فيه بعض المسائل المتعلقة بالتوحيد كالوحدانية، والقدرة وتطرق إلى صفات الله تعالى.

١٣ـ (كتاب في مسألة الإرادة)

وهو جواب على سؤال لأحد أصحاب الإمام وهو علي بن عبد الله يتعلق بمسألة الإرادة وإشكالات حولها في كلام الإمام فأجاب عنه أنه لم يخرج من مذهب أئمة أهل البيت عليهم السلام فيها.

١٤ـ (كتاب الأدلة)

وفيه تكلم عن كيفية الاستدلال عن خلق الإنسان على وجود الله تعالى، وتطرق إلى صفات الله، وقسمها إلى قسمين قديمة ومحدثة، وذكر الفرق بين صفات الله تعالى وصفات خلقه.

١٥ـ (كتاب الولاء والبراء)

وهو ما سأله عنه أبو عبد الله محمد بن يقظان أحد أصحاب الإمام

وفيه تكلم عن الولاء لأولياء الله والبراء من أعدائه.

١٦ـ (كتاب تفسير الصلاة)

وفيه تكلم عن تفسير بعض الأذكار، والألفاظ المتعلقة بالصلاة كأداء التوجه والافتتاح، ثم فسر بعض آيات فاتحة الكتاب وسورة الصمد، وختم بتفسير ألفاظ الركوع والسجود والتشهد.

النسخ المعتمدة في التحقيق

وقد اعتمدت في تصحيح رسائل القسم الأول من هذا المجموع على ثلاث نسخ:

* **الأولى:** تقع في (١١٦) صفحة مقاس الصفحة(٢٠×١٤) وعدد أسطرها(١٧) سطراً جاء في آخرها: «تم الكتاب بحمد الله ومنه ولطفه، وله الحمد كثيراً بكرةً وأصيلاً، وذلك يوم الاثنين خامس شهر جمادى الأول سنة سبعة وستين بعد الألف، بعناية سيدي ومولاي عز الدين محمد بن الحسن بن أمير المؤمنين ـ حفظه الله تعالى ـ وقد رمزت لها بالرمز (أ) وبها سبع رسائل، والنقص أثبتناه من المخطوطتين، المرموز لهما بـ (ب) و (ج).

وقد اشتملت على الرسائل التالية:

١- المعجز من (باب الرد على من جحد الله، وقال بقدم الهواء وغيره من الأشياء).
٢- الرد على عبدة النجوم.
٣- الطبائع.
٤- شواهد الصنع.
٥- الرد على الملحدين.
٦- التوحيد والتناهي والتحديد (١، ٢).

* **الثانية:** تقع في (١٣٧) صفحة مقاس الصفحة (٢٠×١٣) وعدد أسطرها (٢٢ سطراً) وقد كان آخر الرسائل فيها كتاب (التوكل على ذي الجلال والرد على المشبهة الضلال). ولا يوجد إلا فيها من بين النسخ المتوفرة

لدينا، جاء في آخره: «وكذلك القول في الحج والصيام وغيرهما من شرائع الإسلام، تم الكتاب بحمد الله ومنه، فله الحمد كثيراً بكرة وأصيلاً».

وقد رمزت لها بالرمز (ب) وبها سبع رسائل، وتتميز هذه النسخة بأنه يبدو عليها القدم، وكذلك اتضح من خلالها أن (المعجز الباهر) أحد رسائل هذا المجموع بخلاف النسختين الآخرتين.

وقد اشتملت على الرسائل التالية:

١- المعجز.
٢- التوحيد والتناهي والتحديد.
٣- الرد على الملحدين.
٤- شواهد الصنع.
٥- الرد على عبدة النجوم.
٦- الطبائع.
٧- التوكل على ذي الجلال والرد على المشبهة الضلال.

* **الثالثة:** تقع في (٨٧) صفحة مقاس الصفحة (٢٠×١٤) وعدد أسطرها (٢٢سطراً) وقد كان آخرها كتاب (شواهد الصنع) جاء في آخره: «ومن أجاز الإمامة في الأمة فقد أجازها في آل محمد ـ عليهم السلام ـ وهم خير قريش، وصلى الله وسلم على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً» وقد رمزت لها بالرمز (ج) وبها أربع رسائل.

وقد اشتملت على الرسائل التالية:

١- المعجز.
٢- التوحيد والتناهي والتحديد (١، ٢).

٤- الرد على الملحدين.

٥- شواهد الصنع.

وأما في تصحيح رسائل القسم الثاني من هذا المجموع المبارك فقد اعتمدت على نسختين :

* الأولى: تقع في (٦٠) صفحة مقاس الصفحة (٢٠× ١٤) سم تقريباً، وعدد أسطرها ١٨ سطراً وفيها ٨رسائل وهي:

١-الفرق بين الأفعال.

٢-الولاء والبراء.

٣-الأدلة على الله.

٤-الرؤيا.

٥-الرد على من أنكر الوحي.

٦-التوفق والتسديد.

٧-السبيلين.

٨-تفسير الصلاة.

وقد رمزت لها بالرمز(ج)

* الثانية: تقع في (١٣٢) صفحة مقاس الصفحة (٢٠×١٤)سم وعدد أسطرها (٢٣)سطراً، ويظهر عليها البتر من أولها، وقد تضمنت ثلاث عشرة رسالة في آخرها كتاب (الإرادة) للإمام المرتضى محمد بن الإمام الهادي يحيى بن الحسين عليهم السلام، ويقع في (١٦)صفحة.

جاء في آخرها (تم الكتاب بعون الله وتوفيقه وإعانته وصلوات الله على محمد وعترته بعناية مالكه سيدي القاضي العلامة جمال الدين علي بن إبراهيم

الحربي حفظه الله تعالى وتولاه وعن شرر الدارين أعاذه وحماه وإياي وجميع المؤمنين بحق محمد وأخيه الأنزع البطين آمين). ولم يكتب الناسخ اسمه ولا تاريخ نسخه للرسائل، وقد اعتمدتها أصلاً في القسم الثاني؛ لأنه يبدو عليها القدم ولاشتمالها على عدد أكثر من الرسائل، وفيها الرسائل التالية:

١-الفرق بين الأفعال.

٢-بيان الحكمة.

٣-مهج الحكمة.

٤-الأسرار.

٥-الرحمة.

٦-التوفيق والتسديد.

٧-كتاب السبيلين.

٨-الرد على أهل التقليد والنفاق.

٩-الرؤيا.

١٠-الرد على من أنكر الوحي.

١١-تثبيت إمامة القاسم بن علي.

١٢-مختصر التوحيد.

١٣-مسائل الإرادة .

١٤- كتاب الأدلة .

١٥- كتاب الولاء والبراء.

١٦- كتاب تفسير الصلاة.

تسمية الكتاب

قد يسميه البعض (المعجز) لأن في أوله رسالة أسماها الإمام المهدي

الحسين العياني عليه السلام بـ(المعجز الباهر في العدل والتوحيد لله العزيز القاهر) وطغى هذا الاسم على الست الرسائل الأولى كما في بعض المخطوطات، ولكننا هنا أطلقنا عليه (مجموع كتب ورسائل الإمام الحسين بن القاسم العياني) لعدة أمور:

١- فالمؤلف عليه السلام ألف كل رسالة منفردة عن الأخرى.

٢- جعل لكل رسالة عنواناً يختلف عن سابقتها.

٣- لعل تسمية الست الرسائل الأولى من هذا المجموع نشأت من الرسالة الأولى لهذا المجموع، فعندما يأتي المطلع للاطلاع يعتقد أن هذا الإسم شاملاً لكل رسائل الكتاب.

٤- كوننا أضفنا إلى هذه الست الرسائل سبع عشرة رسالة أخرى، وقد أرفقت نماذج من المخطوطات التي اعتمدتها في التحقيق.

طريقة التحقيق

وقد لا يدرك المطلع الكريم الجهود التي بذلناها حتى خرج هذا المجموع الرائع برسائله المتنوعة بهذه الصورة إلا عند مقارنته بالمخطوطات المعتمدة في تحقيقه، فقد واجهتني مشكلات عديدة في قراءات المخطوطات المعتمدة في التحقيق وبفضل الله تعالى تمكنت من قراءتها حسب ما يريدها مؤلفها رحمه الله تعالى بعد جهد جهيد، ومن قارن بين هذه الرسائل المطبوعة والمخطوطات المعتمدة في التحقيق عرف حجم الجهد المبذول فيها، وكذلك من قارن بينها وبين بعض الرسائل المماثلة لها التي حققها غيرنا سيجد فرقاً شاسعاً سواء من ناحية ضبط النص واستيفائه وطريقة إخراجه وتنسيقه، وعلى سبيل المثال لو رجع القارئ الكريم إلى بعض الرسائل التي قام بتحقيقها الدكتور إمام حنفي ونشرها باسم (المعجز) وهي الرسائل التالية:

١-النصف الأخير من كتاب المعجز، من باب قوله: (باب الرد على من جحد الله).

٢-الرد على عبدة النجوم وغيرهم.

٣-الطبائع.

٤-شواهد الصنع والدلالة على وحدانية الله تعالى وربوبيته.

٥-الرد على الملحدين.

٦-التوحيد والتناهي والتحديد.

لوجد على أقل الأحوال أمرين:

الأمر الأول: أنه لم ينشر سوى النصف الأخير من كتاب (المعجز) من باب قوله: (باب الرد على من جحد الله).

الأمر الثاني: وجود بعض التصحيفات في بعض ألفاظ الرسائل التي حققها الدكتور إمام حنفي، بلغت أكثر من مائة تصحيف ، وعلى سبيل المثال: (الإنفاذ) تصحفت إلى (الإنقاذ) السطر١٦/ صفحة ١٠٦، و (سبباً) السطر ٢/ ١٠٧، تصحفت إلى (شيئاً) و (الاتضاع) ١٩/ ٩٥ تصحفت إلى (الاتضاح)، و (يوجب عدم التوصل) تصحفت في السطر ٤/ ٢٢١، إلى (يوجب التوصل) و (الحر والقر) ٤/ ٢٠٩، تصحفت إلى (الخير والشر)، و(فموضعه) ٦/ ٢٠٨، تصحفت إلى (فهو صفة)، وهذه الصفحات والأسطر حسب الطبعة التي حققها الدكتور حنفي، وعلى كل فجهوده مشكورة، وجهود كل من يسعى إلى نشر تراث العدل والتوحيد والحفاظ عليه.

ولو عاد إلى نفس هذه الرسائل التي حققها غيره لوجد بعض السقط والتصحيفات تعتريها وهي محفوظة لدينا لا نرغب في نشرها، ولا أدعي الكمال فالكمال لله وحده، ولكن حسبي أنني لم أتسرع وبذلت أقصى جهدي مقابلة وتصحيحاً، وقد تميز ما قمت بتحقيقه بعدة مميزات منها:

الأول: استدراك ما فات غيرنا من بعض السقط والتصحيفات في الرسائل التي حُققت ونشرت.

الأمر الثاني: إضافة ما عثرنا عليه من رسائل الإمام الحسين العياني وهي تُنشر لأول مرة وهي:

١- كتاب بيان الحكمة.

٢- كتاب مهج الحكمة والفوائد.

٣- كتاب الأسرار.

٤- كتاب الرحمة وابتداء الله لعباده بالنعمة.

٥- كتاب الرد على أهل التقليد والنفاق.

٦- كتاب تثبيت إمامة القاسم بن علي.

٧- كتاب مختصر في التوحيد.

٨- كتاب في مسألة الإرادة.

وسأترك بقية مميزات تحقيق رسائل هذا الكتاب للقارئ الحصيف المنصف، سائلاً الله العلي العظيم أن يجعل هذا العمل وغيره من أعمالنا خالصاً لوجهه الكريم فهو المعين والمستعان وعليه التكلان، وهو وحده المقدر لكل الجهود، وهو المبتغى والمقصود، ولا أدعي الكمال فالكمال له جل شأنه.

وفيما يلي ترجمة للمؤلف ونماذج من النسخ المعتمدة في التحقيق.

ترجمة المؤلف

نسبه

هو الإمام، المهدي لدين الله، الحسين بن القاسم بن علي بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن أمير المؤمنين، وإمام المتقين، علي بن أبي طالب عليهم السلام.

مولده ونشأته

ولد رحمه الله سنة ٣٧٦هـ، ونشأ نشأة إيمانية مباركة، في ظل أسرة علوية طاهرة، تحب العلم وتتحلى بمكارم الأخلاق.

ومنذ نعومة أظفاره بكر إلى دراسة العلوم، فحصلها بهمة عالية، وعزيمة سامية، وما بلغ الخامسة عشرة من عمره إلا وقد حاز قصب السباق، وكان هو المشار إليه بالاتفاق، ولم يتجاوز السابعة عشرة إلا وقد استكمل شروط الإمامة، وأحاط ببنود الزعامة.

يقول المؤرخ الشهيد حميد المحلي في ترجمته: «ونسبه النسب الشريف الفائق، وجوهره الجوهر الشفاف المنيف الرائق، وكان من عيون العترة في زمانه،

وتيجانهم المكللة في أوانه، برز في العلم حتى فاق أهل عصره، وسبق فيه أبناء دهره، وهو غصن خلافة نضير، وروضة فضل وغدير، مشهور بالزهادة، معروف بالعبادة، له التصانيف الرائقة في علم الكلام، والكتب الحسنة في مخالفي العترة عليهم السلام وهي كثيرة، قيل: إنها تبلغ ثلاثة وسبعين تصنيفاً، منها (المعجز) في علم الكلام، و(الرد على الفضائية)، وغيرها من كتبه في الأصول، ومنها تفسير كامل سلك فيه الطريقة الوسطى، وأضحى قدحه المعلى، وشهد بأنه قد تبوأ من الفضل منزلاً رفيعاً ومحلا.

وكانت شجاعته معروفة، ومواقفه موصوفة، لا تفتقر إلى شاهد، ولا يطمع في جحدها جاحد، إلى أن قال:

قام بالأمر بعد موت أبيه عليه السلام وملك من الهان[1] إلى صعدة وصنعاء، ولم يزل ناعشاً للحق، داعياً إلى الصدق، كابتاً لأرباب الإجرام، معلياً لكعب الإسلام، حتى رفع للدين مناراً، وأعز له أنصاراً، وحمى له ذماراً، وقوض أركان الضلال، وكسا الحق ثوب الكمال.

وكان ذلك دأبه عليه السلام حتى قتله (بنو حماد) في بعض حروبه، في بعض نواحي البون»[2].

(١) (مخلاف الهان) من بلاد (آنس) محافظة (ذمار) والهان بوزن عطشان وهو أخو همدان وسمي هذا المخلاف باسمه. انظر مجموع بلدان اليمن وقبائلها ١/ ٨٩.

(٢) الحدائق الوردية: ٢/ ١٢٠-١٢١.

مؤلفاته

له عدد من المؤلفات المتنوعة، قال الشهيد حميد المحلي -رحمه الله تعالى-: «إنها تبلغ ثلاثة وسبعين تصنيفاً»[1].

وكذلك قال شيخنا الحجة مجد الدين المؤيدي ـ أيده الله تعالى ـ في كتابه (التحف): «ألف ثلاثة وسبعين مؤلفاً» [2].

وهذا سرد لبعض مؤلفاته ﷺوأماكن وجودها:

١- (تفسير الغريب من كتاب الله): نسخة مصورة بمكتبتنا، وأخرى بمكتبة الجامع الكبير، برقم (٥٣) وأخرى بمكتبة برلين برقم (١٠٣٧١) ونسخة بمكتبة شهيد باشا بتركيا، ونسخ أخرى في عدد من المكتبات الخاصة-تحت التحقيق -.

٢- (الأدلة على الله): منه نسخة مخطوطة بمكتبة برلين رقم (١٠٣١٤)، وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك

٣-(التحدي للعلماء الجهال): نسخة مخطوطة بمكتبة برلين رقم (١٠٢٦٦).

٤-(الإمامة) ـ مكتبة برلين رقم (١٠٢٧٥).

٥-(نبأ الحكمة): مكتبة برلين رقم (١٠٢٧٢).

٦-(التوكل على ذي الجلال، والرد على المشبهة الضلال): توجد نسخة منه في مكتبة شهيد باشا بتركيا ـ وأخرى بمكتبة برلين برقم (١٠٣١٦)، وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

(١) الحدائق الوردية: ٢/ ١٢٠.

(٢) التحف شرح الزلف: ٢٠٤ـ ط/ الثالثة.

٧- (كتاب الأسرار): ذكره المؤرخ زبارة في كتابه (أئمة اليمن): ص٨٣ وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

٨-(كتاب السبيلين)ـ العقل والنفس ـ : مكتبة برلين رقم (٥٣٤٠) وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

٩- (شواهد الصنع والأدلة على وحدانية الله وربوبيته): منه نسخة مخطوطة بتاريخ: ١٠٦٧ هـ بمكتبة الجامع الكبير برقم (٨٣)، وأخرى بمكتبة باشا بتركيا، وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

١٠- (الرحمة وابتداء الله سبحانه لعباده بالنعمة): نسخة بمكتبة برلين برقم (١٠٣١٧) وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

١١-(الرد على أهل التقليد والنفاق): منه نسخة بمكتبة برلين برقم (١٠٢٦٧) وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

١٢-(الرد على من أنكر قتل عدو الله حاتم): مكتبة برلين برقم (١٠٢٧٣).

١٣-(الرد على عبدة النجوم وغيرهم من فرق الملحدين): مكتبة الجامع الكبير رقم (١٣٤)، وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

١٤-(الرد على الملحدين من فرق الضالين): مكتبة الجامع الكبير رقم (٨٣) ونسخة أخرى بمكتبة برلين برقم (١٠٢٧٩)، وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

١٥-(الطبائع): مكتبة الجامع برقم (٨٣) ومكتبة باشا بتركيا رقم (٤)، وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

١٦-(الفرق بين الأفعال والرد على الكفرة والجهال): نسخة بمكتبة برلين برقم (١٠٢٧٤) وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

١٧-(كتاب الإرادة): ذكره المؤرخ زبارة في كتابه (أئمة اليمن) ص: (٨٣) وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

١٨-(كتاب الأكفاء) ـ الكفاءة في النكاح ـ: مكتبة برلين برقم (٢٩٧٦) تحت التحقيق.

١٩-(كتاب الصفات ومعرفة الصانع): ذكره المؤرخ زبارة في كتابه (أئمة اليمن) ص: (٨٣).

٢٠-(مختصر الأحكام): ذكره شيخنا الحجة مجد الدين المؤيدي ـ أيده الله تعالى ـ في كتابه (التحف شرح الزلف) ص: (٢٠٤).

٢١-(كتاب الرد على الدعي): ذكره شيخنا الحجة مجد الدين المؤيدي في كتابه (التحف شرح الزلف) ص (٢٠٤).

٢٢- (كتاب التوحيد والتناهي والتحديد) يقع في جزأين، وهو ضمن المجموع الذي بين يديك.

٢٣-(كتاب الدامغ): ذكره شيخنا الحجة مجد الدين المؤيدي في كتابه (التحف شرح الزلف) ص (٢٠٤).

٢٤-(كتاب التوفيق والتسديد): ذكره شيخنا الحجة مجد الدين المؤيدي في كتابه (التحف شرح الزلف) ص:٢٠٤ وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

٢٥-(مختصر في التوحيد): مكتبة برلين برقم (١٠٣١٥) وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

٢٦-(مهج الحكمة): ذكره شيخنا الحجة مجد الدين المؤيدي (ص٢٠٤) في كتابه (التحف شرح الزلف) والمؤرخ زبارة في كتابه (أئمة اليمن) ص (٨٣) وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

٢٧-(بيان الحكمة): ذكره شيخنا الحجة مجد الدين المؤيدي (ص٢٠٤) في كتابه (التحف شرح الزلف) تحت التحقيق.

٢٨-(المعجز الباهر في العدل والتوحيد لله العزيز القاهر): وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

٢٩-(موعظة): منها نسخة مخطوطة بمكتبة برلين برقم (١٠٢٦٩).

٣٠-(الرؤيا) بأيدينا نسخة منه وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

٣١-(الرد على من أنكر الوحي) بأيدينا نسخة منه وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

٣٢-كتاب تثبيت إمامة القاسم بن علي بأيدينا نسخة منه وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

٣٣-(كتاب الولاء والبراء) مما سأل عنه محمد بن يقضان، وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

٣٤-(كتاب تفسير الصلاة) وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

٣٥-(رسالة إلى شيعة أبيه) ذكره السيد العلامة حيدان بن يحيى حيدان.

٣٦-(رسالة إلى شيعة جده) الإمام القاسم بن إبراهيم، ذكره كذلك السيد حيدان.

٣٧-(الجواب على عبد الملك بن غطريف) ذكره كذلك السيد حميدان بن يحيى.

٣٨-(الاستدلال على الملحدين بأدلة العقل والسمع) ذكره كذلك السيد حميدان.

٣٩-(كتاب الصفات) أشار إليه الإمام الحسين العياني في تفسيره.

تنزيهه عن ما نسب إليه

وهذه المؤلفات الكثيرة والمتعددة من شاب لم يتجاوز عمره عشرين أو خمسة وعشرين عاماً، على قول ولذلك انبهر به ذوو الألباب، وأضحى بين أبناء عصره مثار التعجب والاستغراب، مما أدى إلى انقسام آراءهم حوله، ما بين مفرط في وصفه، حتى ظنه الإمام المهدي الموعود به، وما بين غامط لحقه، حاسد لشخصه، حتى بهته ونسب إليه ما لم يقله أو يعتقده، وما بين هذا وذاك نمرقة وسطى مستبصرة سلكت مسلك الوسطية والإنصاف، ولم تكن من أهل الإفراط والإسراف، أو من أهل التفريط والاعتساف.

والعجيب هو نسبة ما وصفه به المغالون إليه، والتسليم بما قاله المبغضون فيه، فالمغالون وهم قلة، اعتقدوه المهدي المنتظر، وهم في الغالب من عوام البشر، والمبغضون نسبوا إليه أقوالاً، ولفقوا له أشياء لا صحة لها، فأصبح ضحية بين مطرقة المغالين، وسندان المبغضين، خصوصاً مع عدم الالتفات من بعض المقلدين أو ممن يزعم أنه من المجتهدين إلى ما نفاه عن نفسه وأثبت بطلانه قبل حلول رمسه، قال رحمه الله: «ولست أصدق بكل ما روي عن رسول الله ﷺ، لقلة الثقات، وطول الزمان، وها أنا أسمع في حياتي من

الروايات الكاذبة عليَّ ما لم أقل ولم أفعل، فربما يسمع بذلك أولياء الله فيصدقون والعهد قريب»[1].

وكأنه بهذه العبارة يقرأ المستقبل، ويحذّر من مغبة التقول عليه بالزور والبهتان.

لذلك فمن الواجب على الباحث الحصيف، أن يكون متجرداً في بحثه، منصفاً في وصفه، غير متأثر بالنزوات النفسية، والنزغات الشيطانية، وهنا يجب علينا أن نقف مع هذا الإمام المظلوم وقفة منصفة، وقفة عدل وإنصاف، لا وقفة حقد واعتساف، ولا وقفة مغالاة وإسراف.

الوقفة الأولى: حول الأقوال المنسوبة إليه

وأما ما نسب إليه من أقوال وما حكي عنه من كذا إشكال، فهي دعاوى باطلة، وتهم عاطلة، خالية من البيان، مفتقرة إلى البرهان:

والدَّعاوي ما لم تُقيموا عليها ... بينات أبناؤها أدعياءُ

بل وجد من كلامه ما ينقضها، ومن مقاله ما يكشف زيفها، وعلى سبيل المثال:

أ- شبهة ادعائه الوحي

ذكر المؤرخ المطرفي مسلم اللحجي المتوفى سنة (٥٤٥ هـ): أن الحسين ادعى الوحي، ورجعت إلى بعض كلام الإمام الحسين العياني، وإذا به ينكر

(١) مختصر الأحكام (خ).

ذلك، وينبه على ما هنالك، فيقول: «وليعلم من سمع قولنا، أو فهم تأويلنا أن الوحي الذي ذكرنا فيما تقدم من كلامنا أن الله ختمه بنبينا هو هبوط الملائكة، وما كان لسمع موسى من المخاطبة، فذلك الذي ختمه الله، وقطعه بعد محمد ﷺ لأنه علم أنه أفضل الآدميين، ففرق بينه وبين أهل بيته أجمعين بأن جعلهم تابعين، وبشريعته مقتدين، ولو علم في ذريته أفضل منه لأزاح ختم النبوة عنه، ولجعل بعده أنبياء مثله، ولما أبان على فضلهم فضله»[1] فهل بعد هذا من إيضاح أو تعليق!!

ب- شبهة المهدوية

ذكر العلامة الجلال المتوفى سنة (٨٠٥هـ) وابن الوزير المتوفى سنة(٨٤٠هـ) أن الإمام الحسين زعم أنه المهدي، وأنه أفضل من النبي ﷺ وأن كلامه أفضل من القرآن، ثم رجعت إلى كلام الإمام الحسين العياني لعليٍّ أجد إشارة أو عبارة تدل على هذا، فوجدت أنه ينكر كل ذلك.

فيقول وكأنه يجيب على من زعم أنه ادعى المهدوية عند تفسيره لقول الله سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[النساء: ١٥٩] قال: «يحتمل أن يريد إلاَّ من قد آمن وأتى بالمستقبل بمعنى الماضي، ويحتمل ما روي عن الأئمة عليهم السلام أن الله سبحانه يظهره في آخر الزمان يدعو إلى طاعته وطاعة المهدي، ويصلي خلفه» وتفسيره لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[التوبة: ٣٣] قال: «هو وعد من الله سبحانه لرسوله، فكان ما وعد، قال: وأتى في الخبر عن الأئمة عن النبي عليه وعليهم السلام، أن هذا

---

(١) الرد على من أنكر الوحي بالمنام، وهو ضمن هذا المجموع الذي بين يديك.

الظهور يكون على يد المهدي ﷺ يقهر جميع أديان الأمم».

وتفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾[الأحزاب:٢٧] أي ستملكونها، وقيل: «سيملكها القائم من آل محمد في آخر الزمان» وتفسيره لمعنى ما روي عن النبي في المهدي أنه يؤتم عرسه، قال ﷺ: «معنى يؤتم عرسه أن يتركها عند قيامه اشتغالاً بالجهاد عنها» وتفسيره لمعنى ما روي عن أمير المؤمنين ﷺ في الحجة الباطنة بأنه المقتصد، واحتج على ذلك بقول النبي ﷺ: «سيأتي من بعدي فتن متشابهه كقطع الليل المظلم فيظن المؤمنون أنهم هالكون فيها، ثم يكشفها الله عنهم بنا أهل البيت برجل من ولدي خامل الذكر، لا أقول خاملاً في خشيته ودينه وعلمه، ولكن لصغر سنه وغيبته عن أهله واكتتامه في عصره» فبين ﷺ أنه يريد بذلك الاقتصاد لا ما ذهب إليه أهل اللداد.

فيا ترى كيف عُلم ادعاؤه أنه المهدي المنتظر، وهذا صريح قوله بعدم معرفة ظهوره، فضلاً عن معرفة حاله.

جـ - شبهة التفضيل على الأنبياء عليهم السلام

ويقول مجيباً على عبد الملك بن غطريف على شبهة من زعم أنه فضل نفسه على الأنبياء: «وذكرت أني فضلت نفسي على الأنبياء عليهم السلام وحاشا لله ما قلت ذلك في شيء من الكلام ..» إلى قوله: «فمتى سمعت أني فضلت نفسي عليهم، أو ذكرت أني أعلم وأبدع منهم، ما أحسب إلا أن ذلك نقل إليك، واشتبه اللفظ والكلام عليك»[1].

---

(١) الجواب على عبدالملك بن غطريف (خ) .

وقوله في بعضها: «فذكرت في كتابك أنك مسترشد معاتب، ثم حرفت قولي، فصح أنك معاند كاذب، وأنت والحمدلله من درك ما رجوت خائب، والله سائلك عما حرفت من كلامنا، ومناقشك على الكذب الذي أتيت به علينا، والكلام الركيك الذي نسبته إلينا»[1].

ويقول أيضاً: «وأفضل الناس كلهم فضلاً، وأكملهم ديناً وعقلاً، محمد خاتم النبيين -صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين-»[2].

د- شبهة الناقلين عنه من الزيدية

وقد يقول القائل إن بعض القادحين فيه هم من الزيدية، والجواب أنه قد أوضح أنه كذب عليه في حياته، وتوقّع أن يتأثر بعض الأولياء بما حيك ضده من أكاذيب وتلفيقات فيصدقون بعد وفاته، قال:«وها أنا أسمع في حياتي من الروايات الكاذبة عليّ ما لم أقل ولم أفعل، فربما يسمع بذلك أولياء الله فيصدقون، والعهد قريب».

ويقول شيخنا السيد العلامة الحجة مجد الدين المؤيدي ـ حفظه الله تعالى ـ في كتابه (التحف شرح الزلف): «وقد روي عنه ـ أي الإمام الحسين العياني ـ أشياء خارجة عن سنن أهل البيت، رواها الإمام أحمد بن سليمان في (حقائق المعرفة) وقد نزّهه عنها، فقال ـ بعد حكايته لها والكتاب الذي روي أنه كتبه ـ ما لفظه: (ونحن ننفي عنه هذا الكلام، ونقول: هو مكذوب عليه ولا يصح عنه .. إلى آخر كلامه ولا وثوق بما في (الحكمة الدرية)[3] فقد ثبت أنه دس

(١) الجواب على عبد الملك بن غطريف (خ).

(٢) المصدر السابق.

(٣) كتاب ينسب للإمام أحمد بن سليمان، دس عليه فيه بعض المقالات، ولذا نبّه شيخنا على ذلك.

فيه كثير على الإمام، ولهذا لم نعدها في مؤلفاته، وأما الإمام عبد الله بن حمزة فقد سمعت نقله عنه في (الرسالة الناصحة) وثناءه عليه وكلام هذا الإمام في كتاب (الرحمة) وغيره من روايات السيد العالم الكبير حميدان بن يحيى القاسمي يقضي بأن مذهبه وعقائده عقائد الإمام الهادي وابنه المرتضى، وهي التي ارتضاها الله لعباده، وتبرأ إلى الله من كل ما نسب إليه خلاف ذلك، ولعله لبّس على الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان لكثرة أعدائه في ذلك العصر، وقد كان كثير التشكي من المحرفين لكلامه، ومع ظهور الحامل فلا يؤخذ بالنقل وإن بلغ أي مبلغ، فهذا أمر عسير، والهجوم عليه بغير بصيرة جرم خطير»[1].

وبالرغم من تحامل الدكتور علي محمد زيد على بعض أئمة الزيدية أحياناً، إلا أنه قد دافع عن الإمام الحسين بن القاسم العياني في كتابه (تيارات معتزلة اليمن في القرن السادس الهجري) قال فيه عنه: «وقد نسب إليه الكثير من الأقوال الغريبة، منها ما قاله الحجوري من أنه ادعى أنه يوحى إليه، فاعترض عليه، أحد شعراء عصره قائلاً:

يا مدعي الوحي إن الوحي قد ختما

بالمصطفى فأزح عن نفسك الوهما

لكن الحجوري إنما يكتب في القرن السابع الهجري، وربما عن غير اطلاع على مؤلفات الحسين بن القاسم في علم الكلام، وهي مؤلفات تضيف لأول

(١) التحف: ٢٠٣.

مرة منذ الإمام الهادي شيئاً جديداً إلى علم الكلام المعتزلي[1] في اليمن، وتحتاج إلى دراسة خاصة بها» ويستطرد قائلاً: «ولأن المؤرخ - يعني الحجوري - يكتب بعد ما يقرب من ثلاثة قرون من الحدث، فإن الحيطة والتروي تقتضيان القول أن هذه الأقوال قد تكون منسوبة إليه على سبيل التحريض في الصراع السياسي الدموي الذي خاضه في مواجهة خصوم عديدين وهو صراع انتهى بمقتله في تلك المعارك»[2].

وقد قام الأخ عبد الله بن يحيى بن زيد الحوثي بتأليف رسالة مفيدة في الدفاع عن الإمام الحسين بن القاسم العياني - رحمه الله تعالى - جمع فيها أقوال القادحين والمنافحين، وقد أسماها (الإمام الحسين بن القاسم العياني بين قادح ومنافح)، وهي في طور الإعداد للطبع.

هـ - شبهة مخالفته لما عليه أهل البيت عليهم السلام

وقد ظن البعض أنه قد خرج في بعض المسائل عن منهج أهل البيت عليهم السلام ، لكنا نجده ﷺ يؤكد على التمسك بأهل البيت، وخصوصاً اتباع منهج الإمام الهادي، وابنه المرتضى عليهما السلام فيقول: «من أراد أن

---

(١) نجد الدكتور على محمد زيد يخلط بين الزيدية والمعتزلة، ويعتبرهما طائفة واحدة في كثير من كتاباته، وهذا غير صحيح، فالزيدية لها أسسها ومنهجها الخاص بها في علم الكلام، تبعاً لمنهج أهل البيت - عليهم السلام - وإن اتفقت معهم المعتزلة في بعض مسائل علم الكلام، فإنها - أي المعتزلة - قد اختلفت معهم في بعض المسائل الأخرى، وهنالك مؤلفات زيدية في التمييز بين الزيدية والمعتزلة منها كتاب: (اللآلئ الدرية شرح الأبيات الفخرية) للعلامة محمد بن يحيى القاسمي - تحت الطبع بتحقيقنا - وكتاب (حكاية الأقوال العاصمة من الإعتزال) للسيد العلامة الكبير حيدان بن يحيى حيدان، وغيرهما.

(٢) تيارات معتزلة اليمن في القرن السادس الهجري: ٢٠، ٢١.

يستفيد من خاتم النبيين ومن أمير المؤمنين فليقف على ما وضع الهادي إلى الحق صلوات الله عليه، وكذلك ما وضع المرتضى لدين الله عليه السلام من العدل والتوحيد والحلال والحرام، وغير ذلك من شرائع الإسلام، لأنهما أخذا العلم الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يلتفت إلى اختلاف المختلفين، ولا يعتمد على أقاويل القائلين، فإني وطئت من العلوم مهجها، واعتزلت ـ والحمد لله ـ همجها، فما رأيت علماً أشفى، ولا أبين، ولا أكفأ، مما أتيّا به من خالص الدين، ومحض اليقين، رواية عن خاتم النبيين وسيد الأولين والآخرين، أخذاه عن آبائهما، وحفظاه عن سلفهما، أبا فأباً، وجداً فجداً، حتى ينتهي إلى الأصل أمير المؤمنين، عن سيد المرسلين، عن الروح الأمين وإخوانه الملائكة المقربين، عن الله رب العالمين وفاطر السماوات والأرضين، فالحمدلله الذي جعلنا من المقتدين ومن علمهما مستفيدين، فمن علمهما استقيت، وبهداهما اهتديت، وبهما في جميع الأمور اقتديت، وفي آثارهما مشيت»[1].

فيا ترى هل نقبل بعد هذا قول قائل؟! أو تحليل متعسف مائل؟ بعد أن عرفنا ما حيك ضده من افتراءات باطلة، وأكاذيب واضحة.

ولله در القاضي العلامة محمد بن جعفر بن الشبيل غالبية حيث قال: «لما سمعت من السيد الشريف الفاضل حيدان بن يحيى هذه المجموعات التي جمعها، وذلك بعد أن نسختها من الكراريس التي بخطه، ومن جملتها هذا الذي من كلام مولانا الإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم ـ سلام الله عليه

(١) منهج الحكمة (خ).

ورضوانه ـ قلت فيه عليه السلام أبياتاً، وهي هذه:

هـــــذا إمـــــام عـــــالم عامـــــل
أبـــــرأ إلى الـــــرحمن مـــــن بغضـــــه
ومـــــن مـــــوالاة لأعدائـــــه
ومـــــن غلـــــو فيـــــه أو رفضـــــه
قـــــف واتـــــق الله إلـــــه الســـــماء
يـــــا أيهـــــا الطـــــاعن في عرضـــــه
إن تـــــك منـــــه اليـــــوم مستقرضـــــاً
ففـــــي غـــــد تســـــلم مـــــن قرضـــــه
أديـــــن أن الحـــــق مـــــا قالـــــه
مـــــن صـــــفة البـــــاري ومـــــن فرضـــــه
وأن مـــــن في فضـــــله قـــــد غـــــلا
أكـــــبر جرمـــــاً مـــــن ذوي بغضـــــه
فخـــــف إلـــــه الخلـــــق يـــــا مـــــن غـــــلا
في خلـــــط مـــــا قـــــد شـــــبت في محضـــــه
مثـــــل ابـــــن غطريـــــف الـــــذي لم يقـــــل
في كلـــــه الحـــــق ولا بعضـــــه
قـــــال ابـــــن غطريـــــف الـــــذي قالـــــه
فشـــــمر المهـــــدي في نقضـــــه

فـــــرد مـــــا قـــــال ولم يرضـــــه
إذ أســـــخط الله ولم يرضـــــه
صـــــلى عليـــــه الله مـــــن راحـــــض
طـــاب وطـــاب الـــدين مـــن رحضـــه

وحرصاً مني على معرفة ما أثير حوله من الشبهات فقد وضعت في آخر هذا المجموع كتاب (بيان الإشكال) للسيد العلامة الكبير حميدان بن يحيى حميدان رحمه الله تعالى وقد حققته وهو حالياً تحت الطبع.

شهادات تاريخية

وقد أثنى عليه عدد من الأئمة والمؤرخين منهم:

١- الإمام عبد الله بن حمزة قال: «وكان عليه السلام طبقة زمانه علماً، وكرماً، وزهداً، وخشونة، وعبادة، وشجاعة، قام ودعا إلى نفسه فبايعه المستبصرون من أهل زمانه، فسار في الرعية أحسن سيرة، وأجاب كل سائل، وبسط العلوم، وصنف كتباً كثيرة في التوحيد، والعدل، شهرتها تغني عن تعيينها بالذكر، وفسر القرآن تفسيراً جامعاً، ونشر الكلام في فضل أهل البيت عليهم السلام في أكثر هذه الكتب».

[شرح الرسالة الناصحة للإخوان: ٤٠٠]

٢- العلامة الكبير، الهادي بن إبراهيم الوزير قال: «كان من عيون العترة في زمانه، وتيجانهم المكللة في أوانه، مشهور بالعلم والعبادة، معروف بالفضل والزهادة، وله عليه السلام التصانيف الرائقة في علم الكلام، والكتب الفائقة على مخالفي العترة عليهم السلام وهي كثيرة، قيل: إنها إلى ثلاث وسبعين تصنيفاً، منها: (المعجز) ـ في علم الكلام ـ و (الرد على

الفضائية) وغيره من كتبه في العلوم الكلامية، ومنها (تفسير) كامل سلك فيه الطريق الوسطى، وأضحى قدحه المعلى، وهو من أوضح الأدلة على علمه وتوسعه في الفنون كلها، وله في اللغة العربية اليد البيضاء، وكتاب تفسيره يشهد له بما قلناه».

[هداية الراغبين: ٢٩٥].

٣- الإمام حميدان بن يحيى حميدان قال: «فإنها لما صحت لنا إمامة الإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم عليه السلام لأجل تكامل شروط الإمامة المعتبرة في كل إمام، ولما خصه الله تعالى به من الفضائل والخصائص المشهورة، ولما وضح على حداثة سنه من العلوم الباهرة الكثيرة، ولحسن سياسته وسيرته، وظهور عدله ولطفه برعيته، واستظهاره بما أوضح من الأدلة الدامغة لجميع مخالفيه».

[الحدائق الوردية: ٢/١٢٠]

٤- المؤرخ الولي، الشهيد حميد المحلي ـ رحمه الله تعالى ـ قال «كان من عيون العترة في زمانه، وتيجانهم المكللة في أوانه، برز في العلم حتى فاق أهل عصره، وسبق فيه أبناء دهره، وهو غصن خلافة نضير، وروضة فضل وغدير، مشهور بالزهادة، معروف بالعبادة، له التصانيف الرائقة في علم الكلام، والكتب الحسنة في مخالفي العترة عليهم السلام».

[الحدائق الوردية: ٢/١٢٠-١٢١].

٥- السيد العلامة الحجة، مجد الدين المؤيدي ـ حفظه الله تعالى ـ قال «وكان من كبار علماء الآل، وله آثار جمة، وانتفع بعلومه الأئمة، بلغ في العلوم مبلغاً تحتار منه الأفكار، وتبتهر فيه الأبصار على صغر سنه، فلم يكن عمره يوم قيامه عليه السلام إلا سبع عشرة سنة».

[التحف شرح الزلف: ٢٠٢]

٦- المؤرخ حسين بن أحمد العرشي قال «هو الإمام الذي لا يجارى في مضمار، ولا يشق له غبار، صاحب الفصاحة الناطقة، والأقوال الصادقة، والبلاغات الخارقة، والأفكار الفائقة، المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي».

[بلوغ المرام: ٣٥]

٧- المؤرخ العلامة، محمد بن علي الزحيف قال « وقد كان من أعيان الأئمة في تلك الأعصار، ومن المبرزين الكبار في كل علم حوته المصنفات والأسفار، والسابقين في ذلك المضمار، فله التصانيف الرائعة في علم الكلام، والكتب الفائقة على مخالفي العترة عليهم السلام وهي كثيرة، وكانت شجاعته معروفة، ومواقفه موصوفة».

[مآثر الأبرار: ٢/٧١٠]

٨- المؤرخ عبد الواسع الواسعي قال: «وقد أحرز من علوم الإسلام كثيراً، وحصرت مؤلفاته مائة مصنف، واعتقد بعض جهال الشيعة لما كان عليه من العلم والفضل أنه المهدي المنتظر، وأنه لم يمت».

[تاريخ اليمن: ١٩٠]

وفاته

وبعد حياة حافلة بالعطاء،والتضحية، والفداء،استشهد -سلام الله عليه- سنة ٤٠٤ هـ بوادي عَرَار،ومشهده بـ(ريدة)[1] مشهور مزور.

قال الشهيد حميد المحلي: «وروى الثقات أن قاتله ﷺ قُربت إليه نار

(١) عَرار: بفتح العين، بلدة من ضواحي رَيْدة، ورَيْدة تقع في الجزء الشمالي من العاصمة صنعاء، على بعد: ٤٩ كم.

ليتبخر بها، فاحترق بها، ويحق له وهو من المناضلين عن الدين، المجاهـدين في سبيل الله رب العالمين»[1].

مصادر ترجمته

- الحدائق الوردية: ٢/ ١٢٠-١٢١.
- مآثر الأبرار: ٢/ ٧٠٩ ـ ٧١٤.
- هداية الراغبين: ٢٩٥-٢٩٧.
- تيارات معتزلة اليمن: ٢٠-٢٤.
- أعلام المؤلفين الزيدية: ٣٨٤-٣٨٧.
- اللآلئ المضيئة ـ خ ـ .
- الترجمان ـ خ ـ .
- غاية الأماني: ٢٣١-٢٣٩.
- بلوغ المرام: ٣٥-٣٦.
- فرجة الهموم والحزن: ١٧٤.
- أئمة اليمن: ٨٣-٨٦.
- إتحاف المهتدين: ٥٠.
- التحف شرح الزلف: ٢٠٢-٢٠٥.

(١) الحدائق الوردية: ٢/ ١٢١.

- الأعلام: ٢/ ٢٧٤.
- الفلك الدوار: ٥٩.
- تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي: ١/ ٢٧٣.
- روضة الحجوري ـ خ ـ.
- تاريخ اليمن: ١٩.. وغيرها.

وفي الأخير: أسأل الله العلي القدير أن يرحم المؤلف وأن ينفع برسائله هذه الرائعة، وأن يوفقنا جميعاً إلى طريق الهدى والرشاد، والخير والسداد.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الأمين وعلى آله الطاهرين

والحمد لله رب العالمين

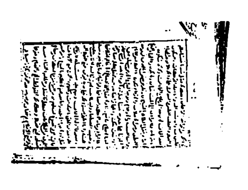
عبد الله بن حمود بن درهم العزي

اليمن ـ صعدة

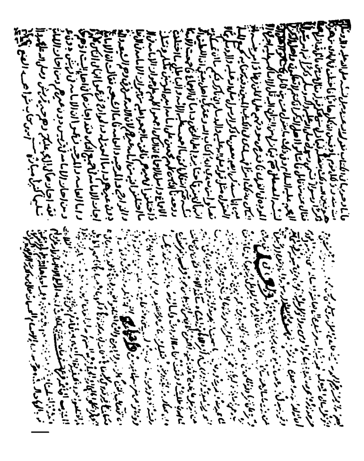
٢١/ ١١/ ١٤٢٧هـ الموافق ١١/ ١٢/ ٢٠٠٦م

نماذج من المخطوط

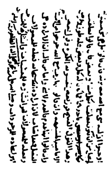
الصفحة الأولى والأخيرة من النسخة (أ)

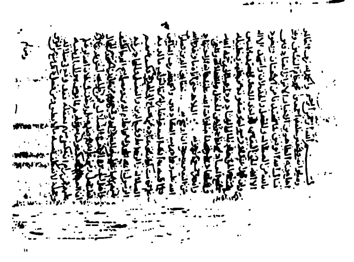


الصفحة الأولى والأخيرة من النسخة (ب)



الصفحة الأولى والأخيرة من النسخة (ج)





الصفحة الأولى والأخيرة المعتمدة في القسم الثاني



القسم الأول

ويشتمل على الكتب التالية:

١- كتاب المعجز الباهر للعدل والتوحيد لله العزيز القاهر
٢- كتاب الرد على عبدة النجوم وغيرهم من فرق الملحدين
٣- كتاب الطبائع.
٤- كتاب شواهد الصنع والأدلة على وحدانية الله وربوبيته.
٥- كتاب الرد على الملحدين وغيرهم من فرق الضالين
٦- كتاب التوحيد والتناهي والتحديد (جزءان).
٧- كتاب التوكل على ذي الجلال والرد على المشبهة الضلال





كتاب
المعجز الباهر
في العدل والتوحيد لله العزيز القاهر

- الأدلة العقلية الدالة على وجود الله تعالى.
- الرد على الزنادقة والملحدين.
- الرد على الفضائية.
- الدليل على حدوث الهواء.
- الدليل على حدوث الأجسام.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين، حسبي الله ونعم الوكيل، أسأل الله التوفيق لهدايته، وأسترشده إلى طاعته، وأسأله النجاة برحمته، وأعوذ به من خذلانه، وأهرب إليه من عصيانه، وأؤمن به وأتوكل عليه، وأفوض أمري جميعه إليه، وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأن وعده ووعيده حق، وقوله سبحانه صدق، وأنه عدل في جميع أفعاله، صادق في جميع أقواله.

وبعد.. يا أخي فقد سألت عن أفضل ما سأل عنه سائل أو قال به من الناس قائل، عن الدليل على الله سيدنا وربنا وخالقنا، والرد على الزنادقة الملحدين، الكفرة الفجرة الجاحدين، أهل الحيرة والعمى ، المتلددين الضالين، البكم العمي، أشباه البهائم العجم التي لا تعقل من الأمور إلا ما رأت وجاهرت، ولا تعرف إلا ما شاهدت ونظرت، ولا تميز إلا ما سمعت وأبصرت، ولا تفرق بين الباطل والحق، ولا تميز المحال من الصدق، أولئك فهم أكثر الأنام، وأشباه سائمة الأنعام، فكان مما سألت عن الدليل على هذه الفضائية الكفرة، الأغالف الأرجاس الفجرة، وقد ظفرت إن شاء الله بما طلبت، ووفقت بمن الله لما أردت، فأسأل الله أن يزيدك إلى هداك هدىً، وأن يجعلك راشداً مرشداً، فقليل من الناس من يستدل على الحق بأدلته، ويجتهد في فكاك رقبته، إذ كانوا عن الله ذاهلين، ولسبب النجاة جاهلين، ولو طلبوا الحق من أهله لوجدوه، ولو سألوا عن مغرسه لما عدموه.

[بطلان القول بقدم الهواء]

واعلم يا أخي فهّمك الله وأرشدك، وهداك وسددك، أن الفضائية الجاهلين أهل الكفر والحيرة والعمى اختلفوا بغير برهان، ولا هداية ولا بيان، فتكلمت كل فرقة بوحي شياطينها، وقالت في الله بخذلانها وعصيانها، فأجمعوا كلهم على الجهل، وتكلموا بالمحال والخبل، فزعموا -لعنهم الله- أن الفضاء الهواء المكان الذي فيه الأشياء قديم.

ثم اختلفوا بعد ذلك فيه، فقال أكثرهم: هو شيء قديم ليس بخالق ولا مخلوق، إلا الفرق الثلاث المشبهة الهالكة، فزعمت فرقتان من هذه الثلاث أنه هو الله العلي الأعلى تبارك الله عن قولهم وتعالى.

ثم اختلفتا في ذلك في عمايتهما وتكمهما في جهالتهما، فزعمت إحداهما أنه جسم طويل عريض عميق، تحويه الجهات الست، وهو جسم لا كسائر الأجسام المجسمات، تعالى عن ذلك رب الأرضين والسماوات.

وزعمت الفرقة [الثانية][1] أنه ليس بجسم من الأجسام وأنه ليس له نهاية ولا له حد ولا له غاية ولا أمد[2] إلا الفرقة الثالثة فهي من الزنادقة، وجحدوا وأبطلوا صنع الله له، واستحقوا في حكم الله العذاب، وخرجوا من الإسلام لجحدهم لصنع ذي الجلال والإكرام، وسنذكر إن شاء الله فساد ما نطقوا به من المحال، وفاحش ما أتوا به من المقال.

(١) في المخطوط (الثالثة) ولعل الصواب ما أثبته بين المعكوفين لاستقامة الكلام.
(٢) يعني جعله أبدي أزلي.

فأول ما نـذكره مَن جحده بعمى فكره الضال فقال: ما الفضاء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: هو الهواء، المكان الذي فيه الأشـياء(*)، والموجـود عنـدنا فهو كل ما سميّ وقصد، والعدم فيستحيل أن يوجد، فلو كان الفضـاء عـدماً لما استحق ذكراً ولا اسماً، وأيضاً فإنا نجده ظرفاً والعدم لا يستحق وصفاً.

وإن أمسك عن السؤال وجحد فعل الله بالمقال.

قيل له ولا قوة إلا بالله: أخبرنا عن المعدوم، هـل يوصـف أو يحس فيـدرك أو يعرف؟

فإن قال: نعم، جعل العدم وجوداً واستغنى بجهله عن مناظرتـه، وإن رجـع عن ضلالته وكفره وعمايته فقال: لا يوصف العدم ولا يعرف.

قيل له: فأخبرنا هل بين الأرض والسماء مسافة أم لا؟

فإن قـال: لا، بأن جهله، وكـابر لبـه، وأنكـر عقلـه، ولم ينـاظره بعـد ذلـك إلا مثله.

وإن قال: نعم، فقد أقر بالمسافة صاغراً.

ودليل آخـر: يقال له: أخبرنا عن أعلى المكان الـذي بـين السـماء والأرض

(*) مثل استخدام العقل وتقديمه عند أئمة الزيدية بشكل متزايد آفاقاً رحبةً، حيث أن الاستدلال بكثير من الظواهر بغرض الوصول إلى توحيد الباري أفرز الكثير من المداخل العلمية التي تصلح أن تكون نوى لكثير من العلوم(فلك، فيزياء...) فللإمام علي عليه السلام قراءته للكون، وللإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام في مناظراته كثير من الومضات كذلك الإمام أحمد بن سليمان عليه السلام فقد أثبت الكثير من أسرار الصوت وكيفية انتقاله وكذلك تحدث حول كروية الأرض واستدل على ذلك منطقياً، وصولاً إلى قمة النضج العلمي عند المهدي أحمد بن يحيى المرتضى عليه السلام حين تناول كروية الأرض بشكل جملة خبرية مسلم بها (والأرض كروية...)

أقريب أم بعيد أم ليس بقريب ولا بعيد؟ فإن جحد المعنيين جميعاً أكذب نفسه دون إكذاب غيره، وإن قال: إنه قريب، فهذا ما لا يقول به لبيب.

وأيضاً فإنه مع كذبه وادعائه لقربه قد وصفه وأقر بـه، وإن قـال: بـل هـو بعيد، أقرّ به صاغراً لأن البعد موجود غير معـدوم والقـرب والبعـد صـفتان معروفتان ولا تكون الصفة إلا لموصوف ولا المعرفة إلا لمعروف.

[وإن] رجـع في عمايتـه ومريتـه، وشـكه وحيرتـه، فقـال: إنمـا البعـد صفة للسماء.

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعـلم أنا لم نسألك عن بعد السـماء ولا عـن قربهـا وإنما المسألة عن بعد أعالي الأجواء.

ودليل آخر يقال له: أخبرنا عن المكان المتصل بالأرض أهو المكـان المتصـل بالسماء أم لا؟

فإن قـال: هو هو، جعل الأرض سماءً والسماء أرضاً، وإن قال: بل المكـان المتصل بالأرض غير المكان المتصل بالسماء.

قيل له ولا قوة إلا بالله: فإذا كانا مكانين متغايرين فقد أقـررت بوجودهمـا، إذ كان كل واحد منهما غير صاحبه، والعدم لا يوصـف بصـفة ولا صـفتين، ولا يكون جزءاً ولا جزئين.

ودليل آخر يقال له: أخبرنا عن المكان المتصل بالسماء أهو متصل بها أم لا؟

فإن قال: لا، بان كذبه.

وإن قال: نعم.

قيل له: فقد أقررت بأنه شيء؛ لأن العدم لا يوصف بالاتصال والانفصال.

ودليل آخر يقال له: هل الموضع المتصل بالسماء مرتفع أو متضع؟ **فإن قال**: ليس بمرتفع كذب، **وإن قال** بل هو مرتفع شامخ بعيد، **قيل له**: قد أقررت بسموه وارتفاعه، ونفيت ما سألناك عنه من اتضاعه، والعدم لا يوصف بارتفاع ولا اتضاع.

ودليل آخر يقال له: أخبرنا عن المكان الذي يلي السماء والأرض أهو عندك مفترق أو مجتمع؟ **فإن قال**: بل مجتمع، **قيل له**: فالعدم عندك مجتمع.

ودليل آخر يقال له: أخبرنا عن الهواء أمسموع عندك أم مبصر؟ **فإن قال**: مسموع، كذب وأقر بغير الحق، **وإن قال**: بل مبصر، **قيل له**: والعدم مبصر.

ودليل آخر يقال له: أخبرنا عن المكان أمتحرك أم ساكن؟ **فإن قال**: لا متحرك ولا ساكن، بان خلله؛ لأن الموجود هو ما وصف من الأشياء، وقد بينا صفاته، وإذا صح وجوده لم يوجد إلا لابثاً واللبث هو السكون والهدوء والمقام.

ودليل آخر: يقال له: أخبرنا عن الفضاء أهو ضعيف أم قوي؟ **فإن قال**: إنه قوي، كذب؛ لأنه يضعف عن حمل الذرة فما دونها وإذا ضعف فالضعيف موصوف بالضعف وما وصف فهو شيء.

ودليل آخر: يقال له: أخبرنا عن الجسم الموجود والشبح المحدود كم حدوده؟ فإن كان جاهلاً لم يجب، وإن كان عالماً أجاب فقال: الجسم تحويه الجهات الست الفوق والتحت واليمين والشمال والخلف والأمام، فيقال له: أخبرنا عن هذه الجهات أهي شيء أم لا شيء، **فإن قال**: شيء صدق، **وإن قال**: لا شيء بان خلله وصح غباه وجهله لأن الجهات ست والعدم ليس بواحد ولا اثنين ولا جهة ولا جهتين.

ودليل آخر: يقال له: أخبرنا عن ما يحاد الأرض من المكان أهو عندك أسفله أم أعلاه؟ فإن قال: ليس بأسفله ولا أعلاه كذب وأحال وكان من أجهل الجهال، وإن قال: بل أعلاه كذب في المقال، وإن رجع إلى الحق فقال: بل أسفل المكان يحاد الأرض وأعلاه يحاد السماء قيل له: يا سبحان الله فشيء له أسفل وأعلى يكون عندك عدماً؟!.

وهـذا الرد على من قال بإبطال صنع الله الجليل فهو مما لا تنكره العقول، وإنما هلك فيه من هلك لأنه خلق لطيف[1]، فيه من تـدبير الله مـا يـدل علـى حكمـة صانعه، وذلك أنه أصل حياة المخلوقين، ودليل على جميـع صـنع الله في العـالمين، وإثبات السماوات والأرضين، فلو عدمـه الحيـوان لهلـك ولـما بقـي بعـد عدمـه، فسبحان المدبر الخالق المصور عما يقول الجاهلون وينسب إليه الضالون.

[الصفات الإلهية]

وأما الفرقتان اللتان زعمتا أنه قديم مع الله السميع العليم فتعـالى الله عـن قولهما وتقدس عن كفرهما، بل هـو الخـالق البـاري المصـور، الحكـيم العـالم المدبر، الذي لا تدركه الأبصار، وهـو يـدرك الأبصـار وهـو اللطيـف الخبير السميع البصير، العليم القدير، الواحد الأحد، الفرد الصمد، لم يلد، ولم يولـد ولم يكن له كفواً أحد، فهو لا إله إلا هو بعيد عن مشابهة المخلـوقين، جليـل عن مماثلة المربوبين ليس له حد به يحـد، ولا بـذي أجـزاء تعـد، ولا لـه غايـة ولا أمد، ولا له صفة من الصفات، ولا يدرك بالأوهام الجـائلات، ولا يمثـل

(١) يشير رحمه الله تعالى إلى أهمية الهواء وضرورته للمخلوقين جميعاً.

بالمصنوعات، ولا يشبهها في شيء من الحالات، واحد متفرد، قديم حي صمد، لا يدركه أحد، ولا يحويه أمد، ولا يقع عليه عدد، ولا يبيده أبد، ولا يدركه بصر، ولا يلحقه نظر، ولا يلم به فكر، ولا يجول عليه الوهم، ولا يجوز عليه العدم، ولا تختلف عليه الهمم، ولا يغيره زمان، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تختلف عليه الأصوات، ولا يغشاه النور ولا الظلمات، ولا يقع عليه حس، ولا ظن ولا نفس، ولا يعتريه مرية، ولا شك ولا حيرة، ولا تمييز ولا فكرة، ولا يخاف الفوت، ولا يذوق الموت، ولا ينسى ولا يضمر، ولا يعتقد ولا يفكر، ولا يوصف بالبداء ولا الضلال ولا الغلط، ولا يسهو ولا يغفل، ولا يلهو ولا يعجل، ولا يخاف ولا يجهل، ولا يحتاج إلى المهل، ولا يخطي ولا يزل، ولا يمل ولا يكل، ولا ينام ولا يفتر ولا يهن، ولا يحب ولا يبغض، ولا يريد ولا يعرض، ولا يسقم ولا يمرض، ولا يشغل عن التدبير، ولا يقضي بالفساد، ولا يظلم العباد، ولا يأمر بالفجور، ولا المظالم ولا الشرور، وليس بمفترق ولا مجتمع، ولا متحرك ولا ساكن، ولا شبح محدود، ولا جسم معمود، ولا عدد معدود، ولا حركة ولا سكون، ولا لون ولا طعم، ولا رائحة ولا محسةولا طول ولا عَرْض، ولا جسم ولا عرَض، ولا داخل في الأشياء ملابس، ولا حائل ملامس، ولا حس ولا محس، ولا ملموس ولا لامس، ولا بذي يمين ولا شمال، ولا خلف ولا أمام، ولا فوق ولا تحت، ولا زوال ولا انتقال، ولا طباع، ولا افتراق ولا اجتماع، ولا تحير ولا اختيال، ولا بذي كيد ولا احتيال، ذو العظمة والجلال، والجود والإفضال، والجلال والإكرام، والحلم والإنعام، والحكمة والسلطان، والنور والبرهان، الواحد الأزلي، القيوم العلي،

الخالق للظلمات والنور، والظل والحرور، الحكيم المدبر، العليم المقدر.

عجزت عن دركه الأبصار، وضلت عنه الظنون والأفكار، ولم تحوه الأقطار، ولم يحط به الليل والنهار، ولا تعتقده القلوب والأضمار، ولم تخف عليه الأسرار، ولم يحتجب عن الأبصار بحجاب، ولا ببعد ولا اقتراب، ولا أنوار ولا ظلمات، ولا أرضين ولا سماوات.

وسنعود إلى ذكر هاتين الفرقتين المشركتين بالله المشبهتين.

[الدليل على حدوث الهواء]

فإن سأل منهم سائل فقال: ما الدليل على حدث الهواء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على حدثه أنا وجدناه جسماً مجتمعاً ولا بُدّ لكلّ مجموع من جامع، ومفتطر صانع.

ودليل آخر: أنا وجدناه جسماً ضعيفاً، ثم وجدنا هذه الأجسام الثقال مثبتة فيه فعلمنا أن الضعيف عن حمل حبة الخردل أعجز عن حمل غيرها من السماوات والأرضين، والخلق أجمعين، ولا بد له من مضعِّف أضعفه، وأدق خلقه وألطفه، وإلا فما الذي جعله ضعيفاً دون أن يكون قوياً، وما الذي جعله مواتاً دون أن يكون حياً، وما الذي جعله ساكناً دون أن يكون متحركاً مستمراً، وما الذي خالف بين حركاته وسكونه وخالف بين أعراضه وعينه والقديم فيجب أن يكون مؤتلفاً ويستحيل أن يكون مختلفاً وإلا فما الذي خالف بين صفاته، وفرق أحواله إلى ذاته.

ودليل آخر: ومنهم مقرون بالقرآن قول الله عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾[الأنعام:١٠٣]، والهواء فهو يبصر ويدرك.

ودليل آخر: قول الله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾[البقرة:٢٥٥]، وقوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[طه:١١٠] فقال عز وجل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ﴾ والهواء فيحاط بعلمه.

[وجود الكون]

وسنذكر إن شاء الله من الدليل على حدثه ما فيه مقنع لكل مسترشد وقطع لكل معاند ملحد، فنقول ولا قوة إلا بالله: إن الهواء أول ما خلق الله عزّ وجلّ والله أعلم وأحكم، ثم نقول: إن الله ألبسه الظلمات والنور، فلم يخل من الزمان طرفة عين منذ خلقه الله عزّ وجلّ، ولم يكن الزمان في حال خلق الله للهواء ليلاً ولا نهاراً(*)، وإنما دلنا على أنه لم يخل من الزمان أنا نظرنا إلى كل مخلوق فإذا هو لا يخلو من الحركة والسكون، وإذا الحركة والسكون لا يوجدان إلا في أقل قليل الأوقات، ولا تكون الحركة إلا في وقت ولو قل، وكذلك السكون، والدهر فهو عرض خلقه الله مع الهواء فلم يسبق أيهما الآخر إلى الوجود طرفة عين فما دونها.

ثم أتت الأخبار بأن الله خلق بعده الماء والرياح والنار، ثم خلق جميع الخلائق من هذه الأصول فانظر أي القولين أولى بالحق والصواب وأقرب

* لاحظ أسلوب الإمام العالم كيف حسم قضية التصارع حول: هل وجد الكون في الزمان أم وجد مع الزمان.

إلى شهادة الألباب، وأبعد من الشك والارتياب، أقَوْلُ من قال إنه قديم بغير دليل؟ أم قول من شهدت له محكم العقول، ورجعت إلى قوله بالقبول لصنع الواحد الحكيم الجليل، لا تجد لذلك دفعاً، ولا بعده مقنعاً، ولا تملك له أبداً منعاً، إلا بالمكابرة والجدال، والزور والجحد والمحال، والحيرة والمرية والضلال، فانظر إلى أولى المعنيين بالحق فهما غير متقايسين في الصدق، فاقبل أصدقهما وأوضحهما دليلاً وأحقهما، وفي ذلك من الدلائل ما لا يدفعه لبيب، غير أنا نميل إلى الاختصار والإيجاز.

[حدود الهواء وجهاته]

فإن سأل سائل فقال: فهل له حدود يتناهى إليها؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: حدوده انقطاعه وعدمه.

فإن قال: فهل له جهات؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: ليس له جهات تحويه، لأن بعضه جهات لبعض، فأعلاه جهة لما دونه، وأسفله جهة لما فوقه، ووسطه جهة لجوانبه.

فإن قال: فإذا قد حددته فقد غايرت بين حدوده وإذا غايرت بين حدوده فقد جعلتهما أماكن، وإذا جعلتهما أماكن فقد أبطلت نهايته؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أيها السائل أني ذهبت إلى شيء لم تذهب إليه، واعتمدت على ما لم تعتمد عليه، وذلك أنك ظننت أني حددته بجهات غير حدوده، وهذا محال؛ لأني قد نفيت ذلك في مسألتك عن الجهة، وإنما معنى قولي: له حدود، أريد بذلك أن منقطعه من أسفله غير منقطع أعلاه، ومنقطع جوانبه غير

وسطه، وليس لجوانبه وراء، ولا لأسفله تحت، ولا لأعلاه فوق أصلاً.

فإن تردد في حيرته فقال: فإذا كان له أعلا فكيف لا يكون له فوق، وإذا كان له أسفل فكيف لا يكون له تحت؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأنه لو كان له فوق لكان للفوق فوق إلى ما لا نهاية له، ولو كان لأسفله تحت لكان للتحت تحت إلى ما لا نهاية له، وهذا محال.

فإن قال: ومن أين أبطل ذلك عندك؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: بطل من أجل الدلالة التي ذكرنا لك، وأما قولك أني غايرت بين حدوده فلعمري لقد غايرت بين أسفله وأعلاه، ولم أقل لك له جهات سواه.

فإن قال: فكيف يكون شيء محدود له أسفل وأعلى ووسط وأجزاء، لا جهات له، ولا يحويه شيء غيره؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لا يستنكر ذلك من فعل أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، وأكرم الأكرمين، وأعظم الأعظمين، وأرحم الراحمين، ورب العالمين، وفاطر السماوات والأرضين، ومسبب الخيرات، وأقدم الموجودين، ورب الأرباب، وسبب الأسباب، وأحب الأحباب، وخير الأصحاب، حرز من لا حرز له، وكنز من لا كنز له، وآنس من صحب، وخير من أحب، وأرأف معبود، وأحمد محمود، وأجل مقصود، وأصح موجود، وأقرب مسؤول[1]، وأفضل مطلوب، وأول الأوائل، وأفضل الأفاضل، وأفصل فاصل، وأوصل

(١) وفي نسخة أخرى: مصمود.

واصل، وأقدم القدماء، وأحكم الحكماء، وأعلم العلماء، وأحسن الخالقين، وخير الرازقين، وأصدق الصادقين، وأسرع الحاسبين، وأقرب الأقربين، ومنج الطالبين، وملجأ الهاربين، وأحب المحبين، وأشفع الشافعين، وأصنع الصانعين، ومفزع الفازعين، ومقنع القانعين، ومرجع الراجعين، وأسمع السامعين، وأصدق المخبرين، وخير الخابرين، ومجيب المضطرين، وخير الغافرين.

فإن رجع إلى مقالته فقال: أخبرني فهل يحويه شيء أم لا؟ وهل لأعلاه فوق من الأشياء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: ليس يحويه شيء أصلاً، ولا لأعلاه فوق من الأشياء.

فإن رجع إلى السؤال بجهله، وكابر حجة عقله فقال: وما أنكرت من أن يكون العدم فوقه وحواليه وتحته؟

قيل له ولا قوة إلا بالله الجليل: كلامك هذا متناقض عند أهل العقول لأنك قلت يحويه العدم والعدم لا شيء، ولا شيء لا يحوي شيئاً، لأن الذي يحوي هو مكان، والمكان موجود بأبين البيان، فأوجبت أن العدم شيء من الأشياء، وأنه مكان للهواء وهذا مما لا يقول به من عقل ووعى.

فإن رجع في حيرته وتردد وكابر معقوله، وألحد فقال: ما العدم الذي وراء الهواء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: كلامك هذا من أحول المحال وأبطل ما قيل به من المقال وأفسد الفساد وأضل الضلال، لأنك سألت عن لا شيء، وليس عن العدم سؤال ثم لم ترض أن سألت عن المحال حتى زعمت أن للهواء وراءاً قد أبطلناه غاية الإبطال فسؤالك عن الباطل زور وخبل، وتحقيقك للمحال ضلال وجهل، وتحكمك للظنون لعب وهزل.

باب الرد على من جحد الله[1]

وقال بقدم القول وغيره من الأشياء

قال المهدي لدين الله، الحسين بن القاسم صلوات الله عليه: **فإن سأل بعض الملحدين، أهل الحيرة المتمردين، فقال**: ما الدليل على حدث الهواء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على حدثه أنه لم يخل من الزمان طرفة عين، ووجدنا الزمان محدثاً، وهو حينئذ سكون الهواء، فعلمنا أن ما لم ينفك من المحدث ولم يوجد إلا بوجوده أن سبيله في الحدث كسبيله.

فإن قيل: وما الدليل على حدث الزمان؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على حدثه أن كل ساعة لها أول وآخر، وكل ليلة وكذلك كل يوم وشهر، فكلما حدثت ساعة انقطعت، فهذا دليل على حدث ما مضى من الزمان فقد انقطع وفني وما وقع عليه الانقطاع والفناء فقد تناهى بأبين البيان وأوضح البرهان.

فإن قال: وما أنكرت من الزمان أن يكون الزمان الذي هو سكون الهواء قديماً لم يزل على ما ترى ساعة تبقى بعد ساعة وساعة قبل ساعة إلى ما لا نهاية له.

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك؛ لأن قولك هذا لا يخلو من أحد وجهين:

[١] إما أن تكون عنيت به الزمان الذي انقطع ومضى وتصرم وفنى.

[٢] وإما أن تكون عنيت غيره.

---

(١) من هذا الباب إلى باب الدلالة على حدث الأجسام زيادة في النسخة (أ) وناقص في النسختين (ب،ج).

فإن كنت عنيت غيره فليس كلامنا إلا فيه، وإن كنت عنيته فكيف لا يتناهى عند من عقل من أهل النهى شيء قد وقع عليه الانقطاع والفناء، وما انقطع وفني فقد تناهى.

ودليل آخر: إما أن تكون عنيت بقولك كل ما فني ومضى من الزمان الذي هو سكون الهواء، وإما أن تكون عنيت ما بقي منه الآن، فإن كنت مريداً ما مضى منه وغبر، فقد أجبت نفسك من حيث لم تشعر، وإن كنت عنيت ما بقي من الدهور، وما هو يمر على الخلق ويدور من الساعات والأيام والليالي والشهور، فهاهو اليوم يمضي ساعة حادثة، ويحدث غيرها فكلها حدثت ساعة، فثبتت ساعة وتناهت، فهذا دليل على ما مضى من سكون الهواء ولا يزال ذلك أبداً بإبقاء الله تبارك وتعالى.

وسنزيد إن شاء الله بيانا ونوضح لك من ذلك هدىً وبرهاناً، ونسأل الله أن يوفقنا فنقول إن شاء الله: **ما تقول أيها السائل عن حدث الهواء أهو في ذلك عندك ساكن أم لا؟**

فإن قال ليس بساكن، كابر عقله واستغنى عن مناكرته بجهله، بأن الهواء لابث غير زائل، لا يمنع من لبثه عاقل، ولا يكابر فيه عالم ولا جاهل، وإن أقر بسكونه.

قيل له: أخبرنا أكله ساكن أم لا؟

فإن قال: إلا بعضه، كذب كذباً بيناً.

وإن قال بل هو ساكن كله فلكل نهاية وغاية لا تخلو من السكون والسكون يدل على تناهيه وتحديده؛ إذ لا يخلو منه، ألا ترى أن الشيء إذا لم يخل من صفته فذلك دليل على حدوده، كمثل اللون، والحركة والسكون، والمحبة، وغيرهن من الأعراض، والكلية والأبعاض.

فإن قال: وما أنكرت من أن يكون الساكن ساكناً إلى ما لا نهاية له؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: كلامك هذا محال باطل لا يقبله من الناس عاقل؛ لأن ما صحّ حدثه فهو كله محدث، ثم نقضت قولك بقولك: لا نهاية له؛ لأن الكل دليل على أنه لم يبق منه شيء حتى حدث بعد عدمه فبطل ما ادعيت من قدمه.

ودليل آخر: أن العقل لا يقع إلا على الكل والبعض، والطول والعرض ولا يخلو الهواء من أحد ثلاثة أوجه:

[١] إما أن يكون ساكناً كله.

[٢] وإما أن يكون بعضه ساكناً وبعضه متحركاً.

[٣] وإما أن يكون لا ساكناً ولا متحركاً.

فإن قلت: إنه لا ساكن ولا متحرك، جحدته وأبطلت ما بالقدم وصفته، بل إن كنت من المشبهة فقد عبدته.

وإن قلت: بعضه ساكن، وبعضه متحرك، فقد حددته وناهيته، وقسمته وجزأته، وأجملته وبعضته؛ لأنه إن كان على ما وصفت فهو على ضربين وجزئين موصوفين، متناهيين محدودين، وحالين مختلفين، متغايرين معروفين.

فإن قلت: إنه ساكن كله، فقد أقررت ـ صاغراً ـ إذ وصفته بالسكون فحددته؛ إذ لم يبق منه السكون شيئاً حتى جرى عليه ولم يذر منه قليلاً ولا كثيراً حتى وصل إليه، فانظر أي القولين أولى بالحق.

باب الدلالة على حدث الأجسام

ودليل آخر: يقال لمن قال بقدم الأجسام: أخبرنا ما أعظم الأجسام وأجلها؟ فلا بد أن يقول: الأرض والسماء.

فيقال له: أهما في الهواء أم لا؟ **فإن قال**: لا، كذب، وإن أقرّ بذلك صدق، ووجد الأجسام لا تنفك من الهواء، وما لم ينفك من الحدث ولم يوجد إلا بوجوده فهو مثله مكون بكونه.

فإن قال: وما أنكرت من أن تكون الأرض منحدرة سفلاً إلى ما لا يتناهى وكذلك السماء مصعدة؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: هذا محال باطل فاسد، وذلك أنهما مخلوقتان.

فإن قال: وما الدليل على ما ادعيت من حدثهما؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على حدثهما أنهما لم ينفكا قط من الهواء الذي بينهما، وقد أوضحنا حدث الهواء، فيما تقدم من كلامنا وما لم ينفك من المحدث ولم يكن قبله فسبيله في الحدث سبيله.

فإن قال: وما أنكرت من أن يكون الهواء حدث بعدهما، ولم يكن معهما ولا قبلهما، ولا هو في القدم مثلهما؟

قيل له، ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك لأن الأرض لم تخل من التحت ولم تخلُ من التباعد والتباين، ولم تخل السماء من الارتفاع، ولم تخل الأرض من الاتضاع، وما فوق الأرض فهو الهواء، وكذلك هو تحت السماء وهو المسافة

بينهما، وهو سبب تباعدهما وهو الفرق بينهما، وأيضاً فإنك مقر بأزلية تباينهما وهذا محال لما بينا من كونهما ووجودهما بوجود هذا الفضاء.

فإن قال: وما أنكرت من أن يكونا في حال أزليتهما غير مفترقين ثم افترقا؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: هذه حجة عليك لا لك احتججت بها على نفسك؛ لأن حدث الافتراق دليل على المفرق، وافتراقهما بعد اجتماعهما دليل على مفرقهما بعد جمعه، وتنقلهما دليل على صنعه.

ودليل آخر: أنك قلت: افترقتا، والافتراق لا يكون إلا في مكان كما وصفنا، وكذلك الاجتماع، ووجود المكان دليل على حدثهما؛ إذ لم يخلُ من هذا المكان المحدث الذي بينا حدثه، فيما مضى من كلامنا، وإذا لم يسبقه المحدث -أعني الهواء- أو لم يكونا قبله فسبيلهما في الحدث سبيله.

ودليل آخر: أنك قلت: افترقتا، والافتراق لا يكون إلا بعد الاجتماع، وإذا كان للاجتماع آخر فله أول، ويستحيل آخر بلا أول.

ودليل آخر: ألا ترى أنهما إذا كانتا لم تريا إلا مجتمعتين[1] ثم افترقتا، فقد بطل ما مضى من كثرة سكونهما واجتماعهما، ولا يخلو ـ هذا الباطل الذي بطل وهو سكونهما ـ من أن يكون بطل كله أو بطل بعضه.

فإن قلت: بطل بعضه، فهذا محال؛ لأنك أقررت بحركة افتراقهما بعد سكون اجتماعهما وإذا تحركتا فقد بطل كلما مضى من سكونهما، وإذا بطل جميع السكون والساعات الحادثة، فقد صح أن لهما عدداً، وإذا صح بأن للساعات

(١) في (أ) مختلفتين بدل لفظة مجتمعتين.

عدداً محدثاً، وصح بعد حدوثه انقطاع جميعه، والأرض والسماء [عندك][1] لم يسبقا سكونهما هذا الذي ذكرنا حدث ساعاته وانقطاعها بعد حدوثها وذهاب جميعها لقد صح أنهما محدثان إذ ما انفكا من السكون الذي صح حدوثه وانقطاعه بعد حدوثه.

[احتياج الجسم إلى الزمان كاحتياجه إلى المكان]

ودليل آخر: أن جميع الأجسام من الأرض والسماء وغيرهما من الرياح والماء وجميع ما خلق الله سبحانه، وبرأ ودبر وذرأ، لا يوجد إلا في وقت وساعات؛ لأن الأجسام لا تنفك من السكون والحركات وكل متحرك أو ساكن لا ينفك من أقل قليل الأوقات، وما لم ينفك من الوقت والزمان فهو مثله في الحدث والبرهان؛ لأنا قد أوضحنا حدث الأزمان، فانظر كل علة من العلل وعرض من الأعراض فلن تجده إلا في جسم من الأجسام، وما لم يوجد إلا بوجود الجسم فلم يسبق الأجسام.

وكيف يسبق ما لم يوجد إلا فيه ولا يستقيم إلا به وعليه، وما لولا هو لما وجد أبد الأبد، ولما رآه من الخلق أحد، مثل اللون لا يوجد أبداً إلا في جسم، وإذا صح حدث الجسم المنفرد بذاته فعرضه الذي لا يقوم بنفسه، ولا يوجد إلا متعلقاً به، أجدر أن يكون محدثاً، وأحرى بأن يكون مصنوعاً مدبراً.

ثم انظر إذا أردت أن تعرف حدث جميع الأشياء، فلن تجده إن شاء الله إلا على ما ذكرنا متحركاً أو ساكناً.

---

(١) زيادة من (أ) ولعل الصواب حذفها.

ثم انظر إلى الحركة، والسكون فلن تجدهما أبداً إلا في وقت، ولو قل الوقت. ثم انظر إلى حدث الوقت ثم انظر إلى انقطاعه، ثم افرق بين يومك، وأمسك، وافرق بين ما تأمل من البقاء وبين الماضي السالف من عمرك الفائت الذي قد مضى، فإنك تجد كل يوم من أيامك السالفة الماضية الذاهبة من عمرك الفانية، قد تضمنها الفناء وكذلك تضمن غيرها.

ثم انظر الفناء أوقع عليها كلها أم لا؟ فإنك إن نظرت وجدت كل ساعة من الساعات والأزمنة الماضية الخالية، لم ينقطع آخرها إلا بعد انقطاع أولها، ولم يحدث آخرها إلا بعد حدوث أولها، وكل أول من الزمان حدث، وصح حدثه فلم يحدث آخره حتى فني أوله، وما لم ينفك من الحدث والفناء فقد تناهى منه كل ما مضى، وبلغ غايته وانقضى، فلم يوجد الزمان إلا على هاذين الحالين المتناهيين، الحدوث والفناء، وما صح حدثه ومبتدأه وصح فناؤه ومنتهاه، ولم توجد الأجسام جميعاً إلا بوجوده فسبيلها في الحدث كسبيله.

ودليل آخر: لما نظرنا إلى الزمان والهواء، فأمكن في المعقول أن ينفردا من الأجسام، علمنا، إذ ذلك أنهما كانا قبل الأشياءثم نظرنا إلى الأشياء فإذا هي لا تنفك منهما ولا يجوز في المعقول أن يكون قبلهما، فعلمنا أن الأشياء محتاجة إليهما مبنية ـ في الشاهد ـ عليهما.

فلما علمنا أن الأشياء لم تكن قبلهما، ولم توجد إلا بوجودهما رجعنا إلى الطلب لحدوثهما والاستدلال على صنع الله فيهما فنظرنا إلى أجلّهما وأوضحهما، وهو الهواء هل ينفك ـ طرفة عين أو أقل منها ــ من الزمان؟

فإذا هو لا ينفك منه أصلاً فرجعنا نطلب الدليل على حدث هذا الذي لا ينفك منه شيء من الأشياء، فوجدنا ـ والحمد لله ـ في ذلك ما كفانا، ووضح لنا فشفانا، وهو ما ذكرنا، ولولا خشية التطويل والإكثار، لشرحنا من ذلك ما لا يدفعه عاقل أبداً بإنكار.

ثم علمنا أن الله خلقهما جميعاً، معاً إذ لم ينفك من الزمان الهواء، ثم نظرنا إلى الزمان فإذا هو عرض من أجلّ الأعراض دلنا الله به على حدوث جميع الأجسام، وإبطال دعاوي الطغام أهل التكمه في الإظلام، وأشباه عجم الأنعام.

ولما نظرنا إلى هذا العرض الجليل لم يكن بد له من جسم، فإذا جسمه هذا المكان، فيا لمن قال بقدم الطينة الويل، كيف تكون قديمة مع ما بيّنا من صنع الله الجليل؟!

[دعاء وابتهال]

فانظر أيها المسترشد إلى ما ذكرنا، فلن تجده بخلاف ما قلنا، ولن يقدر أحد من الملحدين على فساد ما به دِنّا، وعلى الله اعتمدنا، وهو حسبنا وولينا، وخالقنا ومصورنا، وإلهنا ومدبرنا، ومخترعنا ومقدرنا، ورازقنا ومعمرنا، وآمرنا وزاجرنا، وواعدنا وموعدنا، وموفقنا ومسددنا، ومميتنا ومحيينا، وممرضنا وشافينا، ومطعمنا وساقينا.

والذي نرجو أن يغفر لنا ذنوبنا، ويعفو عن هفواتنا، ويتجاوز عن سيئاتنا وقبيح أفعالنا، وعظيم جرمنا وسيء أعمالنا، وأن يبارك لنا في قصر أعمارنا، ونزع أرواحنا من أجسادنا، وألا يخرج أنفسنا إلا من بعد رضائه عنا في سبيله

بعد اجتهادنا، ونسأله أن يتفضل بذلك علينا، وأن يجعل آخر محنتنا في أعظم ما كلفنا وأزكى ما به أمرنا، وأن يجعل عند ذلك ذكره آخر كلامنا، واليقين به آخر اعتقادنا، والبذل لأجسادنا في سبيله، والغضب لـه آخـر أعمالنـا، ولقـاه آخر آمالنا، وثوابه آخر سرورنا، وألم الموت آخر محنتنا، والأجـداث أول راحتنـا، والطاعة أكبر همنا والعداوة لأعدائه آخر حقدنا، والموالاة لأوليائه آخـر ودّنـا، وأن لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله[آخـر كلامنـا][1] وأن يجعلنا من رفاقة نبيه وأحبابه وجيرانه وأوليائه، وأن ينجينـا مـن عذابـه، وأن يوفقنا للتوبة فلا قوة لنا إلا به، فما هي إلا مـدة سنسـأل فيهـا عـن الـنعم، إن لم نجتهد في الطلب غاية الاجتهاد، ونشمر قبل رحلتنا وطلب الزاد.

فيا عجباً لمن شغل عما له خلق بالدنيا، وقد وعد بـالموت والفنـاء، ووعـد بعد ذلك بالثواب الجزيل إن عمل، أو بالعقاب الجليل إن غفل.

ويا عجباً كيف آثر ما هو عنه زائل على ما هو أحد يوميه إليه راحل، ويـا عجباً له كيف يطيل أمله وهو ينظر دون ذلك أجله، ويا عجباً له كيف يخرب آخرته الباقية بعمران دنياه الفانية، ويا عجباً له كيـف يعمـر دار غـيره ويهـدم داره، ويا عجباً له كيف يُحَكّم على عقله هواه، ويؤثر على آخرته دنياه، ويـا عجباً له كيف يشيّد محل رحلته ويترك محل إقامته، ويا عجباً له كيـف يصـلح مال غيره ويفسد ماله، ويا عجباً له كيف يجمع ما ينفع غيره ويترك ما ينفعـه، ويا عجباً له كيف يجمع ما هو عنه هالك وما هو لغيره تارك.

---

(1) زيادة مني لا توجد في النسخ وأضفتها للتناسب ولعلها كذلك.

[عودة إلى بيان صنع الله وحكمته]

وسنعود إلى بيان صنع الله وحكمته وما هو أكثر من الأدلة برحمته فنقول: إن أعظم الدلائل على الله سبحانه وعز عن كل شأن شأنه، ما فطر من الأرضين والسماوات العلا وصنع منهما تبارك وتعالى.

فإن سأل سائل عن بيان صنع الله فيهما وتدبيره وحكمته وتقديره **فجوابنا له** في ذلك وبالله نستعين [ما شاهدنا[1] من إثبات السماوات بلا عمد وإثبات الأرضين ففي ذلك أدل الدلائل على رب العالمين.

ودليل آخر: أنا نظرنا إليهما فإذا هما موصولتان مجتمعتان ولا بد لكل توصيل من موصل، ولا بد لكل تفصيل من مفصل، ولا بد لكل مجموع من جامع، ولكل مصنوع محدث من صانع، وهو الله رب العالمين.

فإن قال: وما أنكرت أن تكون الأرض لا نهاية لها وكذلك السماء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك لأن ما صح حدثه فقد صح منتهاه ولا بد لكل مخلوق من غاية يتناهى إليها، وصفة لا يوجد إلا عليها، إذ لا بد للمخلوق من تحديد محدده والإحاطة بعلمه، ولا بد له من منقطع يدل على قاطعه، وحدود تدل على محدده وصانعه، وسنبين إن شاء الله من ذلك طرفاً نكتفي به عن التطويل من صنع الله العليم الجليل، وذلك أنا نظرنا إلى الأرض فإذا هي مختلفة الألوان والأقدار، فعلمنا أن لها صانعاً مؤلفاً باين أجناسها، ولو كانت قديمة لاتفقت ولما تفاوتت ولا اختلفت؛ لأن القديم لا فرق بينه في حال من الأحوال والمحدث فقد فرق بينه الله ذو الجلال.

---

(١) من هنا إلى قوله: والسكون هو اللبث. ساقط من المصفوف عليها (أ) وأثبتناه من النسخة(ب).

[مزيد من الأدلة على نهاية المخلوقات]

ودليل آخر على نهاية جميع المصنوعات من الأهوية والأرض والسماوات أنها لا تخلو من أحد وجهين:

[١] أما أن يكون صانعها قد فرغ من صنعتها وقطعها.

[٢]وأما أن تكون ناقصة بعد ما ابتدعها.

فإن كان الصانع قد أتم صُنْعه وفرغ عن العالم وقطعه، فقد صح تناهيه لانقطاعه، وحدده الصانع بعد ابتداعه، وإن كان هذا العالم محتاجاً إلى التمام فناقصه ذو الجلال والإكرام، وما كان ناقصاً عن الكمال فهو مقطوع، وما كان له مُنْقَطع فهو مصنوع، والله محدثه وصانعه، ومحدده وقاطعه.

فإن قال: وكيف تثبت الأرض على ثقلها بغير عمد يعمدها؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: قد قيل في ذلك: أنها تثبت من قبل الاعتدال، وهذا القول من أحول المحال لأنا نجد ما كان ثقيلاً لا يثبت بغير عمد وإن كان معتدلاً، وقيل أيضاً إنها على لجج من البحار، ويستحيل كون الأرض على الأنهار، لما طبعت الأرض عليه من الانحدار، وقلة اللبث والقرار.

وقيل: إنها لم تزل تهوي بما عليها من أجل قوتها وثقلها وهذا فمن أضعف المقال وهو قول بعض الزنادقة الجهال، الكفرة الفجرة الضلال، أنها لم تزل تهوي بمن عليها، هذا مما لا يقول به أحد يعقل ولا يعي ولا يتكلم بهذا إلا من سلب عقله، وعظم موته وجهله، وحل هلاكه وخبله، لأنها لو كانت تحرك على عظمها وجلتها لهلك من على ظهرها، ولما فرق بين الحركة

والسكون إذ كانت حركتها لا تزال، فجعلوا السكون حركة، والحركة سكوناً، والظنون عقولاً، والعقول ظنوناً، فزادهم الله عمىً وعِيًّا، وخبلا وضلالاً وغيًّا.

فيا لهم الويل الطويل، والعذاب والخزي الجليل، أما علموا -لا علمهم الله رشداً ولا وفقهم لخير أبداً- أن الحركة هي الزوال][1] والسكون هو اللبث، وشتان بين الهدوء والجمود، والحركة والحث، أوما علموا أن حقيقة الحركة هي زوال الجسم واختفاقه، وحقيقة السكون تخلف الجسم ولبثه واعتياقه، أوما علموا أيضاً أن الثقيل كلما ثقل كان أعظم لزواله، وأسرع لهويه وانتقاله، فقد رأينا بعقولنا، وشاهدنا بأبصارنا الحجر أسرع هوياً في الجو من الطير والتراب، ورأينا التراب أسرع انحداراً من الريش، فكيف لحقت الحجر الأرض، والأرض أثقل منها، والثقيل أسرع مضيا وانحداراً، وأقل لبثاً وقراراً، وأجدر بالسقوط والانحدار، وأبعد من اللبث والقرار، ثم نظرنا إلى الريشة فإذا هي أخف الأشياء، ورأيناها تلحق الأرض على ضعفها وقلة انحدارها وهويها.

ودليل آخر: أن الجسم إذا هوى سفلاً، أو من السفل علواً أو من غيرهما من الجهات، لا يخلو في حركته من أن يكون قطع أماكن متناهية، أو قطع أماكن لا نهاية لها، أو لم يقطع بحركته أماكن.

فإن قلت إنه لم يقطع أماكن، جعلته ساكناً؛ لأن المتحرك لا يتحرك إلا في مكان، ولابد للمتحرك من المكان أن يقطع مسافة متناهية.

---

(١) هذا نهاية السقط من النسخة المصفوف عليها (أ) الذي نبهنا عليه آنفاً. وأضفناه من (ب).

وإن قلت إنه قطع أماكن لا نهاية لها فهذا محال؛ لأن قولك قطع أماكن يوجب نهاية الأماكن؛ لأن القطع جرى عليها، وإذا قطعت فقد تناهى قاطعها.

ثم قولك لا نهاية نقض لإقرارك الأول، وهو قولك في القطع، وإذا صح تناهي الأماكن بقطع الجسم لها فقد صح ـ أيضاً ـ تناهي حركته وغايتها؛ إذ لا توجد الحركة إلا في المكان المقطوع.

وإن رجعت إلى الحق، فقلت: بل قطع أماكن متناهية، علمت أنه إن شاء الله على ما وصفنا وأنه بأيقن اليقين على ما قلنا، الا ترى أن الأرض والرياح إذا كانتا بزعمهم لم تزل حركتهما تقطع مكانا بعد مكان لا يخلوان من المكان طرفة عين ولا أقل منها، وإذا كانتا غير خاليتين من المكان ولم توجد حركتهما إلا فيه لم يخلو من أن تكونا قطعتاه أو لم تقطعاه.

فإن لم يجر عليه القطع منهما فقد عدمت حركتهما وصح سكونهما؛ لأن الأرض ـ بزعمهم ـ إذا هوت فلا بد أن تقطع بهويها ما عبرت، وإذا صح أنها لا توجد إلا في الأجواء، أو لا تقطع إلا ما أتت عليه من الهواء أو كانت حركتها لا توجد إلا في المقطوع عند سيرها، فقد صح تناهي المكان لقطعها له وصح نهايته، إذ لم تنفك من المكان المعبور، ولم توجد إلا بوجوده عند الهواء والمسير، وفي ذلك ـ والحمد لله ـ من الأدلة والبراهين أكثر مما ذكرنا من التبيين،فما طلبنا من ذلك شيئاً يسيراً إلا وجدنا ـ بمن الله ـ كثيراً.

وإذا صح تناهي الأرض بالأدلة الواضحة فقد صح أيضاً أنها لم تثبت على ثقلها إلا بلطف مدبرها وخالقها ومصورها، وجاعلها، ومخترعها ومفتطرها وصانعها،والقول في السماء كالقول في الأرض عندنا، فنسأل الله أن يوفقنا وأن يغفر لنا ذنوبنا.

[طرق المعارف]

والمعارف عندنا من أراد طريق النجاة فليست إلا بالتسليم للمعقول وجهاد النفس بالقبول، والاعتماد بأمر علام الغيوب، وإكذاب خواطر القلوب؛ لأن العاقل إذا ورد عليه شيئان أحدهما ظن، والآخر يقين، وجب عليه قبول أصدقهما، وإبطال أفسدهما بأحقهما، فإن الحق لا يشبه المحال والهدى لا يماثل الضلال، والعلم لا يقاس بالجهل، والظن لا يمثل بالعقل، والصحة لا توازر السقم، والدليل أولى من الوهم، وصحة الخبرة، أولى من وساوس الحيرة، فيجب على المتعبد أن ينظر الأمر من المتناهيين المختلفين المتغايرين المتباعدين المتنافرين فليستمع قولهما وينظر دلالتهما، ثم ينظر اختلافهما فلن يشتبه ضدان أبداً فليأخذ بأوضحهما دليلاً، وأنورهما سبيلاً، ويجاهد نفسه على قبوله أشد الجهاد، ويحرس قلبه من الفساد، ولا يبرح صابراً مصطبراً متيقظاً من السهو متفكراً، فلن يشتبه الحق والباطل عنده إن عقل، ولن يهدى إلى الرشد إن غفل.

[التفكر في النفس]

فرحم الله عبداً نظر لنفسه في أوان المهل، قبل حضور ما وعد به من الأجل، فلعمري لو لم يكن لنا من النظر إلا ما في أنفسنا من الآيات والعبر لكان لنا في ذلك كافية، وأدلة واضحة شافية، وبراهين جليلة باهرة، وآيات عظيمة قاهرة، وأنوار مبصرة زاهرة، من خلق الذكر والأنثى من نطفة من مني تمنى، لا سمع فيها ولا بصر، ولا عقل ولا شعر ولا بشر، ولا حياة

ولا حكمة ولا إرادة ولا همة، فبينما هو كذلك إذا هو بشر سوي، حكيم عالم عاقل حي، سميع بصير قوي، أجزاء محكمة متقنة مفصلة، وآيات محبوكة متسقة موصلة، ومفاصل مجموعة معتملة، وحكمة بالغة معتمدة، مأسورة مشدودة مؤكدة.

تدل على حكمة صانعها، وتشهد بالفطرة لفاطرها وتبين لناظرها، لا يمتنع عاقل حكيم من التصديق بأن تأليفها بعد العدم يدل على مؤلفها، وتصريف فطرتها دليل على مصرفها، وإتقان ما لم يكن متقناً منها دليل على متقنها، وتفصيل أجزائها دليل على مفصلها، وتوصيل آلاتها دليل على موصلها، فكفى ـ لعمري ـ بوجودها بعد عدمها دليلاً على صانعها، وكفى بصنع أدواتها دليلاً على علم الصانع بها، وكفى بوجود الأرزاق دليلاً على الرزاق الواحد الخلاق، وكفى بما نشاهد من النعم المنزلة من السماء المبسوطة لنا ولأنعامنا دليلاً على المنعم علينا، وكفى بما نشاهده من الإحسان في الأرزاق دليلا على المحسن علينا ـ فلعمري ـ لفي أقل من هذا ما دل على الله تبارك وتعالى، فيا لها نعماً عظمت، وأيادي جلت وجسمت، ويا لها فضائل كثرت عن التعديد، وزادت على كل مزيد، والحمد لله الواحد الحميد، العدل الخالق المجيد، فلن نذكر من حكمته إلا قليلاً، فسبحان الله بكرة وأصيلاً، والحمد لله كثيراً، والله أكبر كبيراً.

ولا تكون نعمة صح حدثها إلا من منعم، ولا كرم صح من بعد العدم إلا من متكرم، ولا حكمة بالغة إلا من حكيم، كما لا يكون العلم إلا من عليم، ولا الحلم في الشاهد إلا من حليم، ولا يجعل الشيء للشيء والمعنى للمعنى إلا عالم بفاقة المخلوق إلى ما جعل وبنى.

[تعدد الحكم الإلهية في خلق البرية]

ألا ترى إلى ما بث الله من الخلق، وما بسط لهم بعد خلقهم من الرزق الذي لولا هو لهلكوا ودمروا، ولما تناسلوا ولا كثروا، ولما ثم بقاء ولا صبروا، فلعلمه بفاقتهم رزقهم، ولإنفاذ الحكمة خلقهم، ولحسن التدبير فطرهم، وبالطاعة والرشد أمرهم، وعن الفواحش زجرهم، وللكفر حذرهم، وبالثواب وعدهم وبالعقاب على المعصية أو عدهم.

فسبحان من لا تحصى آياته، ولا تنقطع أبداً دلالاته، فلو لم يكن لنا من الآيات إلا ما ذكرنا من صنع الله في الحيوانات لكان ذلك عليه دليلاً، ولكان علماً عظيماً جليلاً، من النطف الحقيرة خلائق مبثوثة كثيرة لا يحصيها إلا خالقها ومبتدعها ورازقها، وما جعل من ذكورها وإناثها لتكثير نسلها وإحداثها، ثم جعل في الذكور من الشهوة للإناث ما جعله سبباً للجعل والإحداث، وجعل النسل في أصلاب الذكور لتمام الحكمة والتدبير.

ثم جعل لذلك النسل مسالك إلى أوصال الإناث، فاتصل بإذن موصله، وانفصل من الأصلاب بمشيئة الله رب الأرباب، فأحسن الصور في الأرحام بإكمالها بعد أخذها من الأصلاب وإنزالها، ثم أخرجها من بطون الأمهات وركبها [على الأغذية][1] واللذات، فجعل لتلك النسول قبل إخراجها أغذية لعلمه بفاقتها، وجعل لتلك الأغذية من ألبان أمهاتها المركبة لهم في أجسادها، لعلمه بضعف الأطفال عن غيرها مما تتغذى به بعد كبرها فجعل غذاء الطفل الصغير بلطفه غير غذاء الكبير لما علم من طفوليته وضعفه، ثم ألهم هذه النسول رضع أغذيتها ليتم بذلك ما أراد من حياتها.

---

(١) ما بين المعكوفين من (ب).

فيا عجباً لأطفال البهائم العجم، التي لا تعي ولا تعقل كباراً فكيف بالصغار، كيف اهتدت لأماكن أغذيتها؟ أجل: إن ذلك لمن غيرها لضعفها وصغرها حتى كأن قد علمت ذلك علماً يقيناً أو أجبرت عليه أو قيدت قوداً إليه، ولما علم الله عزّ وجلّ ما ركب من خلقه وجبل، وما نزل من الأرزاق وجعل، علم أن تلك الأغذية لا تتم إلا بالوصول إلى الأجساد ومباشرة البطون والأكباد فجعل سبحانه لذلك مسلكاً فأوصله وركبه لعلمه بفاقتهم وجعله، ثم بسط الرزق ونزله.

فكم مخلوق عجيب الخلقة خلقه ومرزوق لا يحمل رزقه، فالحمد لله الذي تفضل علينا بنشأته وخلقه، وبسط لنا الكفاية من رزقه، ثم علم عزّ وجلّ بما خلق وفطر، وجعل من الحكمة ودبر، وعلم بفاقة المخلوق إلى مخارج الأغذية التي لولا مخارجها لما لبث المخلوق حيا، ولا بقي من الدهر شيئاً إلا وقتاً يسيراً، ثم تصير نعمته عليه تهلكة وتدميراً، فجعل سبحانه لما علم بمواجه مخارجاً لفاقة المخلوق إلى مخارجه.

[خلق الحواس وحجة العقل والرسول]

ثم جعل للمتعبدين عقولاً، لتكون لهم عليه دليلاً، فسبحان من دلنا إلى معرفته، وجعل لنا العقول برحمته، ثم جعل لنا حواساً خمساً عيناً، وسمعاً، وذوقاً، وشماً، ولمساً فجعل العينين لدرك الهيئات، والأسماع لدرك الأصوات، والذوق لدرك المطعومات، والشم للروائح المختلفات من الخبائث والطيبات، وجعل اللمس لدرك الأعراض المجسمات من الحر والبرد واللين

والخشونات، وجعل الأجسام وما فيها من المفاصل للحركات، ودليلاً على حكمة فاطر السماوات، وجعل العقول لتنير الأمور ومعرفة الخيرات والشرور.

ثم لم يكلنا إلى ذلك دون أن يرسل إلينا الرسل والنبيين مذكرين لنا من الغفلة ومخبرين لنا لما خلقنا له من النعم والفضل من الله والكرم والتعبد للفرق بين المطيعين والعاصين إذ لم يكن من حكمة الله الحكيم أن يساوي بين المحسنين والمسيئين.

فيا خالق الخلق ويا باسط الرزق أسألك أن تجعل آخر حياتي وحضور وفاتي على أكمل ما يكون من طاعتك، واتباع مرضاتك، والغضب لك حتى تبلغني ما له بفضلك خلقتني، [وأن تختار لي بعلمك وتقبضني على أيقن يقيني] وتوفاني[1] يا مولاي على شهادة أن لا إله إلا أنت الحق اليقين الصمد الواحد المبين، وأن ترزقني الحياة ما كانت الحياة خيراً لي وأن تمنن عليّ بالوفاة في وقت طلبي للنجاة، وسلوك سبيل الهداة حتى تتم نعمك عليّ، وفضائلك عندي ولديّ، فقد علمت يا مولاي بندمي على ما كان من غفلتي، فأسألك يا مولاي سؤال من عرفك واستدل عليك فأيقن بك أن تقيلني ما كان من عثرتي، وأن تغفر لي ما علمت من خطيئتي، وأن تجاوز عن زلتي فها أنا يا مولاي مستقيل إليك، متوكل في كل أموري عليك، طارح لنفسي في يديك، فإن عفوت يا مولاي وغفرت وعدت عليّ بفضلك فقد نجوت، وإن لم تغفر لي ما سلف مني فمَن غيرك يا مولاي يغفر لي؟! وإن لم تهدني فمَن

---

(١) أظنها وتَوَفَّني.

غيرك يهديني أو يوفقني أو يرشدني؟! وإن لم تنظر إليّ فمَن ينظر إليّ؟ وإن لم تجب دعائي فمن أدعو؟ وإن لم تنجني فكيف النجو؟ وإن لم أرجك فمن أرجو؟ وإن لم أحبك فمن أحب؟ وإن لم أطلب منك فمن أطلب؟ وإن لم أهرب إليك فإلى من أهرب؟ وصلى الله على محمد النبي الطاهر البر الزكي، وعلى أهل بيته الأبرار الأخيار الطيبين وسلم تسليماً.



كتاب

الرد على عبدة النجوم وغيرهم من فرق الملحدين

- الطرق إلى معرفة الله تعالى.
- الحكمة في الخلق.
- بيان معنى الحكمة.
- ملازمة الحركة والتكون للأجسام.
- الدليل على حدوث الأزمنة.
- حدوث الحيوانات.
- الدليل على حدوث حركات النجوم والأفلاك.
- الأدلة على البعث والنشور.



كتاب الرد على عبدة النجوم
وغيرهم من فرق الملحدين

بسم الله الرحمن الرحيم

[حسبي الله وكفى ونعم الوكيل][1]، والحمد لله الذي ابتدأنا بالهدى، واستنقذنا من الضلالة والردى، نحمده على ما كثر من الدلائل عليه، والدواعي التي دعت أولياءه إليه، فمن استدل بها عليه نَظَّرَه، ومن قصر عن فهمها لم يره، فأي دلائل على الله ما أدلها وأعظم قدرها وأجلها، لقد بهرت عقل من عرفها من المؤمنين، ودلت من أيقن بالله من المستدلين، واضطرت العقول إلى رب العالمين.

فدلائل الله عليه منيرة لا تطفأ، وشواهد صنعه ظاهرة لا تخفى، تدل من فكر في صنع الله وتدبيره، ومعجز فطرته وتقديره، ولا يكفر بدلائل الله وتبصيره [الا] من اشتغل عن وعظه وتذكيره، وأقبل على لهوه وفجوره، وأنىَّ يظفر بدلائل الله من أقبل على اللهو والمحال، وقل خوفه من الكبير المتعال؟ كلا لن يظفر بذلك من اشتغل عن آخرته بدنياه، وصدّ عن الله واتبع هواه.

ولن يكون ذلك بالله من العارفين ولا إليه من الهادين ولا عنده من

(١) ما بين المعكوفين ساقط في (ب).

المقبولين، ومن لم يكن لله من العارفين لم يكن أبداً من المطيعين، ومن قصد إلى دين الله ورغب في طاعته وهو مختار لترك طلب الأدلة إلى معرفته، ورضي بجهله وغفلته كان داخلاً في الجهل بمعصيته، ومن كان بالله جاهلاً وعن دلائله غافلاً لم يكن عنده من المؤمنين، ولا به من الموقنين؛ إذ رضي بالجهل والنقصان، واشتغل عن المعرفة والإيقان، فهو في صفات الله متحير جاهل، وعن الدلائل عليه مستوهل ذاهل، إن عسف النظر في ذلك ارتطم في الضلال، وإن رضي بجهله فهو من أجهل الجهال، لا يملك لقلبه جنة من الشيطان، ولا يؤمن عليه الدخول في محظور ولا عصيان، وإن عبد الله عبده بغير خشوع ولا إيمان، وإن جاهد على الطاعة نفسه لم ينفعه عند الله عمله وحرصه؛ إذ كان مطيعاً بزعمه من لم يكثر[1] دلائله عليه، ولم يركن حقيقة الركون إليه، وكيف يركن إلى ما هو عنه متحير جاهل، وعن العلم بدلائله زائل؟!

فليس العمل إلا بمعرفة الله سبحانه وتعالى وجل عن كل شأن شأنه، فالحمد لله الذي جعل الدلالات[2] عليه للمستدلين بما صنع من خلقه المصورين.

وبعد..

فإني لما نظرت الجهل قد شمل كثيراً من الأنام، وقلّت معرفتهم لذي الجلال والإكرام، حداني ذلك على أن أضع كتاباً للمتعلمين ومن أراد معرفة الله[3] من العاملين، وأراد التخلص من العذاب المهين، فنسأل الله التوفيق

(١) في (ب): من لم تكن تكثر.
(٢) في (ب): الدلائل.
(٣) في (ب): ومن أراد الله.

في ذلك بمنه، ونعوذ بالله من خذلانه، ونسأله التسديد بعونه فإنه لا يوفق إلا من هداه، ولا يصيب الرشد إلا من خافه واتقاه.

ألا ورحم الله عبداً حذر على نفسه من الدنيا فإن محبتها أصل كل فتنة، والركون[1] إليها أول كل محنة، تصد من أحبها عن ذكر الرحمن، وتشغل من نالها عن الخشوع والإيمان، وتدعو إلى طاعة الشيطان، فكل ما قضى من حوائجها حاجة طاشت به إلى أخرى وأعقبته عند الله فقرا، فهو عن الموت غافل مغرور، ويلهوها جذل مسرور، وعن الله ذاهل مغمور، فهي تقوده إلى النار والعذاب، وتبعده عن رب الأرباب، فهو من الموت على ميعاد، وهي إلى تصرم ونفاد.

فنسأل الله تبارك وتعالى أن يبارك لنا في قليل حياتنا، وأن يحضرنا عفوه عند وفاتنا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من عرفه حق معرفته، وأيقن [به][2] وتخضع لعبوديته، ورجا عفوه عما سلف من خطيئته.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفوته من بريته شهادة من صدق بنبوته، وتقرب إلى الله بمحبته، واشتاق إلى لقائه ورؤيته.

وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، شهادةً أرجو بها عفوه يوم النشور، وأشهد أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه [كان خير البرية بعد نبيها ﷺ][3]، وأشهد بإمامة ولديه الحسن والحسين ابني رسول الله الفاضلين، وأشهد أن الإمامة من بعدهما فيمن طاب من ذريتهما

---

(١) في (ب): بالركون إليها.
(٢) ما بين المعكوفين ساقط في (ب).
(٣) في (ب): وصيه والإمام المفترضة طاعته على جميع الثقلين. ولعله الأصح

وسار سيرتهما واحتذى بحذوهما واقتدى في دينه بهما.

اللهم يا مولاي فاكتبني بذلك مع[1] الشاهدين، واشهد عليّ بالبراءة من الجاحدين، ووفقني لسبيل الراشدين، واسلك بي طريق المهتدين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على مولاي وسيدي خاتم النبيين، وسيد الأولين والآخرين، وعلى مواليّ وسادتي أهل بيته الطاهرين، الأخيار الأبرار الصادقين.

[السبيل إلى معرفة الله]

[قال الإمام الهادي لدين الله الحسين بن القاسم[2] -عليهما السلام-][3]: ثم نقول من بعد توحيد خالقنا والقول بالحق في الله سيدنا: إن سأل سائل مسترشد أو قال قائل متعنت ملحد: كيف السبيل إلى معرفة الله جل جلاله وظهرت نعمه[4] وأفضاله؟ وبم يعرف؟ وما معرفته؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أما السبيل إلى معرفة الله القدير فالعقل المميز للأمور.

وأما قولك: بم يعرف؟ فليس يعرف إلا بما أظهر من صنعه وتدبيره ومعجز فطرته وتقديره.

وأما قولك: وما معرفته؟ فمعرفته اليقين بإلهيته والإقرار والتصديق بربوبيته.

---

(١) في (ب): من.
(٢) في (ب): زيادة ابن رسول الله ﷺ.
(٣) هذه زيادة من المستملي من الإمام أو الناسخ.
(٤) في (ب): نعمته.

[اختيار المعرفة]

فإن سأل عن معرفة الله[1] سبحانه وظهر دليله وإيقانه فقال: أمعرفة الله اضطرار أم اختيار؟

فالجواب له في ذلك: أن معرفته اختيار، ولو كانت معرفته ضرورة كمعرفة الأرض والسماء وغيرهما من الأشياء لما كان بين معرفة الجاهل والعالم فرق، ولكان الخلق كلهم بالله عارفين ولما كانوا أبداً جاهلين ولكانوا جميعاً به موقنين، وعلى معرفته مجمعين وهذا محال عند أهل[2] العقول، فأما من كان من الجهال وأهل الحيرة والضلال فلن يزال ذلك في الشك متردداً حائراً، وعن اليقين بالله نائياً، جائراً، إذا رضي بتعطيل ما ركب الله من عقله، واستغنى عن المعرفة بجهله.

وإنه وإن كان بالله جاهلاً وعن اليقين به غافلاً فليس بمعذور في ترك طلب الدليل والنظر والبحث عن الخطب الجليل، فإن عطل ذلك لم يكن معذوراً وإن كان عن الله حائراً مغموراً؛ لأن الله عز وجل قد جعل له عقلاً وفكراً [وتمييزاً وذكراً] [3]، واضطره إلى درك صنع عجيب لا يخلو في الفعل[4] من أحد أوجه من أعطاها لم يضطر إلى حقيقتها إذ جهلها، وسنذكر إن شاء الله ما يصح لذوي الألباب، [ونستدل به على رب الأرباب][5] .

---

(١) في (ب): عن معرفته سبحانه.

(٢) في (ب): عند جميع أهل العقول.

(٣) في (ب): وفكراً وتقديراً وذكراً.

(٤) في (ب): العقل.

(٥) في (ب): ما بين المعكوفين ساقط في (ب).

[التفكر في النفس]

وذلك أنا نظرنا إلى أنفسنا إذ هي أقرب الأشياء إلينا فرأينا كل جارحة من جوارحنا قد جعلت لسبب ومعنى ولا يجعل الشيء لصلاح الشيء إلا عالم حكيم بما صنع وبنى، من ذلك ما شاهدنا في جميع الحيوانات منا ومن غيرنا من عجيب تصويرها وإحكام صنعها وتدبيرها [1] ، وإصلاح منافعها وتعميرها، وما جعل الله لها من تفصيل أجسامها وتوصيلها، وشد أسرها وتعديلها وإثبات مصالحها التي لولا هي لهلكت ودمرت ولما تناسلت ولا كثرت.

ومن ذلك ما جعل [فينا] من العقول لاجتلاب المنافع ونفي المضار، والمفاصل التي جعلها للحركة والمجيء والإياب والإدبار، وماجعل من الحواس الخمس من [الأعيان][2] والسمع والذوق واللمس، وجعل كل حاسة لشيء بعينه لما أراد من ثبات الدليل وتبيينه؛ إذ لا يجعل[3] الشيء للشيء إلا حكيم، ولا يدبر ويصرف إلا عليم.

ومن ذلك ما جعل من الذكور والإناث، وأبان في ذلك من الجعل والإحداث فجعل كل زوج من ذلك يصلح للآخر بتقديره لما أراد سبحانه من خلق النسل وتكثيره، ثم جعل للنسل[4] معايش في صدور الإناث بلطفه، لما علم من فاقة الطفل وضعفه، وهذا ومثله فلا يتم إلا بعلم من عليم،

(١) في (ب): وتقديرها.
(٢) في (أ): العيان، وما بين المعكوفين أثبتناه من (ب) ولعله الأصح.
(٣) في (ب): إذ لا يحصل.
(٤) في (ب): النسل.

وتدبير من صانع حكيم، ثم جعل سبحانه للأطفال[1] بعد كبرهم معايش غير معاشهم في حال صغرهم ليتم بذلك ما أراد من تعميرهم فبسط لهم الكفاية من رزقه بعد إكمال تصويره [وخلقه، وجعل في الأجساد مداخل للأغذية لعلمه بفاقتهم إليها، وجعل لهم مخارج لها؛ إذ فطرهم عليها] [2] .

فلما نظرنا إلى عجيب ما صنع وافتطر، وبين من حكمته وأظهر صح عندنا بأيقن اليقين أن الحكمة لا تكون إلا من حكيم؛ لأن الحكمة لا تهيّأ إلا لعليم؛ لأن الجهل ليس معه نعمة ولا يتم للطبائع التي ادعى الملحدون علم ولا حكمة؛ لأن الموات[3] لا يكون حكيماً ولا سميعاً [ولا عليماً][4] ولا يكون المصلح المنعم إلا رحيماً، فمن أنكر ذلك.

قيل له ولا قوة إلا بالله: ما تقول؟ هل فيما ذكرنا حكمة تدل على الواحد الجليل؟

فإن قال: ليس في ذلك حكمة، خرج من المعقول وبان كذبه لجميع أهل العقول؛ لأن جميع الحكم تقصر عما ذكرنا، ولا تماثل حكمة مولانا وسيدنا، ولو جاز كون حكمة من غير حكيم وعلم ورحمة من غير عليم لجاز كون رسول من غير مرسل [وأمر ونهي][5] من غير ناهٍ ولا آمر، ولو جاز ذلك لسُمع كلام من غير متكلم، ولَوُجد تعليم من غير معلم وتفهيم وبيان من غير مبين مفهم، ولو جاز ذلك لجاز أن يوجد ثواب وعقاب من غير مثيب ولا معاقب!!

---

(١) في (ب): لم يتضح.
(٢) ما بين المعكوفين ساقط في (ب).
(٣) في (ب): الأموات.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة في (ب).
(٥) ما بين المعكوفين من (ب)، وأما في المصفوف عليها المرموز لها بـ(أ) ففيها: وآمر وناهي.

ولا يخلو الفعل فيما ذكرنا من صنع الله في الحيوانات، وما ركب في الأجسام من الآلات والأدوات والآيات المحكمات النيرات، من أن تكون شاهداً على أنها من حكيم، أو شاهداً على أنها من غير حكيم، أو غير شاهد على شيء من ذلك، فإن كان شاهداً على أن الحكمة من غير حكيم أمكن أن يشهد على علم من غير عليم، وحلم موجود من غير حليم، وإن شهد بذلك لم يُسم عقلا ولخرج من الصحة فعاد[1] جهلا؛ لأن العقل لا يجوز عليه شيء من المحال، ولا يقبل ما فسد[2] من المقال، وإن لم يشهد على شيء من ذلك خرج من تمييز الأمور ولم يفرق بين الخيرات والشرور، وإذا خرج العقل من التمييز فهو زائل فاسد، وما كان من العقول فاسداً لم يكن عدلاً ولا شاهداً، وإن شهد على أن الحكمة لا تكون إلا من حكيم صح ذلك؛ لأن الحكمة لا تهيأ إلا من عليم[3].

---

(١) في (ب): وصار.

(٢) في (ب): ما يشهد.

(٣) قال السيد العلامة بدر الدين الحوثي حفظه الله تعالى معلقاً: لعل الطبائعية ظنوا أنهم علموا ما لم نعلم لأنهم يرون المسببات توجد تبعاً لوجود أسبابها كالزرع ينبت عند جعل البذر في التراب والسقي بالماء بشرط أن يكون البذر على حالته الأصلية لم ينضج بالنار ولا تسوس وأن يكون الماء غير ملح أجاج، وأن يكون التراب غير سبخة، فدل ذلك على معنى في البذر ومعنى في الماء العذب ومعنى في التراب السليم، وهذا المعنى هو ما يعبرون عنه بالطبع، فوجود الزرع عندهم بالطبع، والجواب أنكم فرحتم بما عندكم من العلم، وهذا الذي ذكرتم ليس دليلاً على عدم الخالق بل هو دليل على الخالق المدبر الذي خلق التراب وجعل فيه المعنى وخلق الماء العذب وجعل فيه المعنى وخلق البذر الأول وكل بذر وجعل فيه المعنى، ألا ترون أنكم تفخرون بما تصنعون من الأسلحة والآلات، ولو قيل لكم: ليس لكم مفخر لأنه ناتج عن الورشات والمصانع لقلتم: إنا نحن صنعنا الآلات لأنا صنعنا مصانعها وورشاتها ودبرنا لكل آلة مصنعاً معيناً ينتج ما صنع له فكذلك فهمتم صنع الآلات والأسلحة أنه صنعكم بواسطة المصانع ولم تفهموا أن الزرع صنع الله بواسطة ما صنع من التراب والماء والبذر. تمت.

[دلالات الحكمة ومعانيها]

وإن رجع إلى مكابرته، وتردد في شكه وضلالته، فقال: ليس في ذلك حكمة!

قيل له ولا قوة إلا بالله: هل تعرف الحكمة أم لا؟

فإن قال: إنه لا يعرفها أصلاً وادعى في معرفتها جهلا كان لما ذكر من الجهل أهلا.

وإن قال: إنه يعرف الحكمة.

قيل له: ما الحكمة في ذاتها؟ وما حقيقة صفاتها؟ فإن كان جاهلاً [بها][(1)] بطل ما ادعى من معرفتها، وإن كان عالماً أجاب وقصد إلى الحق والصواب فقال: الحكمة ما أتقن من الأمور وبعد من الفساد والشرور.

فإذا قال ذلك قيل له: ويحك ما أجهلك وأعظم كفرك وأغفلك تقول: إن الحكمة ما حسن من الأفعال وبعد من الجهل والضلال، ثم تزعم أن ليس فيما ذكرنا حكمة من أعاجيب الصنع الجليل، وما بين الله من الدليل، وأقام على ذلك من شواهد العقول؛ لأن الحكمة لا تهيأ إلا بالحلم، ولا تتم إلا بالعلم من ذي الجلال والإكرام.

ودليل آخر: لا يخلو صانع هذه الحكمة، من أن يكون حياً قديماً وإما أن يكون حيواناً، وإما أن يكون مواتاً، فإن كان حيواناً فهو كسائر الحيوانات

---

(١) ما بين المعكوفين ساقط في (ب).

في العجز عن دفع الآفات، ونوازل المحن المحدثات، وسلب ما يجب من الحياة؛ وبيان الصنع فيه والدلالات.

وإن كان مواتاً فهو كسائر الجمادات من التراب والحجارة وغيرهما من الموات، والأجسام الجامدة المغفلات ويستحيل أن يكون ذلك وما جانسه من المدبرات خالقاً لشيء من الحيوانات، وإن كان حياً مدبراً قديماً [فقد][1] صح ذلك؛ لأنه لو كان ميتاً لما كان حكيماً ولما كان قديراً ولا عليماً.

ودليل آخر: أنا قد أحطنا بجميع الأشياء علماً، وأدركناها عياناً وفهماً، فلم نجدها إلا على حالين محدثين ومدبرين بمشيئة الله مصنوعين، وهما الحركة والسكون، اللذان لا ينفك منهما شيء موجود، وإذا صح حدثهما وصح أن جميع الأشياء لم تنفك منهما، ولم يكن قبلهما فهي في الحدث مثلهما وسبيلها سبيلهما.

والدليل على أن جميع الأشياء لا تنفك منهما، ولا توجد قبلهما أنها لا توجد إلا زائلة متحركة، أو مقيمة ساكنة، فإن زالت فزوالها حركة، وإن أقامت ولبثت فالسكون هو لبث وإقامة.

والدليل على أن الحركة والسكون معنيان وشيئان غير الأجسام متغايران أنا نجد الحركة تكثر من الشيء الواحد، فلا تكثر لكثرتها، وتقل تارة فلا تقل لقلتها، وتزول تارة فلا نزول لزوالها، ولا تبطل لبطلانها مثل حركة النجم التي لا تحصى لكثرتها، والنجم واحد محدود، وحركته [تعدم][2] ما مضى منها وهو بعينه باق موجود.

---

(١) ما بين المعكوفين ساقط في (ب).

(٢) ما بين المعكوفين ساقط في (ب).

ونجد السكون كذلك يكثر أيضاً حتى لا يحصى، والساكن معروف بحدوده وأقطاره موجودة في محله وقراراه، مثل الحجر التي لا تحصى ساعات سكونها[*] فكم من ساعة لا تحصى قد سكنت، وكم من يوم وليلة قد لبثت، فتلك الساعات قد عدمت، والحجر موجودة ما برحت.

والحركة والسكون على الجملة دهور وأزمان وعلى التصنيف صنوف [وأفنان، وكل ذلك دليل على حدث][1] الأجسام، وبيان على فساد دعاوى الدهرية الطغام، وأشباه عجم الأنعام، وأهل التَّكَمُّه[2] في الإظلام، وسَنَدُلُّ إن شاء الله تعالى على فساد قولهم، ونوضح من حدث الدهر ما عموا عنه بجهلهم.

[حدوث الدهور والأزمان]

فإن سأل سائل منهم فقال: ما الدليل على حدث[3] ما مضى من الدهور، والأيام والليالي والشهور؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على حدوث ما مضى من الدهر وأزمانه أنه لم تحدث ساعة إلا بعد حدوث ما قبلها وبطلانه.

فإن قال: وما أنكرت من أن يكون ما مضى من الساعات ساعة قبل ساعة إلى ما لا نهاية له؟!

(*) نلاحظ هنا سبق الإمام ﷺ في إبراز معنى الحركة وتعريفها وإفضائه إلى المعنى الحديث لها في علم الفيزياء حيث يقال: إن الجسم متحرك: إذا تغير موقعه بالنسبة للزمن ويقال: أنه ساكن إذا لم يتغير موقعه بالنسبة للزمن.

(1) ما بين المعكوفين ساقط في (ب).

(2) في النسخة (ب) البكمة.

(3) في (ب): حدوث.

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك؛ لأن ما مضى من الساعات لا يخلو من أحد وجهين:

[١] إما أن يكون عدم وبطل بعد حدوثه.

[٢] وإما أن يكون [الآن][١] موجوداً كله.

فإن قلت: إن ما مضى من الحركة[٢] والسكون موجود، فهذا محال؛ لأن ما مضى من الساعات التي هي السكون والحركات فقد عدم كله بعد حدوث كل ساعةٍ منه، وإذا عدم كله بعد حدوثه فهو محدث؛ لأن الساعات التي مضت والأزمان التي بطلت على حالين حال وجدت فيها بعد عدمها أوجب حدوثها، وحال عدمت فيه بعد وجودها.

فأما الحال الذي كانت فيه موجودة فهو حدوثها إذ حدثت[٣].

وأما الحال الذي عدمت فيه فهو وقتها إذ تصرمت[٤] قبله بعد حدوثها فعدمت.

وإذا صح عدم جميع ما مضى، وتصرم بعد حدوث كله وانقضى، فقد صح ما قلنا به من ذلك؛ إذ هو في الحدوث كذلك، وإذا صح حدوث الدهر الذي هو كثرة الحركات والسكون اللذين لم تنفك الأجسام كلها منهما فسبيله في الحدث سبيلهما[٥]، وفي هذا ما قطع أهل الإلحاد والجحود، ودمغ إن شاء الله أهل الكفر والعنود.

---

(١) ما بين المعكوفين ساقط في (ب).
(٢) في (ب): الحركات.
(٣) في (ب): إذا حدثت.
(٤) في (ب): وإذا تصرمت.
(٥) في (ب): سبيلها.

[مزيد من الأدلة على الحركة والسكون]

وسنزيد بعون الله بياناً، ونوضح إن شاء الله صنع الله لسائلنا بعد إيضاح جملة الدهر وكليته، وكرور أيامه وساعاته، وتبيين صنوفه وأفنانه، ومجاله من الصنع وبيانه.

فنقول: إن الحركة أولى ما نحتاج إلى ذكره؛ إذ هي مشتملة على حدث السكون وغيره، وذلك أن مجال الحركة في صنوف من الأجسام، وأماكن من الموات والحيوان، وذلك مثل حركة النجوم والبروق والسحاب، ومثل حركة الأشجار والرياح الهواب، ومثل حركة أمواج البحار، وجري خف التراب والأنهار، وغير ذلك مما يتحرك من الجمادات في الليل والنهار، ومن الحركة ما يحل في الحيوانات.

وسنبين إن شاء الله تعالى حدوث جميع الحركات، وما يحل منها في كل حيوان أو موات، فأول ما نبتدئ بذكره حركة الحيوان.

فإن سأل [سائل][1] **فقال**: ما الدليل على حدوث حركة[2] الحيوانات، وما تنكرون من أن تكون حركات قبل حركات، إلى ما لا يتناهى من الأوقات؟!

قيل له ولا قوة إلا بالله: دلنا على حدث ما عنه سألت، وفساد ما ظننت وزعمت، أنا قد بينا لك حدوث الحيوانات فيما تقدم من كلامنا، وأوضحنا نهاية الأوقات في أول قولنا.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من (ب).

(٢) حركة، ساقطة في (ب).

ودليل آخر: أن حركة الحيوانات الأوائل المتقدمة، التي زعمت أنها غير متناهية، لا تخلو من أن تكون الآن كلها موجودة [أو هي الآن بعد حدوثها معدومة][1] فوجود ما مضى من حركات الأولين محال؛ لأنهم إنما[2] تحركوا قبل موتهم في قيامهم وقعودهم، وإقبالهم وإدبارهم، وتنقلهم وسيرهم، والقيام والقعود فغير موجودين، بل يكونان عند جميع الخلائق معدومين، وإذا صح عدم جميع الحركات التي ذكرنا تولدها من أجسام الحيوانات، فقد صح تناهي أجسامهم؛ لأن أجسامهم لم تنفك من حركاتهم، وللحركات نهاية وغاية، لأن الحركة على حالين وجدت فيه كلها بعد العدم وحال عدم فيه جميعاً فانتفى عنها العدم.

ودليل آخر: أن جميع الحيوانات لم تنفك أصولها من الحياة، ثم قد وقع الموت على جميعها فهي [على][3] حالين محدثين بين حال أحييت فيه بعد موتها فحييت كلها وحال أميتت فيه فماتت جميعها، وإذ لم تنفك من الحالين المحدثين فهي محدثة مثلهما، إذ لم توجد ولم تكن قبلهما، وسبيلها في الحدث سبيلهما إذ تضمنا أصول الحيوانات، فلم تخرج منهما، فكيف لا تتناهى الأصول وقد حوت الحياة جميعها ثم تضمنها الموت بعد حياتها.

---

(١) ما بين المعكوفين مثبت من (ب) لاستقامتها مع سياق الكلام، أما في (أ) فقد وردت هكذا: (أو هي الآن معدوم وبها). والصحيح هو ما أثبتناه.

(٢) إنما، ساقطة في (ب).

(٣) ما بين المعكوفين مثبت من النسخة (ب). وأما النسخة (أ) ففيها(في).

[الدلالة على حدوث طينة العالم]

فإن قال: وما أنكرت أن تكون[1] طينة العالم قديمة لم تزل ميتة، ثم حييت وانتقلت عن سكونها فتحركت!

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا قدمها الذي ذكرت، لأنها إذا كانت ميتة كما زعمت ثم حييت بعد موتها فذلك دليل على محييها؛ لأن الحياة من أكثر النعم وأجلها وأعظمها، ولا بد لكل نعمة من منعم، ويستحيل أن يكون الكرم من غير متكرم؛ إذ في الحيوان من الحكمة ما لا يتم إلا لعالم، كما يستحيل أن يكون الكلام المحكم من غير متكلم.

ودليل آخر: إذا كانت الطينة ـ بزعمك ـ لم تزل ميتة ثم بطل موتها، فقد بطل قدم الموت والقديم لا يبطل.

فإن قال: وما أنكرت من بطلانه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأن بطلان موتها يدل على حدوثها وذلك أنها ـ بزعمك ـ قد أقامت ميتة دهوراً طويلا، وإذا كانت كما زعمت فللدهور نهاية وغاية؛ لأن الدهر محدث، وما لم ينفك منه فهو مثله في الحدث؛ لأن الدهر قد انقطع كل ما مضى منه، ولم ينقطع إلا بعد حدوث كل ساعة من ساعاته.

ودليل آخر: أن الطينة إذا كانت لم تزل ساكنة، ثم تحركت فقد انقطع آخر سكونها ولم ينقطع آخره إلا بعد انقطاع أوله، وإذا صح انقطاع أول السكون وآخره فقد انقطع كله، وإذا انقطع كله فله نهاية وغاية، وإذا صح أن

---

(١) في (ب): من أن تكون.

لسكونها أولاً وآخراً فقد انقطعا [فقد] صح حدوث السكون، وإذا صح حدوثه فقد صح حدث الطينة؛ إذ لم [تسبقه][1] ولم توجد إلا بوجوده.

وكذلك إن سأل عن الدليل على حدث ما مضى من حركات السحاب والبرق والرياح والأنهار والنجوم والجمادات من الأشجار.

فالدليل على حدوث ذلك: أنا نراه لا يكثر إلا بعد قلته، ولا يزيد إلا بعد نقصانه، فإذا نظرنا في ذلك علمنا أن ما مضى من الحركات لا يحصى وأنه كائن بعد حدوثه عدما، وما صح حدوثه وصح عدم جميعه فقد تناهى؛ لأنه على حالين متناهيين محدثين وهما الحدوث والفناء، والحركات لن تنفك منهما.

فإن ادعى أن قبل الحركات سكوناً قديماً.

قيل له ولا قوة إلا بالله: أليس تعلم أن السكون قد انقطع آخره وأوله بعد حدوثهما وبطلان جميع دهورهما، فهذا دليل على حدوث جملة جميع الحركة والسكون.

[حدوث حركات النجوم]

وقد زعم بعض الملحدين أن الفلك مدبر قديم، وأنه لا أول لحركته ولا غاية، ولا بدء لها ولا نهاية، وأن النجوم لم تزل تحرك ولا تفتر وتضمر أبداً، وتدبر.

وسنبين من فساد قولهم إن شاء الله تعالى ما فيه مقنع لذوي الألباب، ودلالة شافية على الله رب الأرباب، فاسمعوا رحمكم الله بقلوب سوية، والطفوا النظر فيما نقول بعقول جلية.

(١) لم تتضح في المخطوطة ولعلها كما أثبتنا.

فنقول ولا قوة إلا بالله: إن النجوم في أنفسها محدثة مدبرة، ومخلوقة بمشيئة الله مقدرة، ومبرية مصنوعة مصورة، وذلك أنا نظرنا في جميع حالاتها فإذا هي تدل على صانعها من قبل أجسامها وحركاتها.

فأول ما نبدأ إن شاء الله تعالى بذكر حركة الفلك ومسيره فنقول: إن النجوم لا تخلو في جريها من أحد أربعة أوجه لا خامس لها:

[١]: إما أن تكون جرت فوق الأرض في جو السماء قبل أن تجري في الفلك تحتها.

[٢] وإما أن تكون جرت تحت الأرض قبل أن تجري فوقها.

[٣] وإما أن تكون لم تبدأ بالحركة قبل أن تجري من تحتها ولا من فوقها.

[٤] وإما أن تكون بدأت بهما معاً في حال واحد.

فإن قلت: إنها بدأت بالحركة من فوق الأرض قبل أن تجري تحتها، ناهيتها وأقررت بحدثها من الفوق قبل التحت وجعلت بدءها بالحركة من أحد المكانين قبل الآخر.

وإن قلت: إنها بدأت بالحركة من تحتها قبل أن تحرك فوقها، ناهيتها أيضاً وجعلت الحدث كان من التحت قبل الوصول إلى الفوق.

وإن قلت: إنها جرت في الفوق والتحت معاً أحلت؛ لأن النجم لا يوجد في الفوق والتحت معاً في حال واحد؛ لأن الفوق غير التحت والتحت غير الفوق، فكل نجم مما ذكرنا لا يخلو من أن يكون سارياً من الفوق إلى التحت، أو من التحت إلى الفوق، أو لم يسر من أيهما.

وإن قلت: إن النجوم لم تبدأ بالحركة من فوق الأرض ولا من تحتها، جحدت حركتها وأبطلتها وادعيت عدمها؛ لأنه لا يوجد إلا فوق الأرض في جو السماء أو تحت الأرض في بعض الهواء، فهذا والحمد لله دليل واضح على بدء حدثها وجريها وإبطال ما قيل به من قدمها، والله المستعان وهو حسبنا وعليه التكلان.

ودليل آخر: أنَّا نجد النجوم على حالين وهما الطلوع والأفول، ولا يخلو من أحد وجهين فيما مضى من الأزمنة: إما أن تكون تطلع وتأفل، وإما أن تكون لم تطلع ولم تأفل.

فإن قلت: لم تطلع ولم تأفل، جحدت حركتها، وإن أقررت بالطلوع والأفول لم يخل من أحد ثلاثة أوجه: إما أن تكون طلعت قبل الأفول، وإما أن تكون أفلت قبل الطلوع، وإما أن يكونا جميعاً في حال واحد.

فإن قلت: إنها بدأت بالطلوع قبل الأفول أقررت بحدث الحركة من الطلوع قبل الغروب.

وإن قلت: إنها بدأت بهما معاً في حال واحد، أحلت وأقررت بالحدث وناقضت، وجعلت الطلوع أفولا، والأفول طلوعاً، ولزمك أن تجعل الليل نهاراً، والنهار ليلاً، والوجود عدماً، والعدم وجوداً، والباطل حقاً والحق باطلاً.

ودليل آخر: أن الذي مضى من الحركة على حالين؛ طلوع قبل غروب، وغروب قبل طلوع، وللقبل والبعد نهاية وغاية؛ لأنهما يدلان على الزيادة بعد النقصان، والنقصان يدل على القلة قبل الكثرة؛ لأن الحركات لم تكثر

إلا بعد قلتها، ولا تزيد إلا بعد نقصانها، والزيادة بعد النقصان تدل على نهاية الزائد الذي كان ناقصاً قبل زيادة ما زاد فيه.

ودليل آخر: إما أن يكون ما مضى من طلوعها أكثر مما مضى من غروبها، وإما أن يكون ما مضى من الغروب أكثر مما مضى من الطلوع، وإما أن يكونا سواءً سواء.

فإن قلت: إن الطلوع أكثر من الغروب، أو الغروب أكثر من الطلوع فيما مضى، جعلتهما متناهيين إذ كانا متفاوتين، ألا ترى أن الطلوع إن كان أكثر بمدة فللمدة نهاية وغاية؛ لأن النجم إذا كان ما مضى من طلوعه أكثر بمدة تشيا عند غروبه وإذا تشيا فللتشوية نهاية وغاية، وإذا كانا متشيين مرة ومختلفتين أخرى فقد صح تناهيهما؛ إذ لم يخلوا مما ذكرنا.

ودليل آخر: أن الذي مضى من حركة النجوم هما الحالان اللذان ذكرنا، وما مضى من الأشياء فقد نفد وانقضى، وما نفد وانقضى فقد انقطع، وما انقطع فقد تناهى، ألا ترى أن الذي مضى طلوع وغروب وكل فقد عدم وتناهى.

ودليل آخر: أن حركات النجوم لا تخلو من أحد وجهين:

[١] إما أن تكون موجودة.

[٢] وإما أن تكون معدومة.

فإن قلت: إنها موجودة أحلت؛ لأن حركتها في الأيام التي مرت على القرون الأوائل غير حركتها في الأيام التي مضت علينا؛ لأن الدهور التي كانت فيها أصولنا هي غير الدهور التي فيها اليوم فروعنا؛ لأن تلك أيام عدمت، وهذه أيام حدثت، وهذا مما لا يقول بغيره عاقل.

وإن قلت: بل ما مضى من الحركات معدوم فقد أقررت بالحق، وما عدم فقد تناهى.

فإن قال: وما أنكرت من أن تكون الحركات تحدث وتعدم إلى ما لا نهاية له؟!

قيل له ولا قوة إلا بالله: مسألتك تحتمل وجهين:

[١] إما أن تكون عنيت ما هو الآن يحدث ويدور.

[٢] وإما أن تكون عنيت ما مضى وفني بعد حدوثه فذلك متناهي.

لأنه على حالين متناهيين؛ الحدوث ثم الفناء، وما يصح فناء كله بعد حدوثه كله فله نهاية وغاية.

وإن كنت تريد بقولك لا نهاية له؛ ما هو الآن يدور من الحركات فليس يعقل تناهيه وانقطاعه إلا من المسموع، وقد أخبر الله في كتابه بانتثار الكواكب وانكدارها، وسقوطها حيث يريد وانحدارها.

ودليل آخر: إما أن يكون ما مضى من جري الشمس في المنزلتين اليمانية والشامية موجوداً، وإما أن يكون معدوماً.

فإن قلت: إنه موجود أحلت؛ لأنها جرت على المنزلتين دهور مضت قبل حدوثنا بأزمنة ما لا يحصيها إلا خالقها.

وإن قلت: إن ما مضى من جريها معدوم تناهى جريها لما قدمنا من بيان تناهي المعدوم؛ لأن الذي مضى من جريها على حالين:

[١] حال في المنزلة اليمانية.

[٢] وحال في المنزلة الشامية.

وللحالين الماضيين النافذين نهاية وغاية، وأيضاً فقد يدل حدث حركات النجوم في المشرق والمغرب أنها ذات عدد والعدد على وجهين متناهيين وهما الشفع والوتر، ولا يخلو ما فني وعدم من هذه المرار، وحساب الحركات والتكرار، من أن يكون شفعاً أو وتراً، وللشفع والوتر نهاية وغاية؛ لأن الشفع هو الأزواج، والوتر هو الفرود من الحساب، وقد عدم الجميع مما مضى، وتضمنه العدم والفناء.

فإن قال: وما أنكرت من أن تكون قبل هذه الحركة ساكنة، ثم وجدت بعد سكونها القديم متحركة؟!

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك من قدم السكون الذي ذكرت؛ لأنها لا تخلو في حال سكونها من أحد وجهين:

[١] إما أن تكون سكنت دهوراً كثيرة.

[٢] وإما أن تكون سكنت دهوراً قليلة.

وللكثير والقليل نهاية وغاية، وقد قدمنا الدليل على حدث الدهر وغايته وانقطاعه بعد حدوث ساعاته، والحركة والسكون فهما حالان محدثان لا ينفك الجسم منهما، وهما حقيقة الزمان(*) وما كان مضطراً إلى حالين محدثين لا لحد من أحدهما بدأ، ولا عنهما معاً بدداً فلا بد له من ثان بناه عليهما، واضطره في الشاهد إليهما.

(*) نلاحظ بجلاء خلوص الإمام ﷺ إلى تعريف الزمان فيزيائياً من خلال الاعتماد على المنطق الصِّرف.

فإن قال: ما أنكرت من أن تكون النجوم تحركت قبل هذه الحركة التي دللت على انقطاعها بحركة لم تزل من طباعها؟!

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك؛ لأنها لا تخلو من أن تكون تحركت في بعض الجهات أو لم تحرك في شيء منها.

فإن قلت: لم تحرك في شيء منها جحدتها؛ لأنها لا توجد إلا في أماكنها من الأهوية أو من غيرها.

وإن قلت: إنها تحركت في بعض الجهات، فالجهات معروفة وهي الفوق والتحت، والمشرق والمغرب، واليمن والشام[1].

فإن قلت: إنها لم تزل تهوي وتحرك سفلا مما لا نهاية له من الأجواء.

أو قلت: إنها تحركت في حال أزليتها علواً مصعدة مما لا نهاية له من الهواء.

أو قلت: إنها تحركت من المشرق مما لا نهاية له، أو من المغرب إلى المشرق مما لا نهاية له، أو من اليمن مما لا نهاية له، أو من الشام إلى اليمن مما لا نهاية له أيضاً.

فالجواب لك في ذلك وبالله توفيقنا: إنا أنكرنا ذلك؛ لأنها لا تخلو في مسيرها من أي الجهات كانت حركتها من أحد ثلاثة أوجه لا رابع لها:

[١] من أن تكون قطعت بحركتها أماكن متناهية.

[٢] وإما أن تكون قطعت أماكن لا نهاية لها.

[٣] وإما أن تكون لم تقطع بحركتها شيئاً.

---

(١) اليمن: الجنوب، والشام: الشمال.

فإن قلت: إنها قطعت بحركتها أماكن لا نهاية لها أحلت وناقضت؛ لأنك قلت قطعت بحركتها أماكن فأوجبت نهاية الأماكن بقطع النجوم لها؛ لأن المقطوع متناهي، ثم نقضت قولك بقولك: لا نهاية لها، فأوجبت نهاية الحركة، إذ لم تكن الحركة إلا في الأماكن المقطوعة المتناهية؛ لأن القطع للأماكن لا يكون إلا ببدء الحركة.

وإن قلت: إنها قطعت أماكن متناهية أوجبت نهاية الحركة؛ لأن الحركة لم تكن إلا في مكان، والمكان مقطوع، والمقطوع متناهي.

وإن قلت: إنها لم تقطع بحركتها شيئاً لم تخل من أحد وجهين:

[١] إما أن تكون حركتها هذه كاختلاج العروق في أماكنها(*).

[٢] أو سيراً من مكان إلى مكان(**).

فإن كانت حركتها من مكان إلى مكان وقولك لم تقطع شيئاً محال؛ لأن السائر منها لا يكون إلا قاطعاً بحركته للهواء، أو إذا تحركت النجوم وسارت، ولا بد أن تقطع ما عبرت.

وإن قلت إن حركتها كاختلاج العروق في محلها، فقد حددت الحركة وناهيتها؛ لأنك ـ زعمت ـ أنها كانت تختلج في مواضعها، ثم انتقلت عن الاختلاج فانقطع منها؛ لأنها لما زالت عن ذلك المكان بطل اختلاجها وثبتت حركتها وجريها، وإذا انقطع اختلاجها فقد تناهى؛ لأن الحركة أتت بعد انقطاع أوله وآخره.

(*) إشارة إلى الحركة الدائرية للكون ومفرداته (نجوم، كواكب، مجرات ...).افتراض الكون النابض.

(**) إشارة إلى الحركة الانتقالية.

وأيضاً فإنه لا يخلو ما انقطع من اختلاجها من أن يكون عدم جميعه أم لا، فلا نجد بدأ من أن نعلم علماً يقيناً أن جميع ساعات الاختلاج قد بطلت وعدمت جميعاً بعد ما حدثت.

والجواب في حدث حركات الرياح وهبوبها كالجواب في حركات النجوم في طلوعها وغروبها، وقطعها للأماكن المتناهية بمسيرها، وبيان الحدث في حركتها وتسخيرها، وإذا صح حدث الحركة والسكون صح أن صانعهما ومحدثهما بخلافهما، وأنه ليس بمتحرك ولا ساكن؛ لأنه لو كان متحركاً أو ساكناً لكان محدثاً، وأنه لا يعقل ولا يعرف شيء من الأشياء إلا بأن لهذه المحدثات صانعاً بخلافها، وأنه عز وجل أولى بكل ما حسن من الصفات، وأحق بالتنزيه عن شبه المحدثات، ومن أكرم صفاته العلم والعلم فهو ذاته.

[الصفات الإلهية]

والدليل على أنه عالم أنا وجدناه مصلحاً حكيماً، والحكمة لا تتم للجهال، وأيضاً فإن الجاهل ممنوع من العلم والله ليس له مانع؛ لأن الممنوع مصنوع والله صانع، وإذا انتفى عنه أن يكون ممنوعاً، أو يكون مدبراً مصنوعاً صح أنه لم يزل من الجهل ممتنعاً، وإذا لم يزل بريئاً من الجهل والنقصان فعلمه قديم بأبين البيان، وإذا كان علمه قديماً أزلياً وكان من تأليف الغير إليه بريئاً صح أن علمه هو ذاته، وكذلك قدرته وحياته؛ لأنه سبحانه لم يزل قادراً حياً، سميعاً بصيراً قوياً، وسمعه وبصره فهما علمه، وعلمه فهو قِدَمُه سبحانه،

وقدمه وعلمه حياته، وحياته قدرته، وقدرته ذاته، وذاته حقيقته، وحقيقته وحدانيته(*).

وحقيقة حكمته التي هي من صفات الذات هي علمه سبحانه بجميع المعلومات، وحقيقة حكمته عز وجل في صنعه للمحدثات هي إتقانه لما صنع من المحكمات التي لا تهيأ إلا بالحكمة الأزلية والصفة السابقة الأولية.

وحقيقة عدله إحسانه، فمن وصفه بالإحسان فقد عدَّله، ومن نسب إليه القبيح فقد جوّره.

وحقيقة رحمته لأوليائه ثوابه.

وحقيقة غضبه على أعدائه عقابه.

وحقيقة كرم ذاته عظمته. وعظمته قدرته.

وحقيقة كرم فعله نعمته.

وحقيقة عدله في البلوى تكليف ما يطاق.

وحقيقة عدله في التكليف إظهار الحسن من أفعال عباده، وإظهار الحسن خير من تركه.

وحقيقة عدله في الأمر بإظهار الحسن؛ لأن إظهار الحسن عاقبة حسنة من ثوابه.

وحقيقة عدله في خلق الكافر أنه لم يخلق كفره بل نهاه عنه وزجره، وأوعده على فعله وحذره.

(*) كما نلاحظ في أسلوب الإمام (ع) رشاقة فنية وأسلوباً راقياً خالياً من الحشو حيث جلاء الفكرة ووضوحها وتوصيلها بأقل جهد وأبسط طريقة وذلك يدل على تمرسه وبراعته واطلاعه على أساليب اللغة وخاصة التي تخدم موضوعه.

وحقيقة حكمته في خلقه لمن علم بمعصيته أن خلقه لجسم العاصي وعقله، وحياته بعد موته، وإيجاده بعد عدمه، حكمة جليلة، ونعمة عظيمة، وفعل النعمة والحكمة خير من تركها.

وأيضاً فليس يجب على الحكيم أن يترك الحسن من فعله لعلمه بقبح القبيح من فعل غيره، وليس علمه بمعصية العاصي يدخله في معصيته، ولا علمه بخير المطيع يجبره على طاعته، وليس يثيب ويعاقب على علمه، وإنما يثيب العبد أو يعاقبه بفعله؛ لأن العلم هو الله عز وجل، وليس يثيب الله على نفسه وإنما يثيب العبد على حسن فعله وطاعته.

فإن قال قائل: فلم لم يجبر عباده على الطاعة كلهم؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأنه لو جبرهم على الطاعة لكانت الطاعة فعله لا فعلهم ولما استحقوا المدح على فعل غيرهم.

وحقيقة عدله في سقم عباده وأمراضهم وموتهم أن المرض والألم يدعو إلى الخوف من العذاب، والخوف يدعو إلى النعمة والثواب، ولو أمنوا الموت والأسقام، وشفوا من الأمراض والآلام، لعظمت ذنوبهم، ولهلك بسبب الأمان أكثرهم، ولقل خوفهم، وهاهم اليوم مع قصر أعمارهم قد عظم هلاكهم، وجل ظلمهم وضلالهم، فكيف لو أهملهم من ذلك وأنظرهم، ولكنه جاد علينا بذلك لعلمه بضعفنا، وأعاننا به على جهاد أنفسنا؛ لأنا وجدنا الخوف يمنع من اللذات، ويشغل عن فعل السيئات، ويدعو إلى فعل الحسنات، ويدعو إلى الإقصار عن الموبقات.

والدليل على أن للصانع رسولاً أنه حكيم، والحكيم لا يهمل خلقه من الأمر

بالخيرات والنهي عن المنكرات ولا يكون ذلك إلا كلاماً مسموعاً فوجب أن يرسل إليهم رسولاً مسمعاً.

وحقيقة عدله في ذبح البهائم وإحلالها، أن لها على ذلك ثواباً[1] في آخرتها وليس ألم البهائم وإتعابها إلا دون ألم الأخيار وموتها.

وحقيقة عدله ونفي الجور عنه أنه غني عن الجور غير محتاج إليه وأنه عالم بقبحه، وإذا كان عالماً بقبحه غنياً عنه لم يفعله.

[الأدلة على البعث والنشور]

وحقيقة الدليل على البعث أن الصانع حكيم، والبعث والحياة خير من موت الأبد.

ودليل آخر: أنه لم يخلق الخلق إلا لينفعهم بالبقاء؛ إذ لا منفعة في الهلاك والفناء.

ودليل آخر: أن موتهم بالكلية لا ينفعه ولا ينفعهم، وشيء لا ينتفع بفعله لا يكون من فعل حكيم.

ودليل آخر: أن بعثهم بعد موتهم لا يؤوده ولا يعجزه، وإذا لم يعجز عن فعل الخير وجب عليه فعله.

ودليل آخر: أنه أمر ونهى، فأطاعه قوم وعصاه آخرون، وقد وعد من أطاعه بالثواب، وأوعد من عصاه بالعقاب، ثم انقضت آجال المطيعين ولم يثابوا، وانقضت آجال العاصين ولم يعاقبوا، فعلمنا أن ثمّ داراً غير هذه الدار يثاب فيها المحسنون، ويعاقب فيها المسيئون؛ لأن المطيع يجب له الثواب،

---

(1) بمعنى أن الله تعالى ادخر لها عوضاً في آخرتها.

وكذلك يجب على أهل المعصية العقاب؛ لأن الحكيم لا يخلف الميعاد؛ لأنه غني عن إخلاف وعده ووعيده، ألا ترى أن المخلف لوعده إنما يخلفه لأحد ثلاثة أوجه:

[١] إما لاجتلاب منفعة.

[٢] أو دفع مضرة.

[٣] أو عبث وسفه.

فاجتلاب المنافع واللذات لا يكون إلا للمحدثات؛ لأن لذة المنفعة لا تصل إلا إلى كل شيء أو بعضه، والكل والبعض لا يكون إلا مخلوقاً محدثاً، ومربوباً مدبراً؛ لأن المحتاج المضطر لا بد له من مانع منعه من الغنى والسعة والجاه واضطره إلى الحاجة.

وكذلك الدافع عن نفسه للمضار يكون محتاجاً إلى الدفاع عن نفسه ملجأ مضطراً إلى الخوف من هلكته، ومن كان مضطراً ضعيفاً خائفاً لم يكن رباً ولا خالقاً؛ لأنه محل للخوف واللذات، ملجأ إلى المحن النازلات، غير آمن من المهلكات، فهاتان صفتان للمخلوقين يتعالى عنهما رب العالمين، وفاطر السماوات والأرضين، وخالق الخلق أجمعين، ومجيب المضطرين، وأرحم الراحمين، وأعظم الأعظمين، وأكرم الأكرمين.

وأما العبث والسفه فإنما تولد من الشهوات والهوى، والخالق تبارك وتعالى لا يشتهي ولا يهوى؛ لأن الهوى والشهوة غرض يحل في القلوب، ويتعالى عنه علام الغيوب.

وأيضاً فقد نجد من المخلوقين الضعفاء المحتاجين من لا يخلف وعده،

ولا ينقض أبداً عهده مع ضعفه وحاجته ومسكنته وفاقته، وقلة علمه وحكمته، فكيف بمن لا يضعف عن التدبير ولا يهن عن التقدير، ولا يحتاج إلى ظلم [عبيده] [1]، وإخلاف وعده ووعيده، ومن هو أحكم الحكماء وأعلم العلماء، وأرحم الرحماء، وأقدم القدماء، وأخبر الخابرين، وأقدر القادرين، وخير الغافرين، وأحسن الخالقين، وأرزق الرازقين، وأسرع الحاسبين، وأقرب الأقربين، ومن عظمت منته، ووسعت رحمته، وبانت حكمته، وظهرت نعمته، وقامت حجته، وتمت كلمته، ونفذت مشيئته، وقهر سلطانه، وعم إحسانه، وعظم شأنه، ووضح برهانه، وكمل عدله، وجل فضله، وكرم فعله، وبلغت رسله.

والحمد لله ولي النعم والفضل والكرم على بره ونعمه وفضله وكرمه، وصلى الله على نبينا ومولانا محمد وآله وسلم تسليماً.

(١) في المخطوط (وعبده) ولعل الصواب عبيده كما أثبته.



كتاب الطبـــائع

- الدليل على حدوث السماوات والأرض.
- الدليل على اختلاف المحدثات والمصنوعات.
- الدليل على حدوث الأصول والفروع.
- الدليل على حدوث الطبائع.
- الحكمة في دوام التكليف.
- الحكمة على الولاية.
- الحكمة في خلق المخلوقات الضارة.
- الدليل على خلود العصاة في النار.



بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطاهرين وسلم تسليماً.

سألت[1] يا أخي -وفقك الله لطاعته وخصك بأجزل كرامته وحباك [بأسنى][2] هدايته- عن أولى مسائل المتعبدين، وأعظم مقاصد المهتدين، وأهلك مهالك الملحدين فقلت: ما الدليل على حدث السماوات والأرضين وهما أدل الدلائل على رب العالمين؟

والدليل على حدثهما: أنا نظرنا إلى اختلافهما فلم يخلُ عندنا من أحد [ثلاثة][3] أوجه تدل على حدوثهما:

[١] إما أن تكونا خالفتا بين أنفسهما.

[٢] وإما أن يكون اختلافهما من قبل قدمهما.

[٣] وإما أن يكون اختلافهما دليلاً على حدثهما.

فإن قلت: إن اختلافهما من فعل أنفسهما فهذا محال[4] لما علمنا من موتهما؛ لأن الميت لا يقي نفسه فكيف بتدبيره لها! وإذا عجز الحي الحكيم عن تدبير نفسه وتعذر عليه تحسين القبيح من صورته فالموات أعجز من[5] ذلك وأجدر بالعجز عن أن يكون كذلك.

---

(١) في (ب): وسألت.
(٢) في (أ): بأمنى. والصحيح ما أثبتناه بين المعكوفين من (ب).
(٣) سقط لفظ (ثلاثة) من (أ)، فأثبتناه من (ب).
(٤) في (ب): فهذا تحير.
(٥) في (ب): عن ذلك.

وإن قلت: إن اختلاف أجناسهما، وتغاير صفات أجسامهما من قبل قدمهما؛ فالقديم لا يوصف بالاختلاف، ولا يتضاد في شيء من الأوصاف لأنه إن اختلف في شيء من أوصافه وقع الفرق بينه لعلة اختلافه، وبطلان اتفاقه وائتلافه؛ لأن القديم صفة واحدة توجب الائتلاف، ولا توجب المضادة والاختلاف، فلو كانت السماء[1] والأرض قديمتين لما كانتا في الأوصاف مختلفتين؛ إذ لا فرق بين قدمهما[2]، فلما وقع التفاضل بين أجزائهما، والاختلاف بين صور أجسامهما صح عندنا بأيقن اليقين حدثهما؛ إذ لا فضل لقديم على قديم مثله ولا يخالفه؛ إذ هو من شكله.

[الأدلة على تباين المحدثات]

فإن قال بعض الملحدين بجهله، أو عارض بمكابرة عقله: وكذلك المحدث أيضاً لا يخالف محدثاً مثله، ولا يوجد في الأوصاف مغايراً له.

فالجواب في ذلك وبالله نستعين: أن اختلاف المحدثات أوجب من اختلاف القديم؛ لأن القديم لا فرق بين قدمه ولا مخالف بينه فيدل[3] فيفضل بعضه على بعض، والمحدثات[4] أضداد مختلفة وفي الدلالة[5] على الصانع مؤتلفة، واختلاف أجناسها دليل على المخالف بينها ليعلم أنه سبحانه بخلافها.

(١) في (ب): السماوات.
(٢) في (ب): إذ لا فرق بين قدمهم وحدثهما.
(٣) في (ب): غير واضحة. ولعلها كما أثبتنا.
(٤) في (ب): وللمحدثات.
(٥) في (ب): وفي الدلالات.

وتصرف أحوالها دليل على مصرِّفها؛ لأنا لما وجدنا السماء قد خصت بالسمو والارتفاع فخصت[1] الأرض بالهبوط والاتضاع علمنا أن [خالقاً][2] خالف بينهما ودل بذلك على حدوثهما[3]، ومما يدل أيضاً على حدوث الأرض؛ إذ هي أقربهما إلينا، وأيسرهما مشاهدة علينا، أنا لما نظرنا إليها[4]، وما أظهر الله من الدلائل[5] عليها فوجدناها على ضربين مختلفين وهما الكبر والصغر، فما الذي جعل بعضها كبيراً وجعل منها شيئاً صغيراً حتى خالف بينهما؟ وما الخصيصة[6] التي فضلت أحدهما بالكبر، وخصت أحدهما بالقلة والصغر، أو لست تعلم أن الخصائص تدل على المختص بها؟!!

ودليل آخر[7]: لما نظرنا اختلاف سهولها وجبالها، وتضاد أحوالها وألوانها دل ذلك على صانعها وجاعلها، إذ التفضيل لبعضها على بعض دل على المفضل بينها.

ودليل آخر: أنا نظرنا[8] إلى افتراقها واجتماعها، فوجدنا منها ما هو ملتحم[9] مجتمع، ومنها ما هو مفترق منقطع، علمنا[10] أن له مفرقاً جامعاً

---

(١) في (ب): وخصت.
(٢) في (أ) مختصاً، وما بين المعكوفين من (ب)، وهو الصواب.
(٣) في (ب): على حدثهما.
(٤) في (ب): أنا لما نظرنا إليهما.
(٥) في (ب): ما أظهر الله من الدلالات.
(٦) والحكمة التي فصلت.
(٧) في (ب): وأنا لما نظرنا.
(٨) (أنا نظرنا) ساقط من (ب).
(٩) في (ب): ملتئم، وهو الصواب.
(١٠) في (ب): منقطع عليها.

ومفتطراً خالقاً صانعاً، وإلا فما[1] جعل المفترق مفترقاً؟ دون أن يكون ملتئماً ملتزقاً، وما خص أحدهما بالتباين والافتراق، وخص الآخر بالملاءمة والالتزاق.

ومما يدل على حدث الجسم الواحد في ذاته: أنه متغاير مختلف في جميع صفاته؛ لأن حركة الشيء غير سكونه، ورائحته أبداً غير لونه، وصفاته غير عينه، فلا بد من صانع ألّف بين المختلفات بلطفه، وإلا فما الذي خالف بين الموصوف ووصفه.

[الدليل على حدوث الأصول المتناسلة وفروعها المختلفة]

وسألت[2] عن الدليل على حدث أصول المتناسلة وفروعها، وبيان الصنع في عللها وطبائعها.

والجواب في ذلك[3]: أن الدليل على حدث أصولها وفروعها، أن الحكمة لازمة لجميعها؛ لأن كل طبيعة من طبائعها قد جُعلت لمصلحة من مصالحها كلما أصلحت الأجساد بآلات جوارحها، فكل طبيعة من هذه الطبائع لا تشبه الأخرى، ولولا اختلافها على الحيوانات لهلكت، ولما تناسلت ولا كثرت؛ [لأن][4] الحيوانات في بدء نشأتها ركبت على ضعف بنيتها؛ لتعلم[5] بفاقتها

(١) في (ب): وإلا فما الذي جعل المفترق.
(٢) في (ب): مسألة وسألت.
(٣) في (ب): والجواب أن الدليل.
(٤) في (أ): لا، والصحيح: (لأن) مثبتة من (ب).
(٥) في (ب): لتعلم، وفي (أ): ليعلم.

وحاجتها أنها مضطرة إلى المنعم بقوتها؛ لتشكر فضل نعمه بحياتها فتستحق المدح والثواب على شكرها.

والطبائع الأربع فهي أضداد متنافية وهي في صلاح الأجسام متكافئة؛ لأن الحر والبرد ضدان وكذلك الرطوبة واليبس مختلفان، وكذلك[1] الاختلاف دليل على حكمة صانعها؛ إذ جعل كل طبيعة[2] تصلح لخلاف ما تصلح له الأخرى وإلا فما الذي[3] جعل البرد والحر مختلفين دون أن يكونا جميعاً مؤتلفين؟ وما الذي خص أحدهما[4] بالتبريد والإجماد، وخص الأخرى بالحرارة والاتقاد؟

وما الذي خالف بين اليابس والرطب فاختلفا دون أن يتفقا ويأتلفا، وما الذي خص أحدهما بالرطوبة واللين دون أن يكونا على اليبس مجموعين؟ فالموجود من الأجسام كلها لا يصلح وجوده إلا يابساً أو رطباً [حاراً][5] أو بارداً ولو بطلت الطبائع من الجسم لما كان موجوداً.

كما لا يصلح وجود محدث عدمت حركته وسكونه؛ لأن الموجود صفة لا يصح مع بطلانها كونه، ولو عدم الحيوان طبائع الحركة لكان ذلك له من أعظم التهلكة.

وكذلك القول في الأشجار المغتذية، أنها لا تتم إلا بطبائع الأغذية،

---

(١) في (ب): فذلك.

(٢) في (ب) لم تتضح.

(٣) في (ب): وإلا فما جعل.

(٤) في (ب): وما الذي أحضر أحدهما.

(٥) ما بين المعكوفين من (ب).

وليست الطبائع بفاعلة للحكمة[1] والتدبير، ولا هي بعالمة بعجائب التقدير، وإنما هي حكمة رب العالمين، ودلالة عليه لجميع المخلوقين.

وأصل الحكمة عند جميع أولي الألباب فإنما هي[2] إصلاح الأسباب بالأسباب، فلما وجدنا الأشياء مصلحة بطبائعها، دلنا الإصلاح على حكمة صانعها؛ لأن الطبائع جعلت لمنافعها، فعلمنا أن المتفضل عليها بنعمها حي عالم بضعف أجسامها؛ لأنه لو كان ميتاً جاهلاً بفاقتها لما اهتدى إلى إصلاح قوام حياتها؛ لأنا نجد الموت والجهل يوجبان الفساد، ولا يدركان تدبير أمور العباد.

والدليل على أصول هذه الفروع، أن الموت وقع على الجميع، وللجميع نهاية وغاية، ألا ترى أن الفروع متشعبة[3] من أصولها فإن الأصول في التدبير كنسولها، وإذا صح أن في هذه النسول من الحكمة مثل ما في [الأصول][4] فلا بد لها من محكم، وإذا صح أن عليهما نعمة فلا بد من منعم، وإذا كانا جميعاً محدثين فهما بغير شك متناهيان؛ لأن الموت وقع على أصولها[5] كلها وللكل نهاية وغاية.

ألا ترى أن أصولها على معنيين يدلان على النهاية، ويخبران بالأصل والغاية وهما الحياة والموت، وذلك أن الحياة[6] حوتهم كلهم فلم تغادر منهم

(١) في (ب): بفاعلة الحكمة.
(٢) في (ب): فإنما هو إصلاح.
(٣) في (ب): مشتقة.
(٤) في المصفوف عليها: «الأرض»، ولعل الصحيح ما أثبتناه من (ب).
(٥) في (ب): وقع على أصولنا كلها.
(٦) في (ب): وذلك.

أحداً حتى حوته، ولم تترك من أجسادهم جسماً [(1)حتى حلته، ثم خرجت الحياة من الأجسام كلها وانتقلت من فروعها وأصولها، فلم تُبقِ الحياة جسماً حتى فارقته، ولم تترك جسداً حتى باينته، ثم تضمن الموت جميعهم، وحوى أصولهم وفروعهم، وإذا حواهما الموت فقد ناهاهم، وأوضح حدهم وغاياتهم؛ لأنه لم يقع على الفرع حتى تضمن أصله، ولم يُفنِ الفرع حتى أفنى الأصل قبله.

وإذا تناهت الفروع إلى أصولها، ورجع أكثرها إلى قليلها، فلا بد من النظر في الأصل الذي هو أقل من فرعه، والبحث على فعل الحكيم وصنعه، فإذا نظرنا في ذلك علمنا أن الغاية التي صحت، والنهاية التي سلفت زوجان أصليان غير مولودين، ولا من الأصلاب والأرحام موجودين، والدليل على حدثهما كالدليل على حدث فروعهما، وذلك أن في كل واحد منهما حكمة في ذاته، ومصالح في جوارحه وصفاته، ثم علمنا أن فيهما جميعاً صنعاً محدثاً من عجيب خلق الذكر والأنثى، وجعل كل واحد منهما لصاحبه عمداً، وقصد الصانع لاتفاقها قصداً.

والدليل على أنهما كانا قبل حياتهما ميتين، وكانا قبل الحياة معدومين أنهما إذا كانا حيين معمرين فلا يخلو ما مضى من أعمارهما من أن يكون كثيراً أو قليلاً، وللكثير والقليل نهاية تدل على الابتداء؛ لأن ما مضى من العمر فقد تناهى؛ لأن كثيره لم يكثر إلا بعد أوليته.

ودليل آخر: إن حركاتهما فيما مضى لم تكثر إلا بعد قلتهما وقلة الحركة

(1) من هنا إلى قوله: وكانت لهما حركات. نهاية المعكوف ساقط من (ب).

تدل على أوليتها، وتخبر بقضاء جميعهما بنهاياتها، وانقطاع أولها وآخرها بغاياتها؛ لأن آخر الحركة لم تعدم إلا بعد عدم أولها، وانقطاع أكثرها وقلتها، وفنائها بعد حدوثها كلها، والحياة مقرونة بالحركات، والسكون مقرون بالممات، فكانت حياتهما مدة، والمدة قد عدمت وكانت لهما حركات][1] فسكنت، وأعمار ـ بعد حدوثهما انقطعت ـ وإذا صح أن لحياتهما أولاً لم يخل من أن يخلقا[2] في البدئ طفلاً أو يكون جعلهما تماماً كاملاً، فإن كانا في بدئ خلقيهما[3] طفلين، وكانا إلى التربية واللطف محتاجين، فذلك دليل على خالقهما؛ إذ جعلهما[4] بعد صغرهما، وقواهما بعد ضعفهما، وكثرهما بعد قلتهما، وعلمهما بعد جهلهما، وأغناهما بعد فقرهما.

وإن كانا في بدئ الأمر كاملين، وخلقا في البدئ عاقلين فإنهما في الكمال محتاجان إلى الأغذية وأنواع المصالح المختلفة من المآكل والمشارب الطيبة، واللباس وأظلة الأبنية، وذلك مما لا يقدران عليه، ولا يجدان السبيل أبداً إليه إلا بالله المنعم الواحد الخلاق، المتفضل[5] الرزاق؛ لأنهما في بدئ خلقهما لا يدريان ما أريد بهما، ولا يكون ذلك إلا بعد تأديب مؤدبهما، وقبول إلهام معلمهما؛ لأنهما مع جهلهما وحيرتهما لا يعلمان المنافع والمضار إلا بعد طول تجربتهما، والتجربة ربما كان فيها الهلاك والتدمير، وبطلان الحكمة والتدبير، فمن أجل هذا أوجبت أن يكونا مُعَلَّمين، ولجميع أسباب الحكمة ملهمين.

---

(١) إلى هنا تمام السقط في (ب).
(٢) في (ب): أولاً لم يخلقا من أن يخلقا في البدئ كفلاً.
(٣) في (ب): في بدئ خلقهما.
(٤) في (ب): إذ كفلهما بعد صغرهما.
(٥) في (ب): المتفضل المنعم الرزاق.

والدليل على أصول هذه البهائم ونسلها، كالدليل على هذه الفروع وأصلها[1] ـ فلعمري ـ لو لم يكن لنا من النظر إلا ما في جوارحنا لكان في ذلك دلالة على الله سيدنا، ولكنا علمنا أن الفحص عن أصل هذا الخطب الجليل أولى بالحكمة عند أهل العقل ولترك النظر هلك الملحدون، الفسقة الكفرة الجاحدون، الصم البكم المتلددون، الجهلة الفجرة المتمردون، ولترك الأدلة لم يعرفوه، وبعداوتهم جهلوه، فهم كالبهائم التي لا تعرف إلا ما جاهرت، ولا تميز إلا ما حاضرت، ولا تدرك إلا ما شاهدت ونظرت، فزادهم الله نأياً وبعداً، ولا وفقهم لخير أبداً.

[دوامية التكليف]

وسألت ـ أكرمك الله ـ عن دوام التكليف بعد الرسول، وذكرت أن يكون الجواب من المعقول.

والدليل على دوام ذلك: أن الحكيم لا يهمل خلقه من الأمر بالخيرات والنهي عن المنكرات؛ لأنه إن تركهم على الضلالة، ولم يهدهم ولم يأمرهم ولم ينههم، فقد اختار لهم الضلالة على الهدى، ورغبهم في الغواية والردى، ومن اختار الضلالة فغير حكيم، ومن رضي للعباد بالجهل فليس برحيم، فمن هاهنا صح دوام التعبد لجميع العباد؛ إذ الإهمال يدعو إلى الفساد.

ودليل آخر: أن الحكيم إذا أظهر حكمته لم ينسخها، ولم يبدلها إلا بخير منها أو مثلها، ولم ير بعد القرآن بدله، ولم ير خير منه ولا مثله.

---

(١) في (ب): وصولها.

ودليل آخر: أن الحكيم إذا ركب في عباده الاستطاعة والقوى، وفطرهم على منازعة الهوى، فلا بد من صرف[1] ذلك في طاعةٍ وهدى[2]، أو في جهل وضلالة ورَدَى، فالعقول تشهد أن الحكيم لا يأمر بصرف نعمه في الفساد، ولا يرضى لعباده بغير[3] الرشاد، ولا رشداً أرشد ولا هدى أهدى مما نزل الله في الفرقان من الهدى.

ودليل آخر: أن من أخفى هداه وحكمته، فقد نزع عن[4] أوليائه رحمته، ومن أخفى حكمته عن[5] أوليائه، وخلع حجته عن أعدائه، فقد برئ من الحكمة والتدبير، إذ رضي بالجهل والتدمير.

ودليل آخر: إن دار البلوى لا يخلو أهلها من التشاجر في أحكامهم وأديانهم، واختلاف آرائهم وأهوائهم، وإذا كانوا من الصفة على ما ذكرنا، وكانوا من الاختلاف على ما به قلنا، فلا بد للحكيم من أحد وجهين:

[١] إما أن يختار لهم أحكامهم على حكمه، ويصطفي جهلهم على علمه.

[٢] وإما أن يحكم علمه على جهلهم، وينفي بحكمه باطل حكمهم.

وإذا لم يكن بد من كتاب يحكم بينهم، ويبين لهم ما التبس عليهم، فلا يعلم أبْيَن من قوله، وما نزل من الهدى على رسوله ﷺ، وإذا كانوا من اختلاف

---

(١) في (ب): فلا يؤمن صدق ذلك وهذا.

(٢) في (ب): أو في جهل.

(٣) في (ب): غير الرشاد.

(٤) في (ب): من.

(٥) في (ب): من.

الأهواء على ما قدمنا، وفي[1] قلة الاتفاق على ما شرحنا، لم يؤمن أن يلبسوا بذلك على من يريد النجاة بجهلهم، ويبطلوا الحق بأسوأ فعلهم، فمن هاهنا وجب على الحكيم تبارك وتعالى أن يرسل في كل قرن من القرون رسولاً ليبين لهم ما فيه يختلفون، وينفي من الباطل ما لبس الضالون.

[الحكمة في شرعية الولاية]

وإذا كان ذلك واجباً عليه لحكمته[2] لم يؤمن أهل التمويه من بريته أن يلبسوا على الناس بدعوى رسالته.

فمن هاهنا وجب أن يخص بالإمامة أهل بيت معروفين، وبصحة النسب عند الخلائق مشهورين[3] ليكذب الناس مدعي ذلك من غيرهم، ويكون الطلب للإمامة في بعضهم أيسر من الطلب في كلهم[4]، وأبين للمرتادين، وأهون على المتعبدين من أن يطلبوه في الخلائق أجمعين.

مع أنه لو كان كذلك في جميع الناس، لوقعوا في أعظم الالتباس؛ لكثرة دواعي[5] الفاسقين، واغتيال[6] الظلمة المنافقين.

ولما كان ذلك واجباً على الحكيم نظرنا في قوله فوجدناه قد افترض مودة

(١) في (ب): ومن.
(٢) في (ب): بحكمته.
(٣) في (ب): موصوفين مشهورين.
(٤) في (ب): وجهلهم.
(٥) في (ب): دعاوي.
(٦) ولعله واختيال.

ذوي القربى من رسوله، ووجدنا أقرب القرابة لديه، وأسبقهم وأعظمهم عليه، وأجراهم في الجهاد بين يديه، وأحبهم إلى الله وإليه علي بن أبي طالب أمير المؤمنين -عليه صلوات رب العالمين-.

ثم وجدنا أقرب قرابته وأخصهم بنسبه وولادته السبطين ابني الرسول الطاهرين -صلوات الله عليهما وعلى أبيهما وأمهما وعلى من طاب من ذريتهما-.

ثم وجدنا الرسول صلى الله عليه [وآله] قد خصهما بنسبه وولادته فعلمنا أن ذريتهما أقرب قرابته مع دلائل تطول لو ذكرناها، ويتسع بها القول لو شرحناها، فهم أقرب قرابة الرسول، وأحقهم بنسبه[1] عند جميع أهل العقول.

وإذا كان الإمام من هذين الحيين وكان لا يوجد في غير آل السبطين فلا بد له[2] من دلائل يبين بها عنهم، وإلا فلا فرق بينه وبينهم، فمن تلك الدلائل التي تبينه عن قرابته، وتشهره للناظرين عن أهل نسبته[3] من أهل[4] بيته أن يكون أرجحهم عقلاً، وأحسنهم مقالاً وفعلاً، وأشهرهم حكمة وفضلاً.

(١) في (ب) لم تتضح.
(٢) في (ب): ولا بد له من دليل يبين (لم تتضح) عنهم ولا فرق.
(٣) في (ب): عن أهل نسبه.
(٤) في (ب): من أهل بيته أن يكون.

[الحكمة في خلق الضار من المخلوقات]

وسألت -وفقك الله لمرضاته وأعانك على طاعته- عن حكمة الله في خلق هذه الضوار[1] من ذوات السموم والمضار.

واعلم يا أخي أن هذه الهوام في أنفسها حكمة جليلة، تدل على خالقها من تركيب آلاتها وأدواتها، وإحكام صنعة هيئاتها، وإصلاح جميع قوام حياتها، وإلهامها لمنافعها ومضارها، ولذات نعيمها ومسارها[2]، فقد كُفِيت أسباب أرزاقها، وسُهِل لها جميع أرفاقها؛ لعلم الصانع الحكيم بضعفها عن احتيال الأرزاق وتكلفها، فأغناها عز وجل من سعة فضله، وكفلها بأنواع لطفه، وهي لا تحرث ولا تزرع، ولا يدخر أكثرها ولا يجمع، فكم فيها من عجيبة تضل فيها العقول، وحكمة يقصر دون وصفها القول[3]؟!

وما عسى أن نذكر من عجائب أوصافها، ونشرح من خصائص ألطافها، أو نحصي من غرائب أصنافها، لعجزنا[4] عن ذلك وضعفنا، وجل صنع الحكيم عن وصفنا.

ألا ترى إلى الذرة وضعفها، كيف عجزت الحواس عن وصفها، وقصرت عن إدراك مختلف أغراضها [في تصرف إقبالها وإعراضها][5] ودرك فهمها

(١) في (ب): الصورة.
(٢) في (ب): وشاربها.
(٣) في (ب): العقول.
(٤) في (ب): يعجزنا.
(٥) في (ب) ساقط ما بين المعكوفين.

لمعايشها، ونفورها عن المهالك وخوفها، وبشهواتها[1] لجميع لذاتها، وقوام روحها وحياتها، وإصلاح خلقها وتعديلها، وتوصيل[2] جوارحها وتفصيلها، قد جعل لها أعماد تقلها عن السقوط، وفصلت للإصعاد والهبوط[3] ولولا تلك الأعماد لما ارتفعت، ولولا تفصيلها لما انتفعت، ولسكنت عن التحرك وانقطعت، ولكن الحكيم جاد عليها برحمته، وامتنّ عليها بإظهار حكمته، وأتمها بفواضل نعمته.

وأما ما ينال الآدميين من ضرر الهوام، فما هو إلا كسائر الآلام، وما السم إلا سقم من الأسقام، وعلة من علل الأجسام، ومحنة من محن ذي الجلال والإكرام، يعظم فيها الأجر للمسلمين، ويجل فيها ثواب المؤمنين، وتخويف من رب العالمين، وموعظة لعباده الموقنين، وحجة ونقمة للفاسقين، وعقوبة للفجرة الظالمين؛ لأن الألم يدعو إلى ذكر الموت والفناء، ويزهد ذوي الألباب في الدنيا فيدعوهم الخوف إلى الإقصار عما يولج في عذاب النار، فهذه حكمة من حكم رب الأرباب، يستحق الشكر عليها من ذوي الألباب، مع أنه عز وجل يثيب المؤمنين على أمراضهم وأسقامهم، أكثر مما يثيبهم مع صحتهم، فالحمد لله الذي جاد علينا بموعظته، وجعل الرحمة في نعمته، فيا لها مِحَناً حسنت، ونعماً جلت وجسمت، وحكمةً بانت وعظمت.

وإذا كان في البهائم لله حكمة، وكان عليها منه نعمة، وكان آلمها[4] بأنواع

---

(١) في (ب): وشهواتها.

(٢) في (ب): وتواصل.

(٣) في (ب): عن السقوط للإصعاد الهبوط.

(٤) في (ب): وكان قد آلمها.

من الآلام، وامتحنها بالموت والأسقام، فلا بد لها في الآخرة من نعم لا تبلى[1] إذ كان إيلامه لها عدلاً، وإذا كان بالبهائم الخرس رحيماً، وكان في أمورها عدلاً حكيماً، فكيف بمن عرفه من أوليائه، وأيقن بثوابه ولقائه، وأحب وأبغض فيه، وهجر في بغضه مبغضيه، وصافى في محبته محبيه، ووالى فيه من يواليه، وعادى وناصب من يعاديه، فرحم الله عبداً اتصل بمولاه، وذل له[2] ولمن والاه، وقطع فيه جميع من عاداه، ولم يركن إلى متاع غرور دنياه.

[الرد على من زعم أن البهائم تصير بعد الحشر تراباً]

وقد بلغنا عن بعض أهل الحيرة والعمى، ومن لم يعط من التوفيق عطية الحكماء، أنه زعم أن البهائم تكون بعد الحشر تراباً، ولا يجعل الله لها على ألمها ثواباً، وإنما يقول بهذا من جهل حكمة الواحد الرحمن، ولم يوقن برحمته حقيقة الإيقان، وقذفه بالجور والعدوان، ولو كان الأمر في البهائم على ما وصف الجهال[3] وقال به الكفرة الضلال، لم يخل في إماتته لها من أحد وجهين:

[١] إما أن يكون عدلاً في إماتتها مرتين، ويثيبها على بعثها ثوابين، بعد أن يحشرها في الآخرة حشرين، وهذا محال عند ذوي العقول، فاسد في الاعتقاد والقول.

---

(١) في (ب): ونعيم لا يبلى.
(٢) في (ب): وجل له ولمن والاه.
(٣) في (ب): على ما وصفت.

[٢] وإما أن يكون جائراً كما زعموا، فيعذبها عذابين، بعد أن أحياها كرتين، فكيف يكون عدلاً إذا آلمها، وامتحنها بعد الحشر فأعدمها، ومن عذب في الآخرة والأولى بغير ذنب لم يكن عدلا، فقذفوا الله تبارك وتعالى وأخرجوه من الحكمة جهلا.

ودليل آخر: إما أن يكون ـ تعالى عن قولهم ـ رحيماً في إماتتها، وإما أن يكون رحيماً في حياتها، فالرحمة لا تكون في الموت الأبيد، وإنما الرحمة في الحياة والتخليد.

ودليل آخر: [إما أن يكون موتها ينفعه وإما أن يكون ينفعها][1] فهو غني عن موتها وحياتها، وهي محتاجة إلى حياة أنفسها، والموت فغير نافع لها، وإذا اتسعت رحمته، فكيف تضيق على البهائم نعمته، وهو قادر على تخليدها، وغير عاجز عن مزيدها.

[الخلود في النار لأصحابها]

وسألت [عن الدليل على دوام التخليد].

والجواب][2] في صدق الوعد والوعيد أن الحكيم رؤوف بالعباد، وإبطال الجنة وأهلها من أكبر الفساد، والحكيم لا يقطع ثوابه عن أوليائه، كما لا يقطع عقابه عن أعدائه؛ لأنه إن قطع ثوابه فقد ظلمهم، وعبث في خلقه فأهلكهم، والله يتعالى عن العبث والفساد، ويجل عن ظلم العباد؛ لأن أهل

---

(١) في (ب): ودليل آخر إما أن يكون موتها وحياتها ينفعها فهو غني عن موتها وحياتها وهي.
(٢) ما بين المعكوفين ساقط في (ب).

الجنة صبروا على محن الحكيم، والصبر محمود عند كل رحيم.

وأيضاً فإن الحكيم لا يظهر الحكمة للعبث والفناء، ولكنه جعل ذلك للبقاء، وقد أحسن أهل الجنة بالطاعة والإيمان، فهل يجازى أهل الإحسان بغير الإحسان؟! أجل إنه لبعيد عن ذلك، وأكرم من أن يكون كذلك.

وأيضاً فإنه شكور للمطيعين، والشكور لا يقطع شكره عن الشاكرين، ولا يهلك عباده المؤمنين، ألا ترى أن حكيماً من حكمائنا لو [أنعم][1] بنعمة ثم سلبها وانتزعها عن المنعم عليه وأذهبها لما سميناه مع هذا الفعل الدنيء حكيماً، ولا دعاه أحد أبداً كريماً، ولصار عند الخلائق مذموماً، ولكان عند الجميع لئيماً، ولما كان عندهم أبداً رحيماً، فكيف بأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، وأشكر الشاكرين، وخير الغافرين.

فإن قال بعض الجهال الملحدين الكفرة الفجرة الجاحدين: فلم زعمتم أنه لا يرحم أهل النار، ولا ينقلهم إلى دار الأبرار؟

قيل له ولا قوة إلا بالله العظيم: [لا يفعل ذلك الحكيم][2] لأن إخراج الفاسقين من العذاب الأليم، إلى الجنة والثواب الكريم؛ يدعوهم إلى البطر والفساد، وإلى ما كانوا فيه من الكفر والعناد، والعبث والظلم للعباد، وذلك قول الواحد الرحمن، فيما أنزل من محكم القرآن: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[الأنعام:٢٨]، فكيف لا يستحق هؤلاء الفاسقون ما صاروا إليه[3]

(١) في (ب) لم يتضح، وما أثبتناه من لدينا.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من (ب).
(٣) في (ب): ما صار إليهم.

من العذاب المهين مع (ما)[1] علم الله من كفرهم وفسادهم، وفجورهم وعنادهم؛ حتى أنه علم أنه لو أخرجهم من العذاب؛ لعادوا لما نهوا عنه من الأسباب.

فكيف يا أخي -أكرمك الله بثوابه ونجانا وإياك من عذابه- يرجى لهؤلاء أبداً ثوابه، أو ينتظر منهم إنابة، أو تنفع فيهم موعظة أو تذكير، مع ما سمع من قول العليم الخبير، ومتى يرجى لهم فلاح، أو صبر أو رجعة أو صلاح، إذا لم يزجروا أنفسهم عن اللذات، ويقطعوها قطعاً عن الشهوات، ويجاهدوها جهاداً عن المهلكات؟!!

فإن قال قائل أو سأل من الملحدين سائل: فكيف لا يهلكهم ويفنيهم، ويميتهم في النار ويبليهم؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأنه لو أماتهم وأهلكهم، لأخلف وعيده في تخليدهم، والحكيم لا يكذب في وعيده؛ فيكون ناقصاً عند جميع عبيده، وأيضاً فإنه لو أهلكهم؛ لكان الموت راحة لهم، ولكان[2] تخفيفاً عنهم، وتخليصاً لهم من العذاب، وتفريجاً من كرب العقاب.

فكيف يفرج الحكيم عن من قتل أنبياءه، وظلم رسله وأولياءه، وأعان على دينه أعداءه، واجتهد في إطفاء نوره، واستهزأ وتلعب بأموره، وأقبل على لهوه وفجوره، واشتغل عن وعظه وتذكيره، فكل هؤلاء الظلمة الفجار، الفسقة الأنجاس[3] أهل النار؛ يظلم على قدر طاقته، ومبلغ قوته واستطاعته،

---

(١) في (ب): مع علم الله من فسادهم.
(٢) في (ب): لكان الموت راحة لهم وتخفيفاً عنهم.
(٣) في (ب) لم تتضح.

فمنهم من فعل جميع الشرور، وركب أنواع [الظُّلَم](1) والفجور، وقتل الأنبياء المرسلين، والأئمة الطاهرين، وأتباعهم الأخيار المؤمنين.

ومنهم من خذل المرسلين، وأعان بخذلانه لهم القاتلين، ومنهم من كثّر بداره ديار الفاسقين، وكثّر جمايع الظالمين، وعمّر أسواق الجائرين، ومنهم من ظلم نفسه وأغواها، واختار الهلكة فأرداها، ثم يطمع أن يخلف الله وعده، ويظلم بإخلاف الوعيد نفسه.

والحكيم لا يظلم نفسه بالمحال، وإخلاف صدقه في المقال، للكفرة الفجرة الضلال، العصاة للواحد الرحمن، العظيم المتفضل المنان، ذي العزة والكرم والإحسان، والقدرة والمحال والسلطان، والحكمة والجلال والبرهان، واللطف والبر والإيمان، من لا يعذب أولياءه، ولا يظلم في الحكم أعداءه، ولا يأخذ أحداً بغير كسبه، ولا يعذبه إلا بذنبه، ولا يعذب بصغائر(2) الذنوب، ولا تخفى عليه خواطر الغيوب(3)، ولا تحجب عنه خفيات الغيوب، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

---

(1) في (أ): الظلمة، والصحيح ما بين المعكوفين من (ب).
(2) في (ب): ولا يعذب على صغائر الذنوب.
(3) في (ب): ولا يخفى عليه خواطر القلوب. ولعله الأصح.



كتاب

شواهد الصنع والدلالة على وحدانية الله وربوبيته

وقد اشتمل على خمسة أبواب:

- باب الدلالة على الله عز وجل.
- باب الدلالة على الله في صنع الحيوانات.
- باب الدلالة على نفي الصفات والدليل على قدمه.
- باب الدلالة على نفي الصفات عن الله فاطر السماوات.
- باب الدلالة على التعبد.



كتاب شواهد الصنع
والأدلة على وحدانية الله وربوبيته

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي لا يعذب من حمده، ولا يضل عن الهدى من أرشده، ولا يخيب رجاء من قصده، ولا يذل من نصره، ولا يضل سعي من شكره، ولا يعمى عن الحق من بصّره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، شهادة من أيقن بوحدانيته، وتعرض لعفوه ورحمته، وجوده وكرمه ورأفته، وأقر بذل ملكته، [وخضع] [1] لعظمة سطوته، وانقطع إليه بكليته، وأخلص قلبه لمحبته، وانقاد لأمره وطاعته، وتاب إليه من خطيئته، وأستعين به على نصيحته، وأرغب إليه في مودته وإلهام رشده وحكمته.

وبعد..

[يا أخي] [2] فإن الله جل ذكره تعرف إلى خلقه بإيجاد ما أوجد من بريته، وصنع ودبر بمشيته، ثم أوصل إليهم العلم بربوبيته؛ بما أظهر لهم من أعاجيب فطرته، وشواهد صنعه وآياته.

---

(١) في الثلاث النسخ (ويخضع) ولعل الصحيح ما أثبته بين المعكوفين.

(٢) زيادة من النسختين ب، جـ.

باب الدلالة على الله عز وجل

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم صلوات الله عليه: **إن سأل سائل مسترشد أو قال قائل ملحد**[1]: ما الدليل على الله رب العالمين؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أيها السائل أنا نظرنا [إلى] [2] الإنسان فإذا هو أقرب الأدلة على نفسه[3] فلم يخل عندنا من أحد ستة أوجه لا سابع لها:

[١] إما أن يكون خلق نفسه.

[٢] وإما أن يكون قديماً لم يزل.

[٣] وإما أن يكون حدث لعلة من العلل.

[٤] وإما أن يكون هملاً رسلاً لا من علة ولا من خالق.

[٥] وإما أن يكون متولداً لم يزل نطفة من إنسان، وإنساناً من نطفة إلى ما لا نهاية له ولا أصل ولا غاية ولا أول.

[٦] وإما أن يكون من خالق محدِث قديم حي قويم[4].

---

(١) في (ب): زيادة: فقال.
(٢) في (ب): إلى زيادة من (ب).
(٣) في (ب): إلى نفسه.
(٤) في (ب): قيوم.

فإن قلت إنه قديم لم يزل فهذا محال؛ لأنا وجدناه بعد العدم.

وإن قلت: إنه[1] أحدث نفسه فهذا محال؛ لأنا وجدناه في حال كماله وبلوغه وحياته عاجزاً عن تحسين القبيح من صورته، فعلمنا أنه في حال طفوليته وموته وغفلته ونقصانه وقلته أعجز وأضعف؛ لأنه إذا عجز في حال الكمال فهو في حال الضعف أحرى بالعجز.

وإن قلت: إنه حدث من علة[2] من العلل فهذا محال؛ لأن العلة لا تخلو في حال إحداثها له من وجهين[3]: إما أن تكون مواتاً، وإما أن تكون جسماً حيواناً، فإن كانت حيوانا فيستحيل تدبير الحيوان مثله؛ إذ الحيوان مصنوع عاجز عن الصنع ممنوع[*].

وإن كانت العلة مواتاً فيستحيل أن يصنع[4] الموات إنساناً محكماً مدبراً متقناً مصوراً حكيماً عالماً؛ إذ الموات لا يقي[5] نفسه فضلاً عن فعل الحكمة البالغة، والنعمة السابغة.

وإن قلت: إنه حدث بالتولد نطفة من إنسان، وإنساناً من نطفة إلى ما

---

(١) في (ب): وإن قلت أحدث نفسه.

(٢) في (ب) لم تتضح.

(٣) في (ب): من أحد وجهين.

(*) شاع قانون السببية في كثير من الثقافات والاعتقادات حتى عند أهل العلوم فنجد بين الفيزيائين اختلافاً أدى إلى تصنيف بعضهم إلى عدليين والبعض الآخر إلى ملحدين سببيين مع أن المعلوم ناتج عن علة والمسبب عن سبب ونظرنا للكون والإنسان فإذا هما غير ذلك.

(٤) في (ب): فيستحيل منع الموات.

(٥) في (ب): لا يغني.

لا نهاية له ولا أصل ولا بدء ولم يزل شيء من شيء فهذا محال؛ لأنك قد أقررت بما شاهدت من حدثه ثم نقضت يقينك بالظن الكاذب فقلت: لا أصل للمحدث ولا بدأ، وهذا المحدث لم يزل شيئاً، فقولك محدث يقين، وقولك قديم ظن.

ودليل آخر: أنا نجد في هذا المحدث آثار الحكمة بعد عدمها، ويستحيل أن تكون الحكمة الحادثة قديمة أزلية.

ودليل آخر: أنا نظرنا الخلق فإذا هو قد أكمل وأحكم، وأنعم عليه وأكرم، فعلمنا أن الإحكام والإكمال لا يكونا إلا من مكمل محكم وأن الكرامة والنعمة لا يكونان إلا من مكرم منعم.

ودليل آخر: أنا وجدنا الإنسان، فرعاً ولا بد لكل فرع من أصل ويستحيل فرع من غير أصل.

ودليل آخر: أنا وجدنا الإنسان ينسب[1] إلى ذكور وإناث، فإذا أصله على قسمين وللقسمين نهاية وغاية.

ودليل آخر: يدل على الأصل والفرع من الجدود[2] أن الموت وقع عليهم فلم يخل من أحد ثلاثة أوجه:

[١] إما أن يكون وقع على جميع آبائه الأول منهم والآخر.

[٢] وإما أن يكون وقع على بعضهم.

[٣] وإما أن يكون لم يقع على أول منهم ولا آخر.

---

(١) في (ب): ينتسب.

(٢) في (ب): والفرع والأصل من الجدود.

فإن قلت: لم يقع على أحد فأوْجِدْنا جميع جدودك الأحياء[1] الأولين.

وإن قلت: بل وقع على بعضهم فأوْجِدْنا الأوائل الباقين أهل [العدم] منهم.

وإن قلت: بل وقع على أولهم قبل وقوعه على آخرهم فهذا يدل على أن الإنسان [أصلاً][2] قد وقع عليه الموت.

ودليل آخر: لما وجدنا الإنسان فرعاً حيا والجدود أصولاً أمواتاً لم يخل الموت من أن يكون وقع على الأصل كله أو لم يقع فلا نجد بداً من أن نقول بل وقع على كل ذكر وأنثى من الجدود والجدات، وفي[3] إقراره ما كفى إن أنصف عقله.

ودليل آخر: إن قال: ما أنكرتم من أن يكون لم يمت[4] من هذه الأصول إلا وقبلها أموات إلى ما لا نهاية له؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أوليس قد تقدم فيما مضى من كلامنا، أن قولك هذا محال؛ لأنه ظن وحدوث الحكمة والنعمة والرحمة تدل على المحدث الحكيم المنعم الرحيم بأيقن اليقين، وقبول العقول أولى من قبول الظن.

ودليل آخر: أنا قد بينا لك ـ أيضاً[5] ـ أن قولك متناقض فاسد؛ لأنك أقررت بالحدث ثم نقضت ذلك بقولك قديم، والمحدث لا يكون قديماً كما لا يكون القديم محدثاً.

---

(1) في (ب): الاحياء.
(2) زيادة من (ب).
(3) الواو ساقطة في (أ) وقد أثبتناها من (ب).
(4) في (ب): لم يمت اموات من هذه الأصول.
(5) في (ب): أيضاً، ساقط.

ودليل آخر: لا يخلو قولك لا نهاية للأموات من أحد ثلاثة أوجه:

[١] إما أن تكون عنيت جميع الأموات.

[٢] وإما أن تكون عنيت بعضهم.

[٣] وإما أن تكون ظننت ذلك ظناً وتوهماً.

فإن كنت ظننت ذلك ظناً فاليقين أولى بالاتباع من الظن، والحق أولى بالتصديق من الباطل [والتعلق بالخبر أولى من المقام في الحير](١).

وإن كنت أردت(٢) بقولك لا نهاية تريد بعضهم فهذا محال؛ إذ لا فرق بين أولهم وآخرهم في وقوع الموت عليهم وانقطاع آجال جميعهم وتصرم الكل منهم، وإن كنت عنيت -بقولك ـ لا نهاية(٣)جميع الأموات فهذا محال؛ لأن الموت وقع على الكل وللكل نهاية وغاية، ألا ترى أن الموت قد حوى الجميع فلم يغادر منهم أحداً، ولم يقع الموت على الفرع حتى تضمن أصله؛ لأنه لم يفن الفرع حتى أفنى الأصل قبله ولم يفنِ بعض(٤) الأصل بل أفنى كله.

وإن قلت إنه حدث من غير محدث ولا من علة هملاً رسلاً فهذا من أحول المحال وأبطل الباطل وأفسد المقال؛ لأنه إذا حدث من غير علة ولا محدث لم يخل من أن يكون حدث من العدم أو من نفسه.

فإن قلت إنه حدث بإحداثه لنفسه فهذا محال لما قدمنا من فساد ذلك.

(١) في (أ): والتعلق بالخبر أولى من المقام على الحير. وما بين المعكوفين أثبتناه من (ب).

(٢) في (ب): وإن كنت عنيت.

(٣) في (ب): لا نهاية له جميع الأموات.

(٤) في (ب): بعض، ساقط.

وإن قلت إنه حدث من العدم فهذا محال بيِّن الفساد؛ لأن العدم[1] لا يوصف بالإيجاد؛ لأن العدم لا شيء، والفاعل لا يكون إلا موجوداً مدبراً حكيماً مقدراً؛ لأن قولك لا يحدث شيئاً نفي للمحدث والمحدِث؛ لأن لا شيء عدم والشيء وجود والعدم ليس بعامد ولا معمود ولا شيء سوى اللفظ مقصود.

وإنما قولنا عدم؛ نريد النفي بهذا الاسم، وإذا كان هذا المحدَث عدما قبل حدوثه فالعدم لا شيء، ولا شيء لا يكون شيئاً بغير شيء؛ لأنك إذا قلت معدوم يقوم[2] بمعدوم نفيت الجميع؛ إذ كله باطل محال، وعبث من صاحب المقال، وإلا فما الذي جعل وجود المعدوم أولى من عدمه، وما جعل حدوثه أولى من تركه؟

فإن قلت إن ذلك من أجل أنه متروك، فالمتروك متروك.

وإن قلت من غير الترك فذلك الفاعل الحكيم، الجاعل المتفضل بالتكوين، الخالق بغير معين، الرحمن الرحيم، العليم الحكيم، الواحد الأحد، المتفرد الصمد، الذي لا إله سواه، ولا أمد حواه، ولا عين تراه، ولا له مثل ولا نظير، ولا وزير ولا نصير، ولا شريك ولا مشير، إلهنا وسيدنا، وحبيبنا ومعتمدنا، وربنا وخالقنا، ومنشئنا ورازقنا، من لا تحصى آياته، ولا تنقطع دلالاته، ولا تعد نعمه، ولا يتناقض علمه، ولا يستجهل حلمه، ولا يدركه نظر، ولا يحويه قطر، ولا يكتنهه ضمير، ولا يحويه مصير، ولا يعجزه تدبير.

---

(١) في (ب): ولأن العدم.

(٢) في (ب): معدوم يقوم بمعدوم، وفي (أ) لم تتضح.

[إبطال العلة في حدوث الإنسان]

ودليل آخر: لو حدث لعلة، لم تخل تلك العلة من أحد وجهين:

[١] إما أن تكون جسماً.

[٢] وإما أن تكون عرضاً.

فإن كانت جسماً فالجسم محدث ضعيف عاجز، وإن كانت العلة[١] عرضاً فالعرض أعجز من الجسم؛ لأنه لا يوجد إلا بوجود الجسم ولا يقوم إلا بقوام [الجرم][٢] وما لم ينفك من الجسم ولم يكن قبله فهو بغير شك في الحدوث مثله وذلك أن الجسم لا يخلو من أحد وجهين: إما أن يكون ساكناً، وإما أن يكون متحركاً، وأي المعنيين كان فيه فهو يدل على حدثه؛ لأنه كان[٣] ساكناً فسكونه على ضربين:

[١] سكون ماض.

[٢] وسكون مستقبل.

فالسكون الماضي يدل على مبتدئه، والسكون المستقبل فقد ناهاه؛ لأن ما مضى من السكون له آخر وما كان له آخر فله أول، ويستحيل آخر بلا أول؛ لأن آخر السكون هو أقل قليل الأوقات، وما مضى منه فهو أوله الكثير.

وذلك السكون الماضي الذي هو بزعمهم قديم لا يخلو من أن يكون عدم كله [أو] لم يعدم[٤].

(١) في (ب): وإن كانت عرضاً فالعرض أعجز.
(٢) في (أ): الحزم. وما بين المعكوفين مثبت من (ب)، وهي الصواب.
(٣) لا بد من كلمة إن لا ستقامة المعنى فأثبتوها من (ب). لأنه وإن كان ساكناً.
(٤) في (ب): تعدم.

فإن قالوا: إنه غير معدوم فهذا محال؛ لأنه قد سكن من الدهور والأزمان ما لا يحصى من ألوف السنين، والألوف فقد عدمت ولم يعدم آخرها إلا بعد عدم أولها، وإذا صح عدم الجميع فقد صح تناهي السكون الماضي؛ لأن العدم قد وقع على أوله وآخره، وإذا صح أن له أولاً فقد بطل قدمه وثبت حدثه، [وإذا بطل قدمه وثبت حدثه][1] فقد صح حدث الجسم؛ إذ لم يسبقه ولم يتقدمه.

ودليل آخر: قالوا: لما نظرنا إلى الجبل ساكناً غير زائل علمنا أنه لم يسكن وقتا إلا وقبل الوقت وقت إلى ما لا نهاية له، وهذا محال بيِّن الإحالة عند من عقل؛ لأن سكون الجبل على قسمين:

[١] قسم قليل.

[٢] وقسم كثير.

فالقسم القليل موجود وهو المستقبل؛ لأنك إذا نظرت سكونه انتظرت أن يسكن بالمشاهدة أقل مما سكن قبل ذلك فيما مضى [من الدهور؛ لأنه قد سكن فيما مضى][2] ألوف سنين[3] لا تحصى فأنت قد شاهدته لأنه موجود ولم تشاهد الألوف لأنها عدمت كلها، وذهب أولها وآخرها، وللكل نهاية وغاية، وإذا صح تناهي السكون وانقطاعه وعدم آخر السنين بعد عدم ما قبلها فهو على ضربين معدومين:

[١] سكون قبل سكون.

[٢] وسكون بعد سكون.

---

(١) في (ب) ساقط ما بين المعكوفين.

(٢) في (ب) ساقط ما بين المعكوفين.

(٣) في (ب): في وسنين.

وكل ذلك قد مضى وتضمنه العدم والفناء، وما صحت نهايته وعدم أوله وآخره فله أول معدوم، وما كان له أول فهو محدث، وإذا صح سكون الجبل فالجبل محدث؛ إذ لم يسبق سكونه بزعمهم.

ودليل آخر: إذا صح أن لسكون الجبل أولا قد عدم لم يخل ذلك السكون الأول من أن يكون قليلاً أو كثيراً، فإن كان قليلاً فأقل السكون بعض ساعة، وإن كان كثيراً فالكثير من السكون لا يكثر إلا بعد قلته ولا يزيد إلا بعد نقصانه، ولا يوجد إلا بعد عدمه، ولا يوجد آخره إلا بعد عدم أوله وأوله أقل القليل.

ودليل آخر: إذا كان الكثير من سكون الجبل لا يوجد إلا بعد عدم فالقليل أحرى بأن لا يوجد إلا بعد العدم، وإذا عدم جميع ما مضى منه فالعدم قد وقع على الكل، والفناء قد تضمنه وحوى أوله قبل أن يحوي آخره، وإذا حوى الآخر الكثير لم يكن ذلك إلا بعد أن مضى على الأول اليسير.

ودليل آخر: إذا قلت لا أول لسكون الجبل سألناك: هل له آخر؟

فإن قلت: ليس له آخر، جحدت الجميع.

وإن قلت: بل له آخر بلا أول **سألناك**: هل قبل الآخر سكون أم لا؟

فإن قلت: ليس قبله سكون أوجبت حدثه.

وإن قلت: قبله سكون **سألناك**: أهو موجود أو معدوم؟

فإن قلت: موجود أحلت؛ لأنك لا تجد سكونه ألوف سنين في ساعة واحدة.

وإن قلت: بل هو معدوم أوجبت عدم الجميع.

ودليل آخر: إذا قلت لا نهاية للمعدوم سألناك: هل عدم كله أو بعضه؟

فإن قلت: لا كله، ولا بعضه جحدته ونفيته.

وإن قلت: عدم بعضه سألناك: أين الباقي من ما مضى من ألوفه؟

ودليل آخر: إذا قلت: لم يعدم من سكون الجبل شيء إلا وقد عدم قبله شيء إلى ما لا نهاية له سألناك: أتريد بقولك لا نهاية له الكل من المعدومات أم البعض أم لم ترد كلاً ولا بعضاً؟

فإن قلت: لم أرد كلاً ولا بعضاً جحدته وأبطلت ما بالقدم وصفته.

وإن قلت: عنيت وأردت بعضه فالبعض قسم محدود متناهي.

وإن قلت: بل عنيت وأردت وذكرت بالقدم وقصدت الكل من المعدوم فقد ناقضت[1] قولك عند أهل العقول؛ لأن الكل المعدوم قد تضمنه العدم فلم يغادر منه طرفة عين ولا وهم.

ودليل آخر: إذا قلت: إن القدم قد وقع على الماضي من سكون الجبل كله، لم يخل هذا السكون المعدوم من أن يكون وجد جملة واحدة معاً في ساعة واحدة، أو وجد كثيره بعد قليله وآخره بعد أوله، أو وجد قليله بعد كثيره، أو لم يوجد أي ذلك.

فإن قلت: لم يوجد شيء مما ذكرت جحدت ما لا يجحد، وما لا ينكره ممن عقل أحد.

---

(١) في (ب): فقد نقضت.

وإن قلت: بل وجد قليله بعد كثيره، وكثيره بعد قليله، أصبت وجعلته عدداً معدوداً، متناهياً محدوداً، والعدد القليل والكثير لا يوجد الآخر منه إلا بعد الأول، ولا الاثنان إلا بعد الواحد، وذلك يدل على سبق قليله لكثيره؛ إذ لا توجد ساعة إلا بعد نقصانها، ولا تكثر إلا بعد قلتها.

وإن قلت: بل وجد جميع ما مضى في ساعة واحدة أقررت بحدثه وأحلت؛ لأن الماضي من الأزمان ساعات لا تحصى، ويستحيل أن تكون الأزمان الكثيرة ساعة يسيرة بل إذا صح أن العدم وقع على الكل صح منتهاه؛ إذ[1] حده العدم وحواه، وتضمنه وغاياه، وأبطل الجميع وناهاه، وإذا ثبت[2] في المعقول أن سكون هذا الجسم لا يكون إلا شيئاً بعد شيء ولا سكن كثيراً إلا بعد سكونه يسيراً صح ما قلنا به من مبتدأ السكون، وصح بصحته مبتدا حدوث الجسم؛ إذ لم ينفك من هذا الحادث ولم يسبقه.

فإن قال: وما أنكرت من أن يكون تحرك قبل ذلك السكون بحركة لا نهاية لها؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك؛ لأنه إذا تحرك قبل السكون فسبيل الحركة سبيل السكون في الحدث.

ودليل آخر: إذا كان للحركة آخر ومنقطع، فلها أول ومبتدع، وذلك أن آخر الحركة التي قطعها السكون أقل القليل وقد كان[3] بزعمك أكثر الكثير فخبرني عن هذا الكثير أعدم كله أم بعضه؟ أم لم يعدم منه كل ولا بعض؟!

---

(١) في (ب): إذا حده العدم.

(٢) في (ب): وإذا أثبت.

(٣) في (ب): وقد كان قبلها بزعمك.

فإن قلت: لم يعدم أحلت.

وإن قلت: بل عدم بعضه أحلت؛ لأن الحركة لا يوجد منها شيء بعد السكون.

وإن قلت: بل عدم الكثير كله ففي قولك عدم الكل ما كفى، وللكل أبعاض لم يوجد آخر منها إلا بعد وجود أول، ولا وجد[1] كثير منها إلا بعد وجود قليل.

ودليل آخر: إذا قلت[2] إن قبل [كل حركة] سكوناً وقبل كل سكون حركة إلى ما لا نهاية له سألناك: هل تعني بقولك لا نهاية له كل ما مضى وعدم منهما، أم تريد بعض ذلك، أم لا تريد أيهما؟ فلا تجد مخرجا مما ذكرنا.

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم صلوات الله عليه: إذا لم يكن الجسم كائناً ما كان من الأشياء لم ينفك من هذين الحالين فهو محدث بأبين البيان، وإذا كانت الأعراض لا توجد إلا في الأجسام وكان محالاً أن يكون قبلها[3] فسبيلها في الحدث سبيلها؛ لأنا نفينا أن تكون علة كون الإنسان[4] وغيره من الحيوان جسماً أو عرضاً[5]؛ لأنهما محدثان[6]، فلما بطل أن تكون علة كون الإنسان وغيره من الحيوان جسماً أو عرضاً أو عدماً صح أن له صانعاً قديماً وهو الله رب العالمين.

---

(١) في (ب): ولا يوجد كثير منها.

(٢) في (ب): فإن قلت.

(٣) في (ب): محالاً أن يوجد قبلها.

(٤) في (ب): علة كون الأشياء.

(٥) في (ب): جسماً ولا عرضاً.

(٦) في (ب): لأنها محدثات.

باب الدلالة على صنع الله في الحيوانات

قال الهادي لدين الله الحسين بن القاسم صلوات الله عليه: إن سأل سائل فقال: أخبروني[1] ما الدليل على الله عز وجل؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم ـ أيها السائل ـ أن أقرب الأدلة إلى الإنسان نفسه[*] وذلك أنا نجد الإنسان بعد عدمه فنعلم أن له مُوجِداً أوجده بعد عدمه، ثم نجد في نفسه حكمة ونجد عليه نعمة، ولا تكون الحكمة إلا من حكيم ولا النعمة إلا من منعم كريم.

[حكم خلق الإنسان]

فإن قال: وما الحكمة التي في الإنسان؟ وما النعمة التي عليه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أما الحكمة التي فيه فالصنع الذي لا يكون إلا من صانع حكيم.

(١) في (ب): أخبرني.

(*) لا يخفى على القارئ الكريم المنهجية التي يتخذها الإمام حيث يجمع بين لغة العلم ولغة الفلسفة حيث تميل الفلسفة إلى التفكير بلغة الحقائق كما تتكشف لحواسنا البدائية في حين يفكر العلم فيها بلغة المعاني الموضوعية أو كما تتكشف للأجهزة الدقيقة.

وأما النعمة فالرزق المبسوط الذي لا يصح إلا من رازق كريم؛ وذلك أنا نظرنا الإنسان[1] فإذا هو نطفة من ماء مهين ميت قليل حقير، غير سميع ولا بصير، ثم وجدناه بعد ذلك إنساناً حياً حكيماً مدبراً سميعاً بصيراً موصلاً مفصلاً قد جعل كل معنى منه لمعنى، ولا يجعل المعنى للمعنى إلا عالم بما صنع[2] وبنى.

فأول ما نظرنا منه تكثيره بعد قلته، وقوته بعد ضعفه، وحياته بعد موته، وعلمه بعد جهله فعلمنا بيقين أن هذه نعمة محكمة لا تكون إلا من حكيم عليم، وتدبير لا يكون إلا من مدبر قديم، ورحمة لا تكون إلا من رحيم.

والدليل على ما ذكرنا من العلم[3] والحكمة والرحمة، أن الرحمة هي الفضل[4] والنعمة، وأن [الكرم][5] هو البسط للمنافع عند الحاجة والفاقة، وأن ذلك[6] لا يكون إلا من عالم حكيم؛ لأنه لم يعط[7] عبيده ما أعطاهم إلا لعلمه[8] بفاقتهم، ولم يتكرم عليهم بإيجادهم[9] إلا لإتمام الحكمة في خلقهم، ولم ينعم عليهم إلا تفضلاً برزقهم؛ وذلك أنا نظرنا إلى ما جعل فيهم من الحياة بعد موتهم، فعلمنا أن الحياة من أكثر النعم، وأعظم الفضل وأكمل الكرم،

---

(١) في (ب): أنا نظرنا إلى الإنسان.

(٢) في (ب): بما وضع.

(٣) في (ب): من العلة.

(٤) في (ب): هي القصد.

(٥) في (أ): الكريم. والصحيح: الكرم، وهو ما أثبتناه من (ب).

(٦) في (ب): أن ذلك لا يكون.

(٧) في (ب): لأنه لم يقضا عنده ما أعطاهم.

(٨) في (ب): إلا بعلمه.

(٩) في (ب): بإيجاده.

ثم نظرنا إلى ما جعل فيهم من المفاصل المفصلة التي لا يصلح التدبير ولا يتم إلا بها، فجعل المفاصل للحركة والمسير، والقيام والقعود، والإقبال والإدبار ولم يكن ذلك ليتم إلا بما جعل من الأبصار المضيئة المنيرة في الليل والنهار، الهادية في البر والبحار، ولولا تلك النواظر لما تم التدبير، ولكان العمى من أعظم المهالك والتدمير، ثم جعل الألسن الناطقة وجعل الأسماع الواعية، وجعل العقول المميزة التي لولا هي لهلك المخلوق، فجعلها لاجتلاب المنافع ونفي المضار، ومعرفة الخيرات والسرور، واستخراج عجائب الأمور.

ثم ركب الأجساد على النعم[1] واللذات والمعايش المقرونة بالحياة من الأرزاق المبسوطة المنزلة المجعولة[2] التي لا قوام لهم إلا بها ولا غنى لهم أبداً عنها، وعلم أن تلك الأغذية لا تتم إلا بالوصول إلى أجسادهم ومباشرة بطونهم وأكبادهم، فجعل لها[3] مداخل اضطرهم إليها، وبناهم بناءً عليها، وعلم أنه إن لم يجعل لذلك الغذاء مخارج قبل كونه في بطونهم هلكوا[4] ودمروا، ولم ينموا ولم يكثروا، فقدم ذلك وجعله، وركبه وفعله، لعلمه بفاقتهم إليه، فركبهم وبناهم عليه، رحمة منه لهم، وتفضلاً عليهم.

وعلم عز وجل أنهم لا ينمون ولا يكثرون إلا بما جعل في الإناث والذكور، وما في تناسلهم من التدبير، وعجيب الصنع والتقدير، فجعل منهم إناثاً وذكوراً؛ ليكون للنسل أصولاً، وصنعاً عجيباً جليلاً، فجعل ذكور الأشياء قبل[5] إناثها، لما أراد من جعل الحيوانات وإحداثها، ثم جعل

(١) في (أ): المنعم، والصواب: النعم. مثبت من (ب).
(٢) لم تتضح في (ب).
(٣) في (ب): فجعل لهم.
(٤) في النسخ المخطوطة: وإلا هلكوا. ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٥) في (ب): غير إناثها.

في الذكور والإناث من الشهوة ما يكون سببا للإحداث، وجعل لذلك أماكن غير مشتبهة يصلح بعضها لبعض بتقدير الحكيم المدبر الحي العليم، وجعل في تلك الأماكن مسالك لنطف الذكور إلى أماكن الحكمة والتصوير.

فالفصل[1] من الأصلاب إلى الأرحام، بتدبير ذي الجلال والإكرام نطف أقرها الله بقدرته، وأثبتها بمشيئته إلى أجل معلوم، ووقت من الأوقات مفهوم، به أخرج تلك النطف بعد نطوفيتها[2] وموتها أطفالاً صغاراً قد شق لهم أسماعاً وأبصاراً، وأخرجهم سبحانه من بطون أمهاتهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يقدرون للآفات والمضار دفعاً ولا منعاً، ولا يعقلون بصراً ولا سمعاً، ولا يهتدون سبيلاً، ولا يملكون عقولاً.

وعلم عز وجل أنهم لا يقومون ولا يحيون ولا ينمون إلا بما ركبهم عليه من الأغذية واللذات وقوام الأجساد المجسمات، وأنهم يضعفون بصغرهم عن المآكل التي لا تصلح للأطفال، فجعل لهم قبل [كبرهم][3] أغذية في أجساد أمهاتهم لعلمه بضعفهم وفاقتهم، وجعل في قلوبهن رحمة لهم فأحياهم بذلك وقواهم، وكفلهم به وأغناهم، وأنبتهم به وأنماهم[4]، وأنعم[5] بذلك وغذاهم، وشد أسرهم وقواهم، وأعطاهم العقول فهداهم، ثم أمرهم ونهاهم بعد أن بصرهم هداهم، فأي عجيب أعجب مما ذكرنا؟! وأي حكمة

---

(١) في (ب): بفصل من الأصلاب.

(٢) في (ب): بعد توقيتها.

(٣) في المخطوطتين (أ،ب): كونهم، ولعل الصحيح ما أثبته بين المعكوفين.

(٤) في (ب): فأنماهم.

(٥) في (ب): وأنعم عليهم بذلك.

أكمل مما به قلنا؟! أم أي[1] نعمة أسبغ، أم[2] أي حجة أبلغ مما ذكرنا من صنع ربنا وخالقنا وإلهنا ورازقنا؟!

فبينما نحن نطف حقيرة أموات إذ نحن على غاية الكمال من توصل الأجساد والأوصال، والحياة بعد موتنا، والتكثير بعد قلتنا، والعقول بعد غفلتنا، والحمد لله[3] على ما امتن به علينا، وأسداه من النعم إلينا، ولا إله إلا هو جل جلاله وظهرت نعمه وأفضاله، وسبحانه عن شبه المخلوقين، وتبارك عما يقول به العادلون، وينسب إليه الجاهلون، فلما نظرنا إلى هذه الحكمة البالغة، والنعمة السابغة، علمنا أن الحكمة صفة حكيم؛ لما فيها من بيان علم العليم، والصفة لا تكون إلا لموصوف، فمن هاهنا صح ما به قلنا.

[الحكمة في خلق الحيوان]

ودليل آخر: إما أن يكون العقل شاهداً على أن في هذه الحيوانات حكمة، وإما أن يكون شاهداً على أنه[4] ليس فيها حكمة.

فإن قلت: إن العقل يشهد على أن ليس فيها حكمة فهذا من أكبر المحال وأقبح ما نطق به من المقال؛ لأن كل حكمة موجودة ليس الأصل فيها إلا من الحيوان وهو في نفسه وخلقه وعقله وتركيبه أحكم من فعله وقوله.

(١) في (أ): أي نعمة، وما أثبتناه من (ب).
(٢) في (أ): أي حجة، وما أثبتناه من (ب).
(٣) في (ب): فالحمد لله.
(٤) في (ب): على أن ليس فيها.

وإن رجعت إلى الحق فقلت: بل هو[1] في الحيوانات ما لا ينكره عاقل، ولا يكابر فيه عالم ولا جاهل، لم يخل العقل من أن يكون شاهداً على أن هذه الحكمة من صفة حكيم، أو شاهداً على أنها من صفة جاهل موات غير عالم، أو شاهداً على أنها من صفة معدوم، فهذا محال؛ لأنك جعلت للعدم صفة وهي الحكمة، فجعلت العدم حكيماً فأثبت موجوداً والعدم لا شيء، ولا شيء لا يوصف بالحكمة ولا الجهل، ولا يوصف بالتدبير ولا العقل.

وأيضاً فقد أوجبت الحق بإثباتك؛ إذ لا تكون الصفة إلا لموصوف[2]، ثم نقضت قولك بإثباتك للمعدوم، والعدم ليس بمجهول ولا معروف.

وإن قلت: إن الحكمة من صفة موات جاهل، فهذا ما لا يقول به من الخلق عاقل، ولا يراه من الناس إلا غافل؛ لأن من صفة الموات الجهل، وبطلان الحكمة والعقل، وما كان من الأشياء جاهلاً، وكان عن التدبير حايراً غافلاً، لم يكن حكيماً ولا عاقلاً، وما كان بالموت والغفلة موصوفاً، وكان بالعجز والجهل معروفاً، فيستحيل أن تكون منه حكمة بالغة، ونعمة جليلة سابغة؛ لأن الحكمة هي الإحكام والكرم والتفضل والإنعام[3]، وإذا بطل أن يكون ذلك من العدم المعدوم، وبطل أن يكون من موات غير عليم صح الوجه الثالث وهو الله العليم الحكيم.

ودليل آخر: إما أن تكون هذه الحكمة تولدت من طبائع قديمة حية مدبِّرة،

---

(١) في (ب): فقلت بل في الحيوانات.

(٢) إذ لا يكون إلا لموصف ثم نقضه قولك.

(٣) في المخطوطة: والكرم والتفضل والإنعام ولعل الصحيح ما أثبته لأنه رضي الله عنه يذكر تعريف الحكمة والكرم.

وإما أن تكون تولدت من طبائع محدثة مصنوعة مدبَّرة، وإما أن تكون تولدت من العدم.

فإن قلت: إنها تولدت من العدم أوجبت أنها معدومة ونفيت وجودها؛ لأن العدم لا يوجب وجوداً؛ إذ هو غير موجود، ولا شيء سوى النفي مقصود.

وإن قلت: إن هذه الحكمة تولدت من طبائع محدثة، فالمحدث لأولها هو المحدث لآخرها وفي هذا إثبات الخالق لها.

وإن قلت: إن هذه الحكمة تولدت من طبائع قديمة ميتة فهذا محال؛ لأنها لا تخلو من أن[1] تكون أوجدتها بعد العدم، أو هي كانت موجودة معها في حال القدم.

فإن قلت: إنها كانت قديمة معها ثم انفصلت عنها فهذا محال[2]؛ لأنا قد بينا حدثها، وأوضحنا الدليل على حدوث فرعها وأصلها فيما تقدم من قولنا، وأيضاً فإن في الحكمة آثار صنع العالم الحكيم.

وإن قلت: إن هذه الطبائع الميتة أوجدت الحكمة بعد العدم فهذا محال[3]؛ لأنها لا تخلو من أحد وجهين:

[١]: إما أن تكون أوجدتها بعلم

[٢]: وإما أن تكون أوجدتها بجهل.

---

(١) في (ب): لأنها لا تخلو أن تكون.

(٢) في (ب): وهذا محير.

(٣) في (ب): فهذا محير.

فإن قلت: إنها أوجدتها بعلم فهذا محال؛ لأن الميت لا يعلم شيئاً ولا يكون العالم إلا حياً.

وإن قلت: إنها أوجدت الحكمة بجهل فهذا محال؛ لأن الجاهل الميت لا يعقل ولا يعي[1]، ولا يحسن ولا يسيء، ولا يحكم التدبير، ولا يبرم الأمور.

وإن قلت: إن هذه الحكمة حدثت من علل قديمة حية حكيمة مدبرة فهذا هو صفة الخالق[2]، والخالق ليس[3] يسمى عللاً وإنما هو الله الذي لا إله إلا هو العليم الحكيم.

ودليل آخر: إن العلل الميتة محدثة؛ لأن الموات ساكن، والساكن مقيم لابث، واللابث لا يخلو من أن يكون لبث وأقام وقتاً طويلاً أوأقام وقتاً قليلاً.

فإن قلت: إنه لبث وقتاً قليلاً أوجبت حدثه من قليل في الأزمان.

وإن قلت: إنه مقيم لابث منذ وقت طويل قديم، فهذا محال أن يكون الوقت قديماً؛ لأن الأوقات هي الأزمان، والأزمان قد فنيت ووقع الفناء على كل ما مضى منها فعدمت، ولم تعدم الأوقات والأزمان كلها إلا بعد حدوثها ولا يعدم آخرها إلا بعد عدم أولها، وإذا كان للمقام والأوقات أول وآخر فقد صح حدث الجسم المقيم؛ إذ لم ينفك من المقام والأوقات، وما لم ينفك من سكون الساعات ولم يكن قبلها فسبيله في الحدث سبيلها.

---

(١) في (ب): ولا يغني.

(٢) في (ب): فهذه صفة الخالق.

(٣) في (ب): والخالق فليس اسماً.

[إبطال وجود الأجسام قبل الزمان]

وإن قلت: إن الأجسام كانت قبل الزمان **سألناك**: أكانت متحركة أو ساكنة؟

وإن قلت: لا متحركة ولا ساكنة جحدتها ونفيتها.

وإن قلت: إنها كانت قبل الزمان غير منفكة من حركة أو سكون لم تخل من أن تكون تحركت أو سكنت قليلاً أو كثيراً.

فإن قلت: إنها تحركت أو سكنت كثيراً، فالكثير أوقات ودهور، وأزمان وساعات، وفي ذلك إثبات ما قلنا به من أن الأجسام لا تنفك مما ذكرنا من الأزمان.

وإن قلت: إنها تحركت أو سكنت أوقاتاً قليلة، أوجبت أيضاً أنها لم تنفك من قليل الأوقات، فكأنها لم تنفك من المحدثات، ولم تكن قبلها موجودات، وإذا لم تكن قبلها ولم تتقدمها فهي محدثة معها، وإذا صح حدث الأجسام كلها وصح حدث حركاتها وسكونها لم تخل من أحد أربعة أوجه:

[١] إما أن تكون أحدثت أنفسها.

[٢] وإما أن تكون حدثت هملاً.

[٣] وإما أن تكون حدثت من محدث قديم.

[٤] وإما أن تكون حدثت لعلة.

فإن قلت: إنها أحدثت أنفسها فهذا محال؛ لأنها كانت معدومة فكيف تحدث أنفسها وهي غير موجودة والفاعل لا يكون إلا موجوداً غير معدوم.

وإن قلت: إنها حدثت لعلة لم تخل العلة من أحد وجهين:

[١] إما أن تكون جسماً.

[٢] وإما أن تكون عرضاً.

وقد بينا حدوث الجسم والعرض، ولو كانت المحدثات من محدثات السكون والحركات، وإذا لم ينفك الكل من الحدث صح بذلك الخالق المحدث.

ودليل آخر: وذلك لو كان كل محدث من محدث لكان لذلك آخر، وما كان له آخر فله أول، وما كان له آخر وأول فقد صح حدث الجميع.

ودليل آخر: إذا كان للمحدثات آخر لم يخل ما مضى من المحدثات من أن يكون الآن كله موجوداً أو بعضه، أو كله معدوماً.

فإن قلت: عدم كله أوجبت أنه عدم بعد حدوثه وصح عدمه كله بعد حدوثه كله.

وإن قلت: بل عدم بعضه جعلته على قسمين:

[١] قسم قد عدم فَنَاهَى العدم بعد حدوثه، وأفقده بعد وجوده.

[٢] وقسم حدث ثم هو الآن موجود كله.

وإن قلت: إنه الآن موجود كله فقد ناهاه الوجود، وللكل نهاية وغاية.

ودليل آخر: إذا لم يكن شيء من الأشياء المحدثة كلها ينفك من الحركات والسكون فقد مضى للحركات والسكون أزمنة تضمنها الفناء وفي ذلك من الكلام ما قد مضى وفيه كفاية لمن اكتفى.

وإن قلت: إن الجمادات حدثت في البدء هملاً لا من علة ولا من محدث أوجبت عدمها؛ لأنها إذا كانت عدماً لم تخل من أن تكون وجدت من قبل العدم أو وجدت لسبب.

فإن قلت: إنها وجدت للعدم فهذا محال؛ لأن العدم لا شيء، فلا شيء لا يكون سبباً للأشياء؛ لأن السبب لا يكون معدوماً؛ لأن العدم نفي الأسباب.

وإن قلت: إنها حدثت لسبب لم يخل ذلك السبب من أحد وجهين:

[١]:إما أن يكون قديماً.

[٢]: وإما أن يكون محدثاً.

فإن قلت: إنه محدث فالمحدث مخلوق وليس كلامنا إلا في المخلوق لِمَ خلق؟ وما سببه؟ وما علته؟

وإن قلت: إن السبب الذي أوجد الخلق قديماً أصبت ورشدت وعرفت الخالق.

[بيان الحكمة]

ودليل آخر: لا تعدو هذه الحكمة التي قدمنا ذكرها من أحد وجهين لا ثالث لهما:

[١] إما أن تكون حكمة قديمة.

[٢] وإما أن تكون حكمة محدثة.

فإن قلت: إنها قديمة فهذا محال؛ لأنا قد بينا حدثها.

وإن قلت: إنها محدثة لم تخل من أن تكون حدثت بإحداث الحكيم أو بالإهمال.

فإن قلت: حدثت بالإهمال فهذا من أكبر المحال؛ لأن المهمل هو العدم، والعدم لا يوجب كون الحكمة ولا غيرها.

وإن قلت: بل حدثت بإحداث الحكيم صدقت وكان ذلك كما ذكرت.

ودليل آخر: إما أن تكون عنيت بقولك: الحكمة قديمة، تريد قدم سببها الموجب لها، وإما أن تكون أردتها هي بالقدم في نفسها فهذا باطل لما قدمنا من الدليل على حدثها، وإن كنت تريد سببها الذي أوجدها فلعمري إن سببها قديم وهو خالقها وربها.

ودليل آخر: لم يختلف أحد في حدث ظهور تمام هذه الحكمة، وإنما اختلف في سببها وأصلها، وكيفية ظهورها وبيانها، فأجمع الكل أن سببها شيء قديم، ثم اختلفوا، فقال بعضهم: طبع موات، وقال بعضهم: رب حي ففسد قول الملحدين الكفار الملاعين؛ لأن الموات لا يكون سبباً للحيوانات، وفسد قولهم أيضاً؛ لأن الموات ليس بحكيم والحكمة صفة للعليم، وفسد قولهم أيضاً؛ لأن الموات محدث، وفسد قولهم أيضاً؛ لأن الجود صفة جواد والموات لا يعي ولا يعقل فكيف إلا أن يجود ويتكرم!! والكرم والجود لا يكونان إلا من كريم متفضل رحيم.

ودليل آخر: إنما سميت الحكمة حكمة؛ لأنها محكمة، والحكيم فهو المتقن المبرم، والإتقان والإبرام فلا يكونان إلا بعلم وإحكام، والعلم والإحكام

لا يكونان إلا من الحكيم العلام، والنعمة لا تكون إلا من المنعام؛ لعلمه بفاقة المحكم إلى الإحكام، ولا يبرم المبرمات إلا عالم بحاجتها إلى الإبرام، وذلك كله فلا يكون إلا من ذي الجلال والإكرام.

ودليل آخر: لا بد أن تضاف هذه الحكمة إلى حكيم، أو تضاف إلى غير حكيم فأيهما يشهد بجوازه العقل جاز، فالعقل يشهد بالجواز أن تضاف إلى الحكيم، ولا يجوز في العقل أن تضاف الحكمة إلى غير حكيم.

ودليل آخر: لا بد أن تضاف هذه الحكمة إلى موات محدث وإلى قديم حي محدث فالعقل يشهد بإضافتها إلى القديم المحدث الحي ولا يشهد بإضافتها إلى الميت المحدث أصلاً.

ودليل آخر: إما أن تكون هذه الحكمة أحكمت وبسطت النعمة وأنعمت بعلم الحي أو بجهل الميت.

فإن قلت: بالجهل فالجهل لا يوجب خيراً.

وإن قلت: بالعلم فالعلم صفة عالم.

ودليل آخر: إما أن تكون هذه الحكمة تمت بفعل قادر حي، وإما أن تكون تمت بفعل ميت عاجز.

فإن قلت: بفعل الميت العاجز فالموت والعجز لا يتمان خيراً.

وإن قلت: بل بفعل قادر حي صدقت؛ لأن الفعل لا يتم إلا من الحي القادر.

ودليل آخر: إما أن يكون التوصل والتفصيل من فعل موصل مفصل، وإما

أن يكون من فعل ميت غافل، فالميت الغافل لا يوجب توصل أوصال ولا تفصيل مفاصل.

ودليل آخر: إما أن يكون جعل الشيء لمصلحة الشيء من فعل مصلح جاعل[1]، وإما أن يكون من فعل ميت غافل فالعقل يشهد أن الإصلاح من المصلح الجاعل.

ودليل آخر: إما أن يكون الرزق للمرزوقين من الميت الغافل، وإما أن يكون من العالم الحي الرازق، فالعقل يشهد أن الرزق لا يكون إلا من الرازق الخالق ويستحيل أن يكون ذلك من غير خالق.

ودليل آخر: إما أن يكون الفضل من الميت، وإما أن يكون من حي فاضل فالعقل يشهد أن الموات ليس بفاضل.

ودليل آخر: إما أن يكون الهدى من هادٍ، وإما أن يكون من ميت فالعقل يشهد أن الميت ليس بهاد ولا مرشد ولا راشد، ولا هدى أهدى من العقول المركبة في كل عاقل.

ودليل آخر: إما أن يكون التفهيم من مفهم، وإما أن يكون من موات فالموات لا يفهم فكيف إلى أن يُفَهِّم وليس بفاهم؟

ودليل آخر: إما أن يكون التعليم من ميت جاهل، وإما أن يكون من حي عالم، وقد وجدنا هذه الحيوانات معلَّمة للخيرات ملهَمة لنفي المهلكات، فالعقل يشهد أن التعليم حادث وأنه من معلم عليم؛ إذ العقل يشهد

---

(١) في (جـ) قادر.

أن التعليم من صفة عالم، ويشهد أن التعليم لا يكون من فعل جاهل ميت غافل وإن كان التعليم من غير عالم وكان من جاهل فهذا العدم بعينه والعدم لا يوجب شيئاً.

ودليل آخر: أنا نظرنا إلى جميع الحيوانات فإذا هي مهدية إلى كفالة أولادها، وإلى طلب مناكحها ومآكلها، ومشاربها ومنافعها، ومساكنها ومصالحها، مفهمة للنفور عن مضارها ومهالكها، فعلمنا أن الهداية هي الدلالة، والدلالة لا تخلو من أن تكون من عالم حي، أو من صنع ميت، فالعقل يشهد أن الدليل لا يكون ميتاً ويشهد أن الهادي لا يكون جاهلاً.

ودليل آخر: إما أن تكون هذه العقول المركبة الدالة من مركب دَالٍّ، وإما أن تكون من ميت، فالعقل يشهد أن الميت لا يدل على خير ولا شر، ويشهد أن العقل من أجل العلوم والعلم لا يكون من فعل الأموات، والعقل يشهد أن العلم من فعل عالم.

فإن قلت: إن هذا العلم الحادث في الصدور، المحيط بجميع الأمور، المميز بين الخيرات والشرور من فعل طبع ميت فالعقل يشهد أن الميت لا يصنع العلم.

وإن قلت: إنه من فعل لا شيء ناقضت قولك؛ لأن لا شيء لا يصنع علماً ولا جهلاً؛ لأن لا شيء عدم والعدم ليس بجاهل ولا عالم ولا حي ولا ميت وإنما هو نفي والنفي فهو كلامنا ونفينا.

وإن قلت: بل هو من فعل عالم، صدقت وكان ذلك ضرورة كما ذكرت.

وإن قلت: إن هذا العلم لا من حي، ولا من ميت، ولا من شيء أصلاً لم تخل من أن تكون أوجبت بهذا القول عدمه أو قدمه، فإن كنت أوجبت عدمه

أكذبك وجوده، وإن كنت أردت قدمه أكذبك حدثه.

ودليل آخر: إن كنت تريد بهذا القول نفي الخالق فكيف تثبت الخلق بغير خالق.

فإن قلت: من أجل أن الخلق قديم أحلت؛ لأنا قد أوضحنا حدثه.

وإن قلت: من أجل علل قديمة فقد أوضحنا لك أن العدم لا شيء، ولا شيء نفي والنفي لا يوجب إثبات شيء.

وإن قلت: من أجل الحدث فالحدث من المحدث؛ إذ ليس إلا المحدث الفاعل أو العدم، فلما انتفى العدم ثبت الخالق تبارك وتعالى.

باب الدلالة على نفي الصفات عن الخالق والدليل على قدمه

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم ﵉: فلما صح أن للأشياء خالقاً محدثاً جاعلاً، صح أنه بخلافها من جميع المعاني وصح أنه لا يشبهها في الذات ولا الفعل ولا الصفات، ألا ترى أنه لو أشبهها في بعض الشيء لكان ذلك البعض مثلها في الحدث، والحدث لا يتعلق بقديم؛ لأنه لا يوجد متعلقاً إلا في كله أو بعضه وللكل والبعض نهاية؛ لأن الكل محدود، والبعض لا يتعلق إلا في متحرك أو ساكن، والمتحرك والساكن محدثان، ولو أشبهها في كل شيء لكان محدثاً مثلها ولو كان محدثاً لما كان رباً؛ لأن المحدث مربوب والمربوب مخلوق ولا فضل لمخلوق على مخلوق في معنى الحدث بعد العدم فوجب أن الخالق لا يشبه المخلوق، وفي ذلك من الأدلة ما يكثر لو شرحناه ويطول به الكتاب لو ذكرناه.

فإن قال قائل ملحد أو سأل سائل مسترشد: فما تنكرون من أن يكون الخالق مخلوقاً وخالقه مخلوقاً إلى ما لا نهاية له؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك؛ لأنك جعلت الكل مخلوقين ويستحيل أن يكون المخلوق رباً لمخلوق؛ إذ هما سواء في الحدث لا فرق بينهما.

ودليل آخر: إما أن تكون هذه المحدثات أحدثت وفعلت بأمر قديم أو بأنفسها.

فإن قلت: بأنفسها فهذا محال؛ لأن المحدث مربوب والمربوب لا فضل له على المربوبات؛ إذ سبيله سبيل المحدثات.

وإن قلت: إن الأصل هو القديم الثَّبَتُ الخالقَ سبحانه.

ودليل آخر: إذا كان الخالق آخر المخلوقات وكان محدَثاً بعد مُحدَثات لم يخل ما قبله من المحدثات من أحد وجهين:

[١] إما أن يكن كلهن مثله في الحدث.

[٢] وإما أن يكون بعضهن محدثاً وبعضهن قديماً.

فإن قلت: كلهن محدثات أوجبت لهن محدثاً قديماً بخلافهن أحدثهن وخلقهن.

وإن قلت: إن بعضهن محدث وبعضهن قديم أوجبت أنهن على قسمين:

[١] قسم محدث مخلوق.

[٢] وقسم خالق قديم.

والخالق لا يسمى قسماً ولا بعضاً.

ودليل آخر: إذا كان الخالق بزعمك مخلوقاً وقبله خالق قديم وخالق إلى ما لا نهاية له فقد جعلته آخر الخالقين المخلوقين وفي هذا تناقض أن يكون المحدث قديماً والخالق مخلوقاً، وإذا كان لهم آخر [فلهم][1] أول ويستحيل آخر بلا أول.

---

(١) في (أ): فهم. والصواب ما أثبتناه بين المعكوفين من (ب).

ودليل آخر: لم يقع كلامك إلا على مخلوقات، ولا بد للمخلوقات من خالق قديم.

ودليل آخر: إما أن تكون عنيت بقولك لا نهاية تريد الكل من المحدثات أو البعض، أو لم تعن كلاً ولا بعضاً، وفي هذا ما كفى.

ودليل آخر: إذا كان هذا الخالق المخلوق آخر المخلوقات لم يخل من قبله من الخالقين المخلوقين من أن يكون الآن كلهم موجودين أو كلهم معدومين أو بعضهم موجوداً وبعضهم معدوماً.

فإن قلت: إن الكل موجود فللكل نهاية وغاية؛ إذ لم يبق منهم شيء حتى هو الآن موجود لم يعدم منهم شيء، وإذا صح وجود الكل وصح حدث الكل صح المحدث الخالق الأول القديم والله الرحمن الرحيم الواحد الحكيم العليم.

وإن قلت: إن الكل معدوم الآن فللكل نهاية؛ لأن ما صح حدثه كله وصح عدمه كله بعد وجوده وحدوثه صح محدثه بعد العدم ومفنيه وهو الله خالقه وباريه.

وإن قلت: إن البعض موجود والبعض معدوم، جعلتها مقسمة قسمين: قسم هو الآن موجود كله مخلوق، وقسم كله قد عدم بعد حدوثه ومضى بعد إيجاد موجده ومحدثه وكلا القسمين لم يخل من الحدوث، والله محدثهما وخالقهما ومفني ما فني بمشيئته ومبقي ما بقي برحمته.

وإن قال: إن قبل كل شيء شيئاً.

قيل له: أتعني بقولك لا نهاية له كل ما هو الآن موجود، أوكل ما هو الآن معدوم، أو ما بعضه معدوم وبعضه موجود، فلا تجد مخرجاً إلا أن تقول: لم أعن شيئاً، فيبطل جميع الأشياء، أو تقول عنيت بالعدم بعض المعدوم فينقض قوله؛ لأنه إذا أوجب العدم على قسم ثم قال: عنيت بعضه، فقد نقض قوله؛ لأنه لا فضل لبعض المعدوم على بعض؛ إذ كله معدوم، وكذلك إن عنى بالوجود بعض الموجود فقد نقض قوله؛ لأن الوجود وجود كله والعدم عدم كله، وأينما ذهب لم يجد مذهباً ما يذهب إليه نهاية للأشياء.

ودليل آخر: إن هذه الأرباب المخلوقة التي زعمت محدثة، وإذا كانت محدثة فيستحيل قولك: خلقت أمثالها؛ لأن المخلوق لا يقدر على خلق مثله ويستحيل أن تكون الأجسام من فعله.

باب الدلالة على نفي الصفات عن الله فاطر السماوات

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم -صلوات الله عليه: إن سأل سائل فقال: هل لله صفات؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: مسألتك تحتمل وجهين:

[١] إما أن تكون أردت أن له صفات غيره بها علم وقدر.

[٢] وإما أن تكون أردت أن له صفات هي هو.

فإن قلت: إن معه صفات غيره بها قدر وعلم، فهذا محال أن يكون معه في القدم غيره أو يكون أيضاً محتاجاً إلى غيره.

ودليل آخر: لو كان له صفات غيره لم تخل تلك الصفات من أحد وجهين:

[١] إما أن تكون متعلقة به.

[٢] وإما أن تكون مباينة له منفصلة عنه.

فإن قلت: إنها متعلقة به جعلته محلا وموضعاً، والمحل لا يكون إلا مكاناً، والمكان لا يكون إلا جسماً.

ودليل آخر: لا يخلو من أن تكون متعلقة بجميعه فتكون لـه كـل، وإمـا أن تكون متعلقة ببعضه فتكون جـزأين جـزء خـلا مـن الحلـول وجـزء محلـول، والكل والبعض لا يكون إلا مفترقاً أو مجتمعاً، والمفـترق والمجتمـع لا يكـون إلا من الأجسام؛ لأن المفترق مفصَّل لا بد له من مفصِّـل، والمجتمـع موصـل لا بد له من موصِل، والمجتمع والمفترق لا يكون إلا متحركـاً أو سـاكناً، وقـد أوضحنا حدث المتحرك والساكن فيما تقدم من كلامنا.

وإن قلت: إن له صفات هي هو أصبت في قولك؛ لأنه واحد ليس معه شيء يعلم به ولا يقدر ولكنه غني حكيم عالم قادر حي بغير معانٍ سواه.

فإن قال: من أين علمتم أنه حي؟

قيل له ولا قوة إلا بـالله: دلنا على أنه حي أنا نظرنا إلى صنعه فإذا هو محكـم متقن، والإحكام لا يكون إلا من حكيم، والحكيم لا يكون ميتـاً؛ لأن الميـت لا يعقل ولا يعي، ولا يحسن ولا يسيء.

فإن قال: من أين علمتم أنه عالم؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأنا نظرنا إلى إحكام الصنع فإذا هو دليل علـى أنـه من غير جاهل؛ لأن الجاهل حائر، والفاعل لا يفعل إلا بعد علمه بالمفعول.

فإن قال: وما أنكرت من أن يكون فعل بجهل؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك لأنا نظرنا إلى الفاعل بالجهل فلـم يخـل عندنا من أن يكون أتقن الصنع وأحكمه بفكـر وذكـر بعـد نسـيان، وإمـا أن يكون فعل ذلك بعلم لم يسبقه سهو ولا نقصان.

فإن قلت: إنه فعل ذلك بخاطر فكر بعد جهل فهذا محال؛ لأن الخاطر من صفة مخلوق عاجز غير قادر؛ لأن الذكر عرض عارض لا يكون إلا في جسم متحرك أو ساكن، كل أو بعض، وكذلك النسيان فهو عرض يحل في القلوب، وذلك أولى ما ننزه عنه علام الغيوب.

وإن قلت: إنه فعل ذلك وهو عالم أصبت، وكان ذلك أحسن ما ذكرت، وكان الموصوف بالعلم أولى من وصفت.

فإن قال: من أين علمتم أنه قادر؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأنا نظرنا إلى الصنع فإذا هو مخترع من غير أصل ولا بداء فعلمنا أنه من فعل قادر؛ لأن العاجز لا يصنع الشيء من غير أصل ولا بداء، وقد بينا في أول كلامنا حدث الأشياء من غير شيء، ولأن العجز عرض لا بد أن يكون في الكل والبعض، أو في الطول أو في العرض.

فإن قال قائل: فكيف يعقل بعقل شيء ليس بجسم ولا عرض ولا له كل ولا بعض، ولا طول ولا عرض؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: يعقل بما أظهر من صنعه الجليل الذي لا تمتنع منه العقول ولا يوجد إلى دفعه[1] سبيل.

فإن قال: فكيف يعتذر بأن لا نراه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أيها السائل أنا لو رأيناه لما عبدناه؛ وذلك أن الأبصار لا تقع إلا على مفترق أو مجتمع، ولم يستدل على الله إلا بالمفترق

(١) في (ب): إلى ذكره.

والمجتمع؛ لأنهما محدثان ولا بد للمحدث من خالق أحدثه، ولا بد أن يكون بخلافه من جميع المعاني.

فإن قال: فبم عرفته؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: بما هو أولى وأحق من الإبصار، وأصدق من جميع الأخبار.

فإن قال: وما ذلك؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: ذلك العقل الذي لا يجوز عليه المحال، ولا يقبل ما فسد من المقال، فلو أدركنا صنع جميع الأشياء مشاهدة رأي أعيننا لما كان ذلك أبداً مثل العقل عندنا، فالحمد لله الذي هدانا إلى معرفته، وعلمنا ما نستدل به على حكمته، ووهب لنا التمييز برحمته، فلقد جاد علينا من العقول بما لا نؤدي شكره.

فالحمد لله الذي ضمن قلوبنا نوره، ونسأل الله أن يجعله آمراً لنا بالخيرات، وزاجراً عن السيئات، وأن ينجينا به من الموبقات، وينقذنا به من المهلكات، فكم محجوج به لم ينتفع بضياء بهجته، ولم ينف به حندس ظلمته، ولم يخرج به من معصيته، ولم يطلب به رضاء الله في آخرته، وصرفه في أهلك مهالكه، وسلك به شر مسالكه، فلعمري ما أُتينا من قبل عقولنا ولكن من سوء أفعالنا وظنوننا، فنسأل الله المغفرة لما تقدم من ذنوبنا.

باب الدلالة على التعبد

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم -صلوات الله عليه: **إن سأل سائل فقال**: ما الدليل على التعبد؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أيها السائل أن الله ركب الاستطاعة في العباد والشهوة فلم يكن بد من صرف الاستطاعة في خير أو شر، فتعبدهم بفعل الخيرات وترك الفاحشات؛ إذ الحكيم لا يحب الفساد.

فإن قال: ولم ركب فيهم الاستطاعة؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأن الاستطاعة هي القدرة، والقدرة خير من العجز، والعقول هي العلم، والعلم أفضل من الجهل.

فإن قال: فلم كلفهم ما يستثقلون؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: للفرق بين المطيعين والعاصين.

فإن قال: ولم فرق بين المطيعين والعاصين؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: ليميز بين الخبيث والطيب؛ إذ ليس من صفة الحكيم أن يجعل المفسد والمصلح سواءً في محل واحد.

فإن قال: فلم خلقهم وقد علم بإفسادهم؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأن خلقه لهم حسن وفعلهم قبيح، ولم يكن الحكيم ليترك فعل الحسن من صنعه لقبح فعل غيره.

فإن قال: فما الدليل على البعث؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على ذلك أن الحكيم لا يخلق الخلق ويظهر الحكمة إلا للبقاء؛ لأن الفناء بالكلية ليس من الحكمة، وإذا لم يكن بد من أمر ونهي فلا بد من مأمور مطيع وعاصٍ، وإذا لم يكن بد من الطاعة والمعصية فلا بد من الثواب والعقاب ولم يكن ذلك في هذه الدار فلا بد منه في غيرها، وإذا لم يكن بد من التعبد ولم يكن ذلك إلا بأمر ونهي فلا بد من رسول.

فإن قال: فلم خلقهم في بدء المنشأ؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأن إظهار الحكمة من صفة الحكيم.

فإن قال: ولِمَ يظهر الحكمة؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأن إظهارها حسن.

فإن قال: ولِمَ يظهر الحسن؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأن إظهار الحسن خير من تركه.

فإن قال: ومن أين كان إظهار الحسن خير من تركه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأنه لم يكن بد من أحد المعنيين إما تركه، وإما فعله، فتركه ليس من صفة الحكيم وفعله أولى بالحكمة.

فإن قال: فمن أين جاز الشرع؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: من قبل التعبد؛ لأن الشرع هو نفس العبادة

والبلوى التي بها يعرف بين من أحسن وأساء.

فإن قال: فمن أين جاز يتنبأ بعض الخلق دون بعض؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأن النبوة ثواب وتفضيل، والثواب والتفضيل لا يكونان إلا بفعل الطاعة والصبر على المحنة[1].

فإن قال: فلم ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وعلى آله؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأنه لم يخرج من الحكمة؛ إذ جعله تدبيراً لجميع الباقين وحجةً إلى يوم حشر العالمين.

فإن قال: ولم جاز أن يكون الميت حجة على الأحياء المتعبدين؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأنه أتى بالتعبد والآيات والقرآن الحكيم، والأئمة الهادون مترجمون عنه، والعقول شاهدة مع ذلك على المخلوقين وكل ذلك فلم يعدم لعدمه صلى الله عليه وآله.

[الولاية]

فإن قال: فهل للإمامة أصل في المعقول؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: نعم أصل الإمامة في المعقول؛ لأن الحكيم قد علم بأن لا بد من الاختلاف بين المخلوقين، فجعل في كل زمان إماماً حياً مترجماً لغوامض الأمور، مبيناً للخيرات من الشرور، ولا يعدم ذلك في كل قرن من القرون إما ظاهراً جلياً، أو مغموراً خفياً.

(١) أي والصبر وفعل الطاعة لا يكون إلا من بعض دون بعض.

فإن قال: وما الظاهر الجلي وما المغمور الخفي؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أما الظاهر فالسابق المنذر لجميع الخلائق، والشاهر لسيفه[1] المصلح لله في عباده وبلاده.

وأما المغمور فالمقتصد[2] المحتج لله في جميع العباد، الآمر بالمعروف والناهي عن الفساد بغير قيام ولا جهاد.

فإن قال: فهل الإمامة في أهل بيت دون غيرهم، أم هي في جميع الناس كلهم؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: بل هي في أهل بيت معروفين مخصوصين بالفضل، مشهورين معلومين غير مجهولين.

فإن قال: ومن أولئك؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أولئك نسل البتول، وأقرب قرابة الرسول.

فإن قال: فهل لهذه الخصيصة أصل في المعقول؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: نعم أصل ذلك في العقول وبعد ذلك في محكم التنزيل ووحي الواحد الجليل.

فإن قال: وكيف يعقل[3] أن تكون الإمامة في قوم دون سائر الأنام؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأن الله عز وجل حكيم والحكيم لا يحب الفساد ولا فساد أعظم من أن يجعل دينه في أيدي الخلائق، وأمره ونهيه وحدوده،

---

(١) في (أ): والشاهد لسلفه، والصحيح ما أثبتناه.

(٢) في (ب): فهو المقتصد.

(٣) في (ب): جاز.

وحلالـه وحرامـه، ووعـده ووعيـده، وحجتـه وأحكامـه فيهمـل الكـل ويلبس عليهم دينهم إذا[1] جعل الإمامة في جميعهم، ولم يكـن ذلـك في قـوم بأعيانهم، مخصوصين بذلك مـن دون غيرهـم، حتـى لا يختلـف فـيهم، فهـذا في المعقول.

وأما في الكتاب فقول الله عز وجل يدل على أصـل الإمامـة وكـذلك في السنة المجمع عليها عند جميع الأمة.

فأما وجوبها في الكتـاب فقـول الله عـز وجـل لنبيـه ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾[الرعد:٧]، فبين بأن لكل قوم هادياً، فاختلفوا في الهادي من هو، وممن هو، فبين الله ذلك بفضله فيما نزل من محكم قوله فقال عـز مـن قائـل: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ۝ رَّسُولٗا...﴾[الطلاق:١٠،١١]، فسمى رسول الله صـلى الله عليه وآله ذكرا ثم أمر سؤال آله فقال عز من قائـل: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[النحل:٤٣]، وأهل الذكر فهـم آل محمـد -علـيهم السـلام- وفي ذلك ما يقول عزّ من قائل لنبيه المصطفى ﷺ فيما نزل من الفرقان إليـه: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ...﴾[الشورى:٢٣]، فافترض مـودتهم علـى الخلق فرضاً، وأمر نبيه صلى الله عليه وآله بأن يأمر الناس بذلك أمـراً، فهـذا في الكتاب المبين وفيه كفاية لجميع المسلمين غير أنا سنذكر أيضاً بعض ما ذكر الرسول مما لا تنكره العقول مثل قوله صلى الله عليه وآله: «إني تـارك فـيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبـداً: كتـاب الله، وعترتـي أهـل بـيتي،

(١) في (ب): إذ جعل.

إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[1].

وأما في الإجماع فأجمعت الأمة كلها على نبيها صلى الله عليه وآله أنه قال: «الحق ما أجمعت عليه الأمة، والباطل ما اختلفت فيه»، ووجدنا الناس كلهم مجمعين على إمامة أمير المؤمنين ونسله في أصل الإجماع، وأصل الإجماع أن الناس أجمعوا كلهم على جواز الإمامة في آل الرسول واختلفوا في غيرهم، فالحق ما أجمعوا عليه من جواز الإمامة في آل نبيهم والباطل ما اختلفوا فيه من إمامة غيرهم؛ لأن الأمة خمس فرق، وهم: الشيعة، والمعتزلة، والخوارج، والمرجئة، والعامة، فأما الشيعة فقالت: الإمامة لآل علي دون غيرهم، وأما

---

(١) حديث الثقلين من الأحاديث المتواترة معنى، ورد بأسانيد صحيحة عن بضعة وعشرين صحابياً، انظر لوامع الأنوار: ١/ ٥٢. وقد تتبع السيد عبدالعزيز الطباطبائي طرقه، ومواقعه المختلفة في مجلة تراثنا العدد ١٤ السنة ١٤٠٩هـ ص٨٤ ـ ٩٣، تحت عنوان ((أهل البيت في المكتبة العربية))، وكتب العلامة القمي رسالة سماها حديث الثقلين، وذكر فيها عدداً من الرواة، وهنالك كتاب اسمه: (طرق حديث إني تارك فيكم الثقلين) لأبي الفضل محمد بن طاهر المقدسي وممن أخرجه الإمام زيد بن علي عليهم السلام في المجموع: ٤٠٤، والإمام علي بن موسى الرضا في الصحيفة: ٤٦٤، والإمام الهادي إلى الحق عليهم السلام في مقدمة الأحكام: ٤٠، والدولابي في الذرية الطاهرة ١٦٦ رقم (٢٢٨)، والبزار ٣/ ٨٩ رقم (٨٦٤) عن علي عليهم السلام.وأخرجه مسلم ١٥/ ١٧٩، والترمذي ٥/ ٦٢٢ رقم: ٣٧٨٨، وابن خزيمة ٤/ ٦٢ رقم (٢٣٥٧)، والطحاوي في مشكل الآثار:٤/ ٣٦٨ ـ٣٦٩، وابن أبي شيبة في المصنف: ٧/ ٤١٨، وابن عساكر في تاريخ دمشق: ٥/ ٣٦٩ (تهذيبه)، والطبري في ذخائر العقبى ١٦، والبيهقي في السنن الكبرى: ٧/ ٣٠، والطبراني في الكبير: ٥/ ١٦٦ رقم (٤٩٦٩)، والنسائي في الخصائص ١٥٠ رقم ٢٧٦، والدارمي: ٢/ ٤٣١، وابن المغازلي الشافعي في المناقب ٢٣٤ـ٢٣٦، وأحمد في المسند ٤/ ٣٦٧ وابن الأثير في أسد الغابة ٢/ ١٢، والحاكم في المستدرك: ٣/ ١٤٨، وصححه وأقره الذهبي، عن زيد بن أرقم، وروي بطرق أخرى كلها تؤكد تواتره وصحته.

المعتزلة والخوارج فزعموا أنها في الناس كلهم، ومن أجازها في الناس فقد أجازها في أهل البيت؛ إذ هم خير الناس، وأما العامة والمرجئة فزعموا أن الإمامة في قريش[1]، ومن أجاز الإمامة في قريش فقد أجازها في آل محمد عليهم السلام؛ إذ هم خير قريش، وصلى الله على محمد النبي وعلى آله وسلم تسليماً.

(١) في (ب): فزعموا أن الإمامة في قريش دون غيرهم ومن أجاز الإمامة في قريش دون غيرهم.

كتاب

الرد على الملحدين وغيرهم من فرق الضالين

وقد اشتمل على الأبواب التالية:



كتاب الرد على الملحدين وغيرهم من فرق الضالين

بسم الله الرحمن الرحيم

توكلت على الله

الحمد لله الواحد القديم الذي لا نهاية لقدمه، ولا إحصاء لنعمه، المتفرد بوحدانيته، المنعم على جميع بريته، الموصوف بحكمته، الموجد لجميع الخلق بقدرته، ونفاذ مشيئته، وتمام كلمته، العزيز الذي لا يضام، القوي الذي لا يرام، ولا يسِن ولا ينام، ولا يدركه الطالبون، ولا ينجو منه الهاربون، ولا يتوهمه المتوهمون، ولا تشتبه عليه الأصوات، ولا يغشاه النور ولا الظلمات، ولا تدركه حواس الحسين، ولا يحيط به فكر المربوبين، ولا يخطر على قلوب المخلوقين، تقدس عن ذلك رب العالمين.

جار عن قصد السبيل من كيَّفَه، وأخطأ ظنُّ من اكتنهه، ولم يعرفه من وصفه بغير ما وصف به نفسه، وكفر به من حده بحد أو أيَّنه، وشبهه من بَعَّضَه، وجار به من جمعه، ليس بمجتمع فيعرف بالتحديد، ولا بمفترق فيعرف بالتعديد، ولا متحرك ولا ساكن فيوصف بصفة العبيد، عز عن ذلك ذو العرش المجيد والبطش الشديد.

ليس بجسم فتدركه الأبصار، ولا تحويه الأقطار، ولا تقع عليه الأفكار،

ولا يشبه شيئاً من المصنوعات فينال بالأوهام الخايلات، ولا تنال معرفته بجاسة من الحواس المدركات فيدخل في صفة المحدثات المكيفات، ولا ذاته سبحانه في جهة من الجهات فيوصف بصفات المحدثات المباينات.

فتبارك وتعالى من لا يوصف بشيء من هذه الصفات، وحده لا شريك له، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة عبد مقر بعبوديته، مصدق بربوبيته، ومعتقد لإلهيته، راج لعفوه ورحمته، هارب إليه من خوف عقوبته، معتصم به مستوهب لهدايته، ومؤمن[1] به متمسك بطاعته، شهادة لا يخالطها شك ولا ارتياب، ولا يعترض دونها شرك ولا إكذاب.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله شهادة مقر بنبوته، معتقد لمحبته، وأشهد أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور، وأشهد أن وعده ووعيده حق، وقوله سبحانه صدق، وأنه عدل في حكمه، رؤوف بجميع خلقه، وأشهد أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ صلوات الله عليه ـ كان خير البرية بعد نبيها ـ صلى الله عليه وآله ـ وأولاهم بمقام الرسول ـ صلى الله عليه وآله ـ وأبرعهم علماً، وأكثرهم حلماً، وأطوعهم لربه، وأبذلهم في سبيل الله لنفسه، وأكملهم في جميع صفاته، وأشهد بإمامة ولديه السبطين الإمامين الكريمين [العالمين][2] الحسن والحسين ابني الرسول، وسليلي البتول، وأن الإمامة من بعدهما فيمن طاب من ذريتهما، واحتذى بحذوهما، وكان في جميع صفاته مثلهما[3].

(١) في (ب): مؤمن به. بدون واو.
(٢) ما بين المعكوفين ساقط في (ب).
(٣) في (ب): كمثلهما.

اللهم فمن شهد بمثل ما شهدت به فاكتبه مع الشاهدين، ومن لم يشهد بمثل ما شهدت به فاكتب شهادتي مكان شهادته، والحمد لله على تمام نعمته وإكمال حجته.

وبعد ..

فإني لما اطلعت على كثير من أقاويل الملحدين، وزخرف قول المتلددين، واختلاف أهواء الضالين، وباطل كلام المتجبرين، واستغلاط الجاحدين لجهلة المسلمين، وسرعة القلوب إلى الأوهام، وتقحمها في لجج الظلام، وشكها في زخرف الكلام، ووجود ما ذكرت في أكثر الأنام وإن لم يبدوا غير دين الإسلام، فنعوذ من ذلك بذي الجلال والإكرام.

حداني ذلك على تصحيح ما دنّا به من الدين، وإبطال وساوس الشياطين، فكان أول ما ينبغي لنا أن نذكره ونبين لمن عقل خلله، ولمحتج عليه بأبين الحجج من جحد خالقه وأنكر صانعه من الدهرية الكفرة، وغيرهم من الثنوية المتوهمين الظانين بالله ظن السوء الجاحدين.

أجمعوا ـ لعنهم الله ـ على نفي خالقهم، وجحدان صانعهم حيرة منهم ـ لعنهم الله ـ واستكباراً واستعظاماً لكون الحق، وإنكاراً وتسهيلاً في الدين، ومعاندة للحق جهاراً، وإعلاناً بالسوء وإسراراً، فنعوذ بالله من قبول خواطر القلوب، والشك في دين علام الغيوب، ونسأله النجاة من موالاة الشيطان، والحيرة والمرية والجحدان، فكم من هالك أردى نفسه بالوهم، وتقحم في لجج الظلم، قد فارق الحق والهدى، واتبع الغي والردى، وتردد في الدين تردداً، وتشعبت به أوهامه فهو في بلية من نفسه، مما تدعوه إليه من تماديه

في غيه وصده عن رشده، قد ملكته فأهلكته بأهوائها، وتفرقت به [السبل][1] بإغوائها، وزخرفت له ما أمرته من الأسواء، ورددته فيما زينت له من الأهواء، ورغبته[2] فيما دعته إليه من الإغواء، فهو غير مخالف لها فيما تدعوه[3] إليه، ولا منكر عليها فيما تحضه عليه من ترهات المُنىَ، وما ترغبه فيه من الركون إلى الدنيا، قد نسي الموت وما بعده من الحساب، مما دخل نفسه من الشك والإرتياب، فنعوذ بالله مما أردى الكافرين، وأبعدهم وأقصاهم عن رب العالمين.

---

(١) في (أ): السبيل، والصحيح ما أثبتناه بين المعكوفين من (ب).
(٢) في (ب): وركبته.
(٣) في (ب): تدعو.

باب الرد على الدهرية

قال المهدي لدين الله الحسين بن الإمام القاسم بن علي صلوات الله عليه: إن سأل سائل فقال: ما الدليل على صنعة الله في الإنسان[1]؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على ذلك قول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[المؤمنون:١٢-١٤]، فأخبرنا سبحانه عما لا ننكره لما شاهدنا من ذلك بأبين البيان وأيقن اليقين[2] محدثاً لا يخفى، بيناً نوره لا يُطفى.

فإن قال: وما أنكرت من أن تكون هذه الأشياء قديمة العين حديثة الأحوال بالقوة الهيولة[3] وهي الأصلية في لغتنا؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك أشد الإنكار، وذلك أن القديم لا يكون محدثاً كما لا يكون المحدث قديماً، وقولك قديم نقضه بيِّن إذا قلت: ثم حدث

---

(١) في (ب): إن سأل سائل فقال: ما الدليل على حدوث الأشياء وأن لها صانعاً، وما الدليل على صنعه؟

(٢) في (ب): الإيقان.

(٣) في (ب): الهيولية، وهي الأصح.

فيه حادث؛ لأن الحادث لا يجري في قديم، كما لا يجري القديم في الحادث.

ودليل آخر: أن المحدث فيه إبانة مع محدثه، ومحال أن يكون للقديم صانع محدث.

ودليل آخر: يوضح فساد قولهم[1] قديم العين حديث الأعراض أن هذا القديم الذي زعمت لا يخلو من أحد وجهين:

[١]:إما أن يكون لم يزل ممتنعاً من الحدث[2] غير موجود بجميع صفاته.

[٢]: وإما أن يكون غير ممتنع من الحدث[3].

فإن كان غير موجود الصفات قبل كونه وكان غير ممتنع من الحدث صح أن له خالقاً نقله من صفة إلى صفة حتى أبلغه الغاية التي أراد، وإن كان لم يزل ممتنعاً من الحدث ثبت على امتناعه ودوامه ولم يجز أن يتغير أبد الأبد عن صفة القديم؛ لأنه إن تغير إلى صفة الحدث استحال قدمه، ولا يجوز أن يكون القديم مواتاً ولا مركباً ولا محدثاً ولا موصوفاً بصفة تدل على حدثه[4]، وهذا وجه قد تبين فساده بحمد الله.

---

(١) في (ب): يوضح فيه فساد قولك.

(٢) في (ب): الحدوث.

(٣) في (ب): الحدوث.

(٤) في (ب): صنعه.

باب الرد على أصحاب الكون

فإن قال: وما أنكرتم[1] من أن تكون هـذه الأشـياء لم تـزل موجـودة بجميـع صفاتها وهي كوامن في أعيانها؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك لاستحالته وبطلانه وهذا القول مكـابرة العيان؛ لأنا وجدنا النطفة والعلقة معدومة، ثم كانت علقة، والمضـغة عـدم[2] في حال كونها علقة ثم مضغة، والعظام معدومة ثم كانت عظاماً مؤلفة لا بـد لها من مؤلف، وكسوة اللحم عدم ثم صوره، بعد عدم التصوير، والمحدث مـا لم يكن ثم كان، وقد وجدنا هذه الأحوال بعد العدم والصورة غـير موجـودة في حال كونها نطفة، والحركة معدومة في [كل][3] موات من الإنس وغيرهـم من الجمادات، والحياة معدومة في حال الموت، والصورة لا بد لها من مصـور وفيها إبانة صنع صانع حكيم.

فإن قال: وما إبانة الصنع في الصورة؟

---

(١) في (ب): وما أنكرت.

(٢) في (ب): معدومة.

(٣) ما بين المعكوفين ساقط في (أ)، ثابت في (ب).

قيل له ولا قوة إلا بالله: تأليف الأجزاء وإحكامها، وتقديرها وإتقانها تدل على صنعها؛ إذ لم يكن شيء من ذلك، فقضينا على أن لكل مؤلف كان معدوم التأليف مؤلفاً، ونظرنا الحياة بعد الموت فعلمنا بيقين أن له محيياً؛ إذ لم نجد صنعاً إلا وصانعه موجود وإن لم نره، كالبناء لا بد له من بان وإن لم نر من بناه، والكتاب لا بد له من كاتب وإن لم نر كاتبه، والأثر [له مؤثر] وإن لم نر مؤثره، والصوت إذا سمعناه علمنا أن له مصوتاً وإن لم نره.

ودليل آخر: وهو أن صنع الحكيم العالم بين ومحال أن يكون[1] في العلل إبانة صنع؛ وذلك أن الحكمة لا تكون إلا من حكيم، ولا بيان علم إلا من عليم وهو الله الرحمن الرحيم؛ لأنا نظرنا الإنسان إنساناً كاملاً بعد أن كان نطفة من ماء مهين، فعلمنا أنه لا بد له من مكمل أكمله، ونظرنا إليه حياً بعد أن كان ميتاً، سميعاً بصيراً بعد أن لم يكن سميعاً ولا بصيراً.

فبان صنع العالم الحكيم؛ إذ جعل سبحانه [له] سمعاً يدرك به الأصوات، وبصراً يدرك [به] الهيئات، وشماً يدرك به جميع الروائح الخبائث والطيبات، وذوقاً يدرك به ما ذاق به من الطعوم المختلفات، ولمساً بالجسد كله يدرك به الحر والبرد، والخشن واللين وغيرهما من الأحوال المجسمات، فكل هذه الحواس المختلفة تدل على حكمة صانعها إذ خالف بينها فجعل كل حاسة تصلح لخلاف ما تصلح له الأخرى.

ودليل آخر: لا تخلو هذه المختلفات[2] من أحد وجهين:

[١]: إما أن تكون خالفت بين أنفسها.

[٢]: وإما أن يكون خالف بينها مدبرها.

---

(١) في (ب): من العلل.

(٢) في (ب): هذه الحواس المختلفات.

فإن كانت خالفت بين أنفسها فهذا محال؛ لأنها لم تكن واعية عند كونها، ولا عالمة في حال عدمها، فلما استحال هذا الوجه صح الثاني وهو أن لها مدبراً خالف بينها؛ إذ الفاعل الحكيم بين صنعه في إحداثها، وجعل كل[1] واحدة من هذه المختلفات لشيء بعينه، ولا يجعل الشيء للشيء إلا حكيم، ولا يجعل الشيء للضرورات إلا عليم.

ألا ترى أن هذه الحواس جعلت لعلم جاعلها بضرورة أصحابها إليها وفاقتهم لها، وجعل سبحانه لهم من الأغذية واللذات ما لا قوام له[2] باضطرار إلا بها، وجعل لهم مداخل للأغذية ومخارج ولا يجعل المخارج للشيء إلا عالم بما صنع من المداخل التي لا قوام لهم إلا بها، ولا منصرف لهم عنها؛ إذ اضطرهم إليها، وجعل لهم ما ينتفعون به من الآلات والأدوات من الأيدي التي تصلح للبطش، والأرجل التي تصلح للخَطَفَى[3] والحركة والسير، والألسن الناطقة بأفنان الحكمة المؤدية للمصلحة، والعقول المميزة النافرة عن المضار المجتلبة للمنافع التي هي حجج على من جعلت له.

ولا تكون حكمة محدثة صح حدثها وبطل قدمها وكانت بعد [عدمها][4] إلا من حكيم مدبر عليم حي قيوم، ولا يجعل ذلك إلا لبقائه ونفعه، لا لفنائه وضره؛ إذ الحكمة موجبة لذلك فيما قد بان من رأفة الصانع؛ إذ جعل في المصنوعات مصالح تدل على أنه أراد بذلك لها، وأخبر بذلك على

(١) في (أ): لكل، والصواب ما أثبتناه من (ب).
(٢) في (ب): لهم.
(٣) الخَطَفَى: أي السرعة في السير أفاده في القاموس. تمت.
(٤) في (أ): بعدمها. والصحيح: بعد عدمها. وهو ما أثبتناه بين المعكوفين من (ب).

لسان نبيه صلى الله عليه وآله، ولذلك أوجبت حكمة الألباب أن من مكن في الاستطاعة من الأنام لا بد من إساءته أو إحسانه، فوجب لذلك الثواب على إحسان من أحسن من المحسنين، ووجب عقاب من استحق العقوبة من المسيئين، فلما انقضت آجال المحسنين ولم يثابوا وانقضت آجال المسيئين ولم يعاقبوا، علمنا أن داراً غير هذه الدار يثاب فيها من استحق الثواب، ويعاقب عليها[1] من استحق العقوبة من المسيئين، فنسأل الله أن يرزقنا ما رزق المستحقين لثوابه، وأن يصرف عنا ما استوجب العاصون من عذابه، وأن يثبت أقدامنا على صراطه إنه على كل شيء قدير، وإليه المعاد والمصير.

---

(١) في (ب): فيها.

باب الرد على أهل الإلحاد في التولد

وقولهم: إنه لا نهاية لشيء من الأشياء وأنه لم يزل نطفة من إنسان وإنسان من نطفة، وبيضة من طائر، وطائر من بيضة إلى ما لا نهاية[1]، وحبة من سنبلة، وسنبلة من حبة إلى ما لا نهاية له ولا غاية.

قال المهدي لدين الله الحسين بن الإمام القاسم بن علي صلوات الله عليه: **فإن قال بعض الملحدين**: فما أنكرت من أن تكون هذه الحيوانات لم تزل تحدث شيئاً[2] من شيء وشيئاً[3] بعد شيء وشيئاً[4] قبل شيء إلى ما لا نهاية له ولا غاية؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك أشد الإنكار وقولك متناقض فاسد وذلك أنك قلت: لم تزل، فأوجبت أنها أزلية، ثم نقضت قولك بقولك [تحدث] فأوجبت الحدث والقدم في حال واحد فأدخلت فساد القول على نفسك وذلك أنك إذا جعلتها أزلية بطل الحدث، (وإذا جعلتهما محدثة بطل

---

(١) في (ب): إلى ما لا يتناهى.

(٢) في (أ): شيء والصحيح ما أثبتناه من (ب).

(٣) في (أ): شيء والصحيح ما أثبتناه من (ب).

(٤) في (أ): شيء والصحيح ما أثبتناه من (ب).

القدم)[1] وإذا جعلتها محدثة أزلية فسد قولك لاستحالة كونهـا معـاً في حـال واحد كما ذكرنا.

ودليـل آخـر على فساد هذا القول: أن كـل شـيء موجـود بذاتـه محـدث وكـل محدث له غاية في نفسه.

ودليـل آخــر: أن لكل[2] منهم ـ وإن كثر كون بعضهم من بعض ـ له نهايـة وغاية، وعليه نعمة في كل تركيبة وبنية[3] وحكمة، والنعمة لا تكـون إلا مـن منعم، والحكمة لا تقوم إلا بمحكم، وما كان من الحيوانات منعماً عليه وكـان في جميع أسبابه محسناً إليه فيستحيل أن يكون غير متناهي وأن يكون مـن غـير أصل ولا بدء.

ودليـل آخـر: أن كل ما احتمل الزيادة والنقصان فقد كان ناقصاً قبل زيـادة ما زاد منه إلى غاية الزائد المتنـاهي إلى الـنقص؛ لأن الزائـد لا يزيـد إلا بعـد النقصـــان والنقصـــان متنـــاهي بـــأبين البيـــان؛ لأن المنقـــوص محـــدود بأوضح البرهان(*).

ودليـل آخـر: أن كل ما كان له آخر فله أول ويستحيل[4] آخر بلا أول.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة في (ب).

(٢) في (أ): أن الكل. والصواب: أن لكل، وهو ما أثبتناه من (ب)

(٣) في (ب): في تركيبه وبنيته.

(*) فإذا ضربنا مثلاً بالكون وبدايته فهناك الكثير من النظريات التي درست ذلـك لعـل أشـهرها نظريـة «هابـل» الـتي اعتـبرت أن الكـون مـا زال يتمـدد وقـد أثبـت هـذا العـالم الأمريكـي عام١٩٢٩بأن المجرات المكونة للكون تتباعد عن بعضها بسرعة (٥٠-١٠٠)كم/ث، وتزداد هذه السرعة بزيادة المسافة بين المجرات العديدة وإذا كان هذا الابتعاد يمثل تمدد الكون فإننا لا نملـك إلا أن نسبح بقدرة خالقنا العظيم﴿والسماء بنيناها بأيدٍ وإنا لموسعون﴾[الذاريات:٤٧].

(٤) في (ب): ومستحيل.

ودليل آخر: الفرع والأصل، لما وجدنا الفرع دلنا على الأصل[1] ويستحيل فرع بلا أصل.

ودليل آخر: أن الحيوانات على قسمين: قسم ميت هو الأصل، وقسم حي هو الفرع، وللقسمين غاية ونهاية.

ودليل آخر: أن الأصل لا يعدو[2] مكانه الذي هو محله ومحل أصول الحيوانات هذه الأرض، والأرض قد حوت الجميع وحازتهم، وتضمنت جميع الأموات وأحاطت بهم، وكل ما أحيط به فهو محدود، وكل شيء حل موضعاً فموضعه أكبر منه عدداً وما كان غيره أكثر منه كان بالبعض[3] محدوداً.

ودليل آخر: أن أصول الحيوانات محمولة على الأرض كلها ولكل نهاية وغاية؛ لأن المحمول على الأرض أقل من حامله، والأرض فقد حملت جميع الحيوانات من الأحياء والأموات.

ودليل آخر: أن الأصول التي زعمت أنها غير متناهية لا تخلو من العدد، وكل ذي عدد لا يخلو من النوعين المعروفين وهما الشفع والوتر، وقد وجدنا كل ذي نسل من الإنس والبهائم والطير والزرع من كل الأشجار ذوات زيادة غير منفك من العدد والشفع له نهاية وغاية وكذلك الوتر أيضاً.

ودليل آخر: أن الأصل وقع عليه الفناء، وكل ما فني وامتحق فله نهاية وغاية، ألا ترى أن الموت لا يقع إلا على نفس معدودة متناهية محدودة.

---

(١) في (ب): على أصله.
(٢) في (ب): لم يعدُ.
(٣) في (ب): بالنقص.

باب الرد على أصحاب الطبع[1]

قال المهدي لدين الله الحسين بن الإمام القاسم بن علي عليهما السلام: فإن رجع إلى قول أصحاب الطبائع فقال: ما أنكرت من أن تكون هذه الأشياء حدثت من الطبائع الأربع الحر والقر[2]، واليبس والرطوبة، عند امتزاجها واعتدالها ثم نقص من جزء وزيد في جزء[3] فجاء ضرب[4] غير الأول، ثم على هذ القياس كمثل خضرة وحمرة، وبياض وصفرة[5] مزج آيها[6] فعدلت حيناً، ونقص من جزء وزيد في الآخر؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك من وجوه شتى:

أحدها: إن قولك ظن بغير يقين شاهدته فأرنا من ذلك ما رأيت، وأوجدنا من ذلك ما وجدت؟

فإن قال -وهو قائل لا شك-: حجتنا على ذلك أنا وجدنا الأجسام

(١) في (ب): الطبائع.
(٢) في (ب): الحر والبرد واليبس والرطوبة، والقر هو البرد.
(٣) في (ب): وزيد في آخر.
(٤) في (ب): ضرباً.
(٥) في (ب): كمثل حمرة وخضرة وصفرة وبياض.
(٦) في (ب): بينها. ولعلها الصواب.

لا تنفك من هذه الطبائع الأربع وقضينا[1] عليها بأنها دبرتها؛ [والجواب: أنه يلزمهم أن يقولوا مثل ذلك في الألوان][2] إذ لم تنفك[3] الألوان من الحمرة والخضرة والبياض والصفرة وغير ذلك فلو وجب أن يكون ما ادعيتم لكان أيضاً ذلك في القياس على ما ذكرتم.

ودليل آخر: أنا شاهدنا هذه الطبائع في الأجسام بعد[4] إكمال الله لها غير فاعلة فعلاً مما[5] ادعيتم.

ودليل آخر: أنا وجدنا في الصور التأليف والتركيب وآثار صنع الحكيم المؤلف المركب[6] ومحال أن تكون العلل مؤلفة أو مركبة أو حكيمة عالمة؛ إذ هي عن ذلك محجوبة لا إحسان لها ولا إساءة، ولا عقول لها تقي بها أنفسها فكيف تدبر غيرها[7].

ودليل آخر: أن هذه الطبائع لا تخلو من أحد وجهين عند اجتماعها: إما أن تكون جمعت أنفسها[8]، وإما أن تكون مجموعة بأمر صانعها.

فإن قلت: إنها جمعت بين أنفسها، فكيف تجمع بين أنفسها وهي أعراض

---

(١) في (ب): فقضينا.

(٢) ما بين المعكوفين استحسنه السيد العلامة بدر الدين الحوثي حفظه الله.

(٣) في (ب): إذ لم تنفك منها قيل له ولا قوة إلا بالله: وكذلك أيضاً قد وجدناها لا تنفك من الألوان من الحمرة والخضرة والبياض والصفرة وغير ذلك ...إلخ.

(٤) في (ب): بعدل كمال الله.

(٥) في (أ): فما. والصحيح: ما أثبتناه من (ب).

(٦) في (ب): والمركب.

(٧) في (ب): فكيف بتدبير غيرها.

(٨) في (ب): إما أن يكون جمعت بين أنفسها.

لا توجد منفردة[1] بذواتها [ولو كانت] موجودة بأعيانها لاستحال ذلك ولما أمكن[2]؛ إذ المفرق الجامع لا يكون إلا حياً[3].

ودليل آخر: أن الفاعل لا يكون إلا موجوداً قبل المفعول وقد وجدنا هذه الطبائع بوجود[4] المحدث، فعلمنا أن حال المحدثات سواء؛ إذ وجدن في حال واحد، وعدمن في حال واحد؛ لأن الطبيعة لا توجد قبل الجسم والجسم لا يوجد قبل الطبيعة، والطبيعة فإنما هي عرض[5]، والأعراض على وجهين فمنها أعراض حادثة[6] بعد حدوث الجسم، ومنها أعراض حدثت[7] مع الجسم لم تسبقه ولم يسبقها، والأعراض فلا تسبق الأجسام أصلا ولا تنفصل بأعيانها أبداً.

فأما الأعراض التي حدثت مع الجسم فمثل الطبائع الأربع الحر والبرد واليبس والرطوبة، ومثل الاجتماع والطول والعرض والحركة والسكون وكذلك[8]؛ لأنه قد يستحيل أن يوجد جسم ليس برطب ولا يابس، وكذلك يستحيل أن يوجد جسم ليس بمتحرك ولا ساكن ويستحيل أن يوجد جسم ليس بحار ولا بارد، فمن هاهنا قلنا: إن هذه الطبائع أصلية لم تحدث بعد

---

(١) في (ب): منفردة بذواتها ولو كانت منفردة بذواتها ...إلخ.
(٢) في (ب): لما أمكن أبداً.
(٣) في (أ): جزءاً. والصحيح ما أثبتناه من (ب): إلا حياً.
(٤) في (ب): مع وجود.
(٥) في (ب): إنما هي أعراض.
(٦) في (ب): حدثت.
(٧) في (ب) زيادة: حدثت.
(٨) في (ب): كذلك، ساقط.

الجسم ولها [علل][1] وتنقل وتصرّف يطول شرحها.

وأما العلل التي يمكن أن تحدث بعد حدوث الجسم فمثل أن يكون ساكناً[2] فيتحرك[3] فتحدث الحركة أو يكون الجسم[4] مجتمعاً فيتفرق فيحدث الافتراق، أو يكون طويلاً فيقصر فيحدث القصر، ومثل الأعراض الحادثة في الحيوان بعد عدمها.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من (أ) وساقط في (ب).

(٢) في (ب): فمثل أن يكون الجسم ساكناً.

(٣) في (ب): فتحرك.

(٤) في (ب): الجسم. ساقط.

باب الرد على عبدة النجوم

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي عليهما جميعاً السلام: فإن رجع إلى قول أصحاب النجوم فقال: وما أنكرتم من أن تكون هذه الأشياء تصورت لدور[(1)] الفلك وحركات النجوم والفلك متصل بالعالم كاتصال خيوط الإبريسيم بآلة الحوك فإذا[(2)] دار الفلك على المصنوع بسعدٍ تمّ وصلح، وإن دار عليه بنحس فسد ولا يتم[(3)] كما إذا حرك الصانع آلة الحوك الملائمة السد أو اللحام أظهر في الحوك ما أراد من صورة إما رأس طائر وإما جناحه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنك قايست ما لا يقايس؛ لأنك قايست اتصال خيوط [الإبريسيم][(4)] بآلة الحوك وتحريك الصانع لها وإظهار ما يريد[(5)] بتحريكه الفلك والمخلوقين وهذا ما لا ينقاس[(6)] عند ذوي الألباب؛ لأن الخيوط

---

(١) في (ب): بدور.

(٢) في (ب): فإن.

(٣) في (ب): ولم. ولعله الأصح.

(٤) ما بين المعكوفين ساقط في (أ)، ثابت في (ب).

(٥) في (ب): ما يريد بحركة.

(٦) في (ب): ما لا يتقايس.

متصلة بآلة الحوك غير مباينة [لها، والنجوم مباينة][1] للمخلوقين، وغير متصلة بأجسامهم وحركتها غير متصلة بهم؛ إذ كل منهم منفرد بذاته ولو أحدثت حركة النجوم[2] في العالم حكمة لجاز أن يحدث من تحريك الصانع لجوارحه في الحوك صورة مختلفة بغير ملامسة؛ لأنه إذا جاز عندك أن يتحرك النجم بنفسه فتفعل حركته في العالم صوراً جاز لحائك الإبريسيم[3] وهو بعيد عنها كما جاز للنجم [لديك][4] الصور[5] وهو بائن فيها[6]، فهذا وجه يبطل فيه قياسهم[7].

والوجه الآخر: أنك زعمت أن الفلك، إن دار على المصنوع بنحس فسد ولم يتم، وإن دار عليه بسعد تم وصلح ولم يفسد، ووجدنا الأمر بخلاف ما ذكرت؛ وذلك أنا نظرنا إلى الأحمال أحمال الإناث من الإنس والبهائم والطير والأشجار، وما لا يحصيه إلا الله عز وجل من الحيوانات[8] ربما لم تتم وربما تم في حال دور السعود التي زعمتم أنه يتم في حال دورها، ووجدناه ربما تم وربما لم يتم في حال دور النحوس التي زعمتم أنه لا يتم فيها، وما كان من ذلك فبإذن الله وتقديره مما[9] سنذكره إن شاء الله تعالى من بيان صنع الله

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من (ب).
(٢) في (ب): النجم.
(٣) في (ب): لجاز لحائك الإبريسيم أن يحرك نفسه فيحدث ألوان ثياب الإبريسيم وهو بعيد عنها.
(٤) في (أ،ب): ذلك. والصواب ما أثبتناه.
(٥) في (ب): في الصورة.
(٦) في (ب): منها. ولعل الأصح: عنها.
(٧) في (ب): قياسكم.
(٨) في (ب): من الحيوان.
(٩) في (ب): لما. وهو الأصح.

فيهما وفساد قول من زعم أنها قديمة الحركات إلى ما لا نهاية له.

والوجه الثالث: أنها في أنفسها مخلوقة أبان الله صنعه في إيجاده إياها.

فإن قال -وهو قائل لا شك-: وما دلك على أنها مخلوقة؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: دلنا على ذلك إبانة صنعه فيها.

فإن قال: وما إبانة صنعه فيها؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: وجوه شتى، أول ذلك تصويرها وإحكامها وتقديرها، ولا بد لكل صورة من مصور، ولكل تقدير من مقدر، ولكل تدبير من مدبر.

ودليل آخر: أنها لو كانت قديمة لما كانت في أوصافها مختلفة فلما وجدناها مختلفة الأنواع علمنا أن لها مدبراً خالف بينها وفصل بعض هيئاتها، وخالف بين صفاتها.

ودليل آخر: أن في العالم آثار حكمة الصانع العالم والحركات ليست بعالمة [ولا هي] حكيمة مدبرة[1]، ولا هي بحية مقدرة؛ لأنها علل متعلقة بأجسام النجوم غير متلاحقة لا تعدو مواضعها من معلولاتها.

ودليل آخر على فساد قولهم: إن حركات النجوم ليس لها أول [عندهم]، وسنبين إن شاء الله فساد قولهم، وذلك أن ما[2] قد مضى من حركاتها لا يحصى لكثرتها في طلوعها وأفولها وإقبالها[3] وإدبارها، وما مضى فقد وقع

(١) في (ب): ولا هي لمدبرة حكيمة.

(٢) في (ب): وذلك ما قد مضى.

(٣) في (ب): إقبالها، ساقط.

عليه الفناء، وما صح حدثه[1] وصح فناؤه فله نهاية[2]؛ لأن الحركة الماضية على حالين محدثين وهما الحدوث والفناء؛ لأن الحركة الماضية لم تعدم إلا بعد حدوث كل ساعة منها وما صح[3] حدثه وصح فناؤه بعد حدوثه فله نهاية وغاية؛ لأن[4] الحركة لم تعدم إلا بعد عدم أولها وما كان له أول وآخر فله نهاية وغاية.

ودليل آخر: أن دور القمر في المنزلتين الشامية واليمانية، يدل على حدوث حركته وعلى حدوث ما كان من شكله؛ وذلك أنه لا يخلو من أحد ثلاثة أوجه:

[١] إما أن يكون ما مضى من دوره في أحد المنزلتين أكثر من دوره في المنزلة الأخرى.

[٢] وإما أن يكون ما مضى من دوره فيهما سواء بالسوية.

[٣] وإما أن يكون لم يدر فيهما أصلاً.

فإن قلت: إنه لم يدر جحدت حركته.

وإن قلت: إن دوره في أحد المنزلتين أكثر من دوره في الأخرى فلكثير العدد نهاية وغاية؛ لأنها لم تكثر إلا بعد قلتها وللقليل نهاية وغاية.

فإن قلت: إن حركته في المنزلتين بالسوية[5]، فهي شفع وللشفع نهاية وغاية؛

---

(١) في (ب): حدوثه.

(٢) في (ب): فله نهاية وغاية.

(٣) في (ب): وما صح فناؤه بعد حدوثه.

(٤) في (ب): لأن حركة الحركة لم تعدم ...إلخ .

(٥) في (ب): سواء بالسوية.

لأن الحركة في موضعين تدل على التناهي، وكذلك القول في أفولها وطلوعها أنه يدل على حدث الحركة وبدئها؛ لأن الحركة لا تكون إلا من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق، وقد مضى من ذلك ما لا يحصى وكان بعد حدوثه عدماً، وما صح عدماً[1] جميعه بعد حدوثه فله نهاية وغاية؛ لأن الطلوع والأفول حادثان[2] وهما بعد حدوثهما منصرمان[3] وكل ما مضى منهما فهو[4] عدم وللكل نهاية تحيل القدم.

وإذا صح حدث الفلك فلا يخلو من أحد ثلاثة أوجه: إما أن يكون أحدث نفسه، وإما أن يكون حدث ولا محدث له، وإما أن يكون أحدثه محدث أبان صنعه من[5] تركيبه وبنيته وهو الله الذي صنع وافتطر وأحكم ودبر.

فإن قال: وما أنكرت من تدبيره لنفسه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك لأنه لا يخلو في حال تدبيره لنفسه من أحد وجهين:

[١] إما أن يكون دبر لنفسه[6] وخلقها في حال الوجود.

[٢] وإما أن يكون ذلك في حال العدم.

فإن كان في حال العدم فمحال تدبير العدم؛ لأن الفاعل لا يكون

(١) في (ب): عدم.
(٢) في (ب): حدثان.
(٣) في (ب): متصرمان.
(٤) في (ب): فقد.
(٥) في (ب): في.
(٦) في (ب): نفسه.

إلا موجوداً في حال فعله، والعدم ليس بشيء موجود[1] فيفعل، وإن كان خلقها في حال الوجود فهذا[2] يستحيل؛ لأنها إذا كانت موجودة استحال قولك خلقها؛ إذ كان وجوده سابقاً لفعله، وأيضاً فإن المخلوق لا يفعل إلا حركة أو سكوناً وما[3] أشبههما من الأعراض.

فإن قال: فما أنكرت [من أن يكون][4] حدث ولا محدث له؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك لأن قولك حدث يوجب أن له محدثاً، ثم نقضت قولك بقولك: لا محدث له، فأقررت بالحدث ثم نفيته؛ لأن الحادث لا بد له من محدث أحدثه، كما لا بد لكل فعل من فاعل، ولا بد لكل بناء من بان، ولكل كتاب من كاتب، ولا بد لكل صوت من مصوت، ولا بد لكل أثر من مؤثر، ومحال أن يكون أثرٌ من غير مؤثر، وصوت من غير مصوت.

ودليل آخر: إنه لو كان محدَث بلا محدِث لم يكن بالوجود أولى منه بالعدم، ولم يكن بالحدوث أولى منه بالقدم.

ودليل آخر: أنه لو كان كما زعمت لم يعد أن يكون حدث لعلة[5] فهذا محال؛ لأن العلل ليست بحكيمة مدبرة، ولا بحية مقدرة كما قد ذكرنا في أول الكتاب، وكذلك أيضاً فقد ذكرنا ذلك في (كتاب التناهي والتحديد) في[6]

---

(١) في (ب): بموجود.

(٢) في (ب): فهذا وجه يستحيل أيضاً.

(٣) في (ب): أو ما.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من (ب).

(٥) في (ب): أو لغير علة أو من خالق أبان صنعة إيجاده فإن كان حدث لعلة. زيادة في (ب).

(٦) في (ب): من.

بيان صنع الله في العلل وغيرها، فلما استحال هـذان الوجهـان صـح الوجـه الثالث وهو صنع الله سبحانه، وعز عن كل شأن شأنه، وذلـك أنـا نظرنـا إلى النجوم والشمس والقمر فإذا هي[1] مسخرات مدبرات مقدرات فعلمنـا أنـه لا بد لكل مسخَّر كان معدوم التسخير من مسخِّر، ولا بد لكـل تقـدير كـان بعد عدمه من مقدر، ولكل[2] مدبر كان بعد عدمه من مدبر، وذلك أنا وجدنا لحركتها غاية تدل على أوليتها، ووجـدنا فيهـا تصـويراً وإحكامـاً يـدل علـى محكمها ومصورها، ووجدنا لها أقداراً تدل على مقدرها، ووجدناها متفاضلة فدل تفاضلها واختلافها على المفضل بينها، ووجدنا فيهـا دلـيلاً علـى منـافع العباد، وقدوة للخلق في جميـع الـبلاد، وهدايـة في ظلمـات الـبر والبحـر[3]، ومصالح لهم في الليل والنهار، فدل ذلك على أنهـا نعمـة والنعمـة لا تكـون إلا من الواحد القهار، لما جعل فيها من الزينة والأنوار، وأقام بمنفعة ذلك من المعايش والأبصار.

ودليـل آخـر: أن مكان هذه النجوم والشمس والقمر ضد لها منـافر مفـارق مباين غير موافق ولا موالف، فلما نظرنا التأليف[4] بين الضـدين دلنـا ذلـك على حدثهما جميعاً وعلى أن لها صانعاً ألّف بينها[5] بلطفه وقدرتـه، وتـدبيره وإظهاره[6] لحكمته.

(١) في (ب): هن.
(٢) في (ب): ولا بد.
(٣) في (ب): البحار.
(٤) في (ب): في التأليف.
(٥) في (ب): أن لهما صانعاً ألّف بينهما.
(٦) في (ب): واصل هذا بحكمته.

فإن قال: وما أنكرت من أن تكون ثبتت بطباع لها من غير عمد يعمدها؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك لأن من طباعها الثقل؛ لأن أفولها وطلوعها وهويها دليل على قوتها[1] وثقلها، والثقل[2] لا يستقر إلا على معتمد، فإذا لم نر لها عمداً علمنا بيقين أنها تثبت بلطف مدبرها.

فإن قال: وما أنكرت من أن يكون الهواء يحملها؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك؛ لأن من طبع الهواء الضعف عن أن يحمل حبة الخردل فما دونها! فكيف يحمل السماوات[3] والنجوم والماء وجبال البرد؛ لأن من طبعها الثقل ومن طبعه الضعف.

ألا ترى السحاب ليس بينه وبين الماء والبرد مشاكلة وكذلك الهواء لا يشاكل الماء؛ لأن من طبع الهواء الضعف، فلما وجدنا الماء والسحاب مجتمعين علمنا بيقين أن ذلك الاجتماع ليس من فعلهما وأن الجامع بينهما غيرهما؛ لأن من طبع الهواء الضعف ومن طبع السحاب الخفة والطيشان والضعف؛ لأن من شأن السحاب الخفيف أن يعلو صعداً ومن شأن الماء الثقيل[4] أن ينحدر سفلاً، فيجب على هذه الطبائع[5] ألا يجتمعا طرفة عين، فأي حديث[6] أعجب من اجتماع هذه الأضداد التي من شأنها الافتراق، وليس من طبعها الاجتماع والالتزاق.

---

(١) في (أ): كونها.
(٢) في (ب): والثقيل.
(٣) في (ب): والأرض.
(٤) في(أ) و(ب) الثقل، ولعل الصواب : الثقيل.
(٥) في (ب): الطباع.
(٦) في (ب): فأي عجيب أعجب.

ودليل آخر: أن الهواء لو كان [يحمل][1] النجوم لما أسلمها إلى الأفول والطلوع، ولو جاز ذلك في أقل قليل إسلامه لها من حيز إلى حيز لما كان اي الحيزين أولى بإسلامها من الآخر؛ لأن الهواء لو كان يعمدها عند طلوعها لوجب أن يعمدها أيضاً عند أفولها، ولو كان الهواء هو الذي سقطها[2] عند غروبها لأسقطها في وسطه قبل مغيبها، فلما وجدناها لا تسقط عند طلوعها علمنا أن لها مسخراً أطلعها، فلما استقلت في وسط الجو ولم يسلمها إلى الهبوط علمنا أن غيره أمسكها لأنه يضعف[3].

---

(١) في (ب): يعمد، وفي (أ): يعمد، ولعل الصواب ما أثبتناه.

(٢) في (ب): يسقطها.

(٣) في (ب): عن حملها. زيادة. وفي هذا إشارة مبكرة منه ﷺ إلى الجاذبية.

باب الرد على الثنوية عبدة النور والظلمة

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي عليهما السلام: فإن رجع إلى قول الثنوية فقال: وما أنكرتم من أن تكون هذه الأشياء أحدثها اثنان سميعان بصيران عالمان، فالنور يخلق كل خير، والظلمة تخلق كل شر ومكروه وضير، وليس ذلك باختيار ولكن ذلك بطباع أزلية؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك من وجوه شتى:

أولها: أنك لا تخلو في قولك هذا[1] من أحد وجهين:

[١] إما أن تكون قلته تظنناً وتوهماً.

[٢] وإما أن تكون قلته بدرك ويقين.

فإن قلت إنك أدركتهما رأي العين يخلقان أحلت.

وإن قلت بل ظننت وتوهمت فقد قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم:٢٨].

وإن قال -وهو قائل لا شك-: حجتي على ذلك أني نظرت في العالم خيراً

(١) في (ب): هذا. ساقط.

وشراً فقضيت على أن الخير والشر من أصلين[1] أحدهما فاعل خيراً والآخر فاعل شراً، ولا يمكن أن يأتي بالخير من يأتي بالشر، ولا يمكن أن يأتي بالشر من يأتي بالخير.

قيل له ولا قوة إلا بالله: قولك هذا تظنين وتوهم، ويستحيل من وجوه شتى:

أولها أنا وجدنا فاعل الخير والشر واحداً، ولو كان كما توهمت لما أحسن محسن[2] ولا اعتذر مذنب، ولا تاب مخطئ؛ إذ زعمت أنه لا يأتي بالخير مسيء أبداً.

ودليل آخر: أن الخلق تام متقن محكم وفيه إبانة صنع محدثه، ومحال أن تكون الحكمة من علة من العلل الطبيعية.

ودليل آخر: إما أن يكونا عند تمازجهما أحدثا الخلق بإرادة منهما، وإما أن يكون[3] حدث بطباع تمازجهما.

فإن قلت: إن الخلق حدث بإرادتهما أحلت؛ لأنك وصفتهما بصفات تدل على حدثهما وذلك أنك زعمت أن لكل واحد منهما خمس حواس مختلفات ولا بد لما اختلف من الأشياء من صانع خالف بين أجناسه لإظهار حكمته فكل[4] واحدة تصلح لخلاف ما تصلح له الأخرى لفاقته إلى ما جعل له صانعه، وإذا كان في الشيء من الأشياء ما يدل على حدثه بطل قدمه،

---

(١) في (ب): على أن الخير والشر أصلان.

(٢) في (ب): لما أحسن مسيء أبداً ولا اعتدى مذنب. وهو الصواب.

(٣) في (ب): وإما أن يكون الخلق حدث.

(٤) في (ب): فجعل كل واحدة.

وإذا بطل قدمه لم يكن الفعل[1] أولى من غيره ولزمه إذ ذلك ما يلزم مثله من العجز عن أن يصنع.

وإن قلت: إن الخلق حدث بطباع تمازجهما أحلت؛ لأن المصنوع المطبوع لا تعدوه طبيعته والاجتماع فهو عرض لا يتعداهما إلى غيرهما كما أن افتراقهما لا يوجب حكمة في سواهما.

ودليل آخر: أنهما إذاً[2] كانا من التصوير على ما ذكرت، وفي تمام الحواس على ما وصفت، فقد يجب[3] شكر المنعم بكمال أدواتهما[4] والمتفضل بتمام جوارحهما؛ إذ جعل لهما حواساً خمساً عياناً[5] وسمعاً وذوقاً وشماً ولمساً، وخالف بين علمهما وحواسهما، وغاير بين صفات أجناسهما.

ودليل آخر: يقال لهم: ما العلة التي أوجبت تمازجهما بعد مباينة كل واحد لضده؛ إذ زعمتم أنهما تمازجا بعد مباينة كل واحد لصاحبه؟

فإن قلتم: إن الظلمة بغت على النور؛ أوجبتم حدث[6] حركة لاقت بينهما[7]، وإذا حدث بينهما حادث فهما على حالين محدثين وهما الحركة والسكون، وما كان من الأشياء متحركاً أو ساكناً فهو مضطر

---

(١) في (ب): لم يكن بالفعل.
(٢) في (ب): إنهما إما كان.
(٣) في (ب): فقد يجب عليها شكر المنعم.
(٤) في (ب): بكمال ذواتهما.
(٥) في (ب): بصراً.
(٦) في (ب): حدث. ساقط.
(٧) في (ب): فيهما.

إلى الحركة والسكون، والمضطر لا بد له من صانع اضطره إلى الحوادث وبناه عليها.

ودليل آخر: قالوا: إنهما تمازج بعضهما ولا نهاية لما بقي منهما، وإذا كان لهما بعض تمازج بحركتهما الذي[1] بقي منهما لا يخلو من[2] أن يكون ساكناً كله فينتظمه[3] السكون ويتعلق بجميعه، أو يكون غير ساكن ولا متحرك فيكون عدماً.

ودليل آخر: لا يخلوان من أن يكونا ميتين أو حيين، فإن كانا ميتين فقد لابسهما الموت وحواهما، وإن كانا حيين فقد حوتهما الأرواح وناهتهما.

ودليل آخر: لا يخلو كل واحد منهما من أن يكون مجتمعاً أو مفترقاً، والافتراق يوجب [عدم] التوصل، والاجتماع يوجب التوصل[4]، والتوصل والتفصيل لا يكونان إلا من صانع موصل مفصل[5].

ودليل آخر: قال بعضهم: إنهما جنسان، فالنور بياض كله، والظلمة سواد كلها، وللكل نهاية وغاية؛ لأن البياض قد لبس النور كله ولا بد لكل لباس من ملبس، وكذلك القول في السواد إنه قد لبس الظلمة كلها وللكل نهاية وغاية، وإذا حواهما لباسهما فقد حدهما وتضمنهما، والسواد والبياض فهما عرضان صفتان لغيرهما، والخالق ليس بعرض ولا جسم؛ لأن الجسم فيه

---

(١) في (ب): لحركاتهما.

(٢) في (ب): من. ساقط.

(٣) في (ب): فيتضمنه.

(٤) في (ب): التفصيل والإجتماع يوجب التوصيل.

(٥) في (ب): ومفصل.

إبانة صنع صانعه والعرض صفة له لا إحسان له[1] ولا إساءة ولا قوة له[2] ولا عقل ولا حياة ولا فعل من الأفعال فكفى لعمري بشيء هذه صفته عجزاً وضعفاً.

ودليل آخر: البياض والسواد لا بد لهما من صانع خالف بين أجناسهما؛ لأن القديم لا يخالف القديم، والمحدثات أضداد لا بد لها من مضاد ضاد بينها[3] بقدرته ليعلم أن لا ضد له.

---

(١) في (ب): لها.

(٢) في (ب): له. ساقط.

(٣) في (ب): بينهما.

باب الرد على المتجاهلة

قال الحسين بن القاسم عليهما السلام: فإن رجع إلى قول المتجاهلة فقال: وما أنكرت من أن تكون هذه الأشياء لا تصح علم أحد بها؛ لأن النائم لا يصح منامه إذا استيقظ، والظل في الماء والمراية لا يصح إذا قلب، فلعل هذه الأشياء التي تذكرون ستبطل كما بطل غيرها؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك؛ لأن ما بطل من الأشياء إنما بطل لعلة وذلك أنه لا حقيقة لعلل[1] النائم وإنما صحّ عنده الباطل في حال تغير عقله وبطل عنده الباطل في حال صحة عقله حين استيقظ مثل رجل رأى في منامه أنه مقطوع اليد ثم انتبه من منامه فلم يجد لما رأى [حقيقة وذلك أنه إنما رأى ذلك في اليقظة في صحة من عقله لما بطل ذلك عنده بلا حقيقة فبطل عنده حين عقل ولو أنه رأى ذلك][2]، ألا ترى أنه لو رأى في منامه أنه قتل وصلب بطل[3] ذلك عند يقظته، ولو أنه قتل في حال صحة عقله ويقظته لما بطل ذلك عنده إلى يوم القيامة فنعوذ بالله من الكفر بعد الإيمان، ونسأل الله التثبت

(١) في (ب): لعقل.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من (أ) ونقص في (ب).

(٣) في (ب): لبطل ذلك.

على الهدى والبرهان، ولا حول[1] ولا قوة إلا بالله ذي العزة والسلطان.

فإن قال: فما الدليل على حقائق الأشياء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: وجودها مبرأة من عوارض العلل التي تعرض دون دركها.

فإن قال: فما[2] العوارض التي تمنع من درك الحقائق؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: من ذلك النوم وزوال العقل وتغير الحواس.

فإن قال: فما حقيقة الجسم؟

قيل له[3]: وجوده بذاته مرئياً مدركاً تحويه الجهات الست الفوق والتحت واليمين والشمال والخلف والأمام.

فإن قال: وما حقيقة العرض؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: وجوده بحيث أحله الله من الأجسام.

فإن قال: فما حقيقة الحسّ؟

قيل له[4]: دركة الحاسة للمحسوس.

فإن قال: فما حقيقة الحركة؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: وجود العضو المتحرك زائلاً عن اللبث.

فإن قال: فما حقيقة السكون؟

---

(١) لا حول. ساقط في (ب).
(٢) في (ب): وما العوارض.
(٣) ولا قوة إلا بالله. زيادة في (ب).
(٤) ولا قوة إلا بالله. زيادة في (ب).

قيل له ولا قوة إلا بالله: وجود العضو الساكن لابثاً غير زائل.

فإن قال: فما الدليل على أن الحركة غير المتحرك؟

قيل له: وجود العضو على غير الحركة ساكناً ثم ترى الحركة فتعلم أن الحركة شيء لم تره ثم رأيته، ولو كانت الحركة هي العضو المتحرك لرأيت الحركة في حال السكون، فلما رأيت العضو ساكناً ولم تر الحركة ثم رأيتها علمت أن الذي لم تكن رأيته غير الذي كنت رأيت. فقس وافهم إن شاء الله تعالى(*).

(*) وهذا الكلام يتوافق مع رأي العلوم الحديثة حيث أن الحركة تظهر إذا تغير موضع الجسم بالنسبة للزمن.

باب الرد على من جحد النبوة

قال الإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي عليهما السلام: فإن قال: وما أنكرتم من أن يكون لنا خالق على ما وصفتم ولم يرسل رسولاً؟

قلنا بحمد الله رد على هؤلاء سنذكره: وذلك أنهم جحدوا الرسل واعتلوا في ذلك بأن الله سبحانه حكيم والحكيم إذا علم أنك لا تجبه فلا يرسل إليك إلا وهو عاتب.

فيقال لهم: ليس الأمر كما توهمتم ولكن إذا علم الحكيم أنه قد أعطاك قوة تفعل بها ما أمرك بفعله وتترك ما أمرك بتركه، ثم أرسل إليك فلا يرسل إليك إلا وهو يعلم أن لك قوة إلى فعل ما أمرك بفعله، وترك ما أمرك بتركه.

ويقال لهم: أعلم الله مانع له من إرسال الرسل؟! أم علمه مانع لكم من طاعته؟

فإن قالوا: إن علمه منعه؛ جعلوه ممنوعاً مضطراً مدفوعاً وجعلوا العلم شيئاً مانعاً ولحجته دافعاً فسبحان الله عما يشركون، وإنما علمه ذاته.

وإن قالوا: إن علم الله مانع لهم من طاعته؛ فقد أحالوا في قولهم؛ لأن العلم هو الله والله حكيم، والحكيم لا يمنع المطيعين من طاعته.

ودليل آخر: إن[1] الحكيم إذا علم أنه يعصى لم يمنعه ذلك من الرسالة[2] إلى من عصاه لتكون الحجة له عليهم ولتكون دعوته ورسالته أقطع لعللهم وأدحض لحججهم.

ودليل آخر: إن الحكيم إذا علم بمعصية أعدائه لم يمنعه علمه بمعصيتهم من الرسالة إلى أوليائه.

(١) في (ب): مقدم.
(٢) في (ب): من الرسل له إلى من عصى.

باب التوحيد ونفي التشبيه

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي عليهما السلام: فإن رجع إلى قول أصحاب الاثنين فقال: وما أنكرتم من كون خالقين قديمين بالصفات التي وصفتم بها الواحد القديم وهو الله الرحمن الرحيم؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك لتضاد الاثنين.

فإن قال: وما أنكرت من اتفاقهما؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لو اتفقا في العلم والجهل[1] والقدرة والعجز، فإن كان كل واحد منهما يقدر على إخفاء فعله وخلقه في سماواته وأرضه عن صاحبه، خرجا جميعاً من العلم وصارا جميعاً إلى الجهل؛ إذ كان كل واحد منهما جاهلاً لما يخفي عنه صاحبه من الفعل، وإن كانا لا يقدران على إخفاء كل واحد فعلاً يفعله خرجا من صفات القدرة إلى العجز؛ إذ كان كل[2] منهما لا يقدر أن يخفي فعله عن الآخر، وإذا كانا عاجزين جاهلين صح أنهما مخلوقان.

(1) في (ب): صفاتهما في العلم.

(2) في (ب): إذ كان كل واحد.

وإذا[1] كان أحدهما يقدر على إخفاء فعله والآخر لا يقدر ثبتت الربوبية للعالم القادر، والمربوب هو العاجز الجاهل؛ لعجزه عن قدرة خالقه؛ إذ لا بد للعاجز من معجز أعجزه ومنعه.

ودليل آخر: أنهما إذا كانا اثنين لم يخلوا من [أحد][2] ثلاثة أوجه:

[١] إما أن يكونا حكيمين.

[٢] وإما أن يكونا سفيهين.

[٣] وإما أن يكون أحدهما سفيهاً والآخر حكيما.

فإن كانا حكيمين [وجب عليهما أن يبينا أنفسها ولا يخملا حكمتهما][3] وإن كانا سفيهين فهما غير قديمين؛ لأن السفه والعبث إنما تولد من الهوى، والقديم لا يعبث ولا يهوى؛ لأن الهوى بنية ضرورة[4] جعلت للبلوى، وإن كان أحدهما حكيماً والآخر سفيهاً فالربوبية للحكيم الذي بين حكمته والسفيه مربوب مخلوق عاجز، والله أعجزه وابتلاه، وركبه على الشهوات وبناه.

---

(١) في (ب): وإن كان.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من (ب).

(٣) ما بين المعكوفين زيادة من (ب).

(٤) في (ب): ضرورية.

باب الرد على الفضائية

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي عليهما السلام: فإن رجع إلى قول الفضائية فقال: فإذا[1] أوضحت لي أنه واحد، فما أنكرت من أن يكون الفضاء الهواء المكان الذي فيه الأشياء قديماً[2]؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك من وجوه شتى:

[١] أحدها أن الفضاء جسم ضعيف والخالق لا يكون جسماً، ولو كان جسماً لما قدر على خلق جسم.

[٢] والخالق أيضاً لا يكون ضعيفاً؛ لأن الضعيف مخلوق.

ودليل آخر: أن الفضاء مجتمع موصل ولا بد لكل مجتمع من جامع ولا بد لكل توصيل من موصل والله موصله وجامعه ومبتدعه وصانعه، وأيضاً فإنه محدود ولا بد لكل محدود من محدد قطع حدوده وناهاه، وأوضح نهايته وغاياه.

ودليل آخر: أن الهواء موات ولا بد من مميته ومجمده ومضعفه ومحدده،

(١) في (ب): فإذا قد أوضحت.
(٢) في (ب): قديماً. ساقطاً.

ومن هؤلاء الفضائية من يقر بالقرآن والله يقول عز وجل من قائل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ﴾[البقرة:٢٥٥]، والهواء يدرك ويحاط بعلمه ويقول سبحانه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ...﴾[الأنعام:١٠٣]، والهواء فهو المسافة المدركة بين السماء والأرض.

ودليل آخر: أن الهواء ساكن وربما تحرك فهو مضطر إلى الحركة والسكون ولا بد له من صانع اضطره إليهما وبناه عليهما.

ودليل آخر: أن كل ما لا ينفك من الحركة والسكون فهو محدث؛ لأنهما محدثان يكثران ويقلان؛ لأن الهواء قد طال مقامه فيما مضى من الأزمان، والأزمان محدثة بأبين البيان؛ لأن ما مضى منها فلم يعدم إلا بعد حدوثه ساعة بعد ساعة وتلك الساعات فقد عدم جميعها بعد حدوثها كلها وللكل نهاية وغاية وهو لم ينفك منهما[1] ولم يكن قبلهما[2] وإذا لم يكن قبلهما[3] فهو في الحدوث مثلهما[4]. نسأل الله المغفرة والهدى، ونعوذ به من الحيرة والردى.

---

(١) في (ب): في منها.

(٢) في (ب): قبلها.

(٣) في (ب): قبلها.

(٤) في (ب): مثلها.

باب المعرفة

فإن قال: فما الدليل على معرفة الخالق وأين هو؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على معرفته ما أظهر من الصنع المتقن، وأقرب الأدلة إلى الإنسان نفسه؛ لأنا رأينا كل جارحة من جوارحه لم تجعل إلا لمصلحة من مصالحه فعلمنا أن الإصلاح لا يكون إلا من صانع عالم؛ لأنه لو كان جاهلاً لما اهتدى إلى الإصلاح.

وأما قولك: أين هو؟ فإن أين مكان، وربنا ليس في مكان؛ لأنه خالق المكان وهو كان ولا مكان.

فإن قال: فكيف هو؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لا كيف له؛ لأن كيف صفة من صفات خلقه تحتمل أوصاف الأجسام والله ليس بمكيف مصنوع فيوصف بصفات [المكيفين][1].

فإن قال: ففي أي الجهات هو؟ أفوق كل شيء، أم تحت كل شيء، أم هو

(١) ما بين المعكوفين من (ب)، وأما (أ) ففيها: (المطيعين).

محيط بكل شيء، أم هو في كل شيء، أم هو مع كل شيء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: مسألتك تحتمل ثلاثة أوجه:

[١] إما أن تكون عنيت ذاته.

[٢] وإما أن تكون عنيت علمه.

[٣] وإما أن تكون عنيت قدرته.

فإن قلت: عنيت بقولك **قدرته** فهو لعمري فوق كل شيء قاهر وذلك قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[الأنعام:١٨]، وإن كنت عنيت **بفوق وتحت ومحيط وفي ومع** تريد علمه، فهو لعمري كذلك محيط بكل شيء وفي كل شيء لا يخلو منه شيء ومع كل شيء لا يخفى عليه شيء.

وإن كنت عنيت **ذاته** فمحال أن يكون محاداً للعالم فيكون مجزأً مبعضاً؛ لأنه إذا كان فوق العالم فالذي يحاد العالم منه أسفل، وإذا كان تحت العالم فالذي يحاد العالم منه أعلى، وإذا كان محيطاً فالعالم منه في كل أو بعض، والكل والبعض من أوصاف المخلوقين، وكذلك إذا كان في العالم كان العالم له محلاً ومسكناً وملجأ ومعقلاً وكان مكانه أكبر منه وكان محدوداً والمحدود لا بد له من محدد؛ لأنه إذا أحاط به المكان[1] فله غاية ومنقطع وما كان له منقطع فله قاطع؛ لأن المقطوع مفروغ منه والفراغ من فعل المحدد القاطع للمحدود[2] المناهي وهو الله محدد الأجسام وقاطعها، ومفتطرها وصانعها، ومفرقها

---

(١) في (ب): بالمكان.

(٢) في (ب): للحدود.

وجامعها، وهذه صفات المخلوقين الموهمين ذوي الأماكن المدبرين، وربنا بخلاف خلقه.

لأنه لا يقع عليه الفكر ولا يخطر على بال؛ لأنه ليس في مكان ولا بينه وبين خلقه مكان؛ لأن المكان لو كان بينه وبينهم لم يخل ذلك المكان من أن يقربه فيكون قريباً منهم، أو بعيداً فيبعده عنهم، ولو كان قريباً بذاته منهم لكان مقرباً لا بد له من مقرب قربه، ولو كان بعيداً بذاته عنهم لكان مبعداً لا بد له من مبعد أبعده.

ودليل آخر: أنه لو كان بينه وبين خلقه مسافة لم تخل تلك المسافة من أن تكون قاربت كله أو بعضه، وللكل والبعض نهاية وغاية، والله سبحانه ليس بذي كل ولا بعض، ولا طول ولا عرض، ولا فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، ولا خلف ولا أمام، ولا لون ولا طعم، ولا رائحة ولا محسة[1]، ولا افتراق ولا اجتماع، ولا حركة ولا سكون، لأن هذه الصفات لا تكون إلا في الأجسام التي ذكرنا[2] والله خالقها وجاعلها.

(١) في (ب): مجسة.

(٢) في (ب): إلا في الأجسام التي ذكرنا حدثها.

باب الرد على من أنكر قول آل محمد صلوات الله عليهم في أن الله شيء لا كالأشياء

قال الحسين بن القاسم عليهما السلام: فإن قال قائل: لم زعمت أن الله شيء ولم تقل مشيء الشيء وقد علمت أنا لم نجد شيئاً إلا جسماً، فهل[1] نفيت عن ذلك صفات الأجسام؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أن قولنا شيء إثبات موجود ونفي معدوم، وقولنا: لا كالأشياء، نفي التشبيه وذلك قول الله عز وجل: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ...﴾[الأنعام:١٩]، فسمى نفسه شيئاً، ثم قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ...﴾[الشورى:١١]، فحكينا من قوله ما قال، ونسبنا إليه سبحانه ما نسب إلى نفسه، ونفينا عنه ما نفى عن نفسه من شبه خلقه.

مسألة فإن قال: أهو عالم؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: نعم هو سبحانه عالم.

فإن قال: أعلمه هو أم علمه غيره؟

(١) في (ب): فهلا.

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أيها السائل أن علمه وقدرته صفتان من صفات ذاته هما الذات والذات هما، وهو العالم بنفسه القادر بنفسه الحي بنفسه لا بحياة سواه ولا علم [ولا قدرة غيره][1].

[**مسألة**][2] **فإن قال:** ربكم مريد؟

قيل له: نعم.

فإن قال: وما إرادته؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: فعله للشيء فقط[3].

مسألة فإن قال: ربكم يقدر أن يريد أو يريد أن يقدر؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: هذه مسألة مغالطة منها ما يصح ومنها ما يفسد، فأما الصحيح فقولك: يقدر أن يريد؛ لأن الإرادة فعله وهو لعمري قادر على الأفعال، وأما الفاسد المحال فقولك: يريد أن يقدر، فكأنك قلت يفعل القدرة وهو لم يزل قادراً فجعلت القدرة من المفعولات فقد [فسد القول][4] واستحال.

مسألة فإن قال: ربكم يعلم أن يقدر أو يقدر أن يعلم؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: ربنا يعلم أنه يقدر، وأما قولك يقدر أن يعلم ففاسد

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من (أ).

(٢) ما بين المعكوفين ساقط في (ب).

(٣) أي غاية الشيء لا مبتدأه وهذه عبارة دقيقة في التفريق بين فعل الإنسان المقترن بالجوارح والأعراض وفعل الخالق عز وجل المتنزه عن ذلك فإرادته جل شأنه هي فعله وخلقه.

(٤) ما بين المعكوفين زيادة من (ب).

محال؛ لأن القدرة لا تقع إلا على المقدورات، وليس علم الله بمقدور فتقع عليه القدرة.

مسألة فإن قال: ما دليلك على أن الله حي؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأنا نظرنا إلى الخلق فإذا هو متصل تام محكم متقن فعلمنا أنه صنع حكيم حي؛ لأن الميت لا يقي نفسه فضلاً عن غيره ومحال تدبير من هو ميت، والحكيم لا يكون إلا حياً، والميت لا علم له ولا قدرة ولا إرادة ولا حكمة.

مسألة فإن قال: فما دليلك على أنه قادر[1]؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أبين الأدلة وأوضحها وذلك لأن العاجز لا يقدر على فعل شيء أصلاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

مسألة فإن قال: فما دليلك على أنه عالم؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لولا أنه عالم لما اهتدى إلى خلق الأشياء من غير شيء بل لعلمه بها قبل تكوينه لها، خلقها وفطرها واخترعها بغير مثال احتذى عليه، وكيف لا يعلم المبتدع ما ابتدع والحكيم الصانع ما صنع.

مسألة فإن قال: له حد أو نهاية أو أمد أو غاية؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: تعالى الله خالقنا عن[2] أن يكون له حد أو نهاية أو أمد أو غاية؛ لأن كل محدود لا بد له من محدد أحاط به، وكل ذي عدد

---

(١) في (ب): على القادر.

(٢) في (ب): عن. ساقط.

لا بد له من معدد، وربنا ليس بذي حد به يحد، ولا بذي أجزاء تعد.

مسألة فإن قال: فهل يدرك بحس أو نفس؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: هذا محال لا يجوز على الله؛ لأن النفس لا تدرك إلا جسماً أو عرضاً وكذلك درك الحس أيضاً، والجسم والعرض محدثان ومدبران بعد العدم مصنوعان.

باب الحقائق

فإن قال: فما حقيقته في ذاته؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: مسألتك تحتمل وجهين: إما أن تكون أردت حقيقة ذاته، وإما أن تكون أردت الدلالة على وجوده، فإن كنت أردت ذاته فحقيقته ذاته وذاته حقيقته، وإن كنت أردت الدلالة على حقيقته (وصنعه)[1] فالجواب في ذلك: أن وجود خلقه وصنعه يدل على أنه شيء حق وليس عندنا من الجواب في المسألة إلا ما ذكرت لك إذ كل شيء موجود مدرك محسوس يعرف حقيقته بذاته والله لا يعرف إلا بما أظهر من حكمته، وحقيقته قدمه وهو حقيقة ذاته، وكذلك غير القدم من صفاته كعلمه وقدرته وحياته.

مسألة فإن قال: فما هو؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: مسألتك تحتمل ثلاثة أوجه: إما أن تكون سألت عن اسمه، وإما أن تكون سألت عن صفته، وإما أن تكون سألت عن ذاته، فإن كنت سألت عن اسمه فهو الله الرحمن الرحيم، وإن كنت سألت عن صفته فهو الواحد القديم القدير العليم، وإن كنت سألت عن ذاته فهو الذي ليس كمثله شيء.

---

(١) في (ب): وصنعه. زيادة.

مسألة عن الإرادة وإن قال[1]: لم يزل الله[2] مريداً أم إرادته حدثت ولم تكن أزلية؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أن إرادة الله سبحانه هي فعله، وأما إرادته لطاعة عباده فهي أمره لهم فقط، وكذلك سخطه لمعصيتهم فهو نهيه لهم، والله سبحانه لم يزل عالماً بجميع فعله عالماً بجميع ما سيريد تكوينه، وإنما الذي يريد بلا علم تقدم، ويضمر بغير تكوين، هو الإنسان الجاهل الحائل الفكر الذي تحدث له النية والضمير والإرادة بإضمار القلب والطوية.

ولو كانت إرادته قبل فعله لكانت إرادته كإرادة المخلوقين ولكانت عرضاً من جسم ولو كان جسماً لأشبه الأجسام، وإنما إرادته فعله وفعله مراده[3] وليس ثم إرادة غير المراد فيكون مشابهاً للعباد، ومحبة الله هي رضاه ورضاه محبته ومحبته ثوابه، وبغضه غضبه وغضبه عقابه، وكراهته نهيه لا غير ذلك، وهذه صفات تكون لله فعلاً وتكون للمخلوقين بخلاف ما هي لله أعراض علل في المعلولات؛ لأن إرادة المخلوقين اهتشاش قلوبهم ومحبة نفوسهم قبل فعلهم وكراهتهم، ومحبتهم وكراهتهم مخترعات[4] في صدورهم وحاش لله أن يوصف بصفات خلقه، والشهوة والكراهة بنيتان ضروريتان وحاش لله أن يكون مضطراً إلى شيء أو مبنياً عليه.

---

(١) في (ب): فإن قال: أخبروني.
(٢) في (ب) لفظ الجلالة ساقط.
(٣) في (ب): وفعله إرادته.
(٤) في (ب): مختلجان.

مسألة فإن قال: فما دعاه إلى أن يخلق؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: كلامك هذا فاسد محال لا يجوز على الله سبحانه؛ لأنه لم يزل عالماً بلا داع خطر لأن الخاطر الداعي من صفات الجهال المخلوقين الذين يذكرون [بعد] النسيان(1)، والناسي لا بد له من مانع منعه وهو الله الذي فطره على الضعف وصنعه.

مسألة فإن قال: فأيهما أكثر إقامته قبل أن يخلق(2) أم إقامته بعد أن خلق؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: هذه مسألة محال، لا يصح بها(3) اعتقاد ولا مقال؛ لأن الإقامة من صفات المخلوقين وليست من صفات رب العالمين، والإقامة فإنما هي الحركات والسكون.

مسألة فإن قال: أخبرني عن الله لِمَ لم يخلق خلقه قبل أن يخلقهم؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: هذه مسألة تستحيل ولا تثبت عند أحد من أهل العقول؛ لأنك قلت يخلق الخلق قبل أن يخلقه فأوجبت أن قبل الخلق زماناً متقدماً والله خالق الزمان والمكان، والحين والأوان وهو الأول الذي لا قبل لأوليته، ولا كيف لأزليته، كان في حال القدم قبل بريته، ولا عقل ولا معقول سواه، ولم يكن معه أزمنة ولا شهور ولا ساعات، ولا أمكنة ولا أوقات، ولا علم غيره ولا معلوم، ولا فهم ولا مفهوم، ولا وهم

---

(1) ما بين المعكوفين زيادة في (ب) وهي الأصح.

(2) في (ب): قبل أن يخلق الخلق.

(3) في (ب): لا تصح في اعتقاد ولا مقال.

ولا موهوم.

مسألة فإن قال: خلق الله بعلم[1] أو بقصد وإرادة؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: إن العلة لازمة بغير إرادة المعلول وما كان بغير إرادته فلم يقصده، وما كان غير مقصود فلم يعمده، وما كان غير معتمد لم يخل من أن يكون قديماً أو محدثاً، فإن كان محدثاً فالمحدث له لا يخلو من أن يكون عنه جاهلاً مضطراً إلى الجهل، أو رباً عالماً بالفعل، فإن كان هذا الصنع من علة بغير قصد ولا مشية فهذا محال؛ لأن العلة لا توجب حكمة بالغة ولا نعمة سابغة؛ لأن العلة ضرورة بني[2] عليها المعلول وليست توجب حكمة عند أهل العقول، وما كان مضطراً فهو ممنوع من الاختيار، وما كان ممنوعاً ملجأ إلى الاضطرار فصانعه بخلافه في جميع الأمور بفضل الفاطر على المفطور، وأن هذا الصنع من رب عالم صنعه بعلمه واختياره، وأوجبه بقوته واقتداره، وجاد على البرية بإظهاره[3]، غير مضطر إليه، ولا مكره بالعلل عليه، فذلك مجري العلل في المعلولات، وصانع جميع المصنوعات، وفاطر الأرض والسماوات[4].

---

(١) في (ب): بعلة.

(٢) في (ب): مبني.

(٣) في (ب): واقتهاره. زيادة، وفي (أ) ساقط.

(٤) لا يفوت القارئ المتذوق لأساليب العرب في الكلام ما في هذه الفقرة من أسلوب أفاد (أن العلة لازمة ...) حيث جمع الإمام بين الأساليب الخبرية الإنشائية واستخدام الجمل الشرطية المتولدة المبنية على المنطق والسبر والتقسيم والاشتقاق الصرفي وقصر الجملة المكثفة التي تعبر عن الكثير وتوصل الفكرة بالجهد اليسير، كذلك الالتزام بالسجع ورغم ذلك لم تضعف الفكرة ولا تشتت المعنى فسبحان الواهب الحكيم.

مسألة فإن قال: فهل لإرادة الله نهاية؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أن الإرادة هي الفعل وللفعل نهاية وغاية، والفرق [بين][1] إرادة الله وإرادة خلقه أن إرادة المخلوقين خواطر وإرادة الله سبحانه أجسام موجودة بصفاتها، وبدائع تعرف بحياتها[2].

مسألة فإن قال: ما الفرق بين فعل الله وفعل خلقه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الفرق بين ذلك أن فعل الله ابتداع واختراع وفعل العباد حركات وسكون واعتقاد، وأفعال العباد بآلاتهم وهي أعراض متعلقة بأجسامهم وأفعال الله متعلقة[3] بذاته.

مسألة فإن قال: أخبرني[4] كيف خلق الله الخلق؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: هذه المسألة تشتمل على وجوه كثيرة، فمن ذلك أن يكون السائل أراد بقوله: كيف خلق؟ أي كيف أسعده الخلق وتهيأ له؟ ومن ذلك أن يكون أراد بقوله: هل خلقه بحيلة أوعلة؟ فإن أراد أنه خلق الخلق بحيلة فهذا محال لا يجوز عليه ولا ينسبه عالم إليه، وإن أراد بذلك أنه خلق بعلة فهذا محال؛ لأن العلة لا تخلو من صفات المحدثات والمحدثات لا تخلق أمثالها ولا توجب أشكالها؛ لأن المحدثات هي الأجسام والأعراض والجسم لا يخلق جسماً ولا يوجد لحماً ولا دماً.

وإن أراد كيف خلق؟ تريد بذلك أي كيف تهيأ له الخلق؟

---

(١) في (أ): من، والصحيح: بين، وهو ما أثبتناه من (ب).
(٢) في (ب): بجهاتها.
(٣) في (ب): غير متعلقة كخلق أفعال العباد بهم.
(٤) في (ب): أخبروني.

فالجواب في ذلك: أن الخلق تهيأ له بالقدرة التي لا كيف لها.

مسألة فإن قال: أخبرني[1] أعلم الله كثيرٌ أم قليل؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: إن كنت أردت علمه الذي نزل[2] على أنبيائه ورسله فهو كثير، وإن أردت علمه الذي هو ذاته فليس يوصف بالكثرة فيكون عدداً ولا يوصف بالقلة والبعض[3] أبداً؛ لأن العدد الكثير يدل على التغاير والأبعاض وذلك لا يوجد إلا في الأجسام والأعراض، وكذلك العدد القليل فهو منقوص والمنقوص بالقلة مخصوص.

فإن قال: أمعلوم الله كثير أم قليل؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: معلوم الله كل دقيق وجليل، وصغير وكبير، وممكن ومستحيل، ومعلومه ما قد كان وما سيكون وما لو كان كيف يكون وما لا يكون أنه لا يكون.

مسألة فإن قال: هل يحصى تقدم الله قبل خلقه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: هذا محال لا يجوز على الله سبحانه؛ لأن تقدم الله هو قدمه وقدمه ذاته وذاته لا توصف بقلة ولا كثرة ولا عدد ولا أمد ولا حد، وقدم الله لا يفهم ولا يدرك ولا يعلم.

مسألة فإن قال: لم ذَكَّرَ اللهُ اسمه؟

---

(١) في (ب): اخبروني.

(٢) في (ب): الذي أنزل.

(٣) في (ب): والنقص.

قيل له ولا قوة إلا بالله: إن تذكير الاسم أولى من تأنيثه، وإنما الأصل في تذكير الاسم أن الشيء هو الموجود والموجود مذكر أبداً، وإنما جعل التأنيث للمعنى[1].

مسألة فإن قال: خلق الله الخلق من شيء أو لا من شيء[2]؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أن الله عز وجل خلق الخلق من غير شيء؛ لأن القديم لا يتغير ولا يزيد ولا ينقص ولا يعدم بعد وجود كما لا يوجد بعد عدم؛ لأنه إن تغير لم تخل من[3] أن يكون يغير[4] كله أو بعضه والكل والبعض لا يكون إلا متحركاً أو ساكناً، والحركة والسكون محدثان، وكذلك لا يفنى إلا الكل أو البعض، والكل والبعض متناهيان مقطوعان ومحدثان بعد العدم مصنوعان؛ لأن الكل محدود والتبعيض عدد معدود، والاجتماع دليل على الجامع، والافتراق دليل على المفرق الصانع.

فلو كان أصل الخلق قديماً لم يخل من أن يكون خلق الخلق من كله أو بعضه وفي[5] الكل والبعض نفي القدم وحدوث العالم بعد العدم بحدوث الكل والبعض والاجتماع والافتراق والحركة والسكون، فلحدوث الأشياء تفرقت واجتمعت ولتدبير مدبرها تصرفت وتنقلت، فالحمد لله الذي لا ينقص ولا يزيد ولا يبطل ولا يبيد.

مسألة فإن قال: لم خلق الله الخلق؟

---

(١) في (ب): لمعنى.

(٢) في (ب): خلق الله الخلق من شيء أو من لا شيء.

(٣) في (ب): من. ساقط.

(٤) في (ب): مغير.

(٥) في (ب): من كله أو من بعضه.

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أن الله سبحانه خلق الخلق لإظهار حكمته.

مسألة فإن قال: فلم أظهر الله حكمته؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأن إظهار الحكمة حسن وإظهار الحسن خير من تركه.

مسألة فإن قال: فلم كلفهم؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لإظهار الحسن من فعلهم؛ لأن الصبر على الكلفة حسن يستوجبون عليه الثواب؛ لأن التعبد داع إلى الحكمة زاجر عن الجهل، وكلما دعا إلى الحكمة والرشاد، وزجر عن الغي والفساد ففيه مصلحة لجميع العباد، مع ما في الصبر على المحن التي امتحن الله بها جميع المكلفين من المصلحة لجميع العالمين، والغبطة بما وعد الله من الثواب، والسرور بالنجاة من أليم العقاب؛ لأن الثواب بعد المحنة أكمل وأعظم للنعمة، وإنما ابتدأ الله الخلق بدار المحنة لإظهار فضلهم، ولتعظيم سرورهم بالنجاة بعد خوفهم، وأيضاً فإن طول المحن والتجارب أفضل من الغفلة عن العجائب؛ لفضل الحكمة والمعرفة على الجهل، ولما في التجارب من لقاح العقل.

مسألة فإن قال: فما الدليل على صدق الرسل؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على صدقهم ما أتوا به من المعجزات مثل إحياء الموتى، وكلام البهائم والشجر، والرمي بالعصا فإذا هي حية تسعى، وفلق البحر والسير فيه يابساً.

بـاب الـرد على من جحد نبوة محمد صلى الله عليه وعلى آله وعلى جميع الأنبياء وسلم تسليماً

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي عليهما السلام: فإن رجع إلى قول اليهود وقال: وما أنكرتم من أن تكون النبوة لموسى ﷺ من دون محمد -صلى الله عليه وآله؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك؛ لأنهما نبيان جميعاً لا فرق بينهما.

فإن قال: فبم صحت لك نبوة محمد صلى الله عليه وآله؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: بمثل ما صحت لك[1] نبوة موسى.

فإن قال: صحت لي نبوة موسى بالمعجزات.

قيل له ولا قوة إلا بالله: وكذلك صحت لنا نبوة محمد صلى الله عليه وآله بالمعجزات.

فإن قال: وما علمكم بصدق الرواة؟

---

(١) في (ب): لكم.

قيل له ولا قوة إلا بالله: كعلمك بصدق الرواة، ودلنا ـ أيضاً ـ على صدقهم هذا القرآن الذي أتى به نبينا صلى الله عليه وآله، فعجز الخلق أن يأتوا بمثله أو بسورة من مثله، وفيه تصديق نبوة موسى وعيسى صلى الله عليهما وعلى الأنبياء[1] أجمعين.

فإن قال: وكذلك صحت نبوة موسى بإجماعكم[2] معنا ونحن غير مجمعين معكم.

قيل له ولا قوة إلا بالله: كلامكم هذا فاسد محال؛ لأن إجماعنا معكم على نبوة موسى -صلوات الله عليه- طاعة منا لربنا نستحق بها منه ثوابه، وجحدانكم لنبوة[3] محمد صلى الله عليه وآله معصية لله تستحقون بها منه عقابه، وكذلك الرد عليه إن كان نصرانياً أو مجوسياً.

---

(١) في (ب): وجميع الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين.

(٢) في (ب): بإجماعكم.

(٣) في (ب): وجحدانكم لمحمد ...إلخ.

باب الرد على من جحد الإمامة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي عليهما السلام: فإن رجع إلى الحق وأقر بكلمة الصدق، وجحد الإمامة فهو مشرك؛ لأن الإمامة فرض من الله لا يسع أحداً جهلها؛ لأن الحكيم لا يهمل خلقه مع ما بدا من اختلافهم من الحجة على من عَنَد من الحق[1] منهم والهداية لمن طلب النجاة من أوليائه والبيان ليلتبس أعدائه، وإلا فقد ساوى بين حقهم وباطلهم وفي ذلك ما يقول النبي ﷺ: «من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية»[2]، وقول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[3][الرعد:٧]، فأخبر أن النبي صلى الله عليه وآله منذر للعباد، وأن لكل قوم هادياً إلى الحق في كل زمان، يوضح لهم ما التبس من الأديان، ويرد على من دان بغير دين الإسلام، ويوضح الحجة على جميع الأنام.

---

(١) في (ب): على من عند عن الحق.

(٢) رواه الإمام الهادي في كتابه (معرفة الله عز وجل) طبع ضمن مجموع رسائله.

(٣) روى الحاكم الحبري بسنده عن ابن عباس {إنما أنت منذر} رسول الله ﷺ {ولكل قوم هاد} علي ﷺ ص٢٨١ وهو في تفسير ابن كثير ٢/ ٥٠٢، وفي الدر المنثور٤/ ٤٥، وفتح القدير٣/ ٦٧،٦٦.

فإن قال: من الإمام[1] بعد رسول الله ﷺ؛ إذ زعمتم أن الأرض لا تخلو من الحجة؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الحجة بعد نبينا[2] ﷺ أقدر الخلق على القيام بأمور الدين وأكمل جميع المسلمين، ولم يعلم ذلك غير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه صلوات رب العالمين وفيه يقول أخوه رسول الله عليه وآله أفضل الصلاة والتسليم: «علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[3] ويقول صلوات الله عليه وآله: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، واخذل من خذله، وانصر من نصره»[4].

---

(١) في (ب): فمن الإمام.

(٢) في (ب): بعد النبي ﷺ.

(٣) حديث المنزلة من الأحاديث المتواترة عند أهل البيت عليهم السلام، وسائر الأمة، أخرجه الإمام زيد في المجموع ٤٠٧، والإمام الهادي في الأحكام ١/ ٣٨، والإمام أبو طالب في الأمالي ٣٢، والبخاري ٥/ ٩٩، ومسلم ٤/ ١٨٧٠، والحاكم ٣/ ١٠٩، وأحمد بن حنبل ١/ ١٧٧، وغيرهم كثير.

(٤) حديث الولاية، وهو المعروف بحديث الغدير الذي رواه الموالف والمخالف، وحديث الغدير من الأحاديث المتواترة المشهورة، أخرجه الإمام أبو طالب في الأمالي ٣٣، والإمام المؤيد بالله في أماليه ٩٠، وغيرهما كثير من أئمتنا، كما أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٣٢، وأحمد في المسند ١/ ٣٣١، والنسائي في الخصائص ٤٥، ومسلم ٢/ ٣١٧، قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة: هذا الخبر قد بلغ حد التواتر، وليس كخبر من الأخبار لما له من كثرة الطرق، وطرقه مائة وخمس طرق. انظر التحف ٣٢٥.

قلت: وقد تتبعها السيد الأميني في موسوعته الضخمة الغدير، وقال المقبلي في الأبحاث المسددة ٢٤٤: (فإن كان مثل هذا -أي حديث الغدير- معلوماً وإلا فما في الدنيا معلوم)، وقال السيد المحدث محمد إبراهيم الوزير: (إن حديث الغدير يروى بمائة طريق وثلاث وخمسين طريقاً).

بـاب الـرد على من زعم أن الإمامة بعد النبي
صلى الله عليه وآله في ذريته وفي غيرهم من الأمة

قال الحسين بن القاسم صلوات الله عليه: فإن رجع إلى مذهب أمـة نبينـا صـلى الله عليه وآله فقال: وما أنكرت من أن تكون الإمامة بعد الـنبي في أهـل بيتـه وفي غيرهم؛ إذ ليس معكم من الروايات شيء إلا ومعنا أكثر منها؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الحق يعرف من ثلاثة أوجه وهي:

[١] محكم الكتاب.

[٢] والسنة.

[٣] وحجج الألباب.

فأما أصل ذلك[١] في حجج العقول فإن الحكيم لو جعلها في جميـع النـاس لوقعوا في أعظم الالتباس؛ لكثرة دعاوى الفاسقين واغتيال الظلمة المنـافقين، فمن هاهنا وجب أن تكون الإمامة في أهل بيت معروفين، بالفضل والشـرف مخصوصين.

---

(١) في (ب): فأما أصل الإمامة في حجج.

وأما في الكتاب فقول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[الأحزاب:٣٣]، وقوله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1][الشورى:٢٣]، فافترض مودة[2] ذوي القربى من رسوله.

فيا أيها الأمة الضالة عن سبيل رشدها، الجاهدة في هلاك أنفسها، أمرتم بمودة آل النبي أم فرض عليكم مودة تيم وعدي؟! ومن الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً إلا الذين أمرتم بمودتهم من ذوي القربى من آل نبيكم، فهذه بحمد الله حجج واضحة منيرة لا تطفا، وشواهد مشهورة لا تخفى إلا على مكابر عمي أو شيطان غوي قد كابر عقله ورفض لبه.

وأما السنة فهي ما أجمع[3] عليه من إمامتهم، والباطل ما اختلف فيه من إمامة غيرهم.

---

(١) ممن رواها في أهل البيت عليهم السلام الحاكم الحبري في تفسيره: ٣٩٥، والحاكم الحسكاني برقم ٨٢٢-٨٤٤ وذكر مجموعة من الشواهد، والحاكم في المستدرك ٣/ ١٧٢، والعمدة ٢٦، والطبراني في المعجم الكبير ١/ ١٢٦، والمناقب لابن المغازلي ٣٠٧ برقم ٣٥٢.

(٢) في (ب): فافترض سبحانه مودة ذوي القربى.

(٣) في (ب): وأما في السنة ففي ما أجمع عليه ...إلخ.

بـاب الـرد على الإمامية الرافضة

قال الحسين بن القاسم بن علي عليهما السلام: فإن رجع إلى قول الإمامية فقال: وما أنكرت من أن تكون الإمامة لولد الحسين من دون ولد الحسن صلوات الله عليهما؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك لأنهما في الولادة سواء لا فرق بينهما وكذلك لا فرق بين ذريتهما وإلا فما حجتك في رفضهم وما عذرك عند الله في إبطال إمامتهم؟

فإن قال: بإجماعكم معنا على إمامة ولد الحسين ولسنا مجمعين معكم على إمامة ولد الحسن.

قيل له ولا قوة إلا بالله: ليس إجماعنا معكم على الحق بحجة تثبت لكم باطلكم، ولا رفضكم لحجج الله عز وجل مما يصحح دعواكم، وإنما إجماعنا معكم على إمامة ولد الحسين طاعة منا لربنا نستحق بها منه الثواب، وتفريقكم بين (آل)[1] الرسول معصية تستحقون بها منه العقاب، والله يقول عز من قائل: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[الشورى:٢٣]، فإن كان

(١) في (ب): أبناء.

أولاد الحسن من ذوي القربى فقد افترض مودتهم، وإن أخرجتموهم من قرابة النبي فأنتم بالبعد أولى منهم، وقال سبحانه: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٤٣]، والذكر فهو رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الموضع وذلك قول الله سبحانه: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا﴾[الطلاق: ١٠، ١١]، فسمى رسوله ذِكراً، ثم أمر بسؤال أهله، فإن كان ولد الحسن من آل الرسول لزمكم الإقرار بإمامتهم، وإن كانوا من غير آل الرسول فقد صدقتم في رفضهم وأصبتم في عداوتهم، ثم أنتم بين أحد وجهين:

[١] إما أن تقروا بإمامتهم وتتبعوا ما أمركم الله به من سؤالهم -أعني من كان حجة لله منهم- إذ لم يستثن إحدى الطائفتين من دون الأخرى وأمركم بسؤالهم أمراً.

[٢] وإما أن تلجوا في عتوكم ونفوركم وتخالفوا أمر ربكم وتظهروا خلافكم فتثبت حجة الله عليكم.

بـاب الـرد على الإمامية في صفة الإمام

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي عليهما السلام: فإن رجع إلى الحق وأقر بولاة الأمر من آل الرسول -صلى الله عليه وآله- فقال: قد أقررت بأن الإمامة في ولد السبطين، فما صفة الإمـام الـذي تلـزم الأمـة حجتـه وتجـب عليهم طاعته؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعـلـم أن الإمام الذي تجب طاعته يكـون كـاملاً في جميع خلال الخير غير ناقص من الصفات المحمودة، عالمـاً بمـا يحتـاج إليـه مـن السنة والكتاب، فَهِماً بما يحتاج إليه من الأسباب، تابعاً لآثار سـلفه المهتـدين، مخالفاً لمذاهب الصالحين[1]، شجاعاً، كريماً، بذولاً لمالـه زاهـداً، وفي أمـور الله سبحانه جاهداً، رصين العقل بعيد الجهل.

فإن قال: فما أنكرت مـن أن يكـون يطبـع بخاتمـه الحصـى ويعلـم مـا وراء الجدار وما يحدث في آفاق الأرض والسماء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك؛ لأن هذا الإمام الذي زعمـت لا يخلـو من أحد ثلاثة أوجه: إما أن يكون يعلم الغيب، وإما أن يكـون يـوحى إليـه، وإما أن يكون كاهناً ساحراً.

(١) في (ب): مخالفاً لمذاهب الضالين.

فإن قلتم: إنه كاهن ساحر، فهذا من القول أعيبه وأفضحه على من ينتحل التشيع في آل الرسول؛ لأن من نسب[1] إليهم السحر والكذب فقد عابهم بأعظم العيب، ومن كان ساحراً كذاباً فهو ظالم و﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2][البقرة:١٢٤]، ولا يوفق الله الكافرين.

وإن قلتم: حاشا لله أن يكون كذلك ولكنه يوحى إليه، خرجتم إلى ما هو أعظم مما نفيتم وجعلتموه نبياً وجحدتم قول الله سبحانه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[الأحزاب:٤٠].

وإن قلتم: إنه يعلم الغيب خرجتم من ملة الإسلام ورجعتم إلى الشرك والآثام، وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وعلى آله بالاحتجاج على المشركين فقال: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾[الأعراف:١٨٨]، وقال: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ﴾[الأحقاف:٩]، وقال: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾[لقمان:٣٤].

وصلى الله على محمد النبي وعلى آله الطيبين وسلم تسليما.

---

(١) في (ب): ينسب.

(٢) في (ب): ولا ينال عهد الله الظالمين.



كتاب
التوحيد والتناهي والتحديد
الجزء الأول

١- الدلالة على معرفة الله سبحانه.

٢- الدلالة على حدث الحيوانات ونهايتها.

٣- الرد على الجوهرية.

٤- الرد على الفضائية.

٥- الوحدانية.

٦- الصفات القديمة.



الجزء الأول

كتاب التوحيد والتناهي والتحديد[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد الذي لا يوصف بالتعديد، العظيم الذي جل عن التحديد، العدل الذي تنزه عن ظلم العبيد، أحمده حمد متوكلٍ عليه، وأعتصم به اعتصام من أناب إليه، وكيف يوصف بالتعديد من أحصى كل شيء عدداً، بل كيف يوصف بالتبعيض واحد لما في التبعيض والتعديد من صفات التناهي والتحديد؛ وإذ[2] لا بد لكل تعديد من معدد، ولكل تحديد من محدد، ولا بد لكل مفترق أو مجتمع من مفرق وجامع[3]، ومفتطر صانع؛ لما في الافتراق والاجتماع من بيان الصنع والابتداع.

والله سبحانه بخلاف خلقه المدبرين ذوي الأماكن المصورين؛ إذ المصوَّر مضطر إلى مصوِّره، والمدبَّر محتاج إلى مدبِّره، والمقدر غير ممتنع من مقدره

---

(١) جاء في (ب) زيادة: مما ألّفه ووضعه مولانا الإمام وحجة الله على الأنام بدر الأئمة الأعلام أمير المؤمنين المهدي لدين الله العالم الحسين بن الإمام المنصور بالله القاسم بن علي بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم ورضوانه وروحه وريحانه ما طلع نجم ولاح ونجم طلع وفاح آمين اللهم آمين.

(٢) في (ب): وإذاً لا بد.

(٣) في (ب): مفرق جامع.

لا ينفك من أماكنه ومواضعه، ولا يقدر على دفع إحاطة علم صانعه، فهو إلى محله مضطر مدفوع، وجهاته وأقطاره تدل على أنه مصنوع، وكذلك ينفى عن الله سبحانه، وعز عن كل شأن شأنه، درك الحواس والنفوس والأوهام؛ إذ لا يقع شيء منها إلا على جسم من الأجسام، في جهة من الجهات أو على صفة من الصفات، فتبارك الله وتعالى عن الحس[1] والتوجس، أو خاطر[2] نفس من الأنفس، أو مشاكلة شيء من أوصاف الموصوفين، أو محادة جنس من أجناس المصنوعين، إذاً لدخل عليه ما يدخل على شكله، ولجاز عليه ما يجوز على مثله من الصفات اللازمة الأجسام، المنفية عن ذي الجلال والإكرام.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخيرته من خلقه صلى الله عليه وعلى أهل بيته وسلم تسليماً.

---

(١) في (ب): عن درك الحس.

(٢) في (ب): وخاطر.

باب الدلالة على معرفة الله سبحانه

والرد على الملحدين الكفرة الجاحدين

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي عليهما السلام: إن سأل بعض الملحدين أو الشاكين في جلال رب العالمين، أو قال بعض المتعنتين: فكيف نعبد من لا يرى[1] ولا يدرك بحاسة من الحواس؟ وما الدليل الذي دلك عليه؟ وما الدواعي التي دعتك إليه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أيها السائل أن الدليل الذي دلنا على الله سيدنا ومولانا، والدواعي التي دعتنا إليه تبارك وتعالى أنا وجدنا في الصنع آثار حكمة الصانع المتقن الحي العالم وهو الله رب العالمين.

فإن قال: وما[2] دلكم على بيان علم الصانع وحكمته؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: دلنا على بيان علم الصانع وحكمته ما شاهدنا من جليل صنعه وفطرته مما لو رمنا تعديده لما أحصيناه عدداً، ولا أدركنا له أمداً؛ لعجزنا عن إحصاء آياته، والانحسار عن تصنيف دلالته[3] من ذلك ما شاهدنا

---

(١) في (ب): فكيف تعبد ما لا ترى.

(٢) في (ب): فما.

(٣) في (ب): دلالاته.

من جليل صنعه في الحيوانات، وما خلق سبحانه من الذكور والإناث، وأبان في ذلك من الجعل والإحداث، وما جعل بينهم من الأولاد الكثير من نطف[1] الماء الحقير فعادوا كثيراً مذكوراً، بعد أن كانوا قليلاً محقوراً، وما شق لهم سبحانه من السمع والأبصار، والأفئدة للتمييز والأفكار، والاجتلاب للمنافع والنفور عن المضار.

وما خلق لنا[2] سبحانه من الحواس الخمس، من العيان والسمع والذوق والشم واللمس، فجعل العيان لدرك الهيئات، وجعل السمع[3] لدرك الأصوات، وجعل المشام لدرك الروائح المختلفات، وجعل الذوق لدرك المطعومات، وجعل اللمس لدرك أحوال الجسمات[4].

فكان ما عوين من اتصال التدبير، واطراح الحكمة والتقدير، دلالة على أحكم الحاكمين، واضطراراً إلى معرفة رب العالمين، ودليلاً مبيناً على فساد قول الملحدين ممن قال بالطبائع من الكفرة الجاحدين، أهل الحيرة المتلددين؛ إذ صح عند أهل العقول أن هذه العلل المواتات لا تقي[5] أنفسها فضلاً عن أن تقي تدبير غيرها[6]؛ إذ لا يجعل الشيء للشيء إلا حكيم، ولا يصرف ويدبر إلا عليم.

وسنزيد إن شاء الله بياناً ونوضح له من ذلك هدىً وبرهاناً، ألا ترى أنه

(١) في (ب): من نطاف.
(٢) في (ب): وما خلق الله لنا.
(٣) في (ب): الأسماع.
(٤) في (ب): المحسوسات.
(٥) في (ب): لا تغني.
(٦) في (ب): عن أن تغني غيرها.

لا يجعل العين إلا عالم بما جعل[1] من النظر، [ولا يجعل الأنثى إلا عالم بما جعل لها من الذكر][2]، ولا يجعل العقول المميزة إلا عالم بما يحتاج إليه ذو الألباب من الاجتلاب للمنافع والنفور عن المضار، ولا يجعل الأيدي والأرجل وغيرها من العروق والعصب والمفاصل إلا عالم بما سيكون من حركاتها واجتلابها لمنافعها، ولا المراضع في أجساد الإناث إلا عالم بما سيكون من أولادها قبل الإحداث.

وما علم من حاجتها[3] إلى ما جعل لها من الأغذية قبل كونها، فجعل تقدمه غذاء الطفل بلطفه؛ لما علم من فاقته وضعفه، وألهمه الرضاع وجبره عليه؛ لما علم من حاجته إليه، ولولا هداية الله سبحانه للأطفال لهلكوا ودمروا، ألا ترى إلى أطفال البهائم عند خروجها من بطون أمهاتها كيف تقصد مواضع أغذيتها ولذاتها وما جعل الله سبحانه من قوام أرواحها وحياتها، ولا يجعل السمع إلا عالم بفاقة صاحبه إلى درك الأصوات، ولا يجعل الأبصار إلا عالم بفاقة أصحابها إلى الهيئات[4]، ولا يجعل المعايش والأرزاق إلا عالم بفاقة من جعلت له من الحيوانات، ولا يجعل في الجسد مداخل للأغذية ومخارج قبل كون ذلك إلا عالم بفاقة الإنسان إلى مداخل ذلك ومخارجه؛ إذ لا قوام له ولا ثبات للتدبير إلا بما قدر الله سبحانه من التقدير، فلما استحال عند ذوي الألباب أن تكون العلل الميتة عالمة حية مدبرة متقنة للصنع مقدرة علمنا عند ذلك بيقين أنه لا صانع حكيم مدبر قدير عليم إلا الله الحي القيوم.

---

(١) في (ب): بما جعل لها.
(٢) ما بين المعكوفين ساقط في (ب).
(٣) في (ب): فاقتها.
(٤) في (ب): إلى درك الهيئات.

باب الدلالة[1] على حدث الحيوانات ونهايتها

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي عليهم السلام: إن سأل سائل من الملحدين فقال: ما أنكرتم من أن تكون الحيوانات لم تزل على ما ترى تحدث نطفة من إنسان وإنسان من نطفة وبيضة من طائر وطائرٌ من بيضة إلى ما لا نهاية له ليس لشيء من ذلك أول ولا يكون له انقضاء ولا خالق للأشياء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك أشد الإنكار وذلك أنا قدمنا لك أن في هذه الحيوانات آثار حكمة الحكيم لا تهيأ إلا لعليم[2]، وما كان فيه آثار صنع الحكيم العالم فهو محدث مبتدع ومنشأ بإذن الله مصطنع، وما صح إحكامه وتدبيره، وإنشاؤه وتقديره فهو محدث مجعول ومبتدأ معقول[3]، وما صح حدثه واجتعاله ونشأته وافتعاله فقد صح تناهيه واعتماله.

ألا ترى أن في الحيوانات إبانة صنع الحكيم والقديم لا تكون فيه آثار علم عليم؛ إذ القدم أغناه عن الفاقة إلى غيره، والأزل لا يوصف بحاجة إلى الحكيم

(١) في (أ): باب الرد، وفي (ب) باب الدلالة، ولعله الأصح ولذلك أثبتناه.

(٢) في (ب): إلا لعالم.

(٣) في (ب): مفعول.

وتدبيره؛ إذ هو ممتنع عن علمه وتقديره، فلما وجدنا الحيوانات ليست[1] ممتنعة من التدبير ولا خلية من الإحكام والتصوير علمنا أنها بخلاف ما ذكرت وأنها غير ما[2] وصفت.

فقولك ليس لشيء من ذلك أول هو من أحول المحال وأفسد الفساد وأضل الضلال؛ لأن هذه الحيوانات لا تخلو من أحد وجهين في حال قدمها وما ادعيت من أزلها:

[١] إما أن تكون على ما ترى من إحكامها وتصويرها ونعيمها وحياتها وتعميرها.

[٢] وإما أن تكون ميتة جامدة وساكنة لابثة هامدة.

فإن قلت: إنها كانت على ما ترى من كمالها وذلك[3] دليل على حكمة خالقها وجاعلها.

وإن قلت: إن أصول الحيوانات كانت ميتة كسائر الجمادات، فمع[4] موتها والحمد لله دليل على صانعها ومميتها والممتن عليها بعد إماتتها لحياتها، والمظهر لصنعه في إحكام أدواتها، والمنعم عليها بكفايتها، والعالم بحاجتها إلى جميع آلاتها، والمتفضل عليها بعلمه بفاقتها.

---

(١) في (ب): غير ممتنعة.

(٢) في (ب): على غير ما وصفت.

(٣) في (ب): فذلك.

(٤) في (ب): ففي.

باب الرد على الجوهرية

وزعم[1] صنف من الملحدين وهم أصحاب الجوهر أن الهيولى -وهو أصل الحيوانات- جوهر قابل للأعراض، وأن معه قوة قديمة وهو قديم فحرك القوة فحدث البرد فقبله، ثم حدثت[2] القوة فحدث الحر فقبله، ثم قبل اليبس والرطوبة.

قال الهادي لدين الله الحسين بن القاسم عليهما السلام: فأي عاقل يجوز عليه قول من قال من الجوهرية: إن الطينة الميتة معها قوة هيولية أصلية قديمة عنصرية، تدبر لها[3] نفسها حتى تصير مدركة حيوانية بعد أن كانت ترابية مواتية.

وقد وضح في عقول ذوي الألباب فساد ما ادعوا من قوة التراب، وكيف يتوهم ذلك متوهم غوي فضلاً عن عاقل سوي، وأنى يكون ذلك من فعل التراب وهو موات ضعيف غافل، وقد عجز عن ذلك وهو حي حكيم سوي عاقل، وكيف يكون للطينة قوة هيولية وليس لها إرادة ولا مشية وهي إذ ذاك[4]

(١) في (ب): زعم.
(٢) في (ب): ثم حرك القوة.
(٣) في (ب): تدبرها.
(٤) في (أ): إذ ذلك. والصحيح ما أثبتناه من (ب).

غافلة مواتية، وإذا عجز الجوهر في حال بلوغه[1] وكماله عن تدبير[2] صورته وأوصاله فهو في حال موته ونقصانه أحرى بالعجز عن إحداث خلقه وتبيانه، وإذا عجز[3] في حال حياته وقوته فهو أحرى بالعجز في حال موته وغفلته.

ودليل آخر: لا يخلو الجوهر الذي ادعيتم قوته، وادعيتم خلقه من أحد وجهين:

[١] إما أن يكون حياً حكيماً عاقلاً سوياً قادراً مدبراً قوياً.

[٢] وإما أن يكون ميتاً غافلاً ضعيفاً.

فإن قلتم: إنه كان حياً سوياً حكيماً مدبراً قوياً عليماً، فقد أقررتم بأنه مصنوع لما في الحيوان العاقل من آثار التدبير الذي وصفنا والحكمة [التي على الله فيما قدمنا][4] في أول كتابنا.

وإن قلتم: إن الجوهر في حال خلقه لنفسه، وتحريكه لقوته كان ميتاً غافلاً، فهذا ما[5] يقول به المجانين لجهلهم، ولا يتكلمون به مع ذهاب عقولهم؛ لأن الميت لا يحكم ولا يدبر ولا يحرك نفسه ولا يقدر، وإذا كان الحي السوي عاجزاً عن تدبير نفسه وغيرها فالميت أعجز عن إحياء نفسه وتدبيرها!

---

(١) في (ب): وإذا عجز الجوهر في بلوغه.
(٢) في (ب): عن تبديل.
(٣) في (ب): وإذا عجز الجوهر.
(٤) ما بين المعكوفين من (ب)، وأما المصفوف عليها المرموز لها بـ(أ) ففيها: التي على الله قدمنا.
(٥) في (ب): فهذا ما لا يقول به.

ومما يدل على فساد قول أصحاب الطبائع أن يقال لهم: لا تخلو هذه الطبائع من أحد وجهين:

[١] إما أن تكون حية قديمة مدبرة، متقنة للصنع مقدرة.

[٢] وإما أن تكون مواتاً مثل الجوهر الذي هو أصل [الخلق][1].

فإن كانت مواتاً من جنس الهيولى فقد بان صنع الموات وتقديره وبطلان حكمته وتدبيره؛ لأنه لا يقي[2] نفسه فضلاً عن تدبيره غيره[3]، بل هو من العجز والضعف فيما يمنعه[4] من الحدث؛ إذ لا قوة له ولا حياة ولا إحسان له ولا إساءة وكفى له بذلك عجزاً وضعفاً.

وإن كانت العلة للخلق حياً قديماً مدبراً ليس له شبيه ولا مثيل ولا نظير ولا عديل فهذه صفات الخالق والخالق ليس بعلة ولا معلول بل الله[5] الرحمن الرحيم الذي عجز عن نعته الناعتون، وضل عن وصفه الواصفون، ولم يتوهمه المتوهمون، ولم تقع عليه الظنون، ولم تدركه الأبصار، ولم تحوه الأقطار، ولم تحل عليه الأفكار، بل عجزت عن اكتناهه القلوب، ولم تخف عليه الغيوب، ولم تحده الجهات، ولم تنله الأدوات، وجل عن الصفات[6] المحدثات، وعز عن النوم والسنات، وجل عن درك المدركات، ولم يؤده حفظ

---

(١) في المصفوف عليها (أ): للحق.

(٢) في (ب): لا يغني.

(٣) في (ب): عن تدبير غيره.

(٤) في (ب): فيما لا يمنعه.

(٥) في (ب): بل هو الله.

(٦) في (ب): عن صفات المحدثات.

الأرض والسماوات، ولم يشتبه عليه شيء من الأصوات، ولم يمازج[1] النور ولا الظلمات، ولم تجر عليه عوارض الساعات، ولم تنله صفات عواجز اللهوات، ولم يحتجب عن الأبصار بحجاب، ولا بسبب من الأسباب، مما يجول في خواطر الألباب، تعالى عن ذلك رب الأرباب، جعل الخلق ليستدل به عليه، ويكون للمكلفين داعياً إليه، وتعبداً للمخلوقين[2] للفرق بين المطيعين والعاصين، وأرسل المرسلين مبشرين ومنذرين، وأكمل به الحجة على جميع العالمين ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال:٤٢].

---

(١) في (ب): ولم يمازجه.

(٢) في (ب): وتعبد المخلوقين.

بـاب الرد على الفضائية
والدليل على حدث الفضاء ونهايته

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي عليهما السلام: إن سأل بعض الملحدين فقال: ما الدليل على حدث الهواء المكان الذي فيه الأشياء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على حدثه ما شاهدنا فيه من لبثه وإقامته، وقلة زواله وحركته.

فإن قال: وما في سكونه ولبثه من الدليل على تكوينه وحدثه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أبين الأدلة وأوضحها وأقواها في العقول وأصحها وذلك أن الإقامة لا تكون إلا على وجهين وهما عند أهل العقول فغير منكرين:

فأحدهما: إقامة لا تحصى عدداً أوقاتها[1] وساعاتها.

والثانية: فإقامة كانت بعد العدم، وتلك فما لا يدعي أحد أنها توصف بالقدم، فأما ما كان من الإقامة بعد أن لم تكن فاستغنينا عن الدليل على حدث ساعاته لكونها بعد العدم.

---

(١) في (ب): عدد أوقاتها.

وأما الإقامة التي هي ساعات لا يحصى عددها ولا يدرك لتقدمه[1] أمدها فمثل إقامة الهواء المكان الذي فيه الأشياء.

وسندل[2] إن شاء الله على حدوثها وتبدي كليتها ولبثها، وذلك أن ما مضى من إقامة سنيه وشهوره وساعاته لا يخلو من أحد ثلاثة أوجه: إما أن يكون مضى كله، وإما أن يكون مضى بعضه، وإما أن يكون لم يمض منه كل ولا بعض.

فإن قلت لم يمض شيء من دهوره وأزمنته وما لا يحصى من إقامته جحدته وجحدت قدمه وأوجبت حدوثه أو عدمه.

وإن قلت بل مضى بعض الماضي المتقدم من الأيام، ناقضت بين ما نطقت به من الكلام ولم تجد بين ما مضى فرقاً عند جميع الأنام.

وإن قلت: بل عدم كل ما مضى من ذلك وخلا وتضمنه العدم بعد حدوثه والفناء، أوجبت أنه محدث لحدوث أوله لصحة[3] فنائه بأجمعه كله؛ إذ لم تكثر الإقامة إلا بعد قلة أولها وبعد حدوثها وفنائها كلها.

وإذا صح في المعقول أن لإقامته[4] أولا وبدءاً فقد تقدم وخلا فهو بأيقن اليقين محدث بحدوث إقامته؛ إذ لم ينفك من الإقامة بكليته، وإذا صح أنه مقيم كله بذاته وصح أنه يحدث[5] بجميع صفاته [فقد][6] صح - بأبين البيان -

---

(١) في (أ): لتقدمته.

(٢) في (ب): وسندل لك.

(٣) ولصحة، في (ب).

(٤) في (ب): الإقامة.

(٥) في (ب): محدث.

(٦) ما بين المعكوفين ساقط في (ب).

تناهيه وتحديده وأن الله مخترعه ومريده.

فإن رجع إلى مكابرة[1] **عقله وسأل عن المحال بفاحش جهله فقال**: وما أنكرت من أن يكون الهواء قديماً قبل إقامته أو أن يكون متحركاً في حال العدم[2] قبل سكونه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك؛ لأنه لا ينفك من الإقامة أصلاً؛ لأنه إن تحرك فهو مقيم على الحركة ولا بد لإقامة الحركة من كثرة أو قلة ولا بد لها من تبعيض أو كلية ولا بد إن شاء الله من الكلام والرد على من توهم حركته في سالف الأيام.

فنقول ولا قوة إلا بالله: إن قولك بحركته هو ما يدل على تناهيه وغايته ويوضح ما قلنا به من حدوث أوليته، وذلك أنه لو كان قبل سكونه متحركاً ثم وجد بعد ذلك من الحركة منفكاً لكان لتلك الحركة آخر ومنقطع، وللسكون بدئ ومبتدع، وإذا صح أن لحركته انقطاعاً، ولسكونه حدثاً وابتداعاً، صح أن الحركة قد انقطعت كلها، وأبطل آخرها وأولها، وانتفى قدمها وأزلها.

فإن قال: هل للفضاء حدود يتناهى إليها وأماكن يعتمد عليها؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: نعم له حدود متناهية وأطراف متباعدة متباينة.

وأما قولك: هل له أماكن، فيحتمل وجهين: إما أن تكون أردت به الجهات

---

(١) في (ب): إلى المكابرة لعقله.

(٢) في (ب): القدم.

الست اليمين والشمال والخلف والأمام والفوق والتحت، وإما أن تكون أردت به غير ذلك مما سنذكره ونشرحه إن شاء الله ونفسره، فإن كنت أردت ما وصفنا من الجهات فليس[1] جهات غيره تحويه ولا له مكان سواه يحل فيه؛ لأنه لو احتاج إلى مكان لاحتاج كل مكان إلى مكان وهذا فيبطل غاية البطلان لما دللنا[2] عليه من حدوث الأمكنة التي هي من الأفضاء والأهوية، وإن أردت الأمكنة التي ذكرت، وعنها في بدئ الكلام سألت، أن الأجزاء الكثيرة منه أماكن كفلته[3] فقد أصبت، ولا اختلاف بين ذوي العقول فيما به نطقت، ألا ترى أن أطرافه تحوي وسطه، وأن أعلاه جهة لما دونه.

فإن قال: هل[4] له أعلى، أو هل له أسفل وجوانب أم لا؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: نعم له أعال[5] وأسافل وجوانب[6] وقوابل، وكل ما ذكرنا من ذلك فهو حدود وغايات، وليس لها بعد انقطاعه[7] جهات.

فإن قال: بين[8] تلك الحدود مغايرة تعرف، أو هل وراء الحدود شيء يتغاير أو يوصف؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أما الحدود في أنفسها فالأعالي من الجو مغاير

---

(١) في (ب): فليس له.
(٢) في (ب): لما قد دللنا.
(٣) في (ب): لقليله بدل كفلته.
(٤) في (ب): فإن قال: هل له أعلى وهل له أسفل.
(٥) في (ب): أعلى وأسافل.
(٦) في (ب): وله جوانب.
(٧) في (ب): بعد انقطاعها.
(٨) في (ب): فإن قال: فهل بين تلك الحدود.

لأسافله، والأوساط منه فغير قوابله، وأما سؤالك عن وراء الحدود فليس لها وراء، ولا شيء يتوهم ولا يرى، وإنما المتوهم[1] والمرئي المعقول هو الحدث المصور المجعول.

فإن قال: فهل لو أرسل الله جسماً ثقيلاً وخلاه وأهبطه إلى أسفل الجو وأهواه، أيخرج من حدود الجو إلى شيء سواه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لو كان ذلك من الله عز وجل لم يمتنع أن يوسع الله له في المحل.

فإن قال: فما تقولون لو لم يزد[2] في محل الجسم وأهمله، وخلاه ينحدر سفلا سفلا[3] وأرسله؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لو كان الله عز وجل يريد المحال ويعبث كما توهمت في الأعمال لكان[4] يهوي حتى يصل الحدود، ثم فيه كلام.

فإن قال: وما ذلك الكلام؟

قيل: يمسكه[5] في الحد الذي وصل إليه، وإما أن يهويه في غير مكان، وإما أن يرده من حيث أهواه، وإما أن يهويه في مكان لا نهاية له، وإما أن ينفيه إذا وصل الحد ويبطله.

---

(١) في (ب): وإنما الموهوم.
(٢) في النسخ (يرد) بالراء ولعلها (يزد) بالزاي.
(٣) في (ب): سفلاً.
(٤) في (ب): لكان الجسم يهوي.
(٥) في (ب): فإن قال: وما ذلك الكلام، قيل له ولا قوة إلا بالله: إما أن يرسله ويخلق معه مكاناً يهوي فيه وإما أن يمسكه ...إلخ.

فإن قال[1]: إنه قد يمكن أن يخلق له مكانا، أو يحدث فيه فناء وبطلاناً أمكن ذلك في قدرة الرحمن وذلك مما لا يختلف فيه عالمان ولا جاهلان.

وإن قلت: إنه قد يمكن أن يمسكه عند بلوغ حده، أو يمكن ما قلنا به من رده أمكن ذلك[2] في صنع الله وتقديره ولم ينكر ذلك من تدبيره.

وإن قلت: إنه يهويه في غير مكان فهذا القول من مسائل المحال ومما يناقض[3] من المقال؛ لأنك قلت: يهويه، فأوجبت حركته وانحداره في مكان؛ إذ لا تكون الحركة إلا في أماكن الجولان ثم نقضت قولك بقولك: في غير مكان.

وإن قلت: إنه يهويه في مكان لا نهاية له، فهذا من أكبر التناقض والفساد وأعظم الكذب والجحد والإلحاد؛ وذلك أنك قلت: يهويه في مكان لا نهاية له، وقد بينا حدث المكان وكليته وأوضحنا نهايته وغايته فكيف يكون المخلوق المحدث قديماً، أو كيف يكون الحد للموجود معدوماً.

ودليل آخر: أن الله عز وجل لا يفعل فعلاً إلا لحكمته[4] والله يتعالى عن أغاليط الملحدين ويتنزه عن الاعيب المفترين، ولولا المبالغة (والنصفة للمناظر)[5] في الجدال لما ذكرنا شيئاً مما لا يليق بالله من المحال لكن الواجب علينا أن نبين كذب الجاحدين، ونذب عن دين رب العالمين؛ إذ كانت في الله رغبتنا و لدينه بالمجهود نصرتنا.

(١) في (ب): فإن قلت.
(٢) في (ب) زيادة: أيضاً، بعد: ذلك.
(٣) في (ب): ومما يتناقض.
(٤) في (ب): لحكمة.
(٥) ما بين المعكوفين ساقط في (ب).

فنسأل الله عالم الغيب والشهادة أن يجعل حياتنا في طاعته ما أحيانا، وأن يحشرنا مع الأبرار إذا توفانا، ونسأله عز وجل ألا يقبض أرواحنا إلا بعد رضائه عنا، وأن يجعل آخر ساعة من حياتنا في أعظم فروضه التي[1] كلفنا، وألا يخرج أرواحنا من أجسادنا إلا في سبيله عند جهادنا.

ونسأله أن يمتن[2] علينا ببلاغ مكروه أعدائه، والنصرة للصادقين من أوليائه، وأن يجعل [نصرة][3] المحقين آخر أعمالنا[4]، والشهادة آخر محنتنا، والمقابر أول راحتنا، وأن يغفر لنا ذنوبنا، ويثبت على دينه أقدامنا، وأن يجعل ذكره وتوحيده آخر كلامنا، والغضب له إن شاء الله آخر حقدنا، والرضا فيه آخر ودنا، والمحبة له إن شاء الله[5] آخر حبنا.

مسألة فإن قال بعض الملحدين، أو سأل[6] عن رب العالمين وقدرته في خلق المخلوقين: فهل[7] كان الله يقدر أن يخلق الهواء الذي هو محل الأشياء قبل أن يخلقه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أيها السائل أن الله عز وجل لم يزل قادراً وإنما تقع القدرة على المقدورات وليس يقول أحد يعقل إن القدرة تقع على المحالات، وهذه مسألة محال لا يفهمها أحد من الجهال وذلك أنك جعلت الوقت قبل الهواء بقولك يخلقه قبل أن يخلقه.

---

(١) في (ب): الذي.
(٢) في (ب): يمن.
(٣) في (ب): وأن يجعل نصرة المحقين، فما بين المعكوفين زيادة منها.
(٤) في (ب): والثواب آخر آمالنا، وساقط في (أ).
(٥) في (ب): سبحانه.
(٦) في (ب): أو سأل سائل.
(٧) في (ب): فقال: هل كان الله يقدر.

لأنك إذا أردت أن يخلق الهواء قبل أن يخلقه لم يخل أن[1] يكون يخلقه قبل أن يكون يخلقه بقليل أو كثير من الأوقات ومقادير الأزمنة والساعات ومحال أن يكون الوقت قبل الهواء؛ لأنهما خلقا معاً فكان الوقت[2] إقامة الهواء، وجعلت أنت أيها السائل صفة الهواء قبله ومحال أن تكون الصفة قبل الموصوف.

وإذا صح حدث الهواء بدلائل الحركة والسكون اللذين هما الأوقات وهما حقيقة الأزمنة والساعات فقد صح حدث العلل والمعلولات؛ لأن كل علة أو معلول أو دقيق من الصنع أو جليل لا يكون إلا جسماً أو عرضاً ومتحركاً[3] زائلاً أو ساكناً، مقيماً مجتمعاً أو مفترقاً، والعرض لا يوجد إلا في جسم، والجسم محدث، وما لا يوجد إلا بوجود المحدثات فهو محدث مثلها بل هو أضعف منها؛ إذ[4] كانت هي توجد بأنفسها والعرض لا يوجد إلا بوجودها ولا يثبت إلا بعد عدمها.

والدليل على التناهي والتحديد فأقرب ما يكون من الحدث[5] الموجود وتفسير ذلك أن الله سبحانه خلق الأشياء كلها، وإذا صح حدث جميعها فقد تناهت بصحة ابتداع بدائعها[6]؛ لأن ما صح ابتداعه وبدا صنعه واختراعه فقد تناهى حدث أوله وفرغ[7] الصانع من آخره، والفراغ[8] نهاية، وإنما هذا

---

(١) في (ب): لم يخل من أن يخلقه قبل أن يخلقه.
(٢) في (ب): وكان الوقت هو إقامة.
(٣) في (ب) الواو ساقط.
(٤) في (ب): إذا كانت توجد بأنفسها.
(٥) في (ب): من المحدثات.
(٦) في (ب): بديهها.
(٧) في (ب): وفروغ الصانع من آخره.
(٨) في (ب): وللفراغ.

الدليل يدل على غاية الأجسام وليس نريد بذلك انقطاع آخر الأزمان، وإنما تناهي الأعراض من الأوقات تناهي[1] حدوث ساعات وبطلان ساعات، وليس ينقطع حدوثها أبد الأبد ولا يكون لحدوثها غاية تنقطع ولا أمد، ولا يقطع كرور الساعات قاطع ولا يحد، ذلك[2] بمشيئة الواحد الأحد، الجبار[3] الفرد الصمد.

فإن قال قائل: فكيف أوجبت دوام حدوث الساعات، وكرور الأزمنة والأوقات، وقد وعد الله سبحانه بالفناء في هذه الدنيا وحكم الآخرة بالبقاء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: إن الله عز وجل إنما أراد بقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ...﴾[القصص:٨٨]، الحيوان ولم يرد بذلك[4] الأوقات والأزمان، وهذا فمعروف بيّن غاية البيان فيما نزل الله سبحانه من الفرقان وذلك قوله سبحانه في ملكة سبأ وما أوتيت وما حكى عز وجل مما ملكت: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[النمل:٢٣]، وقد علم[5] بيقين أنها لم تملك كثيراً من الأشياء من ذلك ملك سليمان وغيره وإنما هذا القول خاص في بعض الأشياء دون بعضها.

مسألة فإن قال قائل: أخبروني هل كان قبل الهواء شيء يعرف، أو يحد[6] أو يوصف؟

---

(١) في (ب): وإنما تناهى.
(٢) في (ب): وذلك بمشيئة الواحد.
(٣) في (ب): الواحد الأحد الجليل الفرد الصمد.
(٤) في (ب): ولم بذلك حدث الأوقات.
(٥) في (ب): قد نعلم.
(٦) في (ب): يحد.

قيل له ولا قوة إلا بالله: قد قال غيرنا بذلك ولم يصح[1]، فأما قولنا: فإن الهواء أول ما خلق الله سبحانه، وسنبين فساد قولهم إن شاء الله وبطلانه، وذلك أنهم زعموا أن الله حكيم والحكيم بزعمهم لا يخلق خلقاً إلا لينتفع به، فزعموا أن الواجب على الحكيم أن يخلق عاقلا وأن لا يخلق غيره من المنافع أولا.

فأما قولهم: إن الله سبحانه حكيم، وكذلك نقول وبذلك شهدت حكم العقول.

وأما قولهم: إن الواجب على الحكيم أن يخلق العاقل المنتفع قبل أن يخلق له المنافع.

فهذا والحمد لله غير واجب على الحكيم، وقد خلق الله السماوات العلا وغيرهن من الأرضين السفلى، قبل أن يخلق أحداً من العقلاء فلم يدخل على حكمته في ذلك تهجين ولم يجر عليه فيما أبرم ضعف ولا توهين، وما في تقديم المنافع قبل المنتفع من سقوط الحكمة، وأي حكمة عند من عقل أحكم من تقديم النعمة، ألا ترى إلى ما قدم الله سبحانه للأطفال قبل خلقهم من المراضع التي جعلها لهم وصورها في صدور أمهاتهم، أولا ترى ما[2] في هذه من حكمة التدبير وبيان الصنع والنعمة والتقدير، وفي نقض قولهم والحمد لله عندنا[3] من الدلائل ما يكثر ويطيب، ويصح لكل عاقل لبيب،

---

(١) في (ب): ولم يتضح.

(٢) في (ب): ألا ترى إلى ما في هذه ...إلخ.

(٣) عندنا، زيادة من (ب).

غير أنا نميل إلى اختصار الكلام، ولو رمنا شرح جميع الدلائل في صنع ذي الجلال والإكرام، لطال ذلك على أكثر الأنام، ولعسر تناوله على جميع أهل الإسلام، ولكنا نلقي[1] إن شاء الله من ذلك ما فيه كفاية لمن كان له بنفسه عناية، فرحم الله عبداً نظر لنفسه، واجتهد في طلب الدليل على ربه، وجَدّ في عمارة قلبه.

وليعلم من أراد معرفة الله جل جلاله وظهرت نعمه وأفضاله أنه من صار إلى ذلك بنية صادقة، وعزيمة وطاعة متحققة، فهو من خاصة الله وأخلائه[2] وأحبابه وأوليائه وخلصائه[3]، وكفى لعبد[4] أن يكون لله وليا، وحبيباً لله مرضياً، ومن كان كذلك وعلى ما وصفنا من ذلك فستعلم إن شاء الله تعالى ما دام على ما وصفنا أن الله يمده من معرفته بأكثر مما يحتاج إليه، ويرزقه من حيث لا يحتسب ما كان متوكلاً عليه، ويطلعه على كثير من الأسرار المكتومة، ولا تحتجب عنه حقيقة علة[5] معلومة، فلا تزلّ قدمه[6] مع ذلك عن الهدى، ولا يهلك إن شاء الله تعالى مع نور قلبه أبداً.

ألا ترى أن الحكيم منا لا يطلع عدوه على أسراره، ولا يخصه منه ببواطن[7] أخباره، وإذا كان ذلك فينا موجوداً، وعند حكمائنا معايناً مشهوداً

(١) في (ب): ولكنا نلقي إليهم إن شاء الله.
(٢) في (ب): وخلانه.
(٣) وخلصائه، ساقط في (ب).
(٤) في (ب): وكفى العبد أن يكون لله ولياً، وهو الصواب.
(٥) في (ب): علم معلومه.
(٦) قدمه. ساقط في (ب).
(٧) في (ب): يواطن.

وكان الله عز وجل أحكم منا كان الواجب عليه[1] أن يبعد من كان له عدواً، ولا يدفع عنه مكروهاً ولا سوءاً، وكذلك -أيضاً عند حكمائنا- أن الحكيم[2] لا يخذل له أبداً ولياً، ولا يكتمه من أسرار علمه[3] شيئاً، ولا يقطع عنه أبداً خواص بشاراته، ويخفي سرور كراماته، وإذا كان ذلك واجباً على حكمائنا فهو على الله أوجب؛ إذ هو أحكم منا[4].

(١) في (ب): عليه. ساقط.

(٢) في (ب): أن حكيماً.

(٣) أي علم حكمائنا.

(٤) لعله يعني فيما تقتضي الحكمة إظهاره لأولياء الله؛ لأن ما تقتضي الحكمة إخفاءه يجب أن يخفى كقيام الساعة وهو لا يقول إنهم يعلمون الغيب كما مر له الرد على من ادعى علم الغيب للأئمة.

باب الوحدانية

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي عليهم جميعاً السلام: إن سأل سائل فقال: وما الدليل على أن الله سبحانه واحد؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على وحدانية الله سبحانه تضاد الاثنين وتنافيهما.

فإن قال: وما أنكرت من اتفاقهما؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: أنكرنا ذلك؛ لأنهما لا يخلوان من أحد وجهين:

[١] إما أن يكونا اتفقا من قبل ذلك[١]، فإن كانا اتفقا من بعد ما تضادا فاتفاقهما ذلك حاجة وضرورة وخوف، فالخائف[٢] المضطر المحتاج مخلوق ضعيف عاجز، والخالق فلا[٣] يكون بهذه الصفات موصوفاً ولا بمضادة الأمثال معروفاً.

[٢] وإن كانا اتفقا من قبل الاختلاف فما حداهما إلى الاتفاق؟!!

---

(١) في (ب): من بعد الاختلاف والتضاد وإما أن يكونا اتفقا من قبل ذلك.

(٢) في (ب): والخائف.

(٣) في (ب): لا يكون.

فإن قلت خوفاً مـن الاخـتلاف، فالخـائف ضـعيف عـاجز محتـاج إلى معـين وشريك، والخائف من النـوازل والملمـات لا يكـون إلا مضـطراً إلى الخـوف مدفوعاً وعن القدرة بالعجز ممنوعاً.

وإن قلـت: إنهما اتفقا لغير معنى كان ذلك من أعظم العيوب وأولى ما ينـزه عنه علام الغيوب؛ لأن الأفعال لا تكـون إلا للمعـاني أو للعبـث[1] والسـفه والهوى والخالق لا يعبث ولا يهوى؛ لأنه غني عنهما، وفي ذلك مـن الـدلائل أكثر مما ذكرنا.

(١) في (ب): أو للعب.

باب القدم

فإن قال: فما الدليل على أن الله قديم؟

قيل له، ولا قوة إلا بالله: الدليل على أنه سبحانه قديم أن في كل محدث صفة[1] تدل على محدثه وبنية في حده[2] تدل على بانيه وصانعه وليس لله عز وجل صفة تدل على حدثه ولا له ذات مركبة فيدل ذلك التركيب على مركبه، وإذا كان الله سبحانه لا يوصف بصفات تدل على الحدث فقد ثبت له القدم وانتفى عنه الوجود بعد العدم.

فإن قال السائل: فإذا كان لا بد لكل محدث من دليل يدل على حدثه فكذلك أيضاً لا بد للقديم من دليل يدل على قدمه؟

قيل له، ولا قوة إلا بالله: الدليل على قدمه تبارك وتعالى، أنا وجدنا المحدثات تحتاج إلى محدث أحدثها، وأن المحدث لها لا يكون محدثاً مثلها؛ لأنه لو كان مثلها وكان يشبهها لتعذر عليه خلق الأجسام كما تعذر عليها.

---

(١) في (ب): دليلاً. بدل: صفة.

(٢) في (ب): في جسده.

باب الصفات القديمة التي هي الله عز وجل

[العلم]

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم عليهما السلام: إن سأل سائل ملحد أو قال قائل مسترشد: ما الدليل على أن الله عالم؟

قيل له، ولا قوة إلا بالله: الدليل على علمه سبحانه وجود صنعه تاماً محكماً، والحكمة لا تتم من جاهل فعلمنا أنه عالم بكيفية الصنع قبل فعله كعلمه به بعد جعله، ألا ترى أن الفعل يتعذر على من يجهله وأن الفاعل لا يقصد فعل[1] شيء إلا وهو عالم بكيفيته بعد إكماله[2] وإلى ما يؤول عند تمامه واعتماله.

ألا ترى أنه لو قصده بغير علم لما تم له بجهله، والله يتعالى عن الجهل والنقصان، ويجل عن شبه من خلق[3] من الإنسان.

ودليل آخر: أنه لا يخلو في حال فعله للمفعولات، وصنعه لما صنع

(١) في (ب): لا يقصد إلى فعل شيء.

(٢) في (ب): بعد كماله.

(٣) في (ب): ويجل عن شبه ما خلق.

من الحدثات، من أحد وجهين مختلفين متضادين غير مـؤتلفين، لا يوجـد إلى ثالث سبيل، ولا تشهد بغيرهما العقول:

[١] إما أن يكون صنعها وهو عالم بكيفيتها.

[٢] وإما أن يكون صنعها وهو جاهل بصنعها لا يدري إلى ما يصير عند كمالها، فإن كان صنعها وهو عالم فـذلك أولى مـا وصـف بـه الـرحمن، وأوضح ما شهد به البرهان، وإن[1] خلقها ولا يدري إلى ما يؤول، فلا فرق بين الفاعل والمفعول؛ لأن من قصد فعل شيء يجهله، فهو متحير لا يدري كيف يفعله، ومن تحير في شيء[2] وشك في علمه فهو أحرى بالعجز عن فعله، فكيف يتسق له ما هو به جاهل، وعنه متحير غافل، وعن الهدى والرشد زائل، وبالجهل مستكبر ذاهل، أبخاطر خطر على باله فجلا عنه ما كان من جهلـه وأوضـح لـه مـا جهـل مـن فعلـه[3]، فالخاطر عرض يخطر في القلوب ويتعالى عنه علام الغيـوب، والعـرض لا يحل إلا في الأجسام، وقد بينا حـدثها في أول الكـلام، وإذا كـان لـه بال يخطر عليه الذكر بعد نسيانه، ويتبين ما عمي عليه مـن شـأنه، فقـد عاد ثلاثة مجموعة:

أولها: الجسم القابل للأعراض، الجاهل الذي لم يخل من الحيرة والأمراض.

والثاني: جهله المركب المبني عليه.

والثالث: علمه الحادث المضطر إليـه الـذي لـولا حدثـه لمـا انتفـع بجسـمه،

---

(١) في (ب): وإن كان خلقها.

(٢) في (ب): ومن تحير في فعل شيء.

(٣) في (ب): شغله. بدل: فعله.

ولا ضر الجهل بما ركب من جرمه، ولوقع في أعظم الهلاك وهو لا يدري، ولكان لا يعقل ولا يعي.

ولا بد لما اجتمع من الأشياء بعد افتراقه من جامع، ومفتطر عالم صانع، وهو الله العليم القدير، الواحد السميع البصير، الذي لا تحل به الآفات، ولا تغيره الأوقات، ولا ينقص ولا يزيد، ولا يبطل ولا يبيد.

[القدرة]

وكذلك إن سأل عن القدرة فقال: ما الدليل على أنه قادر؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على قدرته عز وجل وجود ما قدر على إيجاده، وإحداث ما صنع من مراده.

والدليل على قدم القدرة كالدليل[1] على قدم العلم؛ لأنه لو خلا من القدرة لكان قبل ذلك عاجزاً، ولو حدثت القدرة فيه لم يخل من أن يكون هو الذي أحدثها أو غيره.

فإن قلت: هو الذي أحدثها لم يكن ذلك[2] إلا بقدرة متقدمة.

وإن قلت: غيره أحدث فيه القدرة جعلت له خالقاً ولم يكن رباً ولا صانعاً، وإن أحدث[3] فيه شيء[4] فهما شيئان مجتمعان، وقد قدمنا الدلالة على حدث الاجتماع بأبين البيان.

---

(١) في (ب): والدليل قدم القدرة الدليل على قدم العلم.
(٢) في (ب): لم يكن ذلك منه إلا بقدرة متقدمة.
(٣) في (ب): وإذا حدث فيه.
(٤) في (ب): وإذا حدث فيه حادث فهما شيئآن ...إلخ.

[الحياة]

فكذلك[1] **إن سأل عن الحياة فقال**: ما الدليل على أن الله حي سميع بصير؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على أنه حي سميع بصير أنه عالم[2] حكيم قدير، ومن صح له العلم والقدرة والقدم والحكمة فقد انتفى عنه الموت والغفلة؛ لأن الميت لا يكون حكيماً، وكذلك الأصم الأعمى لا يكون عليما.

والدليل على قدم الحياة والسمع والبصر، أنه لو خلا من قدمها لما كان عالماً قادراً قبل حدوثها[3]؛ لأن الميت لا يكون عليماً قديراً ولا يكون سميعاً بصيراً، ولو حدثت هذه الصفات بعد عدمها لكان لها محدث بخلافها.

[معنى القدم]

فإن قال: أخبروني عن القدم ما هو؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: مسألتك تحتمل وجهين:

[١] إما أن تكون أردت قدم الله رب العالمين.

[٢] وإما أن تكون أردت غيره من قدم أسنان[4] المخلوقين وتقادم أزمنة الأولين، وإن كنت[5] عنيت بسؤالك قدم الأسنان[6] فذلك طول الدهور

---

(١) في (ب): وكذلك.
(٢) في (ب): أنه عليم حكيم.
(٣) في (ب): قبل حدثها.
(٤) في (ب): الإنسان.
(٥) في (ب): فإن كانت.
(٦) في (ب): الإنسان.

والأزمان، وإن كنت عنيت قدم الواحد الرحمن فقدمه هو ذاته، وذاته قدمه، وكذلك علمه قدرته، وقدرته علمه، وكذلك القول في سمعه وبصره وحياته أنها شيء واحد هو[1] الله عز وجل، ألا ترى أن السمع هو العلم بالأصوات، وكذلك البصر هو العلم بالمبصرات، لا أنه كما قال أهل التشبيه ذو آلات؛ لما في الآلات والأدوات من السكون والحركات، والحركة والسكون فمحدثان وهما عن الله منفيان؛ لأنهما عرضان متداولان، وضدان متنافيان، لا يوجدان إلا في مفترق أو مجتمع ولا يكون الافتراق والاجتماع إلا من مفرق جامع، وخالق فاطر صانع، وهذه صفات المحدثات التي لا تنفك من الأعراض، ولا تمتنع من الكلية والأبعاض، فهي غير ممتنعة من صنع صانعها وتفريق مفرقها وجمع جامعها، فهي لا تعرف إلا بتقدير مقدرها، ولا تنفك من تدبير مدبرها، فجهاتها تدل على غايتها وانقطاعها، وإكمال صنعها وابتداعها، وحدودها يدل على محددها، وعددها يدل على معددها، وأدواتها تدل على فاقتها.

والتفضل بذلك يدل على رحمة صانعها، فتعالى الله مولانا وسيدنا وربنا وخالقنا عما يقول المفترون، وتقدس عما يتفوه به العاذلون، وينسب إليه الظالمون.

---

(١) في (ب): فهو الله.

[أسباب التجسيم والتشبيه]

وإنما تولد الشرك والتشبيه والتجوير، ونسي العدل والتوحيد من قبل الجهل بحدث العالم ولو علموا بحدث المحدثات لما شبهوا[1]، ولو أيقنوا حقيقة اليقين لما ألحدوا في الله ولا كفروا. وقد أظن إن شاء الله تعالى ظناً صادقاً، وأعلم علماً متحققاً أن من عظم يقينه بالله تبارك وتعالى لا يرغب في معصية أبدا، ولا يدخل في محظور متعمدا، ولا يخلو قلبه من الخشية والرحمة والهدى، ولا يدخل ما حيي في باب ردى، ولقد أظن إن شاء الله تعالى أن من صار إلى ذلك فقد ظفر بأنواع الحكمة كلها وبرئ إن شاء الله تعالى من جهلها، وعظم بالله سروره وأنسه، وهان عليه[2] ماله ونفسه، وقلت هيبته للموت في الله ليقينه بالمعاد، ووثق بما ادّخر لنفسه من الزاد، واجتهد في الله غاية الاجتهاد، وقرب من العفو عن كل من أساء إليه، ولم تنكصه الشبهات على عقبيه، ونظر الدنيا وأهلها بعين الزوال، وأيقن عنها بالارتحال، وأصبح للخيرات كلها أهلا، وللدين محلاً ومعقلا، وروى بمعرفة الله من الظما، وظفر بالغنائم العظمى.

[تعذيب الله للجهال]

فإن قال قائل: فَلِمَ يعذب الله الجهال على ما لم يعلموا، ولم يضطروا إليه فيعرفوا؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: إنما يعذبهم الله عز وجل على ترك طلب الدليل عليه، والتوصل بالفكر في صنعه إليه، والخوف منه والطمع فيما لديه.

ألا ترى أنك لو[3] خوفت بشيء من المهالك وجب عليك أن تجتهد

---

(١) في (ب): لما شبهوها.

(٢) في (ب): وهان عليه في الله.

(٣) في (ب): ألا ترى أنك إذا خفت.

في طلب الأمان مما خفت، وأن تحرص في نفي ما كرهت، وأن لا تـوانى في ذلك ولو جهلت، حتى تعلم حقيقة ما به وعدت، فعلى تفريطهم استحقوا العذاب، ولخلاف أدلتهم عدموا الصواب، ولو تمسكوا بسفن النجاة لما غرقوا في بحور العمى، ولو شربوا من علم آل نبيهم لشفوا من الظما، ولظفروا بالغنائم العظمى، ولأنارت قلوبهم لموافقة الحكماء.

ولكنهم اكتفوا بعلم أنفسهم، واستقلوا آل نبيهم، فلا يبعد الله إلا من ظلم، وعلى نفسه السوء[1] اجترم، فهذا سبب هلاك الجهال، وكثير من أهل النحلة الضُلاَّل، الذين شاهدناهم في عصرنا، ورأيناهم في دهرنا، فكم[2] غريق شاهدناه، وضال عمي رأيناه، قد استعمل في أئمة الهدى سوء الظنون، ورضي بباطله عن الحق المبين، وأعرض عن الحكمة واليقين، يرى بجهله أنه قد هدي إلى الصواب، وأنه أولى بالحق من ورثة الكتاب، ولو علم الله عز وجل أنه في ذلك المحل لجعله قدوة لعباده، وحجة على الخلق في بلاده، ولكن الله علم بعمى قلبه فلم يجعل له حظاً في وراثة كتابه.

فرحم الله عبداً نظر لنفسه، وأعمل الفكر بقلبه، وميز ما ينجو به من عذاب ربه، وألطف النظر في طلب السلامة من هول عذاب يوم القيامة، ومناقشة الحساب يوم الحسرة والندامة، والتمس النور في الثقلين اللذين جعلهما الله حجة باقية إلى يوم الدين وحشر العالمين، ولم يقتصر على واحد منهما دون ثاني، ولا على ميت من آل محمد صلى الله عليه وآله دون حي، وحذر إجحاف سؤال الرسول ومناقشته بين يدي الله في ذريته وولده،

(١) في (ب): بالسوء.
(٢) في (ب): كم غريق.

ومهجة قلبه وثمرة فؤاده، وسلالة لحمه ودمه الطاهرين الذين احتذوا بحذوه وساروا بسيرته واقتدوا به، فكم هالك فيهم بسوء ظنه، فضلّ وأضل، وحل من السخط في أعظم محل[1] ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[الكهف: ١٠٣، ١٠٤] ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[الشعراء:٢٢٧] والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبي خاتم النبيين وعلى سادتنا أهل بيته الطاهرين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم الحي القيوم، الواحد الفرد الصمد القديم، المدبر الخالق العليم، المنعم المفضل الجواد الكريم، البر الرحيم، الغفور المحسن الحليم، السلام المؤمن المهيمن الحكيم، الذي لا تحصى فضائله، ولا تنقطع أبداً دلائله، ولا يضل من تمسك به عن هداه، ولا يهدي إلى الحق من عاداه، ولا يرشد من خذله وأرداه، ولا يذل من والاه، أحمده حمد من أقر بربوبيته، وأشهد أن لا إله إلا هو شهادة من تَخَضَّعَ لعبوديته، وتعرض لعفوه ورحمته، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفوته من خلقه وأمينه على وحيه، بعثه برسالته، واختصه بهدايته، وانتجبه لأمانته، واحتج به على بريته، فأدى الأمانة، ونصح الأمة، وأكمل الحجة، وبلغ الرسالة جاهداً مجتهداً، صابراً متعبداً، حتى أكمل[2] به الدين، وأرغم به الشياطين، وأنذر عشيرته الأقربين ولم يأخذه في الله لوم[3] اللائمين، بل صدع بما أمر به، واجتهد في طاعة ربه، حتى[4] قبضه الله إليه، واختار ما لديه، على حقيقة

(١) في (ب): في أعظم المحل.
(٢) في (ب): حتى أكمل الله به الدين.
(٣) في (ب): لا تأخذه في الله لومة اللائمين.
(٤) في (ب): ثم قبضه الله إليه.

من دينه، وصحة من نفسه، رضياً مرضياً زكياً هادياً مهدياً مقرباً نجياً، ختم الله به أنبياءه، وهدى به أولياءه، وأرغم به أعداءه، وأوضح به حجته.

فلما ختم به نبوته، ورفعه من الأرض وطهره، وتوفاه إليه وبشره، خلفه الله على أمته، وامتن على بريته بأخيه ووصيه، وحبيبه ووليه، وخدينه وصفيه، وشقيقه ونسيبه، ووزيره وقريبه أمير المؤمنين، وقاتل الناكثين، وسيف رب العالمين، ومردي الأوثان، وقاصم الأقران، ومنزل الفرسان عن كل طامح العنان، إذا التقت صُلب الْمُرّان المسمى في القرآن بالإيمان، والمبشر في القرآن بالرحمة والرضوان.

ثم أكرمه الله بالوفاة، وختم له بالنجاة، وألحقه بنبيه وأخيه ووليه محمد خاتم النبيين، وسيد الأولين والآخرين، واحتج على خلقه بالسبطين الطاهرين المطهرين ابني الرسول، وسليلي البتول، الحسن والحسين، ثم قبضهما الله إلى رحمته، وألحقهما بنبيه [وأخيه ووليه][1]، وخلفهما بعترة طيبة مرضية، وشجرة مباركة زكية، وذرية هادية مهدية يكثر عددهم.

وسنذكر إن شاء الله تعالى بعض من تجب طاعته منهم مثل زيد بن علي[2] ـ رضي الله عنه ـ إمام المتقين عليه صلوات رب العالمين، ومثل ابنه

---

(١) ما بين المعكوفين ساقط في (ب).

(٢) الإمام الأعظم الشهيد زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ولد سنة(٧٥هـ) بالمدينة المنورة، حليف القرآن، من أعلم الناس وأفصحهم، وأخطبهم، وأزهدهم، وأشجعهم، إمام الزيدية وقائدها، فاتح باب الجهاد والإستشهاد، ومجدد الثورة ضد الظلم والفساد. وهو العلم المميز للمذهب عن بقية مذاهب الشيعة، جم الفضائل، كثير المناقب، ارتوى العلم عن أبيه زين العابدين وأخيه باقر علم النبيين. رحل إلى الكوفة وناظر علماءها، بايعه أكثر من أربعين ألفاً ولم يثبت معه إلا القليل، سقط شهيداً في الخامس والعشرين من شهر محرم سنة (١٢٢هـ) من أجل إقامة دولة الحق، وإلى جانب حماسة نهجه الثوري خلف لنا تراثاً علمياً أصيلاً، وفكراً عظيماً قاوم جميع الانحرافات الفكرية كالجبر، والتشبيه، =

يحيى المقتدي به والمحتذي بحذوه، ومثل محمد بن عبد الله وإبراهيم أخيه المصممين في أمر الله، المجتهدين في طاعته، المحتسبين في مرضاته، صلوات الله عليهما ورحمته وبركته[1] وغفرانه، ومثل الحسين بن علي[2] الشهيد المحرم، الباذل نفسه في سبيل الله المصمم الذي لم تأخذه في الله لومة لائم، فيحيى بن عبد الله بن الحسن[3] القائم لله المحتسب الصابر لله على الشدة والغضب، ومثل[4] محمد بن إبراهيم بن إسماعيل[5] القائم بحجة الله الجليل، فمثل

ونحوهما. ومن أهم مؤلفاته (المجموع الفقهي والحديثي)، طبع بتحقيقنا و(غريب القرآن)، و(الصفوة)، (والوصية) وغيرها، كتب عنه الكثير من الكتاب قديماً وحديثاً.

(١) في (ب): ورحمته ورضوانه وبركاته.

(٢) الإمام الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام من أئمة العترة الطاهرين الدعاة ظهر بالمدينة المنورة سنة ١٦٩هـ وممن بايعه فضلاء الأئمة في عصره يحيى وسليمان وإدريس بنو عبد الله بن الحسن وإبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن وقد صعد منبر رسول الله وخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال: (أنا ابن رسول الله، على منبر رسول الله، وفي حرم رسول الله أدعوكم إلى كتاب الله وسنة رسول الله وإلى أن أستنقذكم مما تعلمون. استشهد عليه السلام يوم التروية سنة ١٦٩هـ عن إحدى وأربعين سنة.

(٣) الإمام يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام دعا عليه السلام بعد وفاة الإمام الحسين الفخي عليه السلام واستتر خوفاً من العباسيين.
وكان هارون الغوي العباسي يترصده ويتابع حركاته حتى تمكن من إلقاء القبض عليه وحبسه في أضيق الحبوس حتى سقاه السم فمات في حبسه ببغداد.
وكان الإمام يحيى بن عبد الله قد أودع رقعة مع يحيى بن خالد أمره يسلمها لهارون الغوي وفيها: (بسم الله الرحمن الرحيم يا هارون، المستعدي قد تقدم والخصم على الأثر، والحاكم لا يحتاج إلى بينة).

(٤) في (ب): فمثل.

(٥) الإمام محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وقد دعاه أبو السرايا السري الشيباني فادعى في جمادى الأولى سنة ١٩٩هـ وبايعه أبو السرايا والزيدية في الكوفة وبايعه كثير من فضلاء أهل البيت عليهم السلام كالإمام القاسم بن إبراهيم والإمام محمد بن محمد بن زيد ومحمد بن جعفر بن محمد بن علي ومن الفقهاء يحيى بن آدم بن سليمان. وكانت له ست وقعات مع العباسيين أصيب عليه السلام في أحدها واعتل من أثرها ومات في رجب سنة ١٩٩هـ.

القاسم بن إبراهيم[1] الفاضل العالم الكريم، فمثل أمير المؤمنين الهادي إلى الحق المبين [يحيى بن الحسين][2] صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، فمحمد بن الهادي إلى الحق المرتضى[3] الذي بشر به النبي المصطفى صلوات الله عليه ورضوانه ورحمته وغفرانه، [ثم الناصر لدين الله أحمد بن يحيى صلوات الله عليه، ومثل الإمام المنصور والعلم المشهور المؤيد البر الزكي المرضي القاسم بن علي بن عبد الله [عليه صلوات الله][4] ونضر الله وجهه،

---

(١) الإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام - نجم الآل الأكرمين .ولد بالمدينة سنة (١٦٩هـ) فاق أقرانه، وكان وحيد عصره، وفريد دهره، وعين زمانه، فقهاً وعلماً، وتواضعاً، وورعاً، وشجاعة - مكث بمصر ما يقارب عشر سنوات نشر خلالها عقائد أهل البيت، وكان المأمون يشدد في طلبه. ولما توفي شقيقه محمد بن إبراهيم قام بأمر الإمامة، وبايعه رؤساء العترة، حتى سميت بيعته البيعة الجامعة لإجماعهم عليها. طاردته الجيوش العباسية مرارا في اليمن والحجاز، خلف لنا تراثا فكرياً رائعاً ومنه: (كتاب العدل والتوحيد)، (والدليل الكبير على الله)، (والرد على الروافض)، (والرد على الملحد)، وله الكثير من المؤلفات التي تزيد على العشرين مؤلفاً. أخباره كثيرة، ومناقبه غزيرة. توفي سنة (٢٤٦هـ) بالرس رحمه الله تعالى.

(٢) في (ب): يحيى بن الحسين. وفي (أ) ساقط.

(٣) الإمام المرتضى لدين الله محمد بن يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام، أبو القاسم، جبريل أهل الأرض، أحد أئمة الزيدية وعظمائها الأفذاذ . ولد سنة (٢٧٨هـ). دعا بعد وفاة أبيه، ثم تخلى عن الإمامة . وله مؤلفات في مختلف الفنون ومنها كتاب(الأصول) في العدل والتوحيد، وكتاب (الإيضاح) في الفقه، وكتاب (الرد على الروافض)، وكتاب (الرد على القرامطة)، وكتاب (الشرح والبيان) ثلاثة أجزاء، وكتاب (تفسير القرآن) تسعة أجزاء، وغيرها كثير، توفى سلام الله عليه سنة (٣١٠هـ) وقبره بمشهد أبيه مشهور مزور.

(٤) ما بين المعكوفين ساقط في (أ).

والمقصود بالإمام المنصور هو والد المؤلف الإمام الحسين العياني وهو من فضلاء أهل البيت عليهم السلام، وينحدر نسبه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، فهو الإمام المنصور بالله القاسم بن علي بن عبد الله بن محمد بن الإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

له العديد من المؤلفات منها: كتاب (الأدلة من القرآن على توحيد الله) وكتاب (التوحيد) =

وتقبل سعيه وعمله، وحشرنا في زمرته[1]، وجعلنا من حزبه[2]، فهؤلاء الذين بشر بهم الرسول صلى الله عليه وعلى أهل بيته، اللهم إني أشهدك يا مولاي وسيدي، وأشهد حملة عرشك، وأهل سماواتك وأرضك أني أشهد بإمامة هؤلاء الذين ذكرت في كتابي هذا وأتولاهم وأوالي[3] من والاهم وأعادي من عاداهم، اللهم يا مولاي إني أشهدك[4] أني بريء ممن رفضهم أو رفض أحداً[5] منهم إلى يوم[6] حشر العالمين.

وصلى الله على محمد النبي وعلى آله وسلم تسليماً

وكتاب (التجريد) وكتاب (التنبيه والدلائل)، وأنا بصدد جمعها وتحقيقها إن شاء الله تعالى، وقد توفي ﷺ سنة ٣٩٣هـ، ومشهده ببلاد (عيان) مديرية حرف سفيان مشهور مزور، وخلّف من الأولاد الإمام الحسين العياني وإخوانه سليمان ويحيى وعبد الله وعلي وجعفر.

(١) في (ب): في زمرتهم.

(٢) في (ب): من حزبهم.

(٣) في (ب): وأتولاهم وأشهدك أني أتولاهم.

(٤) في (ب): وأشهدك.

(٥) في (ب): أو رفض أحداً منهم.

(٦) في (ب): إلى يوم الدين.

كتاب
التوحيد والتناهي والتحديد
الجزء الثاني

١- مسألة الفناء
٢- مسألة القدرة والعلم
٣- معاني الإرادة
٤- تنزيه الله عن مشابهة خلقه



الجزء الثاني

من كتاب التناهي والتحديد فيه مسائل المحال

بسم الله الرحمن الرحيم، حسبي الله.

[مسألة الفناء]

إن سأل بعض المشبهة الضلال فيما يقولون به في الله ويعتقدونه من المحال فقال: أخبروني هل لو أراد الله أن يفني نفسه أيجوز ذلك أم لا؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: كلامك هذا فاسد محال باطل لا معنى له ويستحيل أن يريد الله المحال؛ لأن الإرادة لا تقع إلا على الأفعال، والموت والفناء لا يقع إلا على الأجسام، ولا يدرك إلا ما كان جرماً من الأجرام؛ لأن الموت عرض يحله الله في الأشباح والله ليس بشيء[1] محدود، ولا غيره من العدد المعدود، وإذ لا يقع إلا على مفترق من الأشياء أو مجتمع، أو متحرك أو ساكن، ولا يفنى إلا ما كان من الكل والبعض، وما لا ينفك من الطول والعرض، والله ليس بذي كل ولا بعض[2] ولا بذي أحوال ولا أعراض؛ لأن في ذلك من الحدث ما يدل على الخالق المحدث.

---

(١) في (ب): ليس بشبح.
(٢) في (ب): ولا أبعاض.

[مسألة الرؤية]

مسألة كذلك إن سأل[1] **بعض المشبهة الملحدين الظانين بالله ظن السوء المتحيرين فقال:** أخبروني هل لو أراد الله أن يدركه بعض خلقه أيجوز ذلك أم لا؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: وهذه المسألة أيضاً من المحال والله لا يريد المحالات ولا يوصف بصفات المحدثات؛ لأن الأبصار لا تقع إلا على مفترق من الأشياء أو مجتمع، والمفترق مفصل لا بد له من مفصل، والمجتمع موصل لا بد له من موصل، والله موصل الأشياء ومفصلها، ومفرقها وجامعها، ومبتدعها وصانعها.

[مسألة خلق مثله]

(مسألة)[2] **وكذلك إن سأل فقال:** أخبروني عن الله هل يقدر أن يخلق مثله؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: كلامك هذا فاسد محال لا معنى له؛ لأنك قلت: هل يقدر أن يخلق؟فأوقعت القدرة على مخلوق، ثم نقضت قولك بقولك: مثله؛ لأن الله خالق وهذا مخلوق، والله مدبِّر وهذا مدبَّر، والله صانع وهذا مصنوع، والله غني وهذا فقير، والله قديم وهذا محدث، والله لا نهاية له وهذا متناهي، والله محدده ومفصله وموصله، وهو موصِّل مفصل، وهذا من أكبر المحال وأقبح المقال، فكيف[3] يكون مخلوق خالقاً، ومحدث قديماً، ورب

---

(١) في (ب): كذلك إن قال بعض.

(٢) في (ب) ما بين القوسين ثابت في (ب) ساقط في (أ).

(٣) في (ب): وكيف.

مربوباً، وكيف يكون المحدث مثل القديم أو الخالق[1] مثل المخلوق، أو كيف يكون الرازق مثل المرزوق؟؟

[مسألة خلق غير الجسم والعرض]

مسألة من المحال أيضاً: وإن سأل فقال: هل يقدر الله أن يخلق خلقاً لا جسماً ولا عرضاً؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: هذا محال وليس عن المحال مسألة، لأن كل محدث فيه آثار حكمة الصانع وذلك ما ذكرنا من الكل والبعض، والكل والبعض لا يكون إلا جسماً من الأجسام الموصوفة بالطول والعرض، فقولك هذا متناقض فاسد لا معنى له؛ لأنك قلت يخلق خلقاً والخلق فهو ما ذكرنا، ثم نقضت قولك فقلت: لا جسماً ولا عرضاً، فكأنك قلت يخلق خلقاً ليس بخلق!!

فإن قال: فلم زعمت[2] أن ربكم شيء ليس بجسم ولا عرض وقد نفيتم ما ليس بجسم ولا عرض؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأنا نفينا أن يكون خلقاً محدثاً لا محدثاً؛ لأنك إذا قلت محدثا أوجبت فيه دلائل الحدث، فإذا قلت ليس فيه دلائل الحدث نفيته والنفي والإثبات لا يجتمعان في شيء واحد.

وأما قولك: ثم نفينا عن الله سبحانه أن يكون جسماً أو عرضاً وأثبتناه شيئاً.

فالجواب في ذلك: أنا جعلناه قديماً والقديم لا يكون محدثاً وكذلك نفينا أن

(١) في (ب): والخالق.
(٢) في (ب): فلم قلتم.

يكون المحدث ليس فيه دليل[1] الحدث فيكون[2] قديماً أو عدماً ويستحيل أن يكون القديم محدثاً.

وأما قولنا: إن الله شيء، فإنما نريد بذلك إثبات الموجود ونفي العدم المفقود؛ إذ ليس إلا موجوداً أو معدوماً، فالموجود شيء والمعدوم لا شيء، فلما وجدنا الصنع علمنا أن الصانع شيء ويستحيل أن يصنع العدم شيئاً ويستحيل أن يصنع الجسم جسماً لما قد وصفنا.

[مسألة خلق ما لا نهاية له]

مسألة فإن[3] سأل فقال: هل يقدر الله أن يخلق خلقاً لا نهاية له؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: مسألتك تحتمل وجهين:

[١] إما أن تكون أردت جسماً لا حدود له ولا جهات.

[٢] وإما أن تكون أردت أعراض الزمان والساعات وما وعد الله بدوامه أهل الآخرة من اتصال الأوقات، فإن[4] كنت أردت جسماً لا حدود له فهذا محال وتناقض من القول والسؤال؛ لأنك سألت عن الجسم المحدود ثم نقضت بقولك[5] لا حدود.

وإن كنت أردت بسؤالك وبما ذكرت من مقالك أعراض الآخرة ودوام ساعاتها واتصال حدوث أزمنتها وأوقاتها فكذلك نقول إنه لا انقطاع لدوامها.

---

(١) في (ب): فيه دلايل.
(٢) في (ب): ويكون.
(٣) في (ب): وإن سأل.
(٤) في (أ): وإن كنت. والصحيح ما أثبتناه من (ب)
(٥) في (ب): ثم نقضت سؤلك بنفيك للحدود.

[مسألة القدرة على العلم]

مسألة وإن سأل فقال: هل يقدر الله أن يعلم؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: كلامك هذا باطل لا يجوز على الله سبحانه وعز عن كل شأن شأنه، [وذلك أنك][1] قلت: هل يقدر الله أن يعلم، فجعلت العلم من المفعولات المحدثات وأخرجته من الصفات الأزليات، والمقدور عليه لا يكون إلا من المحدثات وذلك كعلم الإنسان المستفاد بالأفعال[2] المدركات والله يتعالى عن الجهل والنقصان ويتقدس عن شبه الإنسان وغيره من الحيوان[3] وغيره من صنع الواحد الرحمن.

[مسألة إرادة القدرة]

مسألة فإن سأل فقال: هل يريد الله أن يقدر؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: هذه مسألة من أحول المحال وأولى ما ينزه عنه ذو الجلال والإكرام؛ لأنك قلت: يريد أن يقدر، والإرادة فمن المفعولات، والقدرة فمن الصفات الأزليات ولا تكون الإرادة إلا بقدرة من قدير لم يسبق قدرته ضعف، ولا تقصير فجعلت الصفة القديمة من المفعولات فنقضت قولك؛ لأنك قلت: يريد، والإرادة فهي الفعل والفعل لا يكون إلا بقدرة فكأنك قلت يخلق القدرة بقدرة وهذا محال متناقض وربنا محمود.

---

(١) ما بين المعكوفين من (ب)، وساقط في (أ).

(٢) في (ب): بالأفعال.

(٣) في (أ): من الحيوانات. ولعل الصواب ما أثبتناه من (ب).

[مسألة إرادة العلم]

مسألة وإن سأل فقال: هل يريد الله أن يعلم؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: هذه مسألة تستحيل عن ربنا جل جلاله وظهرت نعمته وإفضاله؛ لأن العلم ليس بمفعول[1] ولا هو شيء سوى الله معقول، والإرادة على[2] الأفعال فلا تتم إلا بعد العلم بالأعمال.

مسألة فإن رجع إلى الحق وسأل عما يليق بالله من الصدق فقال: هل يعلم الله أن يقدر؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: نعم هو سبحانه يعلم أنه يقدر.

مسألة فإن[3] سأل فقال: هل يقدر الله سبحانه أن يريد؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: نعم يقدر سبحانه، عز وجل علمه وسلطانه، وظهر دليله وبرهانه أن يريد؛ لأن الإرادة فعله والله قادر على الأفعال.

فإن قال: فهل يعلم أن يريد؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: نعم [يعلم][4] سبحانه أنه يريد ولا يخفى عليه شيء[5] في سابق علمه ما سينقص من فعله أو يزيد.

---

(١) في (ب): ليس مفعولاً.

(٢) لعل لفظة: (هي) أنسب من لفظة (على). والله أعلم.

(٣) في (ب): وإن سأل.

(٤) مابين المعكوفين من عندنا لاستقامة المعنى.

(٥) في (ب): ولا يخفى عليه في سابق.

مسألة فإن قال: فهل يعلم أن يعلم؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: نعم يعلم[1] أنه يعلم ولا يخفى عليه شيء من المحدثات في حال العدم.

مسألة فإن قال: فهل يقدر أن يقدر؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: هذا محال؛ لأن القدرة إنما تقع على المحدثات[2] وليس لله عز وجل قدرتان تقع إحداهما على الأخرى فتكون واحدة في عداد المفعولات[3] وتكون الأخرى في عداد الصفات.

فإن قال قائل: فكيف جاز قولك: يعلم أن يعلم، ويبطل قولي يقدر أن يقدر؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: للعلة التي قد[4] ذكرنا وذلك أن الله عز وجل يعلم أنه عالم بكل معلوم كما هو قادر على كل مقدور، ويستحيل قولك يقدر أن يقدر؛ لأن القدرة إنما تكون على الأفعال وليس لله قدرة أخرى فيما يعلم كل ذي عقل وحِجا إلا أن تريد بقولك يقدر أن يقدر تريد بقولك أن يفعل المفعولات فنقول قد أصبت فيما اقتصرت عليه ولم تخطئ فيما نسبت من لفظك إليه.

---

(١) في (ب): نعم هو يعلم أنه يعلم.
(٢) في (ب): إنما تقع على المقدورات.
(٣) في (ب): في عداد مفعولات.
(٤) في (ب): قد، ساقط.

[معاني الإرادة]

مسألة فإن سأل فقال: هل[1] يريد الله أن يريد؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أن الإرادة قد اختلف فيها على وجهين:

[١] إرادة ضمير.

[٢] وإرادة فعل.

فأما الضمير فينفى عن الله سبحانه لما قدمنا في ذلك من البيان وأوضحنا بمن الله من البرهان، وأما الفعل فهو أولى ما وصف به الرحمن، وإيما قصدت[2] فلن يخلو من أحد ثلاثة أوجه:

[١] إما أن تكون تريد أن[3] يضمر أن يفعل.

[٢] أو هل يضمر أن يضمر غير ما أضمر.

[٣] أو تكون أردت تكرير القول فقط لا غير الفعل الذي هو إرادة الله عز وجل.

فإن أردت أنه يضمر أن يفعل فهذا محال، لا يجوز على الله ذي الجلال؛ لما قدمنا من نفي الضمير عن الله الواحد [اللطيف][4] الخبير، وكذلك إن أردت أنه يضمر أن يضمر غير ما أضمر فهذا من أكفر الكفر والجحدان وأحول ما استحال عن الرحمن؛ لأن من يحب ويهوى، وتخطر على باله الأشياء

(١) في (ب): فإن قال: فهل يريد الله أن يريد.

(٢) في (ب): وأما ما قصدت.

(٣) في (ب): تريد هل يضمر أن يفعل.

(٤) في (ب) ما بين المعكوفين ثابت في (ب).

لا يوصف بعلم ولا خبرة، ولا تدبير ولا فطرة، لأنه لا يخلو من أحد وجهين:

[١] إما أن يكون على تلك الشهوات مجبولاً مصطنعاً.

[٢] وإما أن يكون عزيزاً عن[1] ذلك ممتنعاً، فإن كان غير ممتنع من الخواطر والأحوال، ولا عزيزاً عن[2] الزوال والانتقال، فذلك مضطر مفطور، ولا يمتنع من الحوادث والتدبير، ولا ينفك من صنع العليم القدير، وإن كان عن ذلك عزيزاً، وكان من الخواطر ممتنعاً حريزاً، فقولك هذا كفر بذي الجلال، وجهل بالله الكبير المتعال، وإن أردت تكرير القول بالإرادة فقد أخطأت[3] في تكرير القول وترديده في غير معنى[4].

[معرفة الله لذاته]

مسألة فإن قال: أخبرني عن الله أيعرف نفسه أم ينكرها؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أنه لا ينكر نفسه؛ لأن المنكر لنفسه الجاهل بها إذا جهل نفسه فهو لغيرها أجهل والله يتعالى عن الجهل والنقصان ويتنزه عن شبه المخلوقين في كل شأن.

مسألة فإن قال: أخبرني عن معرفته سبحانه[5] لنفسه أهي هو أم هي غيره؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أيها السائل أن معرفة الله لنفسه هي هو.

---

(١) في (ب): عزيزاً من ذلك.
(٢) في (ب): عزيزاً من الزوال.
(٣) في (ب): فقد أصبت.
(٤) في (ب): على غير معناه.
(٥) في (ب): معرفة الله لنفسه.

[خلق الله للأشياء]

مسألة فإن سأل فقال: أخبرني عن الله سبحانه أخلق الأشياء من شيء أم من غير شيء؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: اعلم أن الله سبحانه خلق الأشياء من غير شيء واخترعها اختراعاً من غير بدئ.

فإن قال: وما أنكرت من أن يكون خلقها من شيء قديم لم يزل فنقله إلى الحدث حتى أبان فيه صنعه من غير أن يكون اخترعه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: قولك[1] هذا فاسد محال؛ لأنه لا يخلو من أن يكون نقله كله أو نقل بعضه أو لم ينقل منه[2] كلاً ولا بعضاً.

فإن قلت: لم ينقل كله ولا بعضه، نفيت ما عنه سألت وجحدت[3].

فإن[4] قلت: بل نقل كله أو بعضه، أوجبت بأبين البيان حدوثه[5] ونفيت أزله وقدمه؛ لأنا قد بينا حدث الكل والبعض فيما تقدم من كلامنا وأوضحناه في أول كتابنا، وإذا صح أن الأصل كل أو بعض صح[6] أن ذلك لا يكون إلا جسماً، وقد تقدم من قولنا أن الأجسام محدثة، وإذا كانت أصول

---

(١) في (ب): كلامك.

(٢) في (ب): أو لم ينقل كلا ولا بعضاً.

(٣) في (ب): وجحدته.

(٤) في (ب): وإن قلت.

(٥) في (ب): حدثه.

(٦) في (ب): وصح.

الأشياء محدثة فقد فسد قولك من[1] نقلها واصطناعها، وصح قولنا في اختراعها، وإحداث أصولها وابتداعها.

[مسألة قدرة الله على الظلم وتنزهه عنه]

مسألة فإن قال: أيقدر[2] الله أن يظلم عبيده ويخلف وعده ووعيده؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: نعم هو قادر على ما سألت، وغير عاجز عما ذكرت، وليس كلما قدر عليه الحكيم فعَلَه؛ لأنا نجد الحكيم منا مع حاجته لا يفعل القبيح لذمامته، فكيف بالحكيم الغني؛ لأن الفاعل لا يفعل فعلاً إلا لحاجة تدعوه إلى [اجتلابَ][3] منفعة أو دفع مضرة، والله لا يحتاج إلى اجتلاب المنافع، ولا إلى دفع المضار والفجائع، فتبارك الله وتعالى عن ظلم عبيده، وإخلاف وعده ووعيده، وأيضاً فقد يكون الكذب والسفه والعبث من الظالمين لغير حاجة تدعوهم إلى ظلم المظلومين.

[تنزه الله عن العبث]

فإن قال بعض الملحدين: فما تنكر أن يعبث الله ـ تعالى سيدنا من قول الملحدين ـ؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: إن عبثهم هذا الذي ذكرنا وجورهم لغير حاجة فيما قدمنا إنما يدعوهم إليه البطر والهوى والله تعالى عن ذلك لا يبطر

---

(١) في (ب): في نقلها.
(٢) في (ب): فإن قال هل يقدر.
(٣) في (أ) ما بين المعكوفين ساقط.

ولا يهوى؛ لأن الهوى داع إلى كل منكر، ومنه تولد الظلم والبطر، والهوى فهو ضمير وخاطر (والله يتعالى عن الخواطر؛ لأنها شهوات) لا توجد إلا في القلوب، وما يتعالى عنه علام الغيوب، وقد تقدم كلامنا في الجزء الأول من نفي الخواطر عن رب العالمين وتبيين حدوث ذلك في المخلوقين.

[مسألة الحب والبغض في حق الله جل شأنه]

مسألة وإن سأل فقال: هل يحب الله نفسه أو يبغضها؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: كلامك هذا باطل محال لا يجوز على الله؛ لأنه غني عن الحب والبغض؛ لأن الحب يخرج على وجهين وكذلك البغض:

[١] فمن الحب ما يكون ضميراً أو نية، وشهوة في القلوب مبنية، وهذا من صفات المخلوقين المحتاجين إلى محبة أنفسهم، المجبولين على فطرة شهواتهم.

[٢] **وأما الوجه الثاني** فهو حب الله لأوليائه المؤمنين، وهو ثوابه ونعمته للمطيعين، والله غني عنه وغير محتاج إليه؛ لأن المحتاج إلى الرزق لا يكون إلا مبنياً على الحاجة إليه، والله يتعالى عن الحاجة إلى الأرزاق واجتلاب النعم والأرفاق؛ لأن الذي يرتزق ويغتذي لا يكون إلا مضطراً غير غني، ومن كان مضطراً فهو فقير إلى اللذات مبني على الحاجة إلى الشهوات، والملتذ لا يكون إلا جسماً مجتمعاً متحركاً أو ساكناً، وقد بينا حدث الجسم فيما تقدم من كلامنا.

والبغض يخرج على وجهين: فمن ذلك بغض الآدميين وإضمار كراهة ما يكرهون والله يتعالى عن شبه المخلوقين.

والوجـه الثاني فهو بغض الله الكافرين، وهو أليم عذابه ونكاله للفاسـقين والله ليس بذي جسم فتحله الآلام ولا بذي جسد فتعلقه الأسـقام، بـل هـو (الله) رب العالمين وفاطر السـماوات والأرضـين فتبـارك وتعـالى عمـا يقـول الظالمون، وتقدس عما يتفوه به الجاهلون، وتنزه عما يقول المفترون.

[مسألة إكرام الله لذاته]

مسألة : **وكذلك إن سأل فقال**: أيكرم الله نفسه أم يهينها؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: المسألة ما هو من المحـال، ومنهـا مـا يليـق بـالله ذي الجلال؛ لأن الكرامة على وجهين:

[١]: كرامة تنزيه عن الظلم والعدوان، وذلك أولى ما وصـف بـه الـرحمن، فهو يكرم نفسه عن ذلك جـل جلالـه، وكرمـت عـن الجـور والـدناءة أفعاله.

[٣] **والوجـه الثاني**: فكرامة النعيم وما يتعالى عنـه الواحـد القـديم، وهـذه الكرامة فتستحيل عن الله[1] الرحمن الرحيم.

وكذلك الهوان[2] على وجهين يستحيلان عن[3] الرحمن:

[١] **فوجه**: هَوانُ دناءة الأفعال، والجور والسفه في الأعمال، وذلـك منفـي عن الله ذي الجلال.

---

(١) لفظ الجلالة في (ب) ساقط.

(٢) كذلك، في (ب) ساقط.

(٣) في (ب): على الرحمن.

[٢] **والوجه الثاني**: فهوانُ العذاب الأليم، وما جعله الله ضد الرحمة[(١)] والنعيم، وهو مما يستحيل عن الخلاق العليم؛ لأن الألم لا يحل إلا في الأجسام وذلك فيتعالى عنه ذو الجلال والإكرام.

[مسألة إعلام الله جل شأنه لبعض خلقه]

مسألة: وكذلك إن سأل فقال: هل يقدر الله أن يعلم بعض خلقه جميع معلوماته؟ فإن قلتم يقدر فقد صار غيره في العلم مثله، وإن قلتم لا يقدر عجزتموه.

قيل له ولا قوة إلا بالله: هذه مسألة متناقضة؛ لأنك قلت هل يقدر أن يعلم بعض خلقه جميع ما يعلمه[(٢)] فجعلت لمعلومه جميعاً، والجميع يتناهى ومعلوم الله لا يتناهى ولا يحد ولا يحصى أبداً ولا يعد، فالنقض[(٣)] لمسألتك أتى من عندك لما في مسألتك من تناقض قولك، ألا ترى أن الله من معلومه نفسه، وليس له جميع فيكون محدوداً، وليس بعدد فيكون معدوداً، فكيف تريد أن يعلم خلقه نفسه، ونفسه لا تعلم، ولا تدرك بغير الأدلة ولا تفهم؛ لأنها نفس ليست من الكل والأبعاض، ولا من الأجسام والأعراض، وسؤالك فإنما[(٤)] هو عن كل المعلومات، والكل فلا يصح إلا من المصنوعات.

---

(١) في (ب): ضداً للرحمة.

(٢) في (ب): يعلم.

(٣) في (ب): والنقض.

(٤) في (ب): إنما هو.

[خاتمة في تنزيه الله تعالى]

(**مسألة: فإن سأل فقال**: أخبروني لم زعمتم أن هذه المسائل تستحيل ولا يجوز يوصف بها الواحد الجليل؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: إنما استحالت هذه المسائل لتناقضها، وتكاذبها في المقال وتداحضها؛ لأنك أيها السائل تسأل عن الله الجليل، ثم تنقض بالقول المستحيل، وتشبه الله بالعبد الذليل، مثل قولك: هل يقدر أن يفني نفسه، فجعلته ثلاثة وإنما هو الواحد الأحد، القديم العظيم الفرد الصمد، فكأنك سألت عن مخلوق وأنت تحسبه خالقاً، وسألت عن ثلاثة وأنت تحسبها واحداً؛ لأن المُفنِى هو الفاعل، والمُفنَى هو المفعول، والفعل هو الثالث المجعول المتوسط بين القابل والمقبول).

تم كتاب التناهي والتحديد من كلام الإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وهو آخر كتاب (المعجز) وحسبي الله وكفى ونعم الوكيل[1].

---

(١) جاء في آخره: تم الكتاب بحمد الله ومنه ولطفه وله الحمد كثيراً بكرة وأصيلاً وذلك يوم الاثنين خامس شهر جمادى الأول سنة سبعة وستين بعد الألف بعناية سيدي ومولاي عزالدين محمد بن الحسن بن أمير المؤمنين حفظه الله تعالى.
قلت: والمراد به الإمام محمد بن الحسن بن الإمام القاسم بن محمد رضي الله تعالى عنهم وقد اعتنى بنسخ كثير من كتب الآل عليهم السلام.



كتاب
التوكل على الله ذي الجلال والرد على المشبهة الضلال

١- استحالة دخول الله في الأشياء بذاته
٢- العلة في عدم رؤية الله تعالى
٣- بيان معنى التوكل
٤- موانع خطاب الله للعباد بنفسه
٥- الجمادات واستحالة أفعالها.



كتاب التوكل على الله ذي الجلال
والرد على المشبهة الضلال

بسم الله الرحمن الرحيم

[استحالة دخول الله في الأشياء]

قال المهدي لدين الله الحسين بن الإمام القاسم بن علي صلوات الله عليه: إن سأل سائل فقال: أخبروني عن الله تبارك وتعالى أهو في الأشياء يستحيل على الحقيقة أم لا؟

فالجواب له فيما عنه سأل من المحال: أن الدخول في الأشياء يستحيل عن ذي الجلال والإكرام وإنما هو في الأشياء بعلمه وإحاطته، وفوق الأشياء قاهر بقدرته وليس دخول علمه كمداخلة الأجسام وإنما هذا على مجاز الكلام والأصل في ذلك أنه مثل من الأمثال وموصل إلى درك العلم بهذا المقال.

[العلة في عدم إدراك ذات الله عز وجل]

وكذلك إن سأل فقال: ما العلة التي منعت عن درك الذات؟

والجواب له في ذلك: أنه لو أدرك لكان كسائر المدركات، ولا فرق بينه وبين المحدثات؛ لأن درك الحواس والعقول والأوهام لا يقع إلا على جسم من الأجسام، أو صفة جِرم من الأجرام، وما يتعالى عنه ذو الجلال والإكرام.

وأما ما سأل عنه والعلة المانعة عن درك القديم، فالعلة في ذلك عجز المحدثات عن إدراك الواحد الكريم، المتفضل الرحمن الرحيم، والعلل المانعة عن بلوغ الموجودات القديم وغيره من المصنوعات تخرج على وجوه معروفة، وأسباب معانيه موصوفة.

فمنها: علة الحجاب والأستار المانعة لدرك الأبصار:

ومنها: علة البعد عن الافتراق وعلة عجز الحواس والألباب، فلو احتجب عن خلقه بالبعد لكان البعد له ساتراً ولكان لذاته غامراً، ولو غمره لكان مغموراً، ولو كان مغموراً لكان صغيراً، ولو صغر لكان منقوصاً، ولكان بالقلة والنقص مخصوصاً، ولكان محتاجاً إلى الأستار، ومستترا بالأمكنة والأقطار، ومتنفعاً بالظلمات والأنوار، فتعالى الله عما يقول الجاهلون، وينسب إليه الكفرة الظالمون.

[استحالة رؤية الله تعالى]

ومما يدل على فساد قول المشبهة الملحدين الفجرة الجهلة الجاحدين، إنه لو كان يدرك بالأبصار، لكان في قطر من الأقطار، ولو كان حواه المكان والحدود لكان محدوداً قطعاً ولكان مفترقاً أو مجتمعاً، والمحدود له منقطع يدل

على قاطعه، والاجتماع والافتراق يدلان على مفرقه وجامعه، ومفتطره وصانعه؛ لأن المحدود يدل على محدوده والمبعض عدد يدل على معدده، ولو كان كما وصف أهل الكفر والإلحاد من الظهور في الآخرة والمعاد، والتجلي لأبصار العباد، لم يخل من أحد وجهين لا ثالث لها أو لا يوجد في العقول غيرهما.

[١] إما أن يظهر كله فتصح له الحدود.

[٢] وإما أن يظهر بعضه فيدخل في التعديد والله يتعالى عن التحديد بل عن صفة العبيد[1].

ومما يدل على كفرهم وإلحادهم، وعداوتهم لله وعنادهم وضلالهم عن الحق وفسادهم أنه لو كان في الآخرة على ما ذكر الجهال وقال به الفسقة الضلال لم يخل عند ظهوره ونزوله وهبوطه، وقعوده ووصوله من أن يكون كالأشياء مستقراً، أو متحركاً زائلاً مستمراً، فإن كان ساكناً لابثاً فهو مضطر إلى لبثه وقراره، بعد هبوطه وحركته وانحداره وحاجته إلى الحركة واضطراره، وإقباله في السماوات وإدباره، وبطلان قوته واقتداره، ومما يدل على حدث معبودهم، تعالى الله عن كفرهم وجحودهم، أن الحركة والسكون محدثان، وهما بمعبودهم متعلقان، وبجسمه مقترنان متداولان، فقد صح حدثه إذ لم ينفك من المحدثات؛ لأن ما كان بين حالين محدثين، ومكونين بعد العدم موجودين، وكان لا ينفك منهما، فهو في الحدث مثلهما، وسبيله سبيلهما، إذ هو مبني عليهما، لا يجد منهما بدأً، ولا عنهما معتمداً فلا بد له من بان بناه

(١) لقد ألفت في مسألة الرؤية كتاباً مهماً جمعت فيه أقوال المثبتين والنافين وأدلة كل فريق ثم ناقشتها على ضوء قواعد كل فريق، طبع بعنوان (رؤية الله تعالى بين العقل والنقل) وصدر عن دار الحكمة.

عليهما واضطره إليهما، وإذا كان بزعمهم يجوز عليه الانتقال، ويلم به اللبث والزوال، فهو ثلاثة مجموعة، متغايرة مصنوعة، أولها الجسم الساكن المقيم، الذي هو عندهم واحد قديم، والثاني سكونه المقرر إليه، والثالث انتقاله المضطر إليه، وهذه ثلاثة من صنع الله جلا جلاله، وعظمت نعمه وإفضاله، فليعلم الجهلة الضالون، العمات المتجبرون، أن معبودهم غير الواحد الرحمن، وأنهم في الشرك بالله كعبّاد الأوثان.

ومما يدل على خروجهم من الإسلام وأن معبودهم كغيره[1] من الأصنام أنهم زعموا أنه يهبط إلى السماوات، وأنه بزعمهم يوصف بالآلات، والأدوات والحواس المدركات، وإذا كان يهبط ويتدلى، وينحدر من العلو سفلا، ويقطع بحركته الهواء، ويخرق ما عَبَرَ من الأجواء، فالهواء أكبر منه، وأحق منه بالسعة والأولى؛ لأن الهواء قد حواه، وتضمنه وغاياه، وأوضح حدوده وناهاه، وأحاط به وآواه، وستر أسفله وأعلاه، وإذا كان الهواء أكبر منه، وستر جميع الأبصار عنه، فهو أصغر من محله وموضعه، وأقل من مهبطه ومطلعه، وإذا كان هو ومحله على ذلك، وكانا في الصفة عندهم كذلك، فهما إذاً مختلفان، وبالتغاير والتفاضل موصوفان، فإذا اختلفا فلا بد لهما من صانع خالف بينهما، ودل بذلك على حدوثهما؛ لأن الأهوية والسماوات إذا حوته، وأحاطت به وتضمنته، فقد زادت عليه وفَضَلَته، وإذا زادت عليه فقد صح نقصانه وصغره، والله مُصَغِّرُهُ وفاطره، وخالقه ومقدره.

وكذلك إذا اختلفت جوارحه، وتغايرت أدواته ومصالحه، فذلك دليل

(١)وفي نسخة حُجيرة بدل لفظه كغيره..

على رحمة خالقه، وحكمة مصوره ورازقه، إذ جعل كل عضو منه لسبب من الأسباب، ومصلحة تدل على الله رب الأرباب.

وكذلك إذا كان على كرسيه وعرشه، وسكن عليه بعد حركاته وبطشه، فعرشه إذاً أكبر منه وأقوى، وأشد وأمكن في الأجواء وأقوى لأن عرشه يمسكه من السقوط، والهواء يسلمه إلى الذل والهبوط، فهو على حالين مختلفين، متغايرين غير مؤتلفين، أحدهما عرشه الذي هو أقوى منه على الحلول، لفضل قوة الحامل على المحمول، وهذه صفات العبد الذليل، ومعبودهم [دون] الواحد الجليل، فيا لها عقولاً أعميت عن الحق واليقين، واستعملت في الضلال الضيق المبين، فنعوذ بالله من الحيرة في الدين، واتباع مردة الشياطين، ونبرأ إلى الله من الجهل في التقليد، وتشبيه الواحد المجيد بالأجسام ذوات الحدود وصفات عجزة العبيد.

[باب معنى التوكل]

مسألة فإن قال: ما التوكل؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: حقيقة التوكل اليقين بالله الجليل، ولا يصح اليقين إلا بعد ثبات الدليل، فإذا عرف العبد خالقه وعرف عدله، ورضيَ عنه وسلم له، [فهو][1] المتوكل على الله المستوجب لثوابه، الناجي من سخطه وعقابه، فمن أراد أن يظفر بمعرفة الله وتوحيده، ويقر عينه بالله وتمجيده، فليمتحن قلبه بكلامنا، وليصبر نفسه على قولنا، ثم لا يكابر عقله، ولا يحكم على يقينه بجهله، ويحسن بالله ظنه في كل أفعاله، ولا يتهمه في شيء

(١) لفظة لم تتضح، وما أثبت بين المعكوفين من لدينا.

من أعماله، فإن الله عزّ وجلّ أحكم الحكماء، وأرحم الرحماء، وإذا كان كذلك فليس يفعل فعلاً إلا بعد اختياره، لعلمه بالمصالح واقتداره.

اللهم يا مولاي إني أحمدك على كلما فعلت، ولا أذم خيرتك فيما اخترت، ولا أقول ليتك لم تفعل فيما منعت، بل أسلم لك يا مولاي في كل ما قدرت، وءاتمر بكل ما أمرت، فلك الحمد إن أنعمت علي، ولك الحمد إن ابتليتني، ولك الحمد إن أحييتني، ولك الحمد إن أمتني، ولك الحمد إن أعطيتني، ولك الحمد إن منعتني، ولك الحمد إن شفيتني، ولك الحمد إن أمرضتني، أقر على نفسي بالعجز والجهل، وأشهد لك بالعلم والفضل، والحكمة والجود والعدل، فكيف أحكّم عجزي على قوتك، أو أحكم جهلي على علمك، فكل ما فعلت يا حكيم فأنت فيه مصيب، فاختر لي بعلمك في جميع الأمور، ولا تكلني إلى نفسي في شيء من التدبير، فإني يا عظيم لا أثق بنفسي؛ لعلمي بضعفي ومسكنتي وفقري إلى رحمتك وفاقتي، لا حول ولا قوة إلا بك، ولا أرجو الخير إلا بأسبابك.

اللهم إني أستجير من سؤال أحد من العبيد، وأنت أقرب إليّ من حبل الوريد، فارحم خادمك وعبدك الذليل القليل، يا واحد يا عظيم يا جليل أن لا تعذبنا بنار الجحيم.

[موانع خطاب الله للعباد بنفسه]

مسألة فإن قال: ما منع الله من خطاب العباد بنفسه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: إنما الخطاب هو الكلام المخلوق وقد أنزل الله كلاماً وبرهاناً وشفاء ورحمة لا يحتاج معه إلى غيره من الخطاب بفضل ما

جعل في القرآن من الأسباب [فأما] هؤلاء الأوباش الأنجاس فإنهم لا يستأهلون خطابه، ولا يسمعون حكمته وصوابه، ولو أسمعهم كلاماً كما أسمع نبيه موسى صلى الله عليه، لخلت أنهم لا ينسبون ذلك إليه، لما هم عليه من مكابرة العقول، وتكذيب الكتاب والرسول، ولو سمعوا كلاماً لنسبوه إلى الشياطين، لمكابرتهم للحق واليقين، ولو علم الله أن في ذلك مصلحة لفَعَلَه، وأوجده للعباد ونزله، ولكن علم أن صنعه في الأجسام أشفى، وأبين للعباد وأكفى.

مسألة فإن قال: فما الفرق بين إحسان الله وبين إحسان المؤمنين؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: إحسان المؤمنين للطمع بالثواب، وخوف النيران والعذاب، والمحن والعقاب، وذوي ما لا يحصى من الأسباب، وإحسان الله تفضل بالخلق على المخلوقين، وتكرم بالرزق على المرزوقين، لغير حاجة منه إلى خلقهم، ولا ضرورة [ألجأته] إلى رزقهم، فالحمد لله الذي أحسن إلينا وأسبغ نعمه علينا؟

[أفعال الجمادات وبطلانها]

مسألة فإن قال: فهل يصح للجمادات فعل من الأفعال ويجوز ذلك في الاعتقاد والمقال؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لا يصح الفعل من الجمادات إلا على مجاز الكلام فأما فعل الطبائع فمن ذي الجلال والإكرام أبان إنما استقامت أرواحها بطبائع الأطعمة والشراب، وذلك من حكمة رب الأرباب، ومصلح الأسباب؛

لأن الأغذية لا تعقل عجائب التدبير، ولا يتم إصلاح الأمور بالأمور وعجائب الحكمة والتصوير إلا بالله العليم الخبير.

ألا ترى إلى ما صنع الله من غذاء الأشجار، بما نزل في الأهوية من الأمطار، وأجرى من العيون والأنهار، وصلاح الحيوان والثمار، جعل في الأشجار مداخلاً للمياه، بمنزلة الحلوق والأفواه، فجعل لكل حبة من الثمار [مسقى وجعل] للماء طريقاً، وأجرى ذلك بلطفه في العروق، وجعلها بمنزلة الحلوق، وليس من طبع الماء أن يصعد علواً، ولا يسمو إلى أعالي الأشجار سمواً، وإنما طبع الماء على الثقل والانحدار، وعلى الثبات في الأرض والقرار، فلما رأيناه يصعد إلى سوامق الأغصان، علمنا أن ذلك من الواحد الرحمن.

وكذلك فعل سيدنا عيسى عليه السلام فليس منه وإن نسب إليه، وإنما فعله الحركات والسكون والضمير، والتقليب للطين والتقدير، وعلى ذلك فلا يوجب الحياة بعد الممات، ولا يوجد الأرواح في الجمادات، وكذلك سكونه وحركاته، فلا [يردان] إلى الميت حياته، ولا يكون رد الحياة والروح أبداً من فعل الطاهر المسيح.

فإن عارض بعض الملحدين أن يوجد النطف من غير الأصلاب والأرحام، ليكون ذلك أبين للأنام، وأنفى للشبهة والأوهام، ويوجد الزرع في الأرض يبساً، ويحيي الموتى على غير يد عيسى.

قيل له ولا قوة إلا بالله: لأن الله سبحانه إذا [أراد] يبين حكمته وإظهار إحسانه ونعمته، فجعل كل معنى من خلقه لمعنى، ما صنع ربنا ولا يجعل

الشيء للمصالح إلا عالم بإصلاحها، لما أراد من بيان الحكمة وإيضاحها، ولو أحيا الموتى على غير يد نبيه، وحبيبه المصطفى ووليه، لما ثبتت لهم رسالته، ولما قامت عليهم حجته، وإنما أظهر الله ذلك على يديه، ليركن جميع العباد إليه، ويعتمد أولو الألباب في دينهم عليه.

مسألة فإن قال: فلم تعبد الله الخلق بالصلوات وكلفهم ذلك في جميع الأوقات؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: وإنما تعبدهم الحكيم بالخشوع، وأمرهم بالتذلل والخضوع، ليشغلهم به عن الفواحش والمنكرات، وينهاهم الخوف عن الظلامات، وكل ما شغل عن الظلم والفساد، ففيه مصلحة لجميع العباد، وكذلك القول في الحج والصيام، وغيرهما من شرائع الإسلام.

[تم الكتاب بحمد الله ومنه فلله الحمد كثيراً بكرة وأصيلاً]



القسم الثاني

ويشتمل على الكتب التالية:

١- كتاب الأفعال.
٢- كتاب بيان الحكمة.
٣- كتاب مهج الحكمة.
٤- كتاب الأسرار.
٥- كتاب الرحمة.
٦- كتاب التوفيق والتسديد والآداب.
٧- كتاب السبيلين (العقل والنفس)
٨- كتاب الرد على أهل التقليد والنفاق.
٩- كتاب الرؤيا.
١٠- كتاب الرد على من أنكر الوحي بعد خاتم النبيين.
١١- كتاب تثبيت إمامة الإمام القاسم بن علي رضي الله عنه.
١٢- كتاب مختصر من التوحيد.
١٣- كتاب في مسألة الإرادة.
١٤- كتاب الأدلة.
١٥- كتاب الولاء والبراءة.
١٦- كتاب تفسير الصلاة.



كتاب الأفعال

١- أقسام فعل الله تعالى.

٢- بطلان تأثيرات الطبائع.

٣- اختلاف الناس في الطبائع



بسم الله الرحمن الرحيم

وبه (نستعين)[1]

والحمد[2] لله رب العالمين، وصلواته على خير خلقه أجمعين[3] محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطاهرين، الأخيار الأبرار الصادقين، نسأل[4] الله التوفيق لما قصدنا من الإحسان، ونعوذ بالله[5] من الضلالة والجهل والخذلان.

وأشهد أنه لا إله إلا الله الحق اليقين، الواحد الأحد الصمد المبين.

[وأشهد][6] أن محمداً عبده ورسوله، وصفوته من خلقه[7] وخليله، بعثه بالحق هادياً إلى الرشاد، وداعياً إلى رحمة الله جميع[8] العباد، وزاجراً عن الجهل والضلال والغي والفساد، فاجتهد صلوات الله عليه غاية الاجتهاد، وأنذر جميع من حوته أقطار البلاد، حتى أتاه ما وعده[9] الله من اليقين، بعد أن أوضح به سبل حقائق الدين، فصلوات الله عليه وعلى ذريته الصادقين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) زيادة من (ج).

(٢) في (ج): الحمد لله.

(٣) في (ج): وصلى الله على محمد.

(٤) في (ج): ونسأل.

(٥) في (ج): ونعوذ به.

(٦) زيادة من (ج).

(٧) في (ج): وصفوته ووليه.

(٨) في (ج): لجميع.

(٩) في (ج): ما وعد.

فلما قبضه الله إليه واختار له من الثواب ما لديه، علم أن سيكون من عباده من يحتاج إلى الهدى، (فكشف عنهم الضلالة والردى)[1]، بذوي الدين والفضل والحجا، ذرية الرسول أئمة الهدى، وأعلام الدين ومصابيح الدجا، فكشف عنهم بهم[2] أغطية الضلال وقمع بهم من عاند الحق من الجهال، وأهل الحيرة الكفرة الضلال، فمن طلب الحق عند غيرهم فقد جهل، ومن عاندهم فقد ضل وخذل، لأن الله لو علم أن العباد يكتفون بعقولهم لما فرض سؤال آل نبيه عليهم السلام فمن رام أن يكتفي منهم[3] بعقله فقد وقع في ضلاله[4] وجهله؛ لأنه كلف نفسه ما لا يطيق، ومن فعل ذلك منع التوفيق، ومن لم يوفقه الله وقع في العمى لفراقه للصفوة الحكماء، ولم يزدد بذلك من الحق إلا بعداً لما تكلف ونصب نفسه له من الهدى وقد أمر أن يقصد غيره قصداً، لأن الله قد جعلهم معتمداً، ولم يأمر بقصد غيرهم أحداً، فالحمد لله الذي جعلنا من ذريتهم، وبحبوحة نسبهم وذروتهم.

وبعد: فلما رأينا خبط جميع الناس في الجهل والضلال، وترددهم بين هؤلاء الجهال، واختلافهم في موجدات جميع الأفعال، حدانا ذلك على تبيان جميع الأحوال، ليعمل بذلك من أراد التعلق بذي الجلال، ولا يلتفت إلى غيره من ترهات المقال، وما زخرفه الأوباش من المحال.

---

(١) في (ج): وكشف الضلالة عنهم والردى.

(٢) ساقط في (ج)..

(٣) في (ج): عنهم.

(٤) في (ج): ضلالته.

[أقسام فعل الله تعالى وبطلان تأثيرات الطبائع]

فأول ما نبدأ بذكره من الأفعال: فعل الله الواحد الأحد الكبير المتعال؛ فألطفوا النظر فيما يلقى إليكم من المقال؛ فنقول: إن فعل الله يخرج على وجهين، **وينقسم في المعقول على قسمين**:

أحدهما: فعل فعله بالاختراع يستخرج بالألباب، مثل فعله لأول ما صنع، وفطر من الأهوية وابتدع، وكذلك خلقه للسماوات والأرضين، فذلك ابتداع من أحكم الحاكمين.

والوجه الآخر: فعله بالعلل بالمعلولات، مثل إثباته للأرض بالجبال الراسيات، ومثل إحراقه للزبد بالنيران، ومثل ضربه للماء بالرياح، ومثل خلقه للحيوانات بعواقب النكاح، ومثل حياته التي أثبتها في الأجسام، وأقرها بطبائع الماء والطعام، ومثل خلقه للأشجار بما نزل برحمته من الأمطار، وحياة جميع الحيوان والثمار، وهو يقدر مع ذلك أن يخلق جميع الأشياء كخلقه للهواء والنار والماء، ولكنه أراد أن يدل ذوي الألباب على حكمته بإصلاح الأنساب بالأسباب؛ لأنه لا يفعل المعنى بالمعنى إلا عالم بما صنع وبنى.

فنقول: إن الله عز وجل دبر جميع مصالح العباد بالطبائع الأربع المركبة في جميع الأجساد، لما أراد من المصالح ونفي الفساد، وهي: الحر، والبرد، واليبس، والرطوبة؛ وخالف بينها وجعلها من الأضداد، لما أراد من البيان للعباد، وقد ذكرنا ذلك في كتاب (الطبائع) لمن رغب في الحق والرشاد.

فأما غرضنا في هذا الكتاب فهو بيان جميع الأفعال، ونفي ما خالف الحق

من المقال، وخبط هؤلاء الظلمة الجهال، بما لا تنكره أبداً عقول المكلفين، ولا يقدر على دفعه أحد من الخلق أجمعين.

وأفعال الله عز وجل بالطبائع هي كما ذكرنا من حياة الأشجار بالماء، فأما التصوير فمن رب العالمين، ولا يكون ذلك أبداً من غير أحكم الحاكمين.

ووجه آخر: أن صعود الماء إلى الثمار، وعلوه مصعداً في أعالي الأشجار، لا يكون إلا من الواحد القهار، لأن الماء طُبِعَ على الانحدار، ولم يطبع على الصعود والعلو في الأغصان، لأن ذلك لا يوجد إلا بالله الواحد الرحمن، وكذلك النطف التي في الأرحام، فتصويرها من ذي الجلال والإكرام.

وأما الغذاء بحرارة الأرحام، فهو طبيعة تفضل الله بها على الأنام، كما تفضل عليهم بالماء والطعام، فمن زعم أن الرحم التي صورت وأن المياه والأرضين التي قَدَّرَت وصنعت الصورة ودَبَّرَتْ، فقد كفر صاغراً وأشرك، وهلك بجهله وأهلك؛ لأن فعل الماء هو الغذاء وفعل الله التصوير، وبينهما فرق عند أهل التدبير، لأن الماء يغذو بطبيعة البرد واللين، والصورة في نفسها ليس لها طبيعة غير حكمة الله الحق اليقين، لأن كل شيء في الصور يدل على الحكمة والعلم الحق المبين.

ولله عز وجل فعلان: فعل الإرادة والقصد في الأحيان، وفعل طبائع كامنة في الجمادات والأبدان، كمنها قبل هذا الزمان، وفي هذه الأزمان.

وأما الإرادة والقصد منه تبارك وتعالى فمثل خلقه للذكر والأنثى.

وأما الفعل الكامن فمثل طبائع الحجارة والنيران، ومثل المياه والحديد وغير ذلك من صنع الرحمن.

[اختلاف الناس في الطبائع]

واختلف الناس في هذه الطبائع:

فقال بعضهم: هي تفعل بغير صانع صنعها، ولا فاطر فطرها وابتدعها، وهم الملحدون، الكفرة الأنجاس الجاحدون، وقد رددنا عليهم في كتاب (الطبائع) وغيره ما يكتفى به عن إعادته وتكريره.

وقال آخرون من المسلمين وأولياء الله المتقين: إن الله عز وجل كمّن في هذه الطبائع خيراً وشراً، وجعل فيها نفعاً وضراً؛ فمن تناول منها شيئاً نفع به وضر، وصرفه أينما شاء من الخير والشر، مثلما كمّن الله برحمته من طبائع أدوية الأمراض، ومما يعرض لعباده من الأعراض، فبالمشاهدة يعلم أنه ينفع ويحرك تارة، ويقطع ويكف هيجان المرة، ويقمع ويلين الطبيعة، ومنه ما يحمد، ومنه أيضاً ما يبرد، ومنه ما يحرق، ومنه ما يروح البدن، ومنه ما يعرق، وبالمشاهدة أيضاً أن من الطبائع ما يقتل ويمرض مثل ما يستعمله أعداء الله من السموم، وما قد نهى عنه الواحد الحي القيوم.

مسألة: فإن سأل سائل مسترشد، أو قال قائل متعنت ملحد: ما تقولون في المؤمنين وأصحاب الأخدود المتقين، الذين أحرقهم أعداء الله بالنيران؟ وما قولكم في الأئمة الطاهرين الذين قتلهم أعداء الله الكافرون، وأهلكوهم بطبائع السموم، أتقولون ذلك من الحي القيوم؟ أم هو من فعل الكفرة الظالمين، الخونة الأشرار المجرمين؟

فالجواب في ذلك وبالله نستعين: أن إهلاك أصحاب الأخدود كان بظلم أهل الكفر والعنود، ولم يكن ذلك من الله الواحد المجيد، فأما النار التي أحرقتهم فلم يحرقهم الله بها، وإنما أحرقهم الذين ألقوهم فيها، وإنما يعذبهم الله على حركتهم، وطرح أولياء الله في النار وإسقاطهم، وجرأتهم على الله في هلاكهم؛ فأما الإحراق في نفسه فهو من طبيعة النار التي كمّنها الله وجعلها في الأشجار، فتناولها أعداء الله للأبرار، وذلك الحر فعل فعله الله وجعله، وصنعه للمنافع ونزله، فصرفه أعداء الله في غير طاعته، وقلبوه في سخطه ومعصيته.

وهو لا يخلو من أحد أوجه لابد منها، ولا منصرف أبداً في المعقول عنها:

[١] إما أن يكون الله هو الذي أحرق أولياءه في النار.

[٢] وإما أن تكون طبيعة الحرارة من فعل الفجار الظلمة الخونة الأشرار.

[٣] وإما أن يكون ذلك من فعل النار.

[٤] وإما أن يكون لا من فعل الله ولا من فعل الكافرين، ولا فعل الطبيعة الكامنة، ولا من فعل المقتولين.

فإن قلت: إن الله هو الذي قتل المؤمنين؛ فهذا ما لا يجوز على رب العالمين، ولا ينسبه إليه أحد من المسلمين.

وإن قلت: إن ذلك الإحراق من فعل الكافرين، فهذا ما لا يقوله أحد يعقل من الناس أجمعين لأن الكافرين لا يقدرون على فعل الإحراق، لأن الحرارة بطبيعة من فعل الواحد الخلاق، وإنما فعل أعداء الله الحركة والسكون والضمير، والطرح لأولياء الله في النار والسعير.

وإن قلت: إن ذلك الإحراق من فعل المقتولين، فهذا أشبه شيء بقول المجانين، فلابد من الرجوع إلى ما قلنا من فعل الطبيعة الكامنة في الأجسام التي كمّنها الله لمنافع الأنام.

فإن قال: كيف تفعل الطبيعة وهي لا تعقل ولا تغني ولا تقصد شيئاً من الأمور ولا تهتدي.

فالجواب في ذلك وبالله التوفيق والتسديد، ومنه العون والنصر والتأييد، والقوة والهداية إلى ما نقصد ونريد: أنها تفعل بإذن الله فعل طباع الكمون، ولا تفعل فعل أهل العقول والتدبير، لأن ذوي العقول والتدبير يفعلون بالاختيار، وفعل الطبيعة بالتركيب، وإنما أنكرنا على ذوي الإلحاد أنهم أضافوا الحكمة إلى الجماد فقلنا ذلك يستيحيل، ولا تقبله عن قائله العقول، لأن الجمادات لا تفعل أعاجيب التدبير، ولا يكون ذلك إلا من العليم القدير؛ لأنا وجدنا الحكمة التي في الجوارح، وتركيب أدوات جميع المصالح تدل على علم الصانع.

(..........)[1].

الألباب مثل خلقه عز وجل للذكر والأنثى وجعله لأجسامهما صنعاً محدثاً، ومثل خلقه وفرقه بين الرؤوس والأقدام، ومثل فرقه بين مخارج الماء والطعام، ومداخلهما ومجاريهما ومسيرهما في الأجسام، ومثل فرقه بين العقول والأوهام، ومثل تقديمه للمراضع في صدور الإناث، لعلمه بحاجة

---

(١) لعل هنالك سقط في النسخة المصفوف عليها وفراغ في النسخة (ج) بقدر ربع سطر.

الأطفال قبل الإحداث، ومثل هداية أطفال البهائم إلى الرضاع لعلمه بفاقتها إلى الإلهام، ومثله صنع ذي الجلال والإكرام، لأن الطبائع لا تفعل أعاجيب التدبير، ولا يتم ذلك إلا بالله العليم الخبير، الواحد الأحد السميع البصير، الفرد الصمد العليم القدير، مصلح الأمور بالأمور، والعالم بعجائب التقدير، والمحسن إلى العباد بالتصوير، وما لا يحصى من عجائب التدبير، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وسلم تسليماً.

كتاب
بيـــان الحكمـــة

١- علم اختلاف السنة مع القرآن.

٢- أسباب الكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

٣- مصادر الدين



كتاب بيان الحكمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا إلى الرشاد، وخصنا بأجزل مواهب العباد، وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله عليه وعلى آله وسلم.

وبعد:

أصلحكم الله بتأييده، ووفقكم بعونه وتسديده، فإن من دخل في سبب ولم يكن عرف أصله لم يعرف حقيقته ولم يعرف فضله، ومن عرف أصول دين الله لم يجهل فروعه، وحينئذٍ عرف حقيقته وجميعه فعلم الفروع بعد معرفة الأصول لتشابه محاسنها في محكم المعقول، واتفاقها بمشيئة الواحد الجليل، وما كان بعضه ينقض بعضاً، وكان الأصل ينقض فروع ذلك نقضاً، علم ذوو الألباب والتدبير أن التناقض ليس من الواحد العليم القدير، وكان ذلك لا يصح ممن رواه عن الرسول إذ هو غير مشابه لمحكم التنزيل، ولكن يحمل ذلك وما أشبهه على وجهين:

أحدهما: الغلط الذي لا يخلو منه الآدميون.

والوجه الآخر: ما أحدثه من البدع الكاذبون[1]؛ لأن الله سبحانه بنى الحكمة

---

(١) وقد صوّر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حالات الرواه فقال: (إنَّ في أيدي الناس حقاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً، وناسخاً ومنسوخاً، وعاماً وخاصاً، ومحكماً ومتشابهاً، وحفظاً ووهماً ولقد كذب على رسول الله ﷺ على عهده حتى قام خطيباً فقال: (من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار). وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس:

١ـ (المنافقون): رجل منافق، مظهر للإيمان،متصنع بالإسلام، لا يتأثم، ولا يتحرج، يكذب على رسول الله ﷺ متعمداً، فلو علم الناس أنه منافق كاذب لم يقبلوا منه، ولم يصدّقوا قوله، ولكنهم قالوا : صاحب رسول الله ﷺ رآه وسمع منه ولقف عنه، فيأخذون بقوله، وقد أخبرك الله عن المنافقين بما أخبرك ووصفهم بما وصفهم به لك . ثم بقوا بعده فتقربوا إلى أئمة الضلال والدعاة إلى النار بالزور والبهتان، فولوهم الأعمال، وجعلوهم حكاماً على رقاب الناس فأكلوا بهم الدنيا، وإنما الناس مع الملوك إلا من عصم الله فهذا أحد الأربعة.

٢ـ (الخاطئون) : ورجل سمع من رسول الله ﷺ شيئاً لم يحفظه على وجهه، فَوَهِم فيه، ولم يتعمد كذباً، فهو في يديه، ويرويه ويعمل به، ويقول : أنا سمعته من رسول الله ﷺ فلو علم المسلمون أنه وهم فيه لم يقبلوه منه، ولو علم هو أنه كذلك لرفضه.

٣ـ (أهل الشبهة) : ورجل ثالث سمع من رسول الله ﷺ شيئاً يأمر به ثم إنه نهى عنه وهو لا يعلم، فحفظ المنسوخ ولم يحفظ الناسخ، فلو علم إنه منسوخ لرفضه، ولو علم المسلمون إذ سمعوه منه إنه منسوخ لرفضوه .

٤ـ (الحافظون الصادقون) : وآخر رابع لم يكذب على الله ولا على رسوله، مبغض للكذب خوفاً من الله، وتعظيماً لرسول الله ﷺ، ولم يَهِم، بل حفظ ما سمع على وجهه فجاء به على ما سمعه لم يزد فيه ولم ينقص منه فهوحفظ الناسخ فعمل به وحفظ المنسوخ فجنّب عنه، وعرف الخاص والعام والمحكم والمتشابه فوضع كل شئ موضعه.

(كلام ذو وجهين):

وقد كان يكون من رسول الله ﷺ الكلام له وجهان: فكلام خاص، وكلام عام، فيسمعه من لايعرف ماعنى الله سبحانه به، ولا ما عنى رسول الله ﷺ، فيحمله السامع ويوجهه على غير معرفة بمعناه وما قصد به وما خرج من أجله، وليس كل أصحاب رسول الله ﷺ من كان يسأله ويستفهمه حتى إن كانوا ليحبون أن يجئ الأعرابي والطارئ فيسأله عليه السلام حتى يسمعوا، وكان لا يمر بي من ذلك شئ إلا سألته عنه وحفظته فهذه وجوه ما عليه الناس في إختلافهم وعللهم في رواياتهم) (نهج البلاغة: ٣٢٥-٣٢٨).

على العدل والإحسان ونفى الفضائح والقبائح والجور والعدوان، واحمال الشنع وترك الأفحاش، وَمَقَتَ سبحانه كل عيب يعاب عند الأخيار والأوباش، لأنه فطر جميع العقول على تحسين الحسن من الأفعال، وتقبيح القبيح من الفعل والمقال، فحكمة الله سبحانه بريئة من غلو الغالين مطهرة من شنع الجهلة الضالين الذين لم يعرفوا حقيقة أول الأصول، ولم يفهموا ذلك عن الله الواحد الجليل، ولم يقتدوا بمن جعله الله من أهل العقول، فكل سبب رأيتموه من الدين يخالف ما ذكرنا ويجانب من الصواب مابه قلنا، فالله بريءٌ من ذلك ورسوله وحكمة الله بعيدة من ذلك وتنزيله، ولكن ينسب ذلك إلى غلو الغالين وتقليد من يقتدي بهم من التالين؛ لأن حكمة الله رحمة وبرٌ وإحسان ومصلحة وآداب وأمان وإيمان وضد ذلك خطأ وجور وعدوان، وقبائح وشنع وفضائح وبهتان، فهذا فرق بين الخطأ والصواب لا يعمى عنه أحد من ذوي الألباب.

[مصادر الدين]

وإنما دين الله مبني على وجهين:

أحدهما: معقول.

والوجه الآخر: مسموع أتى به الرسول.

والمعقول هو الأصل الذي صح من أجله المسموع وثبت بعد تأصيله عليه الفروع، فكلما خالفه من الروايات وجانبه من جميع الأحاديث المسموعات، فلا يعمل به في دين الله ولا يتكل عليه، ولا يركن أبداً عاقل إليه؛

لأن حجج العقول مبنية على قبول الصواب، فما خالف ذلك فليس من رب الأرباب.

وكيف يأمر الحكيم بنقض صوابه، وخلاف معقول دينه وكتابه، وجميع العقول مفتقرة إلى عقول الأئمة عليهم السلام، ولولا ذلك لما احتاج أحد إلى إمام ولسقط فرض الإمامة عن جميع الأنام، ولو سقط ذلك عنهم لما فرضه الله سبحانه عليهم.

وقد وضعنا بحمد الله من المعقول ما فيه كفاية وهداية لذوي العقول فمن لم ينتفع بذلك لم ينتفع بغيره، لما وضعنا من الهدى في قليله وكثيره.

وأما المسموع فهو أمر الله ونهيه وحلاله وحرامه، وذلك موجود في الكتاب لا يخالف ما ذكرنا من حجج الألباب؛ لأنه لم يأمر إلا بالعدل والإحسان، ولم ينه إلا عن الجور والعدوان، ولم يحل لعباده إلا الطيبات، ولم يحرم عليهم إلا كل خبيث من المكروهات، ولم يأمرهم سبحانه في كتابه ولا على لسان نبيه بفضيحة من الفضائح، بل نهاهم عن جميع المنكر والقبائح، وفي نهيه عن المنكر لمن عقل وتدبر ستر جميع العورات، وإحمال كل فضيحة من المنكرات، ولو كلفهم شيئاً من ذلك لكلفهم أعسر العسير، ولبرئ من الرحمة والحكمة والتدبير، ولكان ذلك من أعظم القبيح والتدمير، وحاشا الله سبحانه من ذلك وتعالى سيدنا ومولانا من أن يكون كذلك، بل أمر سبحانه بأيسر اليسير ودبر لعباده أحسن التدبير، وندبهم إلى مكارم الأخلاق وأرفق عليهم بأعظم الإرفاق، وأراهم آياته في أنفسهم وفي الآفاق، وسددهم بأمره ورأيه إلى طريق الصواب، وأخرجهم باليقين من الشك والارتياب، وأدبهم سبحانه بأحسن

الآداب، وجاد عليهم بحجج الألباب، فاسمعوا رحمكم الله لما يقول وما إليه قولنا من الصواب يؤول، فقد ذكرنا لمن عقل في هذا الكتاب، ما شاهدنا مع أهل التنسك من سوء الآداب، وطرح المروة والحياء والعقل والاحتساب، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله سائلكم عن أحسابكم كما يسألكم عن أديانكم» وهذا قول صحيح معقول ومصدق عن نبينا صلوات الله عليه وعلى آله مقبول وحقيقة ما ذكر النبي صلوات الله عليه وعلى آله وسلم من الحسب هو ما أمر الله به من الإحسان والأدب والنزاهة من جميع الفضائح والكذب والدناءة، والركاكة والبخل وكل شناعة، أو عورة تعاب عند العرب، بكل ما ذكرنا من هذه العيوب فهو سخط مسخوط عند علام الغيوب، لا ينكر ذلك أبداً عاقل ولا يخالف ما ذكرنا منه إلا كهام جاهل.

وصلى الله على مولانا وسيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين وسلم تسليماً.



كتاب
مهج الحكمة والفوائد

١- الحكمة في ألم الأطفال.

٢- الحكمة في الابتلاء بالأمراض.

٣- الحكمة في خلق الكافرين.

٤- الحكمة في ثبات السماء على الهواء.

٥- الحكمة في خلق البهائم بلا عقول.

٦- الفناء وأنواعه.

٧- الأضداد.

٨- أفعال العباد.

٩- علامات الحكيم.



كتاب مهج الحكمة والفوائد

بسم الله الرحمن الرحيم

سألت يا أخي وفقك الله لثوابه، ونجانا وإياك من عذابه، وأعاذنا من سخطه وعقابه، **فقلت**: ما عدل الله تبارك وتعالى في ألم الأطفال.

والجواب في ذلك: أنه جعل الهم إن كانوا يفهمونه ويميزون ما ينالهم ويعقلونه أدباً لهم، وتزهيداً في الدنيا مع ما ينالهم من الثواب الذي لا يبلى.

[الحكمة في ألم الأطفال]

وقد سألني أخي رزين بن أحمد أحسن الله توفيقه وهدايته ومزيده عن ألم الأطفال فقال: ما عدل الله سبحانه في ألمهم وأسقامهم في حال صغرهم.

فقلت: ألمهم ذخيرة ادخرها لهم في وقت حشرهم وفاقتهم إلى الثواب وفقرهم.

فقال: أرأيت إن كبروا وخرجوا فساقاً وماتوا على فسقهم ومعاندتهم لله وكفرهم؟

فقلت: له أجل يكون إبطالاً لثوابهم باختيارهم، وقلة إحسانهم وصبرهم وعداوتهم لله وعنادهم، وإهلاك أنفسهم وفسادهم.

وأنا أضرب لك إن شاء الله في ذلك مثلاً، ولله سبحانه المثل الأعلى، ما تقول لو أن طبيباً عمل دواءً ليسقي به من الألم، وتعقب طول السلامة من السقم، فأفسد العليل دواه وأبطله، أو تركه عبثاً وعطله، أليس يكون أولى بالذم لاختياره لهلكته، ويكون الطبيب أولى بالمدح لنصيحته وإحسانه بالأدوية، وفضله وقصده للجميل، وعدله، فلم يوت أعداء الله من قبل خالقهم، وإنما أتوا من سوء تدبيرهم.

فإن سائل سأل أو قال قائل: فما منع الله أن يقبض المشركين أطفالاً قبل كبرهم حتى لا يدخلوا النار بفعالهم؟

فالجواب في ذلك: أن قبضتهم ليس بواجب على الحكيم، وأن الحكمة في كبرهم وعقولهم وتمام خلقهم وكمالهم أجل من قبضتهم في حال صغرهم وأعظم في المنة من موتهم؛ لأن الله أراهم عجائب الدنيا وأدبهم بانواع الآداب، وجاد عليهم بحجج الألباب، والكمال أفضل من النقصان، وأعظم في المنة والبيان والدلالة على الواحد الرحمن، وأقرب إلى اللطف والإحسان، فهذه حكمة من فعل الله في كبرهم لم يدخلهم بها في كفرهم، فيجب له المدح على ما أنعم عليهم ويجب عليهم الذم من أنفسهم، وليس يجب على الحكيم أن يعنف على إظهار حكمته وإسباغ أرزاقه ونعمته؛ لأن إيجاده لهم بعد عدمهم نعمة منه، وتفضل عليهم، وكذلك إنماؤه لهم بعد صغرهم، وتكثيره لهم بعد قلتهم، وتعليمه لهم بعد جهلهم، فهذا من نعمة الله عليهم وفضله وإحسانه إليهم، والهلاك من قبل أنفسهم لا من قبل ربهم.

ودليل آخر: أن الله عز وجل: لو قبضهم في حال صغرهم لم يمنعهم قبضه لهم من الكفر من الصغر في حال حشرهم عند بعثهم في الآخرة ونشرهم.

فإن قال: ما منع الله أن يخيرهم ويهملهم في الجنة ويسترهم؟

فالجواب في ذلك: أنه لو خيرهم لكانت الطاعة فعله لا فعلهم، ولو ستر الجميع من المحنة وتركهم لساوى بين محقهم ومبطلهم، ولما فرق بين مسيئهم ومحسنهم، ومن كان لا يفرق بين وليه وعدوه ومحبه ومبغضه فليس يستحق الحكمة عند الحكماء، ولا ينسب إليه العلم أحد من العلماء؛ لأن هذا جهل عظيم لا يفعله أبداً حكيم، تعالى عن ذلك الحي القيوم، الواحد الرحمن الرحيم.

ودليل آخر: إما أن يكون السائل عتب على الله في خلقهم ورزقهم، وإما أن يكون عتب عليه في كفرهم، فإن كان عتب على الله في خلقهم فليس يجب عليه عتب في إيجادهم بعد عدمهم، وحياتهم بعد موتهم، وتعليمهم بعد جهلهم، وغناهم بعد فقرهم، فإن كان عتب عليه في كفرهم فكيف ويله يعتب على الله في فعلهم وهلاكهم لأنفسهم.

[مصير الطفل الذي يموت بعد بلوغه بساعة أو ساعتين]

وسألت يا أخي أكرمك الله بكرامة الأبرار ونجانا وإياك من عذاب النار، عن طفل مات بعد بلوغه بليلة أو ليلتين أو ساعة أو ساعتين، أين مصيره إن كان مقصراً في بعض ما أوجب الله عليه وندبه من الطاعة إليه؟

واعلم يا أخي أن هذا المقصر في طاعة الله مولاه الراكن إلى غرور دنياه، لا يخلو أن يكون عاقلاً أو يكون مستلب الذهن غافلاً، فإن كان مجنوناً

مستلب العقل معموراً بطباع الغفلة والجهل فسبيله سبيل البهائم، والأطفال في رحمة الله الواحد المفضال، ذي اللطف والجود والجلال، وإن كان هذا الذي عنه سألت ومعصيته وتفريطه ذكرت من أهل الدهاء والفطنة والعقول، ثم أعرض عن طاعة الله الواحد الجليل، ومات بعد بلوغه بساعة فهو من أهل النار الظلمة الكفرة الأشرار، الأنجاس الأرجاس العثار، الذين لعنهم الله وأخزاهم وأصمهم بكفرهم فأعماهم.

[الابتلاء بالأمراض]

ألا ترى أن الله سبحانه أدب عباده في ذات أنفسهم بالأمراض وخوفهم بالمصائب والأعراض، وأراهم في غيرهم ما فيه عبرة لمن اعتبر، وتذكرة لمن تذكر، وزجر بذلك من أراد أن يزدجر من الموت والأسقام والمصائب، والآلام، فكم من هول مهيل أراهم لو عقلوا وانتبهوا من وسنتهم، ولم يغفلوا، وكم شاهدوا في حال صغرهم وقبل بلوغهم وكبرهم من سقم وجيع وغم فظيع، وأجل مقطوع، وموت سريع، وقتل صريع، وكم رأوا من والد أثكلته الدنيا ولده، ويتيم نزعت عنه والده، ففي أقل من هذا كفاية لمن اكتفى، وشفاء لمن اشتفى، فمن لم يكتف بذلك فلا كفى، ومن لم يشتف بمواعظ الله فلا شفى، وليس من حكيم هدى الله قلبه وأثبت بنور الهدى لبه يبلغ أقل من العشر السنين إلا وقد حكمه الزمان، وملأت قلبه الأحزان، وزهد في حطام الدنيا ولذاتها، ومقت الركون إلى حلاوتها، لما شاهد من نكباتها وفجائعها، وتجرد من مكرها وخدائعها، ولا يركن أبداً إلى الدنيا إلا ضال بليد أو شيطان مريد، ولا يميل إليها رشيد، ولا يغتر بها إلا مغرور، إذ ليس لعاقل فيها سرور.

وسنعود إن شاء الله إلى الرد على من جهل حكمة الله الواحد الأحد الرحمن، ولم يوقن بإحسانه حقيقة الإيقان، وذلك أن أكثر هذه الأمة لجهلهم لا يعرفون الحكمة لإهمالهم وبعدهم من الله وضلالهم، وقلة نظرهم واستعمالهم، ومكابرتهم لعقولهم، واتباعهم لأهوائهم.

[أوجه الحكمة]

فإن سأل منهم سائل أو قال مسترشد قائل: ما الحكمة في ذاتها وما حقيقة صفاتها؟

فالجواب ولا قوة إلا بالله الرحمن الرحيم، فيما سأل عنه من حكمة الحكيم: أن أول الحكمة: العلم السابق الذي بأحكامه صحت الحقائق، وهو علم الله الذي أحاط بالأشياء وعَلِمَهَا ثم دبرها كما شاء ثم أحكمها، **فالحكمة الأولة** علم الحكيم.

والحكمة الثانية: هي صنع القديم، وما أحكم من السماوات والأرضين ودبر من جميع المخلوقين، فجاء تدبيره محكماً وتقديره متقناً مبرماً.

والوجه الثالث: العلم والعمل معاً ولا يُسمَّى الحكيم حكيماً حتى يجتمعا فيكون حكيماً إذا علم وأحكم وأحسن في جميع تدبيره وأبرم.

ومعنى قولنا: إنه حكيم نريد أنه محسن عليم، فمن كان عالماً غير محسن لم يسم حكيماً، وإن كان بالمعلومات عليماً؛ لأنه عالم لا ينتفع بعلمه ولا يحسن إلى العباد مع فهمه، ومن لم يكن من المحسنين فهو بغير شك من المسيئين، ومن كان من المسيئين الضالين فليس ـ ولا كرامة ـ من المصيبين، ومن لم يكن من المصيبين فهو لا محالة من الخاطئين، ومن جمع الخطأ والضلالة والإساءة والبطالة فهذه خصال أعظم وأشنع من الجهالة، وقد نسبوا هذه الخصال إلى الله بجهلهم وتقليد آخرهم لأولهم حتى صار الله عندهم على غاية الجهل،

وأضافوا لعنهم الله إلى خالقهم أقبح الفعل، فأخرجوه بعمى قلوبهم من الفضل وبعدوه بكفرهم من الحق والعدل، ثم لم يرضوا بذلك حتى جعلوا الجور عدلاً وصيروا العلم جهلاً، فزادهم الله عماً على عماهم، وأبعدهم من رحمته وأرداهم، فلقد صاروا في مكابرتهم إلى ما تنكره عقول الأطفال، وتنفر منه أنفس الجهال، ونحن سائلوا من نسب الجور إلى الرحمن، وقذفه بالزور والبهتان عن مسألة واحدة، نُبين لأهل العقول فيها خللهم، ونظهر لجميع الناس بجوابهم جهلهم.

[الحكمة من خلق الكافرين]

فنقول إن شاء الله: ما تقولون في خلق الله للكافرين، أخلقهم لينتفع بهم؟ أم خلقهم لينتفعوا بخلق الله لهم؟ أم خلقهم للعبث في إيجادهم؟

فإن قالوا: إنه أوجدهم لينفعوه فقد كفروا به وجحدوه.

وإن قالوا أنه أوجدهم عبثاً وتمرداً وخبثاً فقد خرجوا من الإسلام إلى الشرك والجهل والآثام.

وإن قالوا: لا ندري لم خلقهم فقد أقروا على أنفسهم بالجهل وصاروا إلى أقبح القول والفعل، وإن رجعوا إلى الحق صاغرين وقبلوا قول أحكم الحاكمين: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[الذاريات:٥٧،٥٦].

ومما يدل على أن فعل الكافرين منهم، وأن الله على كفرهم عذبهم، أن يقال لهؤلاء الملحدين الجهلة الأوباش الجاحدين: أخبرونا أعذب الله الكافرين على

أنه ألزمهم العصيان بجبره؟ أم عذبهم على نفسه؟ أم عذبهم على خلقه لهم ورزقه؟

فإن قالوا: إنه عذبهم على خلقه لهم فقد بان كذبهم على أنفسهم دون غيرهم.

وإن قالوا: إنه عذبهم على أن ألزمهم الكفر وجبرهم عليه، وساقهم سوقاً حتى ألجأهم إليه فقد جعلوا الذنب منه لا منهم، وأزاحوا الذم واللوم عنهم.

وإن قالوا: إنه عذبهم على علمه فقد جعلوه يعذب على نفسه لأن علمه ذاته، والله لا يسمى كفراً فيعذب عليه من فعله، أو يُثاب من صنعه وعمله، وإن رجعوا إلى الحق فقالوا: بل يعذبهم بذنوبهم ويعاقبهم على فعلهم وكسبهم فقد خرجوا من كفرهم وضلالهم وتجاهلهم وخيالهم، فانظروا رحمكم الله إلى خلاف هؤلاء ـ الفاسقين الظلمة المنافقين ـ لآل رسول رب العالمين أين أوقعهم وفي أي مصرع من الجهل صرعهم، ينظروا إلى أقبح المصائب في الدين وأبعده من الحق اليقين، وذلك لخلافهم لأدلتهم ومشاقتهم لله وعداوتهم.

[لماذا لم يصرف الله أعداءه عن أوليائه]

فإن قال قائل: أليس زعمتم أن الله يحب أولياءه فكيف لم يصرف عنهم أعداءه؟

فالجواب في ذلك: أنه بنى أجسام العباد على الضعف والفناء، ولم يصرف عنهم المحن في الدنيا؛ ليكون ذلك أعظم لزهدهم وأكبر لحرصهم في الطاعة وجهدهم، ولو صرف عنهم المحن طول حياتهم لكان ذلك أعظم لغفلتهم، وأقل لزهدهم وحرصهم، ولو قل زهدهم لطال أملهم وقل صبرهم،

ولولا أن الله أدبهم بالمحن لغفلوا ولما وعوا أبداً ولا عقلوا، فأي محنة أجل من محنته وأحسن من لطفه ومودته، وأما ما ينال أولياء الله من كيد أعدائه فلم يرض به الله في أوليائه، ولو رضي بالكفر وندب إليه أو أمر به لما عذب عليه، وكيف يعذب عباده على ما قضى، أو يذم ما اختار وارتضى!

[أوجه الإرادة]

وإنما الإرادة على وجوه معدودة وأسباب معاينة مشهودة:

فمنها إرادة الشهوة والضمير، وما يتعالى عن ذلك اللطيف الخبير، وهذه الإرادة فلا توجد إلا في القلوب، وذلك فيتعالى عنه علاب الغيوب.

والوجه الثاني: إرادة الأمر بالطاعة والهدى.

والوجه الثالث: إرادة النهي عن الضلالة والردى.

والوجه الرابع: إرادة خلق الأجسام وما فيها من النقص والتمام.

فهذه وجوه الإرادة، فأين إرادته للكفر الذي زعمت، أوجدنا ذلك لتعرف ما ذكرت.

فإن قال: إنه أضمر الكفر، شبه الله بالإنسان وقذفه بالبهتان.

وإن قال: إن أرادته للكفر هي إرادة نهي وأمر، فالله يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الجور والعدوان.

وإن قال: إرادته للكفر هي الأجسام فهذا ما لا يقول به مجانين الأنام؛ لأن الكفر لا يسمى جسماً، ولا يدعى لوناً ولا طعماً.

ودليل آخر: أنه عدل، والعدل هو من حسن منه الفعل، وإنما سُمي العدل عدلاً لثباته واعتداله وحسنه في العقول، وكماله، والكفر فليس بمعتدل عند ذوي الألباب، ولا يحسن في نعت رب الأرباب؛ لأنه من أقبح الصفات، والله يتعالى عما قبح من الآفات.

[الحكمة في القبيح من الأجسام]

فإن عارض بجهله أو قال بمكابرة عقله: أليس قد خلق الله ما قبح من صور الأجسام، وكذلك قد فعل ما يكره من الأسقام؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: هذه حجة عليك لا لك، احتججت بها على نفسك، واشتبهت عليك لجهلك ومعارضتك لحجة عقلك، وذلك أن الله عز وجل لم يعاقب المريض على مرضه وسقمه، ولم يذمه على ألمه، وكذلك لم يمدح الصحيح على صحته ولم يثبه على طوله وملاحته، ولم يعاقب القبيح على سواده وقصره، كما عاقب الكافر على كفره، فهذا أدل دليل على كفرك، وأقطع عند الله لعذرك، وأيضاً فإن القبيح من فعل الله إنما قبح في الهوى ولم يقبح في العقل والبلوى؛ لأنه إنما ابتلى القبيح بقبح صورته ليزهده بذلك في الدنيا، ويثيبه على صبره أو يعاقبه إن سخط على كفره، وكم من دواء فظيع أعقب طول السلامة، وحلاوة أوقعت في الحسرة والندامة.

[هل الكفر من خلق الله؟]

فإن قال: ما أنكرت أن يكون الكفر خلقاً لرب العالمين فعلاً لعباده الكافرين؟

فالجواب له فيما سأل وتوهم من الجهل والضلال: أن ما كان من خلق الله فليس ينسب إلى المخلوقين، وكذلك أفعال الفاسقين لا تنسب إلى

رب العالمين، إلا أن يزعم بجهله وضلاله ومكابرته وخباله أن الله والكافر شريكان، وأن الفعل بينهما قسمان.

فإن قال ذلك فقد كفر بالله عز وجل، وضل عن الحق وأضل؛ لأنه لا يخلو هذا الفعل من أن يكون فعلاً لله خالصاً، فيكون الله بالذم على الكفر مخصوصاً، أو يكون الكفر من الكافرين فيكونوا عليه معذبين، أو يكون الكفر بين الله وبين الكافر نصفين فيكون الله وهذا الكافر مذمومين، وإلا فمن أين يذم الكافر وحده ومعبودهم قد فعل من الكفر بعضه، فقد أشرك هؤلاء الفاسقون لرب العالمين، وخرجوا من ملة المسلمين، فبعداً للقوم الظالمين، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على خير خلقه أجمعين، محمد خاتم النبيين، وعلى آله الطاهرين الأخيار الأبرار الصادقين، وسلم تسليماً.

[دوام الله ودوام الآخرة]

وسألت أكرمك الله فقلت: ما الفرق بين دوام الله ودوام الآخرة؟

والجواب في ذلك: أن دوام الله ذاته، ودوام الآخرة غيرها؛ لأن الدوام في صفات القديم هو قدمه، ودوام المحدثات بيان أعراضه وأحواله وضده زواله وانتقاله.

ودليل آخر: أن دوام الآخرة بمديمها ومثبت أحوالها ومقيمها، والله ليس يحتاج إلى مديم ولا يفتقر إلى مقيم، بل هو الله الحي القيوم.

[ثبات السماء على الهواء]

وسألت عن ثبات السماء على الهواء بغير عمد تعمدها.

والجواب أن إمساكه لها بغير آلة ولا سكون ولا حركة، ولا جوهر ولا علة، ولا لمس ولا مباشرة، ولا فرق بين قولك كيف خلقها وكيف أثبتها، أو كيف أفنى الأشياء وأعدمها؛ لأنه خلق وأثبت وأعدم بالقدرة التي لا كيف لها؛ لأن الكيف من صفات المخلوقين؛ لأنك إذا سألت عن كيفية المخلوقين، فالجواب في ذلك أن يقال: فعل بحركة أو سكون، والله لا يوصف بهذه الصفات؛ لأنه لا يشبه الخلق في الفعل ولا في الذات، ولكن القادر يفعل بغير علة متوسطة ولا جارحة محيطة.

وكذلك فقد سألت عن الرد على من قال: كيف قدر أو كيف علم؟

الجواب له في ذلك: أن يقال له: إن أردت بماذا قدر وعلم فهو قادر عالم بنفسه، وتلك النفس هي العلم والقدرة، وإن أردت بسؤالك عن كيفية العلم والقدرة (أن أحليهما لك لحلته من الحُلا فالله جل عن الحِلْيَة وتعالى)، والكيفية تستحيل عن الله الجليل ولا ينسبها إليه أحد من ذوي العقول، ولا يجوز في السؤال والقول إلا أن يكون السائل عنها عياً جاهلاً وعن الله وعن دلائله غافلاً.

[الحكمة في خلق البهائم بلا عقول]

وسألت فقلت: هل يركب الله للبهائم عقولاً مع ثوابها؟

والجواب في ذلك: أنه يركب فيها من العقول ما يزجرها عن الجهل والأذى، وإلا فلا تمام لما جاد عليها به من الفضل والنعماء؛ لأن النعمة لا تتم

غاية التمام إلا بما ركب الله فيها من الأفهام، وذلك بحمد الله يسير على ذي الجلال والإكرام، إن الله أجهلها وبناها على قلة الفهم وأغفلها رحمة منه لعباده وإصلاحاً لما ذرأ من الخلق في بلاده، ولو كان لها عقول في الدنيا لامتنعت ولأثيبت على أفعالها لو عوقبت، ولكن الله سبحانه اختار لها كما اختار للأطفال، ولابد لها في الآخرة من الكمال؛ لأن الدنيا دار المحنة والبلوى، وليست بدار الآخرة والنعماء؛ لأن بنية الأجسام في الآخرة على ما لا يوصف ولا تناله الأوهام، ولا تعرف من كمال الخلق وتمامه وحسن تقديره وقوامه.

[الفناء وأنواعه]

وسألت عن الفناء هل هو في نفسه، والفناء يخرج على وجهين: فناء الغيبوبة وفناء البطلان، وسأبينهما لك إن شاء الله تعالى بأوضح البيان.

فأما فناء البطلان فهو فناء الأعراض من ذلك زوال العافية والأمراض، ومن ذلك بطلان السكون والحركات اللذين هما حقيقة الساعات.

وأما فناء الغيبوبية فهو عرض حادث في الجسم عند افتراقه وعند تفصله واحتراقه، ألا ترى أنك لو ألقيت قطرة من دم في البحر لتفرقت ولما شوهدت بعد سقوطها ولا وجدت وهي موجودة في البحر ما برحت غير أنها غابت وافترقت، وأما فناء العرض فليس بمعنى.

فإن سأل فقال: أليس قد أراد الله فناء العرض الفاني وقصده كما أراد العرض وأوجده؟

فالجواب في ذلك: أن هذه المسألة من المحال تدق على العلماء والجهال؛ لأن

الإرادة لا تكون إلا في الإيجاد للأعراض والأجسام، وليس لله إرادة في الإعدام ولا يجوز أن يسمى الإعدام إرادة في الكلام، وإنما هذا جهل ممن يوهمه من الآثام؛ لأن الإعدام لو كان إرادة لكان فعلاً، والفعل لا يكون إلا عرضاً أو جسماً، وليس يقول أحد يعقل غير ما ذكرنا؛ لأنه إذا قال إن إعدام الله للعرض إرادة، سألناه: ما هذه الإرادة؟ فإن قال: لا شيء بان خلله وصح للناس عماه وجهله؛ لأن الإرادة هي الفعل المفعول والخلق المقدر المجعول.

وإن قال: إن إعدام الله للعرض وإبطاله جسم فقد رجع إلى التجاهل والخروج من المعقول، وهذا مما لا يقول به أحد من ذوي العقول.

فإن قال: أفليس الله الذي فعل إعدام العرض بعد إيجاده وقصده بالإبطال عند إعدامه؟

فالجواب في ذلك: أن قوله فعل الإعدام من المحال؛ لأن الفعل معنى، والإعدام ليس بفعل من الأفعال.

وأما قوله: إن الله قصد العدم بالإبطال فهذا القول من أضل الضلال؛ لأن القصد معنى هو المقصود المحدث المدبر المحمود والمدبر فهو الموجود، ولكنا نقول: إنه أوجد العرض وأراده، ثم أبطل إرادته وأباده.

فإن قال: هل يريد الله موت الميت إذا أماته وأفنى عمره وحياته؟

قيل له ـ ولا قوة إلا بالله ـ: نعم أراد الله موته، وإرادة الله لموته عرض هو الافتراق، كما أن اجتماعهما عرض هو الالتزاق.

وسألت عن الحكيم عز وجل ما منعه من تبليغ الرسالة بنفسه، ولم أرسل غيره

إلى خلقه؟

والجواب في ذلك: أنه لو خاطبهم بنفسه وخلق خطايا أو أنـزل علـيهم كتابـاً لذهبت هيبته من قلوبهم، ولكان ذهاب الهيبة أعظم لعـذابهم ونكـالهم عنـده وعطبهم، ولكان ذلك أسوى لأدبهم.

وأيضا فإن أكثرهم لـيس بمسـتاهل للخطـاب ولا هـو مـن أهـل الفضـل والآداب، ولا ينبغـي للحكـيم أن يسـاوي بيـنهم وبـين موسـى في سـبب من الأسباب.

وأيضاً فإنه لو خاطبهم لأمكنهم أن يقولـوا لـيس هـذا الخطـاب مـن رب العالمين، ولأمكنهم أن يضيفوه إلى الشياطين.

[الحكمة في تأخير الله للآخرة وتقديمه للدنيا]

وسألت يا أخي تولى الله رشدك، وهداك وسددك، فقلت: ما معنى تأخير الله للآخرة وتقديمه للدنيا، وما منعه أن يبتدي عباده بالفضل والنعماء؟

واعـلم يا أخي أن مولانا أحكم الحكماء، ولو ابتدأهم بالآخرة قبل ضـدها لكانوا جاهلين لفضلها، ولن يعرف أبداً فضل الفاضل حتـى يعـرف نقصـان المفضول، وذلك أوضح عند جميع أهل العقول، مع ما في الدنيا من العجائـب والسرور بالسلامة من المصائب، وفضل المعرفة والتجارب، لأن مـن أشـرف على الهلاك ثم سلم منه كان أعظـم سـروراً وأجـل حبـوراً ممـن هـو عاقـل، وقصد الخيرات والسـلامة جاهـل، ولـو أراد الله عـز وجـل أن يوجـد جميـع الأشياء في ساعة لفعل، ولكنه ذو أناة لا يعجل، وإنما دل عبـاده علـى الأنـاة

لفضلها ولما لا ينكر من حسن عاقبتها.

[أضداد العقول]

وسألت عن العقل ما ضده؟

والجواب في ذلك: أن ضده الجهل؛ لأن العقل هو العلم وضد العلم الجهل، وضد الهوى الكراهة؛ لأن الهوى هو الحب، والحب فضده البغض، فمن عقل شيئاً علمه، ومن لم يعقل شيئاً فقد جهله، ومن هوي شيئاً فقد أحبه، ومن كره شيئاً فقد أبغضه.

[الموجود وضده]

وسألت عن الموجود ما ضده؟ وضد الموجود لا يكون إلا موجوداً ولا يكون أبداً ضد الموجود مفقوداً؛ لأن الضد إنما سمي ضداً إذا كان لضده مغيراً مفسداً، والمفسد لا يكون معدوماً.

واعلم أنه لا ضد للقديم فينافيه ولا مثل له فيكافيه، إلا أن يريد السائل بالمضادة العداوة والإبعاد لأهل الكفر والخبث والفساد.

فنقول: إن الله ضد للكافرين نريد بذلك أنه عدو للمنافقين، وهذا فجائز في اللغة والبيان معروف غير منكر في اللسان والأضداد فمثل الحر والبرد واليبس واللين، لأن الحر والبرد ضدان، وكذلك اليبس والرطوبة متنافيان.

[أقسام العلم]

واعلم أن العلم يخرج على وجهين: فعلم أصل هو العقل والحواس،

وعلم هو فروع وتجارب وقياس واستنباط ونظر من المكلفين، واستعمال من المستعملين، والعلم الأول هو العقل الأصل الذي ركبه الواحد الجليل والعلم المستفاد، فإنما هو المعلوم، وليس يسمى علماً إلا على مجاز الكلام المفهوم والجهل يخرج على وجهين في اللسان، وكلاهما مبين غاية البيان: فجهل هو اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه، وجهل هو العمى عن الشيء والبعد من الوصول إليه، وذلك جهل البهائم بالتدبير والدهاء، وغفلتها عن تمييز أهل العقول والنهى.

وقيل: إن هذا الجهل الثاني ليس بمعنى، وكذلك يقال للجمادات المواتات أنها من الأموات المغفلات، وليس لها موت على الحقيقة يعرف، ولا حياة تحد ولا توصف، والميت بعد حصوله ميتاً فليس موته شيئاً سواه يعلم ولا يتوهم ولا يفهم.

[الاختلاف في الأجسام والأعراض]

واعلم أن اختلاف الناس في الأجسام والأعراض والجواهر ليس من الدين، ولا هو بحمد الله من فعال المسلمين، بل هو مشغلة عما هو أفضل منه، والله فليس يعاقب من تركه وأعرض عنه، وإني لأعلم منه ما يكبر ويتصل به الخطاب ويتعذر، فما أطلب منه يسيراً إلا وحدث بعده كبيراً غزيراً، إني لا أدعو الناس إلى تعليم ما يشغلهم ولا يضرهم تركه فيهلكهم، وإنما الأصل في الأجسام أن كل ما قام بنفسه وتعلقت الأحوال به فهو جسم محل للأعراض، والعرض هو كل ما كان حالاً في غيره وكان لا ينفرد بذاته ولا يحله سواه، فكل شيء يتحرك ويسكن فهو جسم، وكل شيء لا يتحرك ولا يسكن فهو عرض مثل الحركة والسكون واللون والطعم والرائحة

والاجتماع والافتراق.

وما لو ذكرناه لكثر حتى لا يحتمله السامع.

[الأعراض]

وقيل: إن الأعراض لا تنتقل من مكان إلى مكان؛ لأنها لو انتقلت لتحركت ولو تحركت وسارت لقامت بأنفسها، ولو قامت بأنفسها لكانت أجساماً.

واختلفوا في الأصوات فقال بعضهم: هي أعراض من أفعال العباد وليس يكفر أحداً في مثل هذا إلا جاهل؛ لأن هذا ليس من الأصول ولا يكثر المِرَاءَ فيه أحد من ذوي العقول.

واحتج من قال: إن الصوت من الأجسام وأنه من فعل ذي الجلال والإكرام، بأن قال: هو ينتقل إلى آذان السامعين ويتحرك من ألسن الناطقين، وليس للعبد فيه إلا الحركة والتفصيل، والنظر والتوصيل.

واحتج أيضاً إن قال: من الأصوات حسن ومنها قبيح، والله خالف بينهما بمشيئته وفعلها كما شاء بقدرته.

[أفعال العباد]

واختلفوا في أفعال العباد فقال بعضهم: أفعال العباد تعلم وتُرى، وقال بعضهم: تعلم ولا ترى، والاختلاف في مثل هذا جهل وعمى، وليس ذلك من أفعال

الحكماء وليس ذلك من كتاب الله، ولا من سنة رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله وسلم.

وقد أنزل الله تبارك اسمه كتاباً، وأرسل رسولاً، وركب عقولاً، ولم يُعلم رسول الله ﷺ أحداً من أمته جسماً ولا عرضاً ولا جوهراً ولا جزؤاً لا يتجزا، وإني لأعلم من ذلك ما لا يعلمون وأفهم من حالهم ما لا يفهمون.

من ذلك قولهم: إن ثم جزءاً لا يتجزأ وأنه واحد في نفسه بزعمهم، وهذا بحمد الله أفسد الفساد وأقبحه عند من يعقل من العباد، ألا ترى أن هذا الجزء الذي هو عندهم واحد بنفسه لا يخلو من أن يكون لابثاً ساكناً، أو متحركاً سائراً، فإن كان لابثاً فهو شيئان اثنان، ولبثه متعلق به وفيه، وإذا كان لا يوجد إلا على الحالين الحركة والسكون فله فوق وتحت، وتحت الشيء أبداً غير فوقه وفوقه غير تحته، فهذان جزآن جسمان.

وأيضاً فله يمين وشمال فقد صار أربعة أجزاء لا شك في ذلك ولا امتراء، وإذا كان له يمين وشمال فله خلف وأمام، فقد صار ستة أجزاء، وحصل بأبين البيان جسماً، فكيف يكون الستة جزءاً واحداً وفي تناقض قولهم والحمد لله أكثر مما ذكرنا.

ولم يأت محمد ﷺ بشيء من هذه الترهات.

وقيل: إن الأعراض من الروائح والحر والبرد لا تصل إلا بأجزاء لطاف دخانية تباشر الحواس، فمن هذا الوجه تدرك الأعراض، إذ لا يجوز عليها

الانتقال ولا يتعلق بها اللبث والزوال؛ لأن حر النار والشمس عرض لا تصل إلا بأجسام وإن لم يرها أحد من الأنام، وكذلك الرائحة عرض لا ينتقل إلا في محله ولا ينفرد أبداً بنفسه، وهذا قول معقول ومصدق عند العلماء مقبول.

وأنا أقول: لو أن إماماً من آل محمد صلوات الله عليه وعلى آله وسلم دعا إلى كتاب الله وسنة نبيه وهو لا يعرف عرضاً ولا يشرح لأحد طولاً ولا عرضاً لما نقصه ذلك، وإنما يكفي الإمام أن يكون عالماً بالكتاب والسنة، معتزلاً للمحارم، ولا يلزم الإمام ولا يجب عليه أن يطالب ولا يسأل عن مثل ما أتينا به من المعقول، ولا يتوهم ذلك أحد من ذوي العقول، ولقد ألفيت كثيراً من الجهال قد غلطوا على أنفسهم وغلوا في أديانهم، جهلاً بحكمة الله وإرادته.

[علامات الحكيم]

واعلم أن أمور الحكيم لا تكون إلا على أيسر الميسور وأبعده من التعنت والمعسور، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها والوسع مشتق من السعة وما كان متسعاً فقد بعد من الحرج والضيق، وأن الحكم المحسن لا يريد إظهار الشناعة المستقبحة، ولا يشاء من عباده غير الطريق السمحة، والاجتهاد في طلب العلم أقرب إلى الحكيم الرحمن الرحيم، من الصيام والصلاة والحج والزكاة؛ لأن من يتقرب إلى الله بإتعاب نفسه وهو أعمى القلب عن معرفة خالقه لا يتقبل الله منه عمله، ولا يزكي فعله، والجهل أعظم المهالك لمن ركن إليه وأقام فيه، وعليه ولن يدفع شُبه المحال وطرق الضلال إلا بالخبرة والأدلة

المبصرة المنجية من الجهل والحيرة، كما لا يدفع الهلاك في مهاوي العقاب ومجهول الآثار إلا بأهلها، ومن هو سالم من حيرتها وجهلها، وكما لا يسلم في القتال ومنازلة مساعير الأبطال، إلا من استعد واحتجا بأحصف اللباس، وادفعه لما يكره من البأس، ومن أراد أن يظفر من العلوم بأشدها وأعظمها وأقربها إلى الله وأكرمها فليعتمد على ما وصفنا من التوحيد والذب عن دين الله الواحد الجيد، ولا يطلب من العلم إلا ما ينجو به من العذاب ويقربه إلى رحمة رب الأرباب، ولا يلتفت إلى هوى النفس وترهاتها، ومحبتها للمدح وشهواتها، فإن أكثر الناس لا يرى من العلوم إلا ما يدلي من القضاء والرئاسة والرفعة والسياسة، والعلم لا يحاط به لكثرته وسعته، والعمر لا يحتمل الإحاطة بالعلم لقلته، فاقصدوا رحمكم الله من العلوم أعظمها خطراً وأجلها قدرا، ولا تنبسطوا إلى من يريد بحديثه الرياء ويميل إلى زهرة الدنيا، ولا تكبروا عن طلب العلم، فالإنسان أقل من الكبر والدنيا أقل من الذكر.

وقد سمعت في الرواية عن أمير المؤمنين عليه صلوات رب العالمين أنه قال: (أوصيكم بخمس لو ضربتم إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلاً: لا يرجونّ أحدٌ منكم إلا ربّه، ولا يخافنّ إلا ذنبه، ولا يستحينّ أحدٌ منكم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم، ولا يستحينّ أحدٌ إذا لم يعلم الشيء أن يتعلّمه، وعليكم بالصبر فإن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، ولا خير في جسد لا رأس معه، ولا في إيمان لا صبر معه)[1].

---

(١) نهج البلاغة (٤٨٢).

وسمعت عنه صلوات الله عليه أنه قال: أصبت رقعة عن بـزر جمهـر فيهـا خمس كلمات يُنبَغى لهن أن يكتبن بماء الذهب يقول رحمة الله عليه: إذا كـان الله أعظم الأشياء فالمعرفة به من أجلّ العلوم، وإذا كان الله عـدلاً فلـم يمـت المخلوقين إلا من علة، وإذا كانت الدنيا فانية فالطمع فيهـا غـرور، وإذا كـان الرزق مقسوماً فالحرص في هذه الدنيا باطل، وإذا كان القدر طباً فالاطمئنانية إلى المخلوقين عجز.

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم صلوات الله عليه: من أراد أن يستفيد مـن خاتم النبيين ، ومن أمير المؤمنين عليهما وعلـى آلهمـا صـلوات رب العـالمين، فليقف على ما وضع الهادي إلى الحق صلوات الله عليـه، وكـذلك مـا وضـع المرتضى لدين الله ﷺ من العدل والتوحيد والحلال والحرام، وغير ذلك مـن شرائع الإسلام؛ لأنهما أخذا العلم الذي جاء به رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين، ولا يلتفت إلى اختلاف المختلفين ولا يعتمد على أقاويل القائلين، فإني وطيت من العلوم مهجها واعتزلت والحمـد لله همجهـا، فمـا رأيت علماً أشفى، ولا أبين ولا أكفى مما أتيا به من خـالص الـدين، ومحـض اليقين، رواية عن خاتم النبيين وسيد الأولين والآخـرين، أخـذاه عـن آبائهمـا وحفظاه عن سلفهما أبا فأباً وجداً فجدا، حتى ينتهي إلى الأصل أمير المؤمنين عن سيد المرسلين، عن الروح الأمين، وإخوانه الملائكة المقـربين عـن الله رب العالمين، وفاطر السـماوات والأرضـين، فالحمـد لله الـذي جعلنـا بهمـا مـن المقتدين ومن فضل علمهما مستفيدين، فمـن علمهمـا اسـتفدت وبهـداهما اهتديت، وبهما في جميع الأمـور اقتـديت، وفي آثارهمـا مشـيت، والحمـد لله

وحده وصلواته على سيدنا محمد النبي وعلى آله الأئمة الطاهرين، الأبـرار الهداة الراشدين الأخيار وسلم تسليماً.

كتاب
الأســــــرار

١- الحكمة في تكرار الآيات.

٢- شرح نماذج من ذلك.

٣- الحكمة في مراحل خلق الإنسان.

٤- الحكمة من الموت والأسقام

٥- الحكمة في الفقر والغنى

٦- ابتلاء الله لأوليائه



كتاب الأسرار

بسم الله الرحمن الرحيم

أسأل الله حسن توفيق المهتدين، واسترشده إلى الهدى رشد المرشدين، وأبرأ إليه من أعدائه الملحدين، وأتقرب إليه بعداوة الجاحدين، وأسأله النجاة من الضلالة عن اليقين، وأعوذ به من همزات الشياطين، والحمد لله رب العالمين وسلام على سادتنا الملائكة المقربين والأنبياء الكرام المطهرين، وصلواته على رسوله محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته ساداتنا الطاهرين الأخيار الأبرار الصادقين، ثم نقول بعد في أسرار الكتاب بما لا تنكره بعون الله حجج الألباب، وما هو عند ذوي الحجا أصوب الصواب، أن الله سبحانه جعل محكمه نعمة لذوي العقول، ومتشابهه محنة وفرقاً بين الفاضل والمفضول، ولولا المحن لما تفاضل أحد ولما بان موحد ولا ملحد، ولكن الله كشف عجائب الأسرار، وميز بين جميع الأخيار والأشرار، وقد ذكرنا كثيراً من المتشابه في كتاب (الغريب)[1]، فما عنت الملحدون وعاب على الله الكفرة الجاحدون، وسنذكر بعون الله من ذلك طرقاً يكون فيه لمن عقل ما كفى.

---

(١) كتاب الغريب أحد كتب المؤلف في تفسير القرآن الكريم، بأيدينا نسخة منه، ونعمل على تحقيقه.

[الحكمة في تكرار الآيات]

فإن سأل سائل مسترشد أو قال متعنت ملحد: أخبروني لم كرر الله القرآن وردده؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: إنما بينه بذلك ووكده، وذلك دليل على رحمته للعباد، ولذلك كرره وردد النهي عن الفساد وأكثر في الترديد للوعد والوعيد، والميعاد، وكرر عليهم أخبار الأمم الماضين ليحذروا مثل ما نزل بالكافرين وكرر أخبار عباده المقلدين، ليبشر أولياءه المقتدين، وليعلموا أنهم عند الله منصورون وأنهم في الدنيا والآخرة مأجورون، وأنه قد يجب لهم من النصر ما يجب لأشكالهم، فإن مثلهم كمثل الماضين من أمثالهم، وان حكمهم عند الله وحالهم مثل حالهم، وإذا أردت أن تعلم بمنزلتك عند الله أحكم الحاكمين، فانظر إلى أشباهك في القرآن في الأولين، فإن حكمك عند الله حكمهم، وسبيلك بأيقن اليقين سبيلهم، ولهذا السبب أخبر وذكر وردد في الأخبار لهذا السر الذي ذكرناه في الأخيار والأشرار، مثل ترديده لأخبار موسى عليه السلام ومن تبعه من الأبرار وترديده لخبر فرعون اللعين ومن تبعه من الأشرار، فأخبر بنجاة الطاهر الكريم، التقي، ونصر الله على الكافر الفاجر اللعين الأثيم الغوي، ليعلم من كان من شكل موسى أنه سيرحم كما رحم الله شبيهه وينصر كما نصر الله مثيله؛ لأن القياس فيهما سواء لا يخفى على أهله، ولا يستنبطه جاهل أبدى بجهله.

ألا ترى أنما وجب في الحكم على واحد وجب على من كان مثله وعمل عمله، وفعل فعله، فليبشر من تبعنا بالنجاة والثواب العظيم، ويبشر من عادانا بالهلاك والعذاب الأليم، فعلى هذا القياس يكون أخبار الكتاب لا ينكر ذلك أحد من ذوي الألباب، وما على الحكيم إن كرر وعده ووعيده،

وأكثر تثبيته من الكتاب وترديده، وأحكم على العباد حججه وتوكيده.

فهذا ـ وايم الله ـ أدل الدلائل على فضله ورحمته، وأوكد لبيانه وأعظم لحجته، والرحيم الشفيق، ربما قال لحبيبه الله الله ثم الله الله في الحذر والاحتراس، فلا يكون في ذلك عيب عند أحد من الناس، بل التوكيد عندهم والتحذير حسن جميل وخلق من أخلاق الحكماء نبيلٌ، ومن سأل من الملحدين الكفرة الجاحدين.

فقال: أليس قد زعمتم أن الكتاب يؤكد بعضه بعضاً وقد وجدناه في بعض الأمور متناقضاً مثل قوله في الأنصار حين أثروا على أنفسهم وأنزلوا الخصاصة بهم وبعيالهم: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩] ، وذم في كتابه الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ثم رجع يأمر نبيه بالبخل، وقد نهى عنه فقال: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾[الإسراء:٢٦، ٢٧] ثم قال: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾[النساء:٥] ثم وصف عباده الصالحين بصفات من لا مروة له من التاجرين فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان:٦٧].

فدل بهذا القول على تجارتهم ثم قال رسوله الذي أرسل إلى عباده «إني لعنت الإمام يتجر في رعيته»[1] فمرة يمدح التبذير ويقول: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الروم:٣٨] ومرة يقول: إنهم إخوان الشياطين، ومرة يمدح التاجرين، ومرة يلعنهم.

---

(١) أخرجه الإمام زيد بن علي في المجموع الحديثي: ص١٧٨ رقم (٣٢٢).

قيل له ولا قوة إلا بالله أحكم الحاكمين: ليس يتناقض قول أرحم الراحمين ولا يختلف كتاب رب العالمين، وإنما اختلف عندك، لجهلك للتأويل وقلة معرفتك الله الواحد الجليل، وضعف تمييزك لعجائب التمييز، وتفسير ذلك عند أهله أحسن التفسير، وسنبين ما سألت عنه من قول رب العالمين، ونفرق بعون الله بين السخاء والتبذير.

أما قوله عز وجل في الأنصار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر:٩] فإن الله عز وجل لم يكلفهم ذلك لعلمه بضعف العباد، ولم يأمرهم بالبخل والدناءة والفساد بل أمرهم سبحانه بالإنفاق ونهاهم عن البخل والشح والنفاق، ولم يرد منهم الذي فعلوا ولم ينههم، فلما فعلوه لوجه الله مدحهم ولم يرد منهم أن يهينوا أنفسهم وعيالهم فقال سبحانه رحمة لعباده وتخفيفاً عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان:٦٧] يريد أنهم غير معاقبين، وأنهم إذا توسطوا في النفقة غير معذبين، فماذا على الله إن مدح الصابرين إذا كانوا لغيرهم على أنفسهم مؤثرين، وماذا عليه إذا خفف عن عباده ما يستثقلون وكلفهم من النفقة قدر ما يطيقون.

ثم قال: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾[النساء:٥] يريد عز وجل من عباده المؤمنين أن لا يعطوا أموالهم كلها أهل السفه في العقول والدين فيكونوا إلى هلاك أنفسهم وعيالهم آثمين، ويكونوا بعد هلاك أموالهم هالكين، ثم نهاهم عن البخل في آخر الآية، فقال سبحانه: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[النساء:٥].

فإن قال: ولم نهاهم عن إخراج أموالهم كلها وقد وعدهم أنهم إذا أنفقوها فهو يخلفها فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾[سبأ:٣٩].

[قيل له][1]: أنه أراد ما أنفقتم من شيء فهو يثيبكم عليه، أن لكم الثواب في الآخرة لديه، وربما أثاب في هذه الدنيا أحسن الثواب مع السلامة من السخط والعقاب، والله سبحانه لا يكلف عباده ما لا يقدرون على فعله، وذلك دليل على رحمته وفضله ورأفته وعدله، بل كلفهم أيسر اليسير ونهاهم عن البخل والدناءة والتقصير، ومن أنفق من ماله أكثر الكثير فهو أفضل من المنفق اليسير، ومن بخل ولام على الحطام الحقير فهو كافر فاجر في حكم الله اللطيف الخبير.

وأما قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾[الإسراء:٢٦] فلم ينه نبيه صلوات الله عليه وعلى آله من انفاق ماله، وإنما نهاه عن تبذير أموال المساكين وطرحها جملة كأفعال إخوان الشياطين الذين يرمون بأموال الأيتام ويبذرونها على غير أهلها من الأنام ألا تسمع إلى أول خطابه وما ذكر في أول الآية من آدابه، حين يقول: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[الإسراء:٢٦-٢٩] يريد لا تلزم يدك على الإنفاق ولا تبسط يدك مرة واحدة فتقعد ملوماً عند الله محسورا منقطعاً، كما أخرجت أموال عباد الله وصرت لهم دافعاً وتصير بذلك أيضاً ملوماً عند جميع الآدميين وتنحسر

(1) بياض في المخطوط وما بين المعكوفين اجتهاد من لدينا لاستقامة المعنى.

عن العطاء لفقراء المؤمنين وغيرهم من المؤلفة المجرمين الذين لا يتبعون الحق والمحقين إلا بالأجرة التي يكونون عليها معذبين، فأما هو في نفسه صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين وسلم ومن كان مقتدياً به من الأئمة السابقين، فمعاذ الله أن يكونوا من التاجرين وحاشا لله أن يأمرهم بذلك أو يرضى لهم أن يكونوا في الإنفاق كذلك؛ لأن الله رفعهم على جميع المسلمين، وفرق بينهم وبين عباده المؤمنين، فلم يرد لهم أن [يتاجروا][1] فيما يروه أحداً من المخلوقين، فقال رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله وسلم: «إني لعنت الإمام يتجر في رعيته»[2] أي مثل رعيته؛ لأن التجارة لا تليق بأهل الشرف العظيم والمغرس المهذب الطاهر الكريم، ولقد رأيت القاسم بن علي[3] صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين مع ملكه لكثير من البلاد وقدرته على ما لا يقدر عليه أكثر العباد لا يحمل بيده فضة ولا ذهباً، وكان يرى ذلك عاراً وفضيحة وعيباً، ولقد توفي صلوات الله عليه فما وجدنا له ديناراً ولا درهماً، وكذلك الهادي[4] إلى الحق صلوات الله عليه ما وجد له عند موته كفن، وكل ذلك زهد منهم في الحطام، وإهانة منهم للحلال مع الحرام، وإبعاد لأنفسهم عن مشابهة اللئام، وتنزيهاً من الدناءة والآثام، وخوف الله ذي الجلال والإكرام، والدنيا أقل وأحقر من أن يدنس بها عاقل عرضه، فكيف يهين بذلك دين الله وفرضه.

---

(١) ما بين المعكوفين غير واضح في المخطوطة ولعلها ما أثبتنا. والله أعلم.

(٢) أخرجه الإمام زيد بن علي عليه السلام في (المجموع الحديثي والفقهي) ص١٧٨رقم (٣٢٢).

(٣) والد المؤلف، تقدمت ترجمته.

(٤) تقدمت ترجمته.

[الحكمة في خلق الدواب]

فإن سأل فقال: ما عدل ربكم في خلق هذه الدواب والهوام التي تموت كثير منها تحت الأقدام، ويأكل بعضها بعضاً في جميع الأيام، ويعادي بين كثير منها ولا رحمها ويغري بعضها ببعض ويعمها.

قيل له ولا قوة إلا بالله: ذلك عدل من الله ورحمة للآكل والمأكول، وثواب عظيم جليل لذلك المقتول، لا ينكر ذلك أحد من ذوي العقول؛ لأنه خلص البهائم من ألم التكليف، وأثابها على القتل والذبح بالمحل الشريف، وكان ذلك الذي غيب من محن التخفيف، والرحمة والكرم والعدل الحنيف، ولو أماتها بلا تعب لكان ثوابها قليلاً، ولما كان في القسمة عظيماً جليلاً؛ لأن الحكيم فرق بين كل فاضل ومفضول، وقسم بحكمته كل دقيق وجليل، وفرق بين التفضيل والواجبات لعدله وتفريقه بين مفترق الحكومات وخالف بين محن جميع الحيوانات لأسباب عجيبة علمها من المكنونات.

[الحكمة في مراحل خلق الإنسان]

فإن قال: فما عدله وحكمته في خلقه لبعض الأحمال، فإذا ابتدأ أوله أسقطه مضغة قبل حين الكمال؟! وهل من صفة الحكيم أن يريد خيراً ثم يتركه أو يبني بناء ثم يهدمه أو يزرع زرعاً فيقطعه قبل صلاحه أو يعمل عملاً فينقضه قبل نجاحه؟!!

قيل له ولا قوة إلا بالله: إن هذا الذي عنيت شيء عجيب يفهمه عن الله كل أريب لبيب، وذلك أن الله سبحانه رحم هذه المضغة من تعب الدنيا ومحنها وخلصها من نكبات الدنيا وفتنها، فأسقطها قبل معرفة الأيام ليتمها

في الآخرة أحسن التمام، وذلك نعمة من السيد المنعام وخصب لطيفة يدق على كثير من ذوي الأحلام، وسر عند الله كتمه عن العباد ليظهره لهم في يوم القيامة والمعاد، حتى يروا عجائب من رحمته لم يحسبوها ولم يخطر على قلوبهم قط ولم يعقلوها؛ لأنه ذكر في كتابه أنه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٨]، فدل ذلك على كتمان [ما لا][١] يفهمون من هذه المضغة التي ذكرنا ومثلها وما [فيها من][٢] الأسرار العجيبة من شكلها.

[تنوع المخلوقين]

فإن قال: أرى الله خلق بعض عباده قبيحاً وجعل بعضهم كاملاً حسناً مليحاً؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: ذلك محنة للمكلفين، ليفرق بين الساخطين على الله والراضين، فيثيب من شكره على الحسن والكمال ويعذب من سخط عليه من الضلال الكفرة الفجرة الخونة الأنذال، ويعذب من لم يشكره على التمام والجمال.

وروي أن الله سبحانه خلق أولياءه خلقاً مليحاً جميلاً، ولم يجعل منهم وخيماً ولا ثقيلاً.

وأما سائر الخلق من أهل الطاعة والكفر والعصيان فهم على ما رأيتم من الصور والألوان، وكل ذلك حسن في المعقول من صنع الله الواحد العظيم الجليل، وما حسن في هذه الدنيا إلا يؤول كريهاً ويصير عن قليل قبيحاً

(١) ما بين المعكوفين فراغ في النسخة المعتمدة وما أثبتناه اجتهاد من لدينا.

(٢) ما بين المعكوفين فراغ في المخطوط وما أثبتناه اجتهاد من لدينا.

مشيهاً، فازهدوا رحمكم الله في هذه الدنيا فإن أمرها يسير، وخطرها عند من عرفها دني حقير، لا يغتر بها إلا جاهل مغرور ليس له حكمة ولا عقل ولا تدبير، ولا يتم لأحد فيها سرور، من ملأت قلبه سروراً ملأته غماً، ومن سقته من حلاوتها أعقبته سُماً، ومن أقرت عينيه أورثته العمى، ومن كحلته بزينتها أورثته القذى، ومن ملأ فاه من حسنها ضحكاً ملأت وجهه عن قليل بكاء.

ودليل آخر: أن الله سبحانه أراهم التفاضل في هذه الدنيا ليفرقوا بين الفاضل والمفضول، ويرغبوا في الملك الذي في الآخرة لا يزول، والدار التي إليها جميع الخلق تؤول، فكم حسن يكون في الآخرة قبيحاً، وكم قبيح يكون في الآخرة مليحاً، وكم عزيز يكون في الآخرة ذليلاً، وكم غني يكون في الجحيم فقيراً، فلذلك فليعمل العاملون، فهم عن الدنيا الدنية راحلون، وإلى دار الإقامة والجلد واصلون، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[الصافات: ٢٤]، فيا ويح مسئول لم يعد جواباً ولم يقل في الدنيا والآخرة صواباً، رحل من الدنيا بغير زاد فهلك في الآخرة والمعاد.

ودليل آخر: أن الله سبحانه مسبب الأسباب ومدبر الحكمة بعجائب الصواب، وذلك أن القبح ربما زهد في الحرام والحسن ربما أوقع في المصائب والآثام، ومرة يكون الحسن داعياً لبعض الناس إلى الخيرات والحلال، ومطرباً إلى طاعة الله ذي الجلال، وربما نشط صاحبه إلى الطباع والأخلاق وأبعده من [الدناءة][1] والبخل والنفاق، ولربما كان الحسن كرامة للمطهرين وجمالاً وزينة للتائبين وربما كان حجة على من رزقه من الكافرين.

---

(١) في المخطوط: (الأباة)، ولعل الصواب ما أثبتناه.

وفيه دليل آخر: لولا أن الله أرانا حسن الدنيا ولذاتها لما عرفنا حسن الآخرة وزينتها، فضرب لنا الدنيا برحمته مثلاً، وجعلها على الآخرة دليلاً، فنظرنا القبيح الذي وعد به الكفار فخشيناه، ورأينا الحسن الذي وعد به الأبرار فهويناه، فأهل الجنة جميعاً يردون إلى النور والإسفار، وأهل النار يردون إلى السواد والإغبرار، فأعرضوا رحمكم الله عن هذا الزائل الفان، واقبلوا إلى طلب الأمان، والخلود في النعيم والجنان، والحسن الذي لا يزول آخر الأزمان وللرجال فضيلة في الآخرة على الحور الحسان لفضل ما جعل الله من الثواب للذكران فهم في الحسن والكمال أفضل من النسوان، فإلى مثل ذلك يطرب أولو النهى والألباب، مع الراحة والخلاص من كُرب العذاب، فلله آباؤكم شمروا عن الونا واعرضوا عن دار المصائب والفناء، وجاهدوا في الله حق الجهاد، تكونوا آمنين في الآخرة والمعاد، فإنما هي أيام يسيرة ومدة من العمر قصيرة، فعليكم بالهرب من العذاب المهيل، واعولوا على أنفسكم أكثر العويل، فطوبى لمن تطهر وتزكّى وجعل مع الضحك البكاء ولم يشرك في عمله بالنفاق وأيقن عن الدنيا بالفراق، فكأن بنا وقد ذهبت أجسامنا وبقي عند الله عملنا وحسابنا، فنسأل الله أن لا تخرج أنفسنا إلا في الجهاد، فهو أفضل الذخائر ليوم المعاد.

[الحكمة من الموت والأسقام]

ومن سأل من الملحدين فقال: لم خلق الله الموت والأسقام؟

قيل له: ذلك رحمة منه سبحانه لجميع الأنام، وتزهيد منه لهم في الحلال والحرام، وموعظة جليلة لأهل الكفر والإسلام، ولولا خوف الموت لهلك أكثر العباد ولوقع أكثرهم في الهلاك والفساد، فأي موعظة ما أحسنها

وأي حكمة ومصلحة ما أبينها وهل في المواعظ مثل ما عنت، وأي نعمة تتم إلا بما كرهت، فالحمد لله الذي حجزنا عن النار بالموت والسقم، وزهدنا عن القبائح بأنواع الألم، ومنعنا من المكاره بالتفريق والعدم، فهاتيك عندنا من أكبر المواعظ والنعم، أليس قد هلك أكثرهم مع قصر الأعمار، وكثرة المصائب والموت والبوار، فكيف لو تركهم وأكثر في الإنظار، إذاً لأكل بعضهم بعضا، ولما أدّى أحد من العباد كلهم فرضا، ولخلت أنه لا يوجد أحد لله مطيعا، ولخشيت أن يهلك العباد كلهم جميعا، لا ينكر ما قلنا به من ذلك عاقل، ولا يكابر فيه إن أنصف جاهل.

[الحكمة في الفقر والغنى]

فإن قال: فكيف أفقر الله أكثر خلقه، ولم يعطهم الكفاية من رزقه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: كم شبعة كانت سبباً للقتل والعطب، وسُلماً إلى القبائح والفضائح والطرب، وكم جوعة كانت سبباً إلى العقل والأدب، وسفينة نجاة من المهالك والريب، والله يخلق ما يشاء ويختار لعباده، وهو الناظر في مصالح بلاده، وفي ذلك من أسرار الحكمة ما لا يحصى، والأدب لكل من آمن وعصى، والجوع ربما ذكر تعب العذاب، وأنذر ذوي الألباب، من كرب العقاب؛ لأنه إذا ألم من الجوع والضرَّاء فهو من العذاب أشد ألماً، وأقل صبراً، وهل يكون من الآلام أقل من القملة وأحقر، وهل شيء من المضار أضعف منها وأصغر، ففي ضعف الإنسان عن قرصتها فكرة لمن تفكر، وفي جزعه منها عبرة لمن اعتبر، فيا ويح جسم يعجز عن القملة، كيف يصبر على النار، ومحل الظلمة الفجرة الأشرار.

[ألم الأطفال]

فإن سأل بعض الملحدين الفجرة الأنجاس المتمردين فقال: ما عدل ربكم في ألم الأطفال، وبأي ذنب عذبهم ذو العظمة والجلال؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: ذلك يحتمل أربعة أوجه من العدل والإحسان والرحمة من الله الواحد الرحمن.

[١] إما أن يكون تزهيداً لهم في هذه الدنيا.

[٢] وإما أن يكون أراد ثوابهم في الدنيا.

[٣] وإما أن يكون أراد ثوابهم الذي لا يبلى.

[٤] وإما أن يكون أراد ثوابهم في الآخرة والأولى.

فأما الله تبارك وتعالى فليس من عدله أن يعذب طفلاً فإن كان ذلك الطفل صغيراً لا يفهم ألماً ولا يعرف ولا يميز مرضاً فهو بين أحد أوجه:

[١] إما أن يموت قبل احتلامه فيثيبه الله على علله وأسقامه.

[٢] وإما أن يعيش إلى أوان الاحتلام فيثيبه الله على تلك العلل والأسقام، حتى يذوق حلاوة الثواب وينال عوض سقمه بعوض رب الأرباب.

فإن قال منهم قائل: فما قولكم إن خرج هذا الطفل فاسقاً أليس لم يكن في حال الطفولية للعقوبة مستحقاً فكيف عذبه ربكم في وقت لم يكن فيه كافراً، ولم يكن في ذلك عدواً فاجراً؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: عدل الله في ذلك أنه أثابه في الدنيا وأحياه وأنظره ومتعه في دنياه وأصح جسمه من تلك العلل وشفاه ونصره وعلمه، وهداه

حتى نال من طيب الحياة ونعيمها، أكثر من مرضه في الطفولية وأيامها، وإن كان هذا الطفل قد عقل وفهم وميز العافية والسقم، فإنما أراد الله سبحانه أن يعلمه فضل عافية الآخرة على عذابها، ويزهده في الدنيا بأمراضها وأوصابها؛ لأن السقم يدعو إلى ذكر الموت والعذاب، ويحذر ذوي الألباب، ولقد ابتلاني الله في تلك الحال بأمراض وحوادث الآلام والمحن والأعراض، فنظرت إلى الدنيا بعين المقت والقِلى، وفهمت ما أراد الله تبارك وتعالى مع ثوابه في الآخرة والأولى، ثم أولانا من نعمه وطول عافيته أكثر مما رأينا من أدبه ومحنته.

فالحمد لله الذي هدانا بأنواع الهدى، وصرفنا بحكمته عن الضلالة والردى، فكم في الدنيا من مصيبة هائلة، وكم فيها من فجيعة نازلة، وكم نائم لم يبلغ الصباح، ومصبح أودى قبل أوان الرواح، فكيف يرقد عين لبيب لم يعرف محله وهو ينظر في تلك النومة أجله.

فوالذي أنا في يده ما نمت مذ عقلت نومة حتى أناقش نفسي وأتذكر ما اجترحت في يومي وأمسي؛ لأن النائم ربما حيل بينه وبين انتباهه كما يحال بين اليقظان وبين منامه، وهذه الأصول يكتفى بها في صنع الله الجليل عن الإكثار والمباعدة والتطويل، بل يكتفى من ذلك بأقل القليل.

وأما تحسين الله لبعض البهائم وتقبيحه لبعضها ففي ذلك عجب عجيب من أمرها، وذلك أنه أنعم على بعضها بالكمال وأكرمها ورحمها بالجمال، فصارت في هذه الدنيا مكرمة بسبب كمالها، وأنعم عليها أربابها لجمالها، وهي في أنفسها نعمة لأهلها، وما كان من البهائم قبيحاً مشيهاً وكان مهيناً معيباً دنيّاً، فذلك ممتحن بدناءته وضعفه ليثيبه الله في الآخرة بلطفه، ويرفعه بذلك

النعت في يوم المآب، ويكرمه كرامة أهل الثواب، ويثيب من رحمه في الدنيا وأكرمه ولطف بمن لطف به ونعمه، فتقربوا إلى الله بإكرام هذه العجم، وارحموها وتصدقوا عليها بالصدقات، وأكرموها ولا تعموا شيئاً من الحيوانات ما قدرتم على السرور، ليدفع الله عنكم المصائب والشرور، ويسلمكم برحمته من المحذور، وقد يكون من العباد من لا يقدر على جاد البهائم وجيادها، فيلطف الله له بضعاف الدواب وأنكادها، وربما كره الله بعض الدواب لينزعه إلى من يحتمل عليه ويصيره لهذا السبب إليه؛ لأن الله ربما نزع الأرزاق بالأسباب، وذلك من لطف الله رب الأرباب، ولولا أن الله بلطفه كره بعض الأمور وجعله معيباً قليل السرور، لما انتفع مع الغني الفقير، ولو جعل الله الأشياء كلها عليّة وجعلها محبوبة سنية لما انتفع من الفقر إلا القليل، ولمنعهم من ذلك الدني البخيل، ولكن أسرار حكمة الله فيها من المنافع أكثر مما ذكرنا، ويُكتفى من ذلك بما قلنا.

[ابتلاء الله لأوليائه]

ومن سأل عن مؤمن جعله في هذه الدنيا عمياً، فيقال: هل من صفة حكيم أن يعمى له ولياً؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: ذلك دليل على رحمته وإحسانه إذا جاد على وليه بكمال إيمانه، فضرب بين وليه وبين المهالك حجاباً، ولو بصره في الدنيا لكان ذلك إلى النار بابا، والله سبحانه نعم الطبيب ونعم الولي، والسيد والحبيب، فإذا علم في عباده من ينتفع بالعلاج من داء داواه، وإذا داوى عليلاً بدواء

شفاه حتى يبرأ من علته الهائلة، التي لا تُرى ولا يدري بها أهل الشك والامتراء، وكم عليل في أعداء الله لم ينفع فيه العلاج، ولم يستقم للمثقف منه الاعوجاج.

فإن قال: فهلا داوى وليه بدواء سهل يستر دون العمى، فقد زعمتم أنه أحكم الحكماء؟

فالجواب في ذلك: أنه لا ينفع فيه دواء غير ما عنيت، ولا يبرئه من التلف غير ما ذكرت، والحكيم إذا علم شرين اختار أسهلهما وأسلمهما وأهونهما على وليه، فلما علم الحكيم سبحانه وعز عن كل شأن شأنه أن وليه لا يسلم من هلاك نفسه أو من هلاك بعضه اختار هلاك بعضه؛ لأنه أمثل من هلاك جملته كله، وجعل ذلك سبباً لنجاته، ودواء كريهاً لذهاب عِلته، وسلماً إلى سلامته وحياته، فإذا كنت لله ولياً وكنت حبيباً إليه مرضياً، ونزل بك بعض ما ذكرنا من الآفات، فذلك سبب لنجاتك من المهلكات، والحكيم ربما قطع العضو لسلامة البدن جميعاً، وربما اختار على الموت دواء فظيعاً.

ودليل آخر: أن هذا الذي عتبت على الله محنة من أرحم الراحمين، جعلها للفرق بين أهل العتب على الله والمادحين، ليثبت على ذلك أولياؤه الصالحين.

ودليل آخر: أن الله ملأ الدنيا محنا، وجعلها دار محنة وعناء، ووعدهم فيها بأنواع المصائب والفناء، وأراهم كل حسن منها يؤول إلى القبيح والدنا، وكل طيب منها يعود مُنتِنا، ليزهدوا فيها جميعاً كل الزهد، ويبعدوها من خواطرهم أشد البعد، فأي حسن منها لا يرجع قبيحاً، وأي عزيز منها لا يؤول طريحا،

أليس قُصارى كل محبوب أن يرجع مفيتاً، وكل مجموع منها يكون شتيتا.

ودليل آخر: أن العذر القبيح مثل من الأمثال يزهد من عقل في الحرام والحلال، أليس قصاراكم أيها الغافلون ونهايتكم يا جاهلون أن تصيروا عند الموت قذراً من الأقذار، يحتاج إلى الدفن بالتراب والإستار؛ لأنه عورة شنيعة من الأعوار، فيا ويح من تكبر على المماليك والأحرار، وأوله سر ضعيف من الأسرار، وآخره جيفة وشر من الأشرار، وأي عزٍ وأي شرف لمن أوله بول من الأبوال، وآخره قذر نذل من الأنذال، حقيق على ذلك أن يزهد في دنياه ويقبل صاغراً على طاعة مولاه، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله وسلم تسليماً.

كتاب
الرحمة وابتداء الله تعالى بالنعمة



كتاب الرحمة

وابتداء الله لعباده بالنعمة وما يجب عليهم من شكره

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على ما أنعم به علينا وأسداه من الجميل إلينا، فكم من نعمة علينا لا نحصيها، وأياد منه لا نجزيها، فأوجدنا برحمته بعد عدمنا، لينفعنا بإيجاده لنا لغير حاجة منه إلى إيجادنا ولا فاقة إلى عبادتنا، ولا لصلاح عمل تقدم منا، بل تفضل علينا برحمته، وامتن علينا بإظهار حكمته، وجاد علينا بفواضل نعمته، فأي نعم ما أسبغها وأي حكمة ما أبلغها، فالحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وكثرنا بعد قلتنا، وقوانا بعد ضعفنا، وأنمانا بعد صغرنا، وعلمنا بعد جهلنا، وبصرنا بعد غفلتنا، ودلنا على رحمته ورأفته بما لا نحصي عدداً من نعمته، ولولا أنه أرحم بنا من أمهاتنا وآبائنا لما جبلهم على محبتنا، ولما فطرهم على رحمتنا، ولما اضطرهم على كفالتنا، فهل يقول أحد يعقل من الناس كلهم أن العباد خلقوا رحمة أولادهم وسلالة أنفسهم وأكبادهم، هيهات هيهات، كيف لهم بذلك وأنى لهم أن يكونوا في القدرة كذلك!

ثم اعلموا رحمكم الله وهداكم، ونجانا من العماية ونجاكم، ووفقنا لطاعته وإياكم، أن شكر المنعم واجب على بريته، ولا يصح الشكر إلا بعد معرفته،

فرحم الله عبداً اجتهد في طلب الدليل على ربه، وأجد في عمارة قلبه ومعرفة مولانا تخرج على وجهين، وتنقسم في المعقول على قسمين، فأول المعرفة معرفة الذات، والوجه الآخر معرفة الصفات.

[معرفة الذات]

واعلموا أن معرفة صفاته لا تصح إلا بعد معرفة ذاته، وأقرب الأدلة لنا عليه وأسرعها داعياً إليه ما شاهدنا من آثار صنعه فينا، وذلك أنا نظرنا إلى انفسنا فإذا هي أقرب الأشياء إلينا، فرأينا كل جارحة من جوارحنا قد جُعلت لمصلحة من مصالحنا، فعلمنا أن الإصلاح لا يكون إلا من صانع عالم؛ لأنه لو كان جاهلاً لما اهتدى إلى الصلاح، وكذلك دلنا على قوته وقدرته ما شاهدنا من نفاذ مشيئته، ولو عجز لما نفذت إرادته، ولو ضعف لما تمت صنعته، ودلنا على حياته ما رأينا في أنفسنا من حكمته، والميت لا يكون حكيماً ولا يكون مدبراً عليماً، ودلنا على قدمه وأزليته أنه لو كان محدثاً كبريته لتعذر عليه خلق أجسامهم كما تعذر عليهم خلق أمثالهم، لأنه لو كان محدثاً لكان جسماً، والجسم لا يخلق لحماً ولا دماً، وإنما يفعل الجسم حركة أو سكوناً.

ودلنا على وحدانيته عدم دعوة غيره لبريته، فعلمنا أنه لا خالق سواه، إذ لم يدع أحد من الربوبية دعواه، ولو كان معه رب لبين حكمته ولما أخفى أبداً ربوبيته، ولما أسقط كرمه ورحمته ولأظهر وأسبغ نعمته، ولما أخمل ساعة ذكره، ولشهر فضائله وأمره، فإن منعه من إظهار حكمته مانع فالممنوع عاجز مصنوع لا صانع، والصفات القديمة فهي لله جل جلاله، وعظمت نعمته وأفضاله.

[صفات الله ذاته]

فإن قال: وكيف يكون الواحد هو الصفات الكثيرة الحياة والقدم والعلم والقدرة؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: سيدنا أعلم أن هذه أسماء لخالقنا يجوز أن يدعوه بها، كما يجوز لنا أن ندعوه بغيرها، كما يجوز أن نسميه الله الرحمن الرحيم، الحي القادر القديم العليم، ولو كان العلم والقدرة غير الحي القديم لكان الله اسماً غير الرحمن الرحيم، وإنما هذه كلها أسماؤه الحسنى والاسم أبداً فغير المسمى، والقدرة عندنا فهي الله القدير، وكذلك العلم فهو الخبر الذي لم يزل وهو الله الخبير، فأما هذه الألفاظ التي هي الحروف والكلام اللين المعروف فهي غير خالقنا؛ لأن الكلام هو صفتنا وفعلنا، والله خالقنا وفاعلنا.

والدليل على أن الله هو العلم وهو القدرة وهو الذات وهو الموصوف وهو الصفات أنه ليس ثم إلا شيئان معروفان خالق أو مخلوق، محدث أو قديم، رب أو مربوب، ولا تخلو هذه الصفات من أن تكون قديمة أو محدثة، فإن كانت قديمة فلا نعلم قديماً سوى الله، وهي الله إذا صح قدمها.

وإن قلت: إن العلم والقدرة محدثان أوجبت أنهما قبل حدوثهما معدومان، وإذا علم الله وقدر بعد أن لم يكن عالماً قادراً، فقد كان قبل ذلك عاجزاً جاهلاً، ومن قال بذلك فقد برئ من التوحيد وكفر بالواحد المجيد، فنعوذ بالله من الكفر برب العالمين، ونسأله النجاة من الحيرة في الدين.

وأيضاً فلا يخلو علم الله الذي أحاط بالأشياء من أن يكون عدماً أو موجوداً.

فإن قلت: إن علم الله عدم جهلته، وإن قلت: إن علمه موجود وجدته.

وكذلك لا يخلو هذا العلم من أن يكون حقاً أو باطلاً، فإن قلت: إن علمه باطل أثبته جاهلاً، وإن قلت: إن علمه حق فهو الله، إذ ليس مع الله شيء قديم حق سواه.

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم صلوات الله عليه: وإذا أردت أن تتحقق الأشياء كلها، وأردت إن شاء الله أن لا تجهلها فاصرفها إلى هذه الأوجه التي ذكرنا، فلن تجدها إلا على الحالين اللذين عبرنا، وهما الحدوث والقدم، والوجود والعدم، فكل حقيقة فلابد من وجودها أو عدمها، ولابد من وجود الذات أو من قدمها، فمن هاهنا يصح الحق ويبطل المحال، ولا يثبت ما فسد من المقال، وهذا القول فهو قول سيدنا العالم صلوات الله عليه، وقد روي عنه غير ذلك، ونسب إليه.

وكذلك هذا القول عن أمير المؤمنين الهادي إلى الحق المبين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وذريته الأخيار الصالحين، وليعلم من سمع لنا قولاً أنه منهما وأنَّا إن شاء الله لا نتكلم بخلاف قولهما، ولا ندين الله بغير دينهما ودين من احتذى بحذوهما من ذريتهما، فمن سمع لنا كلاماً فليعرضه على كلامهما، فما خالف قولهما فليس لنا وما وافق ذلك فهو منا، وليس ما روي كان حقا، ولا ما سطر كان صدقاً، مما يخالف علماء آل الرسول، وتجب له ثواقب العقول[1].

---

(١) وفي كلامه رضي الله عنه هنا تأكيد على أن مذهبه مذهب آبائه الطاهرين، وما روي عنه من الأقاويل يجب عرضها على أقوالهم، فما وافقها فهو قوله ومقصده وما خالفها فليس بقوله ولا معتقده.

باب
تفسير الكرم والحكمة

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم صلوات الله عليه:

إن سأل سائل فقال: أتقول أن الله لم يزل حكيماً ولم يزل في القدم كريماً؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: إن الحكمة تخرج على وجهين، وكذلك الكرم أيضاً على معنيين، فحكمة هي من المحدثات، وحكمة هي من أكرم الصفات، فأما الحكمة المحدثة فمثل القرآن والتوراة والإنجيل، ومثل خلق السماوات والأرضين، وما بث فيهما من المخلوقين.

وأما الحكمة الأزلية والصفة الكريمة الأولية فهي العلم الذي أحاط بالأشياء خيراً، وفطرها كيف شاء فطرا، وكذلك الكرم فكرم هو عظمته وجلاله، وكرم هو نعمته وإفضاله.

فأما الكرم الذي هو النعمة والإفضال فمحدث من صنع ذي الجلال.

وأما الكرم الذي هو عظمته فهو قوة الله وقدرته وقوة الله فهي ذاته.

باب
تفسير الحلم والرحمة

قال الإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم صلوات الله عليه:

إن سأل سائل مسترشد، أو قال قائل متعنت ملحد: أخبروني ما الحلم في ذاته وما حقيقة صفاته؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الحلم يخرج على وجهين: فوجه هو الإمهال والإنظار، ووجه هو العقل والاصطبار، تعالى عن ذلك الواحد القهار.

فأما حلم الله: فهو إنظاره للمذنبين وعفوه عن المسيئين، وتكريره الرسل إلى الكافرين، ليكون ذلك أكمل لحجته، وأعظم لفضله ونعمته، والحلم فهو من الصفات المحدثات، وليس هو من صفات الذات؛ لأنه لو كان لم يزل حليما، لوجب أن يكون المذنب الذي حلم عنه قديما.

وأما الحلم الثاني: الذي هو العقل فهو من صفات المحدثين، وما يتعالى عنه رب العالمين، وإنما سمي الحليم حليما إذا حلم عند غضبه، ومعنى قولهم حلم أي لزم نفسه وكظم، ولزم النفس عند الغضب، فلا يكون إلا بالعقل الذي هو الحلم والفضل، وإنما سمي بالعقل عقلاً لعقله وإيثاقه وإمساكه عن

القبيح، وإطلاقه وقلة عجلته وقلقه وصبره على الغيظ وحرقه، وإنما اشتق العقل من عقال الإبل وحفظها وهو الرباط في كلام العرب ولفظها، والعقل فهو على وجهين مختلفين ومعنيين غير مؤتلفين، فعقل أصيل ركبه الله للمكلفين وفطر عليه جميع المتعبدين، وعقل هو من فعل المخلوقين وهو الانتفاع بما ركب الله من عقولهم والاستعمال له في كل أشيائهم، فمن صرفه فيما أمر الله به فقد عقل، ومن لم يصرفه في ذلك فلم يعقل، فمتى ينفع العقل إذا أهمل، وكيف لا ينفع إذا استعمل، وإنما مثل العقل للنفس الطامحة إلى الشهوات كمثل العقال للسائمة عن وخيم النبات، فمتى أهملت النفس من العقل هلكت، كما إن أهملت السائمة من العقال عطبت، والنفس أعظم إتلافاً لصاحبها من العدو الجاهد في عطبها، فنسأل الله أن ينفعنا بما وهب لنا من عقولنا، وأن يعيننا على جهاد أنفسنا.

وأما الرحمة من الله: فهي النعمة التي أنعمها على العباد والرزق الذي بسطه في جميع البلاد.

وأما الرحمة التي هي من صفات الآدميين: فهي رقة القلوب للمرحومين، وذلك فتعالى عنه أرحم الراحمين؛ لأن الرحمة خاطر يخطر على القلوب، ويتعالى عنه علام الغيوب، وكذلك يقول إن الرضا من الله هو الثواب، والسخط هو الهوان والعقاب، وأما في المخلوقين فعرضان لمحالهما شاغلان.

وأما اللطف: فهو محدث؛ لأنه لو كان لطيفاً لم يزل لكان الملطوف معه في الأزل، واللطف يخرج على وجهين:

فوجه هو الرفق في الأمور والرحمة والأناءة، والفضل والحكمة.

والوجه الآخر: فهو لطف الأجسام ودقتها وصغرها ولينها ورقتها، فأما الصغر فلابد له من مصغر نقصه والطفه وأدق خلقه والحفه، والانه كما شاء وأرهفه، وهذه صفات المصورين وتدبير أجسام المدبرين.

وأما اللطف في الأمور ودفع الآفات والشرور فذلك من صفات الواحد القدير، العالم السميع البصير، فمن ذلك اللطف الذي ذكرنا وبه في الله قلنا، ما جعل في خلقه من المصالح، التي في الأبدان والجوارح، ومن لطفه ورحمته بعباده ما بسط لهم من الأرزاق في بلاده، ومن ذلك ما جعل من غذاء الأطفال بلطفه لما علم من فاقة الطفل وضعفه، فألطف له الغذاء في حال صغره ثم أغلظ له الغذاء لكبره، فلطف له في كلا الحالين، ورحمه بهذين الغذائين، وعطف قلوب الآباء والأمهات على الأطفال بالمن والجود منه والإفضال، فلما أغناهم عن الرضاع بالفصال خفف بذلك عنهن بعض أحوالهم، ولطف لهن بفصالهم، ثم لطف للأطفال بكبرهم وأنماهم بعد صغرهم، وقواهم بعد ضعفهم، وافترض عليهم بعد كمالهم مكافأة أمهاتم وآبائهم بالطاعة والبر إن كانوا مؤمنين، وبما افترض عليهم موقنين، وافترض عليهم أن يستغفروا لهم ولا يغلظوا في القول لهم، فنسأل الله أن يغفر لنا ولمن ولدنا من المؤمنين.

اللهم فاخصص بصلواتك ورحمتك وبركاتك ومغفرتك عبدك ورسولك ووليك ونبيك البر الزكي الطاهر النقي محمداً خاتم النبيين وأهل بيته الطاهرين.

اللهم يا مولاي وأحسن عنا جزاه وأكرم في الجنة مثواه، ووال من والاه وعاد من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله.

باب
تفسير الإرادة والمشيئة

قال الإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم صلوات الله عليه: الإرادة هي المشيئة، والمشيئة هي الإرادة، فإرادة الله هي مراده، ومراده قصده، وقصده فعله، ومعنى كلما ذكرنا وبه في إرادة الله قلنا معنىً واحداً هو الفعل لا غير ذلك.

فأما إرادة المخلوقين فهي: عرض خاطر يخطر في قلوبهم ويتعلق بأنفسهم، وذلك العرض فهو شهوة ومحبة وضمير ونية، واعتقاد، والله يتعالى أن يكون محلاً للأعراض، أو مكاناً للشهوات والأمراض؛ لأن الأعراض لا تحل إلا في الكل أو البعض والكل والبعض محدثان، وهما عن الله منفيان؛ لأن كل شيء دليل على نهايته ونهايته يدل على انقطاعه وغايته، وما كان له حد ومنقطع فله محدد قاطع ومفتطر خالق صانع، وما كان له بعض لم يخل من أحد وجهين:

[١] إما أن يكون مجموعاً إليه فيكون موصلاً.

[٢] وإما أن يكون منفصلاً عنه فيكون مفصلاً.

والتوصيل والتفصيل محدثان مخلوقان متناهيان، وليست الإرادة والمشيئة كالعلم والقدرة الأولية وغيرهما من الصفات الأزلية؛ لأنه لو خلا من العلم

لكان جاهلاً، ولو خلا من القدرة لكان عاجزاً، ولـو خـلا مـن الحيـاة لكـان ميتاً، والإرادة والمشيئة فإن خلا منهما لم يلحق به نقص في حدثهما، ومما يـدل على فساد قول من قال بقدم الإرادة أنه لو كان مريداً لكان الخلق معـه قـديماً وهـذا متنـاقض عنـد ذوي الألبـاب؛ لأن الفاعـل أبـداً قبـل فعلـه في جميـع الأسباب، وفي كون المريد قبل مراده دليل على حدوث إرادته وإيجاده.

وأيضاً فإن الإرادة على وجوه مختلفة، وأسباب غير مؤتلفة، وكلـها فـبين معروف، وبالحدوث قبل القدم موصوف.

[١] فإرادة نهي وأمر.

[٢] وإرادة حتم وجبر.

فأما إرادة الأمر والنهي فهي إيصالهما إلى العباد وأمـره بالفعـل والإيجـاد، وأما إرادته للسماوات والأرضين وتكوينه لجميع المخلوقين، وجبره للأجسام المحدثين، وخلقه لأرزاق المرزوقين، والأمر قبل أمره والجابر أبـداً قبـل جـبره، والأمر والنهي على وجهين محدثين ومكونين بعد العدم موجودين، والأجسام فمحدثة مصنوعة ومفرقة بإذن الله ومجموعة، لا يمتنع من قبـول ذلـك عاقـل ولا يشك فيه إن أنصف جاهل، ولا تكون الإرادة أبـداً قبـل مـراده، فيكـون كإرادة عباده، ولا يكون فعله قبل إرادته فيكون فعله بغير مشيئته، ولـو فعـل ذلك كان كالغافل الناسي من بريته؛ لأن من فعل فعلاً بغير قصد ولا اعتمـاد ففعاله خطأ وغفلة وفساد، والله يتعالى عن صفة العباد وإنمـا إرادة الله قصـده وقصده فعله، وفعله عمده، وعمده إيجاده، وإيجاده إرادته، وإرادته مراده.

فإن قال: إنما أصفه بقدم الإرادة لقوته عليها؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: إن وصفك له بقدم المحدثات كفر بالله فاطر السماوات؛ لأنك أشركت صنعه معه في الأزلية.

وحقيقة القدم هو الله القديم الخالق الرحمن الرحيم.

ولو قال قائل: إن الله يريد ولا يريد لكان صادقاً، ولو قال إنه يعلم ولا يعلم لكان كافراً فاسقاً، ألا ترى أنه يريد الإيمان والإحسان ولا يريد الكفر والعصيان؛ لأنه إذا أراد الإيمان ولم يرد الكفر كان عادلاً، وإذا علم الإيمان ولم يعلم الكفر كان جاهلاً، فهذا فرق بين صفة الذات وبين صفات الأفعال المحدثات فسبحان من هو على كل شيء قدير، وبكل الأشياء عليم خبير.

باب
تفسير البقاء والدوام

قال المهدي لدين الله الحسين بن القاسم صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين:

بقاء الله: هو دوامه، ودوامه قوته، وقوته قدرته، المعنى في ذلك واحد، هو ذاته.

وأما بقاء المخلوق: فهو ثباته وحدته وكذلك دوامه هو ثباته ومقامه، والحدة والإقامة عرضان، وهما في الأجسام حالان، والله يتعالى عن الحدة والخلوق، ويجل عن شبه كل مخلوق.

باب
تفسير العدل

العـدل: صفة من صفات الفعل، فكل ما فعله الحكيم ففيـه العـدل، وإنمـا سمي العدل عدلاً في كل ما كان لله سبحانه فعـلاً لاعتدالـه وقوامـه وحسـنه وتمامه، وثباته، فهل يقول أحد يعقل أن الظلم عدل حسـن، أو أن الكفـر تمـام مـتقن، هـذا مـا لا يقـول بـه أحـد مـن ذوي الألبـاب، ولا ينسـبه إلى الله رب الأرباب.

فإن قال سائل: ما عدل الله في خلق الجمادات؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: لا يقـال للحكـيم لم فعـل إذا كـان حكيمـاً، وكـان بجميع الأمور عليماً؛ لأن الحكيم لا يفعـل فعـلاً إلا لمصـلحة وحكمـة، فـإذا علمت ذلك وجب عليك التسليم له في جميع فعله لعلمك بحكمته وعدله.

وأيضاً فإن العقول تصل في غـور حكمتـه، وتشـهد بفضـله ورحمتـه، وإن أدركت عقولنا شيئاً من حكمة خالقنا، فإنا نعلم مع ذلك أنها تقصر عن غاية صنيع سيدنا ولن تدرك عقولنا من ذلك إلا مـا شـاء سـبحانه، وفي ذلـك مـا يوضح عدل الله وإحسانه، وفي أقل قليل ذلـك بحمـد الله الشـفاء والبرهـان،

والحكمة والرحمة والإحسان، وذلك أن مولانا سبحانه أنعم على المكلفين بما صنع من السماوات والأرضين، وجعل ذلك نعمة للمؤمنين، وحجة وتفضلاً على العاصين، وحكمة أبانها لعباده الموقنين، فكلما صنع مما عنه سألت فلنعمة الابتداء ولبيان الحكمة والهدى.

[أصناف الخلق]

وأما البهائم والأطفال فجعلها الله للثواب على ما امتحنها من الأسباب، وجعل الخلق على ثلاثة أصناف:

فصنف: هم المتعبدون الملائكة والجن والآدميون.

وصنف: من الحيوان والأنعام وما لا يحصى من الأنام وأمم قبائل الهوام.

والصنف الثالث: فهو جميع الموات الأرضون والسماوات والأهوية والماء والنبات، وفي جميع ذلك العدل والثبات، والآيات البينات، فأما سادتنا الملائكة المقربون والأنبياء والمؤمنون والمتعبدون أجمعون، فإن الله جاد عليهم بنعم لا تحصى، وأيادٍ عظيمة لا تجزأ، ولأن أجهد المتعبدون غاية جهدهم وبلغوا الغاية في عبادة ربهم لا قامت عبادتهم بسلامة جارحة واحدة من جوارحهم، ولا بنعمة من نعمهم، ولا بصرف محنة من محنهم، ولم يرد الله بعبادتهم إن يجازوه، ولا أراد منهم أن يكافئوه، ولا أوجدهم لينفعوه، وإنما أوجدهم لإظهار حكمته، وأظهر حكمته فيهم لنعمته، وأنعم عليهم برحمته، وتعبدهم بشكره ليظهر الحسن من فعلهم وليكافيهم على شكرهم، وإنما تعبدهم بشكره؛ لأن شكر المنعم واجب والأمر بالواجب عدل.

ودليل آخر: أنه لا شيء أحسن من تركيب القوة في الأجساد والاستطاعة في جميع العباد، وإذا كان ذلك حسناً في المعقول من فعل الواحد الحكيم الجليل، فلابد أن يأمر بصرف ذلك في البر والرشاد، أو في اللهو واللعب والفساد، فالعقول تشهد أن الحكيم لو أهملهم من الأمر بالطاعة لضلوا وفسدوا ولما اهتدوا أبداً ولا رشدوا، فمن هذا الوجه وجب أن يرسل إليهم الرسل بفضله وحكمته في الأمور وعدله.

فإن قال: أليس قد زعمتم أن العقول كافية وأنها حجج وبراهين شافية؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: إن العقول لا تعجز عن تمييز الخيرات من الشرور، ولا تكل عما استعملت فيه من الأمور، فإما أن تدرك فروض رب العالمين أو تستوعب جميع شرائع الدين، فهذا ما لا يوجد في العقول، ولا يتهيأ إلا بالكتاب والرسول؛ لغلبة ما فطر الله من الهوى وأشغال حلاوة الدنيا ومنازعة الأنفس إلى ما تهوى، والعقل فإن كان شاهداً عدلاً وكان الخير عنده من الشر أولى وأحسن وأبين فضلاً، فإن في الأنفس من فطرة الشهوات ومنازعتها إلى اللذات ما يُحَسِّن كل قبائح الأمور لغلبة الفطرة على المفطور، فما الذي يزجره عن الحرام، ويفرق له بين البر والآثام، إذا لم يكن ثم شرائع إسلام، وتبيان كل حلال وحرام.

فأما الذي لا يعذر فيه أحد من الأنام في بلاد الكفر والإسلام، فهو شكر المنعم على ما أنعم به واتباع الحسن في كل أسبابه والتفكر في هذا الصنع العجيب، والإقرار بحكمة الحكيم، والبحث عن المحدث والقديم، فإن من كان من همته الإحسان فأخلق بهدايته من الرحمن؛ لأن الرحيم إذا علم بصحة النية وسلامة القلب والطوية كان حقيقاً عليه أن يهديه للصواب، ويوفقه لأفضل الأسباب.

ألا ترى أن الحكيم من المخلوقين إذ علم بإحسان المحسنين كان أعظم لحرصه على هدايتهم، وأكثر عنده لرحمتهم، فكيف بمن زادت رحمته على رحمة الآباء للأبناء، وزادت حكمته على حكمة الحكماء، وهو أرحم الرحماء، فأقسم بالله لهو أرحم من الأم بولدها، إذ كان أصل كل رحمة من رحمته وكل حكمة فمن حكمته، وكل علم فمن تعليمه ولطفه بالعباد وبفهمه، فنأياً وبُعداً لمن يرغب عن مواصلته، ولا أفلح من أعرض عن محبته.

[ابتهال]

اللهم يا مولاي إنك تعلم بمحبتي لك، وما يضمر قلبي من مودتك، وتعلم يا حبيبي وسيدي بمحبتي لأوليائك وإن بعُدَت أنسابهم، وتعلم بعداوتي لأعدائك ولو قربت أرحامهم، فأسألك يا كريم أن ترحم ضعفي ومسكنتي، وفقري إلى رحمتك وفاقتي، وترحم من ولدني من المؤمنين والمؤمنات جميع سادتي الصالحين والصالحات، وأسألك يا رحيم يا حكيم يا لطيف يا حليم أن ترزقني نصرة أوليائك المحقين، وخدمة عبادك المهتدين، وأن تمن عليَّ بجوار سيدي محمد خاتم النبيين، وسادتي أهل بيته الطاهرين، وأن لا تحرمني زيارة سادتي أنبيائك الصالحين، ومرافقتهم في جنات النعيم.

اللهم إنك خلقتني لتنفعني بإيجادك لي عن غير حاجة منك إلى خلقي ولا فاقة إلى عملي، فسبِّب لي أبواب نجاتي، واستر فضائحي وزلاتي، حتى تبلغني ما آمله برحمتك خلقتني.

اللهم يا كريم قد علمت ما يضمر قلبي من خوفك فأمن خوفي، وراحم

ضعفي، اللهم إني لا أخاف إلا من ذنوبي أن تحبط عملي، ولا أحزن إلا من سوء فعلي، فإن رحمتني فبفضلك، وإن عذبتني فبعدلك، فيا حزناه يا مولاي كيف أنجو بعملي وهو لا يساوي شربة ماء مما سقيتني ولا إشباع جوعة مما أطعمتني، ولا عافية ساعة مما عافيتني، ولا شفاء مرضة مما أمرضتني.

اللهم يا مولاي إن جسمي يضعف عن قرص القملة على صغرها فكيف يا مولاي أصبر على جهنم وحرها! فيا ويح جسم عصى الرحمن وهو على غاية الضعف والهوان، والمسكنة بين أطباق النيران.

اللهم لك الحمد يا سيدي كما أعنتني على جهاد نفسي بما أريتني من ضعفي وذلتي.

اللهم يا كريم إني لا أدري كيف محضري غداً بين يديك ولا بما أعتذر إليك، إذا ورد علي كلما قدمت وأحضر إلي كلما عملت، وأوقفت على الحساب، وأوتيت بالكتاب، وسئلت عن جميع الأسباب، وطلب مني الجواب، فليت شعري يا سيدي أتختم على لساني وتنطق جوارحي بما عملت من الذنوب، فيكون ذلك بعدلك أتعفو عني فيكون ذلك برحمتك.

ويا ليت شعري يا كريم أتعطيني كتابي بيميني أم شمالي فيكون ذلك بسوء فعالي، فيا أسفاه يا مولاي ويا خزياه على ما عملت، ويا لوعتاه على ما فرطت إلا أن ترحمني وتعود بقدمك على حدوثي، وبعلمك على جهلي، وبقوتك على عجزي وبعزتك على ذلي، وبعظمتك على صغري، وبحلمك على سوء فعلي، وبكرمك على لؤمي، وبغنائك على فقري، وسؤددك على عبودتي.

اللهم يا كريم ارحم في الدنيا ضعفي وارحم في الآخرة ذل موقفي، إذا أتيت أنسل كالفراشة الطائشة عند معاينتي للأهوال، وشدة الأحوال، ودك الأرض وزفرات جهنم وشهيقها، ونغصها ولهبها، ولا تجعلني يا مولاي من حطبها، فلا صبر لي يا كريم على عذابها.

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطاهرين وسلم تسليماً.

كتاب
التوفيق والتسديد والآداب

مما أجاب به على حسان بن محمد النوفلي أحد أصحاب الإمام



كتاب التوفيق والتسديد والآداب

[مما أجاب به الإمام المهدي لدين الله الحسين بن الإمام القاسم بن علي صلوات الله عليهما على حسان بن محمد الخولاني

بسم الله الرحمن الرحيم، سألت يا أخي وفقك الله للسداد، وخصك من الهدى والرشاد، بأجزل مواهب العباد عن مسائل يخبط فيها من لم يعطه الله عطية التوفيق، ولم يسدده باليقين والتحقيق، فعسف بجهله عن غير هذا فلم يزدد من الحق إلا بعدا، وقد أصبت والحمد لله حقيقة اليقين وظفرت بأوثق وثائق الدين، فزادك الله رشداً إلى رشدك، وعلماً وتوفيقاً إلى علمك، فأنت أحق من جيء بالحكمة إذ أنت من أهلها][1].

[معنى التوفيق والتسديد]

فأول ما سألت عنه التوفيق والتسديد وما حقيقتهما ومعناهما؟

والجواب في ذلك: أن التوفيق والتسديد: هما العون من الله والتأييد، فمن أعانه الله على طاعته ووفقه لمرضاته، فقد وفقه لهداه، وسدده لسبيل تقواه، ولن يوفق الله أبداً من عصاه وأعرض عن الله واتبع هواه.

---

(١) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

ثم يقال لمن زعم أن الله وفق العصاة قبل توبتهم، وسددهم في حال معصيتهم: أخبرنا أيها الجاهل عن التوفيق والتسديد، والعون من الله والتأييد، أهما مكافأة للعبد على طاعته؟ أم عون للفاسق على معصيته، أم تأديب له من الله على غفلته لما علم من إنابته ورجعته؟

فإن قال: إنهما زيادة من الله للمؤمنين(1)، ومكافأة لعباده الموقنين(2)، فقد أصاب في قوله: [ورجع عن مكابرة جهله، وإن قال إن التوفيق معونة من الله للفاسقين فهذا لا يكون مع ضعف عقله بين المتعبدين، ولا يناظره أحد من المكلفين. فإن قال: إن التوفيق والتسديد أدب من الله للفاسقين فهذا ما لا يقول به أحد من الناس أجمعين؛ لأن الأدب نكال وعذاب وألم وجيع وأتعاب ونصب ومواقعة وغم وعقاب والتوفيق فإنما هو رحمة وصواب](3)، وأصل التوفيق مأخوذ من الموافقة للصواب، وموافقة الحق في جميع الأسباب، وكذلك التسديد مأخوذ من السداد، وإصابة(4) الحق والصدق والرشاد.

[لا ينكر ذلك إلا جاهل بلسان العرب أو متسلب العقل سيء الأدب، وليس يقول أحد يعقل أن الفاسق مصيب في حال فسقه، كما هو مصيب في حال إنابته وصدقه ، وكيف يكون الكافر لنعم الله موصوفاً بأخسر صفات المؤمنين وهو داخل بعد في أقبح صفات المجرمين، هذا ما لا يقول به الأخيل من الخبلان، قد أعمى الله قلبه وأصداه بالخذلان](5).

---

(1) في (ج): للموقنين.
(2) في (ج): للمؤمنين.
(3) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).
(4) في (ج): وأصله.
(5) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

واعلم يا أخي زادك الله علماً ولجانا وإياك من العمى أن التوفيق هو التسديد، وهو الهدى من الله والتأييد، وهو زيادة من الله للمهتدين، وإرشاد منه لعباده الراشدين، فمن قبل عن الله الهدى وشكره على نعمة الابتداء زاده هدى إلى هداه، وبصره وآتاه تقواه.

وأول توفيق الله وتسديده وعونه للمؤمنين وتأييده، أن يبصرهم معالم دينهم، [ويزيدهم في علمهم ويقينهم][1] ويعينهم بلطفه على جهاد أنفسهم.

وأول خذلان الله لأعدائه تركه لهم على ضلالتهم، واستدراجه إياهم بإغفالهم، فإذا خذلهم بالترك والإغفال لم يصيبوا رشداً في حال من الأحوال، ولم يزالوا مرتطمين في الضلال [لما غيروا من نعم الله وبدلوا وكابروا من الحق فلم يقبلوا حتى صدت قلوبهم عن الهدى، وعميت أبصارهم وأظلمت عن نور الحق فجهلت، فنعوذ بالله من العماية في الدين والضلالة عن الحق واليقين][2].

[معنى الشجاعة والجبن]

وسألت عن الشجاعة والجبن أهما من تركيب الله في الأجسام أم هما اكتساب من العباد؟

واعلم يا أخي أن الشجاعة على وجهين، وكذلك الجبن أيضاً على معنيين، فمن ذلك شجاعة المتعبدين، وشجاعة من لا يعقل من المخلوقين.

---

(1) ما بين المعكوفين زيادة في (ج).

(2) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

فأما شجاعة البهائم: فإلهام وتركيب من رب العالمين.

وأما شجاعة المكلفين وإقدامهم على ما يكرهون: فهي صبر منهم لدفع ما يخافون، واجتلاب منافع ما يريدون، ولا يتم ذلك لهم إلا بما ركب الله من الاستطاعة فيهم، ولأولياء الله من الصبر والاجتهاد، ما ليس لغيرهم من جهلة العباد[1]، وذلك ليقينهم بالمعاد، وزهدهم في الإقامة والإخلاد.

وأما جبن البهائم وذلها: فهو محنة من الله لها، ونعمة منه لغيرها، ليثيبها على ذلك عند حشرها، وبعثها يوم القيامة ونشرها.

وأما جبن الآدميين، فلا يخلو من أحد وجهين:

[١] إما أن يكون لعلة مرض أذلهم، ومنعهم من الجهاد وأملهم، وأضعفهم عن ذلك وأكلّهم.

[٢] وإما أن يكون ذلك زهداً منهم في الجهاد وميلاً إلى الراحة والرقاد.

فإن كان ذلك لعلة مانعة ومحنة عن الجهاد قاطعة، فلا يكلف الله سبحانه خلقه ما لا يستطيعون، ولا يسألهم ما لا يجدون؛ لأنه عز وجل أرأف وأرحم بهم من أمهاتهم وآبائهم.

وإن كان ذلك منهم ميلاً إلى الفساد، وكراهية منهم لحر الجلاد، وضنانه[2] بالأهل والأولاد، فسيفارقون صاغرين، ويرتحلون عنه مأزورين.

[**وسألت** عن رجلين سارا لحاجة بعينها فقضيت لأحدهما ولم تقض للآخر منهما أذلك بسبب من الله أم لا؟

(١) في (ج): ما ليس لجهله العباد.

(٢) في (ج): وصيانة.

والجواب في ذلك: أن كل سبب من الأسباب لا يخلو من أن يكون من رب العالمين، أو يكون من المخلوقين، فإن كانت هذه الحاجة من الله فهو الذي سهلها وفعلها له خاصة وجعلها، وإن كانت من العباد فهم الذين أنالوه حاجته وأوصلوه إرادته وطلبته، وإن كانت منه بحسن التدبير والاختيار واللطف والحرص والاحتيال فذلك منه بلطف التدبير والبصيرة، فيما قصد من الأمور.

وأما هذا الذي لم يقدر على حاجته ولم يظفر بإرادته فلا يخلو من أن يكون الله منعه وحبسه عن ذلك وقطعه، وإما أن يكون العباد منعوه ولم يوصلوه إلى حاجته ودفعوه.

وإما أن يكون منعه من ذلك سوء تدبيره، فلم يقدر على ما أراد لتقصيره][1].

[معنى السخرية]

وسألت عن قول الله سبحانه: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[الزخرف:٣٢]؟

والجواب في ذلك: أن الله عز وجل[2] سخر بعضهم لبعض تسخيراً، وجعل في ذلك حكمة وتدبيراً، ولولا تسخيره لما عاش ضعيفهم مع قويهم، ولما انتفع فقيرهم بغنيهم.

---

(١) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

(٢) في (ج): الله سبحانه.

[في تأثيرات الرياح]

وسألت عن الرياح تهب على إنسان فتسقطه في بئر أو تهدم عليه جداراً، فيموت أذلك من الله أم هو من الرياح؟

والجواب في ذلك: أنه لا يخلو:

[١] أن[1] يكون تعرض لذلك فأهلك نفسه.

[٢] وإما أن يكون ذلك بغير كسبه.

فإن تعرض للهلكة وألقى بنفسه إليها فقد أثم في نفسه واعتدى عليها، وإن كان لم يتعرض بشيء من ذلك حتى هجم عليه وورد بغير اكتسابه[2] إليه، فذلك من الله سبحانه صنع وتدبير، وتهلكة لعبده وتدمير، فأما الجدار والرياح فلا ينسب الفعل إليهما، ولا يقال به في سبب من الأسباب عليهما.

[في ما يتلفه البَرَد]

وسألت عن الغيث والبَرَد إذا تلف منهما تالف أو مات بأسبابهما [ميت][3]؟

(**والجواب في ذلك**): أن الله أتلفه بالبَرَد والمطر وأماته، وأذهب عمره بذلك وحياته، فأما الغيث والبرد فلا يعيان ولا يعقلان، ولا يقتلان أحداً ولا ينشران، ولكن أمات بهما وأحيا، ودبرهما[4] وهيأ، وجعل فيهما خيراً وشراً، وركب فيهما نفعاً كامناً وضراً.

---

(١) في (ج): وإما أن.

(٢) في (ج): اكتساب.

(٣) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

(٤) في (ج): ودبر بهما.

[حكم من سافر إلى بلد السدم]

وسألت عن الرجل أمأثوم إذا سافر إلى بلد السدم؟

(**والجواب**) [واعلم][1] أنه إن تعمد بذلك تلف نفسه فقد أثم، وإنما[2] السدم طبيعة حارة من جنس النار يقوى بأشكالها، وتبطل بخلاف أمثالها، وإنما ركب الله عز وجل أجسام العباد على أربع طبائع مختلفة، متضادة غير مؤتلفة، وهي: الحر والبرد، واليبس والرطوبة، وكل طبيعة من هذه الأربع تقوى بشكلها، وتبطل بضدها، فكل حار من الأغذية يقوى الحرارة التي في الجسد وينميها، وكل بارد من الأغذية يبطل الحرارة وينفيها، ويقمعها أبداً ويطفيها، وكذلك روي عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأما ما روي عنه من المقال بأن بلد الوباء يقرب في الآجال، فهذا فاسد من الرواية والمقال، ولا[3] يمكن أن يكون نهى عن بلد الوبا، لتعب الحر وأعراضه، ونكد عواقب السدم وأمراضه.

فأما الأجل فلا يقربه إلا الله عز وجل أو ظلم العباد، وتفريقهم بين الأرواح والأجساد؛ لأن الله سبحانه طبع الروح والجسم على الاجتماع والافتراق عند التغير والانقطاع، فإذا تغير الجسد خرج الروح بعد قراره وثباته، ومات الجسم وهلك بعد حياته، رحمة منه سبحانه للمخلوقين، وتنبيهاً بالضعف للغافلين، لينظروا إلى ضعف أنفسهم وأجسادهم، فيزهدوا في الدنيا

(١) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).
(٢) في (ج): فإنما.
(٣) في (ج): ولكن.

باجتهادهم، ويُقبلوا على طاعة ربهم، ويستعدوا للموت قبل حلوله بهم، حتى تخرج أنفسهم على أيقن اليقين، ويقفوا بين يدي الله على الحق اليقين[1]، ويسلموا بذلك من صفقة الحظ الغبين.

[**وسألت عن قول مولانا جل جلاله وسلطانه:** ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[البقرة:١٩٥] وهذا دليل على رحمته للعباد وكراهيته للهلكة والفساد][2].

[في الأجل المحتوم والمخروم]

وسألت عن المقتول هل بقي من أجله شيء أم قد اخترم القاتل أجله قبل وقته؟

واعلم [يا أخي أرشدك الله][3] أن الله عز وجل خلق الحياة خلقاً وأوجدها إيجاداً، فإن شاء قبض الأرواح وإن شاء تركها، فأما المقتول فقد علم بقتله، فلم[4] يجعل له أجلاً بعينه، ولو حتم له أجلاً موقوتاً لبقي إلى وقته ولما قدر أحد من المخلوقين على قتله[5].

[**وسألت عن المقتول بحكم الله** هل بقي في عمره شيء إذا لم يقتل؟

واعلم يا أخي أن هذا المقتول بحكم الله عز وجل لا يكون حكم الله متلفاً إلا بنفاذ أمره وطاعته، وقدرة إمام المسلمين وطاقته، وأما الله فلو أراد قتله

---

(١) في (ج): المبين.
(٢) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).
(٣) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).
(٤) في (ج) ولم.
(٥) هذه إشارة لطيفة، وقد يكون كلامه هذا حلاً وسطاً للمختلفين في مسألة أجل المقتول ونحوه بغض النظر عن كونه حقيقي أم تقديري.

إرادة حتم لأفناه ولو جبره على التلف لما أبقاه ولما مهله ساعة ولا أحياه، ولكنه أمر بقتله أمراً ولم يجبره على القتل جبراً][1].

[أضرار الهوام]

وسألت عن رجل كان يسير في طريق فلدغته حية أو غيرها من الهوام؟ وعن الجراد وأكله[2] للزرع أذلك من الله بإلهام أم هو من أنفس الهوام؟

والجواب في ذلك: أن الله عز وجل ألهم جميع الدواب والأنعام اجتلاب منافعها ودفع مهالكها، فإن كانت هذه العجم قصدت الملدوغ قصداً، وتعمدت هلاكه عمداً فذلك بإلهام الله ومشيئته.

وإن كان هو الذي تعرض بها[3] فذلك بإرادته، لأنه قصد شراً كامناً بمهجته، لأن الله عز وجل قد ألهمها نفي ما هجم[4] عليها، وإهلاك ما قصد إليها.

[لطف الله في البهائم]

وسألت عن البهائم هل معها عقول تعقل بها وتميز ما يضرها وينفعها؟

والجواب في ذلك: أن العقول لا تنسب إلا إلى المتعبدين، ومن كان من المهتدين والضالين، ولكن الله ألهم أنفس البهائم إلهاماً وجعل ذلك لحياتهن قواماً.

---

(١) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

(٢) في (ج): وأكلها.

(٣) في (ج): لها.

(٤) في (ج): ما يهجم.

[الأمراض]

وسألت عن الأمراض وما ينال الآدميين من وصب الأعراض، وذلك من الله لا شريك له وهو الذي صنع ذلك وجعله وركبه في الأجسام ونزله.

وأما ما يستعمله الناس من الطبائع فليس يقدرون على طبعه، وإنما يقدرون على تناوله وجمعه، وليس للعباد فعل في هذه السموم إلا الحركات، ولا ينسب قتل السم إلى الجمادات، وإنما هو محنة وهلكة من الهلكات، وإنما فعل العباد تفريق وجمع، ورفع ووضع، وصلة وقطع، وطاعة ومعصية، وسكون وحركة، وضمير ونية.

فأما الطبائع فهي من فعل الله وتدبيره، وحكمته وتقديره، ولا ينسب الفعل إليها ولا إلى جامعها، ولا يكون ذلك إلا من فعل صانعها.

[الجنون]

وسألت عن المرض الذي يسمى الجنون أهو من الجن أم (هو من فعل[1] الله) في المجنون؟

واعلم يا أخي أكرمك الله أن الجنون هو ما أجن العقل وستره، وحال بينه وبين المعقولات وغمره، ولا يكون ذلك إلا بملامسة العلل ودخولها، وجولانها في القلوب وحلولها، والجان فلا يتهيأ له الدخول، ولا يمكنه الملابسة والحلول.

---

(١) في (ج): (أهو فعل من الله).

[معنى المس في آية الربا]

وسألت عن قول الله سبحانه مولانا الواحد الجليل وما ذكر في أهل الربا من القول: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[البقرة: ٢٧٥].

وهذا مثل ضربه الله لمن يعمل بالربا كالمموس[1] وخبله، إذ لم ينتفع[2] ويزدجر عن الحرام بما ركب الله من عقله، والمسّ فهو الجنون، وإنما خاطبهم الله بما يعرفون؛ لأنهم إذا رأوا مجنوناً سموه مخبوطاً منقوصاً، وكان بذلك الاسم عندهم مخصوصاً.

[في عدم تأثير العين]

وسألت أكرمك الله عن العين وما يعتقد العوام من إصابتها للبهائم الحسان والأشجار المثمرة وغيرها[3].

واعلم يا أخي أن ذلك لا يصح عند من يعقل، ولا يقول بذلك من الناس إلا من يجهل، ولكنه ربما وافق أمر الله نظرهم، فيتوهمون أن ذلك منهم.

وليس يخلو نظرهم من أن يكون انتقل منه جسم إلى الشيء المعجب ولابسه[4]، ووصل إليه ولامسه، وإما أن يكون لم يصل شيء منه إليه، ولم يقع مما توهموا عليه.

(١) في (ج): بالمموس.
(٢) في (ج): ولم يزدجر.
(٣) في (ج) وغير ذلك.
(٤) في (ج): فلابسة.

فإن قالوا: إنه خرج من أنفسهم وأعيانهم جسم أمرضه، ووصل إليه وعارضه، فهذا الجسم لا يخلو من أن يكون لطيفاً، أو يكون عند خروجه كثيفاً.

فإن زعموا أنه خرج من أعيانهم وأنفسهم جسم كثيف أوجعه، وغلب الشيء المعجب وصرعه، أو أيبس الشجر وقطعه، فهذا محال لأن العين والنسمة ضعيفان، وهما مع ضعفهما لطيفان، وما كان من الأشياء كلها ضعيفاً، وكان مع ضعفه لطيفاً فيستحيل أن يخرج منه جسم كثيف.

وإن قالوا: بل خرج منه جسم لطيف فليس يخرج من العين والنسمة إلا ما هو ألطف منهما وأضعف، وأقل منهما وما كان ألطف من اللطيف، وأقل وأضعف من القليل الضعيف، لم يذهب في الأهوية إلا ضلالاً، وكان كلما نسب[1] إليه محالاً.

وقد علم كل عاقل أنصف عقله، ولم يتبع جنونه وجهله، أن ذلك لو صح لمدعيه، لما ترك على وجه الأرض أحداً يعاديه، وقد رأينا بالمشاهدة أعداءه أحسن حالاً، وأكثر منه ولداً ومالاً، فلو كان صادقاً فيما يدعي من المحال، وينتحل عند الرعاع والجهال، لما ترك أعداءه يوماً واحداً ولما ترك لهم مالاً ولا ولدا ولا أبقى في إلحاح النظر جهداً.

وقد أجمعوا على صحة هذا السبب غاية الإجماع، ولكن لا يلتفت إلى إجماع الرعاع؛ لأن همج الناس لا يفرقون بين العقول والأوهام، فمن هذا الوجه لا يتكل على إجماع الطغام، ولو أجمعوا على شيء يمكن في المعقول لما صدقناهم لما هم عليه من العقول، فكيف بتصديقهم في المستحيل، وما لا يمكن أبداً في العقول.

(١) في (ج): ينسب.

[بيان العقل]

وسألت عن العقل [ما هو](1) في ذاته: وهو عرض ركبه الله في قلوب المتعبدين، وجعله حجة على المكلفين، والعقل والنفس ضدان، وهما في القلوب متعلقان، والجسم والروح لهما موضعان، وأخفهما(2) بحمل النفس والعقل والروح، لأن العقل والنفس روحانان(3) وهما في ذاتهما عرضان، والنفس تنقسم على أقسام أضداد.

فمنها داع إلى الخير والرشاد، ومنها ما يدعو إلى الغي والفساد.

والعقل قسم واحد يقين، وأمين ناصح شاهد مبين.

فأما النفس فمنها الذكر والنسيان، وهما في القلب ضدان متنافيان.

وقسم ثالث هو الشهوات للذات.

والرابع ضد الشهوة وهو الكراهية للمكروهات.

والخامس الأمان وهو السكوت والاطمئنان.

والسادس ضده وهو الخوف [من المهلكات](4) .

والسابع من الأقسام ما يجول في النفس من الظنون والأوهام.

والثامن: ضده(5) وهو اليقين والحق الواضح المبين.

(1) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).
(2) في (ج): وأحقهما.
(3) في (ج): روحانيان.
(4) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).
(5) في (ج): ضده الوهم.

والتاسع هو السرور والفرح.

والعاشر ضده وهو الغم والترح.

والحادي عشر الرجاء والطمع.

والثاني عشر ضده وهو اليأس.

والثالث عشر الرحمة.

والرابع عشر ضدها وهي القسوة.

وكثير من هذه الأقسام يوجد بالمشاهدة في أنفس الأنعام، ولكنها[1] تنقسم في قلوب ذوي[2] العقول على أقسام، وتخرج على وجوه نخشى فيها الإمعان في الكلام، ولا فاقة[3] لأحد إليها من الأنام.

والنفس فهي تقلب[4] القلوب أطواراً، وتغيره حالاً بعد حال مراراً، فمرة تدعوه إلى الصالحات، ومرة تدعوه إلى المهلكات، ومرة تدعوه إلى العقل، ومرة تدعوه إلى الجنون والجهل.

وأصل الجنون وفرعه خلق هذه الأقسام بغير عقل ولا زمام، وإذا كان العقل مع هذه الأسباب سترها، وعلا نوره عليها فغمرها، وإذا خلت الأقسام بأنفسها من العقل، جالت في أنواع القبائح والجهل، فنستمتع الله بما وهب لنا من العقول، والحمد لله الواحد الجليل.

---

(١) في (ج): ولكنهما.
(٢) في (ج): أهل.
(٣) في (ج): ولا فائدة..
(٤) في (ج): تغلب.

ثم تقول من بعد: إن الروح محل لهذه الأقسام، وأنه جسم لا يدرى ما هو من الأجسام لأن الروح ينتقل من الموضع إلى غيره، وذلك بلطف الله وتدبيره، ولا يجوز الانتقال إلا على الأجسام وما ركب الله سبحانه من الأجرام.

[مخاطبة إبليس لآدم ووسوسته في الصدور]

وسألت عن كلام إبليس اللعين ومخاطبته لسيدنا آدم وغيره من النبيين -صلوات الله عليهم أجمعين- وقد حكى الله عز وجل في القرآن ما قد سمعت من قسمه لآدم وزوجه إنه لهما من الناصحين ولا يكون القسم [والحلف][(١)] إلا بالكلام، ولا يجوز أن يسمَّى القسم خاطر وهم[(٢)] من الأوهام، وإذا أقسم لهما فقد سمعاه، وروي في ذلك أنهما صدقاه، وحسبا أن عدو الله لا يجتري على اليمين [بالله][(٣)] كاذباً لما داخلهما من اليقين بالله ذي الجلال، والتوقير لذكر الله عن الكذب والمحال، حتى ظنا -صلوات الله عليهما- إن في قلب عدو الله من الخشية كالذي في قلوبهما، وأنهما[(٤)] اغترا في حال حداثتهما وقلة تدبيرهما وتجربتهما، فلما حكمهما طول الزمان، وكثرة التجارب للأفنان، حَذِرا من الغرة[(٥)] والجهل، واستقاما على الدين والعقل، حتى قبضهما الله إلى رحمته، وتوفاهما على طاعته.

---

(١) ما بين المعكوفين زيادة من (ج).
(٢) في (ج) وهو.
(٣) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).
(٤) في (ج): وإنما.
(٥) في (ج): الغرر.

وأما سائر الناس، وما يعارضهم من الوسواس فأكثر ذلك من النفوس وجولانها وتقلب القلوب وخطرانها، وقد روي أن إبليس اللعين ربما قارب الإنسان في حال فكره، و[ربما][1] قَوَّى طبعُ النفس بما هو من شكله، كما يقوي الحر من النار بزيادة مثله.

وقيل أيضاً: إنه كان يخاطب الناس في أول الزمان، ويدعوهم إلى العصيان، ولسنا نبالي أدعاهم أم لم يدعهم، وسواء عندنا أكلمهم أم لم يكلمهم؛ لأن ذلك لا يوجب [في دين الله][2] فساداً، ولا يضر من أولياء الله أحداً.

[من أطاع ثم عصى ثم تاب]

وسألت عن رجل أطاع الله وقتاً ثم عصاه ثم تاب إلى الله ومات على تقواه هل يثاب على الطاعة التي كفر بعدها أم تبطل ولا يثاب عليها؟

والجواب أنه لا يثاب على شيء قد أبطله، وأفسده عبثاً وعطله، ولكن الله قد غفر له، وتاب عليه عند الرجعة وقَبِلَه.

[التخلي للطاعة]

وسألت عن رجل عسر عليه الإكتساب وأراد أن يتفقه في الدين، ويقبل على طلب الحق واليقين، وأعرض عن المنازل والزوجات، فلم يبن لنفسه منزلاً، ولم يتخذ من الزوجات أهلاً، أيأثم في ترك [شيء من][3] ذلك أم لا؟

(١) زيادة من (ج).
(٢) زيادة من (ج).
(٣) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

والجواب في ذلك: أنه غير مأثوم ولا مأزور، ولكنه في حكم الله مرضي مأجور، وقد أعرض سيدنا المسيح عن ذلك واشتغل بغيره فلم ينقص الترك لذلك من أجره.

وأما ما روي عن سيدنا خاتم النبيين صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين من قوله: «لا حصر[(١)] بعد يحيى ولا سياحة بعد عيسى» فإنما أراد بذلك التخفيف[(٢)] عن المخلوقين ولم يرد بذلك حظر السياحة في أرض الله على السائحين.

[في اختلاف العقول]

وسألت عن العقول هل هي مستوية أم بينها اختلاف[(٣)]؟

والجواب: أن [في ذلك][(٤)] اختلاف عقول الناس كاختلاف قواهم، فمن كانت قوته تبلغ أداء الفرائض وجبت عليه، ومن لم يطق فلا يكلفه الله ما يعدم لديه، ولا يصل بقوته إليه.

وإنما العقول على وجوه معروفة، وأحوال بينة موصوفة.

[١] فمنها: عقول سادتنا الملائكة المقربين.

[٢] ومنها: عقول الأنبياء المرسلين.

---

(١) قال تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾[آل عمران:٣٩]، الحصر هنا هو الامتناع عن إتيان النساء مع القدرة على إتيانهن تعففاً وزهداً.

(٢) في (أ): تخفيفاً.

(٣) في (ج): خلاف.

(٤) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

[٣] وعقول الأوصياء المستخلفين.

[٤] وعقول الأئمة الطاهرين.

[٥] وبعد ذلك عقول المكلفين.

فأفضل العقول عقول الملائكة الأكرمين، ثم عقول الأنبياء أكمل من عقول الأوصياء، ثم الأوصياء أكمل من الأئمة في العقول، وأفضل في الاعتقاد والقول، ثم للسابقين من الفضيلة على المقتصدين كمثل فضل الأنبياء على الوصيين، وللأئمة المقتصدين من الفضل ما لا يكون لفضلاء المؤمنين.

وأفضل الناس كلهم فضلاً، وأكملهم ديناً وعقلاً، محمد خاتم النبيين صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين.

[ثواب المطيع حسب الزمان]

وسألت فقلت: هل يثاب من عُمر في طاعة الله وقتاً يسيراً كثواب من عمر في الطاعة زماناً طويلاً، وكيف يكون كمثله وتكليفه أطول [كمثل محمد ونوح صلوات الله عليهما][(١)]؟

والجواب في ذلك: أن أعلمهما بالله أفضلهما، وأخشاهما وأعظمهما خشية لله أتقاهما، وأتقاهما لله أهداهما، وأهداهما إلى دين الله أحدهما، وأحد الرجلين بأجزل الثواب أولاهما، واعلم أن عقول حجج الله على قدر كلفتهم، وعلى قدر منازلهم عند الله ومحبتهم[(٢)].

(١) في (ج): نوح ومحمد صلى الله عليهما.
(٢) في (ج) محنتهم.

فأما[1] سائر المكلفين فقد اختلف القول فيهم من المتكلمين فقال قوم: إن الله ساوى بين خلقه في العقول كما ساوى بينهم بالتعبد[2] فاستعمل بعضهم عقله، ولم يستعمل بعضهم النظر وأهمله، وزهد في التمييز وعطله، فاصداً بمخالفة الله عقله، حتى صار لكثرة اللعب كمن لا يعقل.

فأما من كان مغموراً بالخبل، مطبوعاً على البلاهة والجهل، وضعف التمييز في الطبيعة والعقل[3]، فليس يكلف الله ذلك، ولا يكون أبداً في المكابرة كذلك؛ لأنه لم يعتمد في ذلك تجاهلاً، [ولم يزل عن جميع الأمور جاهلاً][4]، ولم يكن مع الناس فهماً عاقلاً، ولم يزل عن وجوه التعبد غافلاً.

وزعم قوم آخرون: أن الله خالف بين عقول العباد، ودل جميعهم على الرشاد، فذو العقل المنقوص يلحق بضعف عقله إذا سلم من الجنون، كما[5] يلحق كامل العقل من الدين، كما أن أضعف الناس يلحق من الصلوات، وأداء جميع المفروضات، كالذي يلحق أقواهم جسداً، وأشدهم بدناً، فهذا[6] قولهم واختلافهم.

والذي أقول أنا وأعتقد ـ والله الموفق والمسدد ـ: أن من عمل على قدر عقله وسلم من مكابرته وجهله، فهو عند الله من التائبين[7]، ولديه إن شاء الله من [الناجين وعنده

---

(١) في (ج) وأما.
(٢) في (ج): في التعبد.
(٣) في (ج): والجهل.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من (ج).
(٥) في (ج): كمثل ما.
(٦) في (ج) وهذا.
(٧) في (ج) من الناجين.

إن شاء الله من][1] المقبولين، ومن كان ضعيف العقل مغموراً بطباع الحيرة والجهل، فهو بمنزلة البهائم والأطفال، في رحمة الله الواحد المفضال.

فأما[2] من غمر عقله باللعب والإهمال، وشبه نفسه بالبهائم في الإغفال، فليس[3] ولا كرامة من المعذورين، ولكنه عند الله من الكافرين، ولو استعمل عقله حق الاستعمال، لنال به من الخير كل منال، ولكنه أقبل على العبث والمحال، حتى ارتطم ووقع في الضلال، وصار من أجهل الجهال، فهذا ما أعتقد وأقول، وإليه أذهب وأميل.

فأما[4] الاختلاف والتبغيض إلى العباد، وسوء الأدب والميل إلى الفساد، والمكابرة والالحاح[5] في الألداد، فليس ذلك من أخلاق الصالحين، ولا هو من أفعال المسلمين، ولا يجوز مقاطعة المؤمنين، إلا بكبيرة من كبائر المفسدين، إذا أقام عليها ولم يتنقل بالتوبة عنها، وقد رأيت كثيراً من المؤمنين أولياء الله المتقين، يضلون عن السبب من أسباب الدين، فيبنغي للمؤمن أن لا يقاطعهم حتى يبين لهم ويرفق بهم ولا يعجل عليهم، فإن الله سبحانه لا يعذب [له جبيناً وإن لم يكن في بعض الأمور مصيباً لأنه أكرم من أن يعذب][6] وليه على السهو والنسيان، كما يعذب على العمد والبيان.

---

(١) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

(٢) في (ج) وأما.

(٣) في (ج): فهو ليس.

(٤) في (ج) وأما.

(٥) في (ج) واللجاج.

(٦) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

[الرد على مزاعم الحشوية]

وقد زعم بعض الحشوية أهل الضلال، الجهلة الكفرة الضُلال، أن هؤلاء الجهلة لا يرجعون إلا بالاحتيال والاستدراج والنفاق والاغتيال، وأنه يجوز للإمام وغيره أن يوهمهم ويوقع في أنفسهم أنه على دينهم، حتى إذا اطمأنوا إليه وعظهم بعد أن يستميل بالتوهيم قلوبهم.

وتأولوا لعنهم الله وأخزاهم، وأضل سعيهم (وأرداهم، وزادهم عمى على عماهم)[1]، أن إبراهيم وموسى عليهما السلام دخلا مع قومهما في الضلال، ليخرجاهم من الفتنة[2] بالاحتيال، فزعموا[3] أن موسى لما رأى قومه يشبهون الله قال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾[الأعراف:١٤٣].

وقد علم أن الله سبحانه لا يسعده إلى ما طلب فلما لم يعطه إرادته قال لهم: يا قوم كم تطلبون رؤية الله وقد ترونه قد منعني ذلك فكيف بكم، فزعموا أنه ردهم بهذه الحيلة عن التشبيه.

وزعموا أن قوم إبراهيم لما عبدوا النجوم دخل معهم وقال لهم لما رأى كوكباً: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾[الأنعام:٧٦] حتى يرجعوا معه إذا رجع ويصنعوا من التوبة ما صنع، فيا للحشوية الويل الطويل والخزي والعويل[4] والعذاب الجليل، أما سمعوا قول الله سبحانه: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾[الحجر:٩٤] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[النساء:١٤٥] ولئن كان الأنبياء عندهم محتالين، وبالكذب

---

(١) ما بين القوسين زيادة من (ج).
(٢) في (ج) من الفساد.
(٣) في (ج): وزعموا
(٤) في (ج): والغول. وهي تصحيف.

للناس[1] مغتالين، لقد جعلوهم قدوة للمنافقين، والله يقول [عز من قائل][2]: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[النحل:١٠٥].

ولئن لم يرجعوا بنور الحق وبهجته، لا رجعوا بالباطل وظلمته، وضعفه وعجزه وركاكته، ولكن الحشوية عجزوا عن الحجج ونورها، فدخلوا في أبواب النفاق وزورها.

وإنما يدعى الناس بلين المراجعة في الجدال[3]، ويبين لهم فساد ما يعتقدون من المحال، ويوضح لهم ما هم عليه من الضلال، فإن أقبلوا إلى الحق ورجعوا وصاروا إلى المؤمنين وأجمعوا وإلا رفضوا صاغرين وقطعوا.

فيا لعباد الله أترون موسى كان جاهلاً[4]، وكان بحجج[5] المعقول غافلاً، حتى [لا][6] يقول لهم إن الأبصار لا تبلغ ولا تقع، إلا على ما يفترق من الأشياء ويجتمع، ولا ينظر بالعيان وبالأبصار، إلا ما كان في قطر من الأقطار، وما حوته الأقطار، وأدركته وعاينته الأبصار، فهو أصغر من محله وموضعه، وأقل من مهبطه ومطلعه، وما كان من الأشياء صغيراً منقوصاً، وكان بالنقص والصغر مخصوصاً، فلابد له من صانع نقصه وأقصره[7]، وقطع نهايته وبتره،

---

(١) في (ج): وبالكذب على الناس.
(٢) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).
(٣) في (ج) المقال.
(٤) في (ج) أترون موسى كان غبياً جاهلاً.
(٥) في (ج): وكان عن حجج المعقول.
(٦) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).
(٧) في (ج): وأصغره.

فاتقوا الله يا قوم وذروا منكم التجاهل، والجنون والخبل والتغافل، وإلا فإني بريء إلى الله منكم، مهاجر[1] في أرض الله عنكم.

وكذلك الخليل -صلوات الله عليه- فقد كان غير عي[2] بالجدال، ولا حصر بمخاصمة أهل المحال، فهو غير عاجز[3] عن أن يقول إن النجوم لا تنفك عن الحركات والمسير، والاضطرار على الحركة يدل على التسخير، مع ما فيها من عجائب التقدير وآثار الحكمة والتدبير، وإلا فما الذي خالف بين ألوانها وهيئاتها، وفرق بين أجسامها وحركاتها، لو كانت يا قوم قديمة لاتفقت ولما تباينت ولا اختلفت، فاتقوا الله يا قوم وخافوه، ولا تغفلوا ذكر الموت وراقبوه.

ولكن أعداء الله حسبوا وتوهموا، وتجاهلوا عن الحق فلم يعلموا أن غضب أولياء الله لربهم أكثر من غضبهم لأنفسهم، أو ليس قد حكى الله في القرآن مجادلتهم للفراعنة الجبارين، العتاة (العماة)[4] الطغاة المتكبرين، فكيف بضعفة الإسرائيليين وغيرهم من المسكنة الضالين، وهل كانوا يضنون بأنفسهم عن طاعة رب العالمين.

وقد حكى الله [عز وجل][5] عن نبيه إبراهيم [صلوات الله عليه][6] من

---

(١) في (ج): ومهاجر.
(٢) في (ج) غبي.
(٣) في (ج): أفهو عاجز عن أن.
(٤) ما بين القوسين ساقط في (ج).
(٥) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).
(٦) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

العزيمة ما ألقي من أجله في الجحيم فنجاه [الله][1] برحمته من كيد الكائدين، وكذلك يجزي الله المحسنين، وأمره الله وامتحنه وابتلاه ومحصه واختبره بالعزيمة على ذبح ولده ولم يرد الله غير عزيمته، ولكنه لم يدر ﷺ بقصد الله وإرادته، فقام ﷺ بولده، ومهجة قلبه، وثمرة فؤاده ونفسه، ليفري أوداجه ذبحاً، طاعة لله ومسارعةً ونصحاً، مع ما هو عليه من شفقته، وكرم طباعه ورحمته، وحسن أخلاقه ومروءته، فما منعه ذلك من طرح ولده على وجه الأرض وصرعه، وعزيمته على تلفه وقطعه، وتركه يخر جبين ولده على حضيض التراب ووضعه، فلما رأى الله منه ما رأى، وإذ لا شك عنده في طاعة الله ولا امتراء، أظهر من أمره وفضله ما كان مستوراً، وحينئذٍ أمره[2] بأن لا يذبح ولده، بعد ما أظهر سبحانه بهذه المحنة صبره وجلَدَه، ولم يعلم صلوات الله عليه[3] بإرادة الله فيما أوحى إليه.

وكذلك فعل بقومه وأبيه، بعد احتجاجه ولطفه وتأنيه، واستغفاره لوالده خوفاً من أن يكون من الضالين، ورجا ألا يكون من المتعمدين، احتياطاً منه لطلب الأمان، وخوفاً من العذاب والنيران ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[التوبة:١١٤] والأواه فهو المتأوه الحزين، والتأوه في ذاته فهو الأنين، والزفير والأحزان والحنين، لما داخل قلبه من خالص اليقين، ولما عرف من الحق المبين، فلما امتلأ قلبه نوراً وصار بذكر الله ومعرفته معموراً حزن على نفسه عند ذلك من ذكر الموت والعذاب، وأقبل على الدين والحق والصواب، ونقّى قلبه وطهره من اللعب، وسلا عن التصابي والجهل والطرب.

(١) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).
(٢) في (ج) أمره حينئذٍ.
(٣) في (ج) صلى الله عليه.

[دواء القلوب]

ولم أر شيئاً أجلى للقلوب من العدل والتوحيد، ومعرفة الوعد والوعيد، وتلاوة القرآن، وكثرة الدعاء إلى الرحمن، فمن أراد أن ينجو عند الله من العذاب، ويسدد في طرق[1] الصواب، فيتحرز من الكبر والإعجاب، ويحتسب نفسه أذل من التراب، فإن الله عز وجل نهى عن التكبر لما فيه من أصناف العيوب؛ لأنه أحد متالف القلوب.

[وكيف يتكبر من هو ضعيف رَذِل، منقوص في جميع الأحوال نذل][2] وكيف يعجب بنفس تزول عن قليل محاسنها، ويكثر وشيكاً عوائلها وحزنها، مع ما يستره[3] دائماً من عيوبه، (وتحمله عن مقارنه وقرينه)[4]، إلا أن يكون قد أعجب بنفسه لكثرة عمله، فهو يعلم أن حقوق الله أكثر من فعله، وأن عمله لا يقوم بنعمة من نعم مولاه، ولا بشربة ماء مما سقاه، ولا بشفاء مرضه مما شفاه، ولا بعافية ساعة مما عافاه.

وأيضاً فإن الإنسان كثير الذنوب، قبيح الفعل كثير العيوب، [وإن كان يعجب بشبابه فكيف يعجب بشباب يصير إلى الهرم، إن سلم أحد اليومين من الموت والسقم، والمصير إلى التفرق والعدم][5].

(١) في (ج): إلى طريق.
(٢) ما بين المعكوفين زيادة من (ج).
(٣) في (ج): ما يستر.
(٤) في (ج): ويحمله على مقارنه وقريبه.
(٥) ما بين المعكوفين زيادة من (ج).

وإن كان يعجب بشجاعته، فكيف [يعجب][1] ويله لجرأته، وهو يضعف عن القملة لعجز بنيته، حتى ربما شغلته ومنعته من الفكر وقطعته.

وإن كان يعجب بنفسه لكثرة علمه وجودة تميزه وفهمه، فكيف يعجب بنفس تجهل أكثر مما علمت، ولا تدري متى يحل بها ما كرهت، ولو علمت كل علم في الدنيا لما سلمت، وأن العلم يزول إذا عطبت.

فأول من فخر وأعجب بنفسه واستكبر، إبليس الكافر النجس الرجس، فمن اقتدى بفعله[2] فقد فعل فعله، وصار بذلك في حكم الله مثله، وذلك أنه فخر بالنار على الطين، وذلك فليس من فعل اللعين، وإنما فخر بالنار لحدتها وضرامتها، وعلوها في الأهوية وخفتها، وما هي عليه من قوة بنيتها، وذلك فإنما هو فعل الله لا فعله، وتقدير الله لا تقديره وحكمته وفضله.

فأما العباد فخيرهم أكرمهم طباعاً، وأسبقهم إلى طاعة الله إسراعاً، لا ينظر في الخيرة إلا إلى أفعالهم، ولا يفضلون بغير أعمالهم.

وقد رأينا من الناس من يتكبر على الجهل وهو لا يعلم، ويحمله الكبر أن [لا][3] يقول الله أعلم، ولو قتل الإنسان نفسه في طلب العلم قتلاً، لما برح ولا زال مع معرفته جاهلاً؛ فاحفظوا رحمكم الله وتفهموا[4] ولا تغفلوا عن ذلك، واعلموا أن الله سبحانه نقص العباد بأنواع من الشرور، لما في نقصهم

---

(١) زيادة من (ج).

(٢) في (ج): به.

(٣) زيادة من (ج).

(٤) في (ج): وافهمو..

من عجائب الأمور، ولو أفهمهم[1] وأكملهم وأغناهم، ولم يرهم من النقص والعيوب ما أراهم، لعظم هلاكهم وعتاهم، ولقتلهم حب الدنيا وأطغاهم، ولكنه جاد عليهم بما كفلهم[2] ثم زجرهم، ونهاهم بعد أن بصرهم هداهم، وبين فجورهم لهم وتقواهم[3].

[في تكليم الله لموسى عليه السلام]

وسألت عن الكلام الذي سمعه موسى ﷺ وزعمت[4] أن الحشوية قالوا: إن زعمنا أن الله كلمه دخلنا في مذهبهم، وإن زعمنا أن الكلام هو الذي قال لموسى أنا ربك فقد عبدنا الكلام بزعمهم.

فقل للحشوية: إن كانوا يعقلون وكانوا ينصفون عقولهم أو يفهمون أن الكلام ليس بخالق فيدعي الربوبية، وإنما هو عرض أوجده الله وأوصله، وخلقه في الشجرة وفعله، وخاطب نبيه به وفضله[5]، وأما مذهبكم فلا نرجع إليه، ولا نفتري على الله كما افتريتم عليه.

ثم يقال لهم: أخبرونا عن الكلام الذي زعمتم أنه قديم وأنه صفة قديمة للواحد الحكيم[6] أهو مثل معبودكم فيكون معبودكم جزئين، وتبطل

(١) في (ج): ولو ألهمهم.
(٢) في (ج): كفاهم.
(٣) في (ج) وبين لهم فجورهم وتقواهم.
(٤) في (ج): وذكرت.
(٥) في (ج): وفصله.
(٦) في (ج): الكريم.

وحدانيته إذ كان[1] نصفين لا سيما إذا كان هو والقرآن مثلين.

أم تقولون إنه أفضل من القرآن باللسان والشفتين، فتشبهون الله بغيره من المخلوقين، كما لم تزالوا لذلك معتقدين.

وإذا كان معبودهم[2]، وكان في الصفات المحدثة كذلك، فلابد[3] له من صانع خالف بين شفتيه ولسانه، وغاير بين حنكه وأسنانه، وكذلك فلابد له من صانع خالف بين صوته وجثمانه، لأن الصوت لا يخرج إلا من الجثمان، ولا يفرق بين الحروف إلا بالنسمة واللسان[4] والحنك والشفتين والأسنان، وإذا كان كذلك فلا فرق بينه وبين الإنسان.

ويقال لهم أيضاً: [في قولهم][5] إن معبودهم جالس على كرسيه وعرشه، وأنه يسكن عليه بعد حركاته وبطشه، أليس معبودهم يباشر السرير بأسفله، ويباشر الهواء بأعلاه وأوله، فما الذي فرق بين أعلاه وأسفله، وغاير بين مُدْبِرِهِ ومُقْبِلِه، فلن يجد المشركون إن شاء الله تعالى جواباً، ولن يملكوا بعد هذا القول خطاباً، فزاد الله قلوبهم عمىً وجهلاً، وغياً وضلالة وخبلاً، فلقد عموا ويلهم عن أعظم الأشياء وأجلها، وانتقصوا أعظم الموجودات وأكملها، وعبدوا غير الله بجهلهم[6].

---

(١) في (ج): إذا صار.

(٢) في (ج): معبودكم على ذلك.

(٣) في (ج): لابد له.

(٤) في (ج): والجنان.

(٥) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

(٦) في (ج): بزعمهم.

وما أرى للإمام بعد عرض التوبة غير قتلهم، والتقرب إلى الله بتلفهم؛ لأنهم بمنزلة عباد الأصنام، وغيرهم من كفرة الأنام، إلا أنهم قد زادوا على المشركين[1]، بقذفهم وشتمهم لرب العالمين، وعداوتهم لخاتم النبيين، وذريته الأخيار الطاهرين، صلوات الله عليهم أجمعين ولعنة الله على الظالمين، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على رسوله[2] محمد وآله وسلم تسليماً.

[**مسألة**: قال الإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي صلوات الله عليهما **إن سأل سائل فقال**: أخبروني لم أرسل الله إلى فرعون وقد علم أنه لا يكون أبداً من المفلحين.

قيل له ولا قوة إلا بالله:

- **اعلم** أيها السائل أن الله أرسل إليه رسوله ليكمل عليه بذلك حجته، وليكون أقطع لعذره، وأعظم لندامته في يوم حشره وليذيقه النكال في الدنيا والآخرة، بكفره ولو اهمله من الرسل لتعذر بالإهمال واتخذه حجة على الله وجنة في الآخرة من النكال، فمن هاهنا وجب على الحكيم أن لا يغفل عن الرسالة إلى خلقه ولا يجعل لهم حجة على نفسه وصلى الله على رسوله سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً][3].

تم الكتاب بمنّ الله وفضله.

---

(١) في (ج) شرك المشركين.

(٢) في (ج) سيد المرسلين وأهل بيته الصادقين.

(٣) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).



كتاب السبيلين

١- معنى السبيلين.

٢- الإنسان بين نفسه وعقله



كتاب السبيلين العقل والنفس

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي فرق بين الأضداد، [ودل على الخير والرشاد، وزجر عن البغي والفساد، وأكمل حجته على العباد بما أثار من حجج الألباب، وبيان عجائب الأسباب، فأرى العقول برحمته الحق موتلفاً والباطل كذباً مختلفاً، فسُبل الحق متفقة، وسبل الضلال مفترقة، وأسباب الحق مؤتلفة، وأسباب الباطل مختلفة، وطرق الهدى واضحة، وأعلامه لائحة، ودلائله ناصحة، وطرق الضلال متداحضة، وأقواله متناقضة...][1]، والحق والباطل طريقان، وسبيلان مفترقان، [وهما بجميع الناس ملصقان وبالقلوب متعلقان][2]، وهما العقل والنفس، فالعقل محل كل صدق وصيانة، ومعدن كل حق وأمانة، والنفس محل كل باطل وخيانة، ومعدن كل دناءةٍ ومجانه [تهب إلى الشهوات وتخف إلى الموبقات وتطيش إلى المهلكات، فاتباعها أعظم الفضائح، وفيه أنواع جميع القبائح،و طاعتها أضل الضلال، وأخبل الخبال، وهي أهلك المهالك، ومسلكها أشر المسالك، مأوى كل ندامة وعطب كل سلامة، وذهاب كل حكمة، وحندس كل ظلمة، مفتاح أبواب الجهالات، وتخسر جميع المجالات والخزي والتراهات، وكفى لمن عقل بما جرب من خيانتها وضعفها ومهانتها وتفريطها وعمايتها][3].

(١) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

(٢) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

(٣) ما بين العكوفين ساقط في (ج).

فاجعلوها رحمكم الله تابعة للعقل ولا تجعلوها سلماً إلى الجهل، وحكموا العقول عليها، ولا تركنوا[1] أبداً إليها، ومن أراد أن يظفر بأعظم الكرامة، ويحل (في محل)[2] السلامة، وينجو من الحسرة والندامة، فليحكم عقله على هواه، ويؤثر آخرته على دنياه، فالعقل إمام الملائكة المقربين، والأنبياء المهتدين، والأئمة الراشدين، وأتباعهم المقتدين، وهو الدليل على رب العالمين، وحجة على المخلوقين، [وهو أيقن اليقين، وأطيب حياة المؤمنين، وسرور عباد الله الموقنين، وبه نجا الهادون المهتدون، وبخلافه هلك الملحدون العماة والكفرة الجاحدون، العصاة الجهال المتمردون، فمن اقتدى به أبصر ومن فارقه تحير لا يسلم بغيره من الردى ولا يجد بعد تركه هدى، إذ هو من الأمناء وأفضل القرناء وأحق الحقائق وأوثق الوثائق، لا تنفر القلوب عن أمانته، ولا تسكن إلى مجانبته ولا تطمئن بعد مفارقته، ليس بعد شهادته حقيقة، ولا بعد ثقته وثيقة، من فارق حقيقة علمه جهل، ومن فارقه خذل وضل، ومن لم يحكمه فقد غفل، ليس بعده لحكيم بصره، ولا لمن كابره تذكره، ولا بعده إلا جهل وحيره، وضلال ومكابرة، بشواهده نزل الله كتابه وأبان حكمته وصوابه، ووصل به أسبابه والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً][3].

---

(١) في (ج): ولا تتكلوا.

(٢) زيادة من (ج).

(٣) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

كتاب
الرد على أهل التقليد والنفاق

١- التقليد وآثاره.

٢- تقليد الرعية للإمام

٣- النهي عن الجدال والمخاصمة.



كتـــاب
الرد على أهل التقليد والنفاق

مما أجاب به على الحسن بن أحمد بن يعقوب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً.

سألت يا أخي وفقني الله وإياك، وزادك هداً إلى هداك، عـن مسـألة هلـك بهـا أكثر الأنام، وخرجوا بها من الإسلام، فقلت ما الـدليل علـى فسـاد التقليـد، ومن أين فتح على من فعله من العبيد.

[أثر التقليد]

واعلم يا أخي: أن التقليد لا يخلو من أحد وجهين:

[١] إما أن يؤدي إلى العلم والرشاد.

[٢] وإما أن يؤدي إلى الجهل والفساد.

فإن كان يؤدي إلى العلـم لم يسـم تقليـداً؛ لأن العلـم لا ينـال إلا بـدلائل الهدى، والدلائل فهي البينات والشواهد المعجزات، وإن كان التقليـد تسـليماً بغير دليل فذلك يؤدي إلى الجهل والعمى، ومن عمـي فلـيس مـن الحكمـاء؛

لأنه سلم قياده إلى غيره وركن إليه بغير دليل يعتمد عليه، ومن رضي من الناس بإهمال عقله واستغنى عن المعرفة بجهله فقد كفر صاغراً وأساء في فعله.

ألا ترى يا أخي أراك الله ما يجب من السلامة، ونجانا وإياك من الحسرة والندامة، أن هذا المقلد لا يخلو من أن يكون مفرطاً في طلب العلم أو مجتهداً في طلب الرشاد والفهم، فإن كان مفرطاً في طلب نجاته فقد وقع بجهله في موبقاته؛ لأنه من خاف وجب عليه الطلب للأمان، والفرار بجهده من الهوان، ولا يصلح الأمان إلا لمن طلبه، وخشي هلاكه وعطبه، وإن كان مجتهداً في طلب الدليل خائفاً من العذاب الجليل، فليس يقلد أحداً ولا يقيم على الجهل أبداً، وإذا أردت أن تظفر من العلوم بأجلها وتسلم من تفرية هذه الأمة وجهلها، فاعتمد على قولنا وامعن في الطلب لتوحيدنا، فإنك لا تجد له أبداً مثلاً ولا يقدر أحد أن يأتي بمثله أصلاً بعد كلام الله تبارك وتعالى وكلام رسوله ووصيه صلوات الله عليهما.

[تقليد الرعية للإمام]

وسألت عن تقليد الرعية للإمام، وهل يجوز ذلك لأحد من الأنام؟

والجواب: أن تقليديهم له إن كان بعد خبرته واليقين بصحة إمامته فلا بأس بتقليدهم له؛ لأن ذلك منهم بعد صحة نظرهم والتسليم واجب عليهم لإمامهم، وإنما يقبح التقليد في المعقول ولا يجوز في شيء من الأصول، فأما في الأمر والنهي وغيرهما من الفروع فيجب التسليم في ذلك على الجميع؛ لأنه قد يجب على الإمام أن يأتي على صحة دعواه بدليل من المعقول ومعجزة تبين لأهل العقول، فإذا علم أهل العقول أنه أتى بمعجزة لا يمكن في مثلها الاحتيال ولا يتهيأ في مثلها التمويه والاغتيال، وجبت عليهم الطاعة

والتسليم، ولم يجز لهم مناكرة الحكيم؛ لأن كثرة المناكرة بعد البينة غي وضلالة ومكابرة وجهالة؛ لأن المنافق إذا ادعى أنه يختبر بعد الاختبار فهو بعد في العمى والجهل والإنكار، وإذا لم ينتفع بأول الخبرة لم ينتفع بآخرها؛ لأنه لا ينتفع بالحكمة مع إنكارها، وقد يلزم الحكيم إذا كان حكيماً وكان بصلاح الأمة عليماً، أن لا يشتغل بمخاصمة هذا ومثله، ولا يلتفت بعد البيان إلى من كان من شكله؛ لأنه قد بان له أنه لا يريد الانتفاع بكلامه فكيف يجوز للحكيم أن يشتغل بهذا السفيه وخصامه، وما كان غير نافع من الكلام فهو سخط لذي الجلال والإكرام، وهل ينبغي للحكيم أن يضيع ساعة من عمره في غير طاعة الله وذكره.

[النهي عن الجدال والمخاصمة]

واعلم أن الله عز وجل قد نزه أولياءه عن العبث والجدال، والمخاصمة لأهل الباطل والمحال، بعد بيان الحق من المقال، والفرق بين الهدى والضلال.

واعلم يا أخي أن حديث أكثر هذه الأمة خبث ونفاق وعبث فلا تشغل قلبك بهم، واعرض عنهم ولا تكافهم على فعلهم فالله يحكم بيننا وبينهم وإنما الناس ثلاثة:

[١] مطيع لله مؤتمر بأمره قد صحت لك طاعته بعد خبره.

[٢] وعاص لله معاند مكابر للحق جاحد.

[٣] أو مجهول لا يعلم بصحة إرادته ولا يطلع أحد على حقيقته.

فأما من كان مطيعاً لله سبحانه فيجب موالاته ونصرته وتقريبه ومودته.

وأما المجهول فيحسن به الظن ولا يركن إليه ولا يعتمد إلا بعد الخبرة عليه، فإن كان جاهلاً علم وأرشد، وقرب إلى الخير ولم يبعد.

وأما أهل الكفر فلا تركن إليهم ولا تعتمد في شيء من الأمور عليهم، ومن بان لك منه النفاق فلا تنبسط إليه وإن تنسك، وأعرض عن القبيح وأمسك؛ لأنه لا يؤمن عند إظهاره للديانة أن يجعل ذلك سبباً للخيانة.

وقد ذكر العالم[1] عليه السلام أن عيسى بن مريم صلوات الله عليه قال: (لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم فتأثموا، ولا تبذلوها لمن لا يستاهلها فتظلموها، ولا تطرحوا كرائم الدب بين الخنازير فتقذروها).

وكما قيل: إن المتكلم بالكلمة عند من لا يعقلها فيرويها فيقبلها كالمغني عند رؤوس الموتى، وكذلك من أمات الله قلبه عن آياته فلم يقبلها هلكة وموتاً.

وقد ذكر عن يحيى بن زكريا صلوات الله عليه لما صارت طائفة من الزنادقة وأبنائها إليه يريدون تطهيره ومسألته تعنتاً وتمرداً، فقال لهم ـ إذ علم أنهم لا يريدون بمسألته الرشد والهدى عندما طلبوا من ذلك إليه ـ (يا بني الأفاعي، آتوا بِثَمرة تصلح للتطهرة والتزكي، فأبى صلوات الله عليه أن يطهرهم إذ عرف كفرهم وأمرهم).

ولنا يا أخي أكرمك الله أسوة حسنة بمن مضى من آبائنا، ولهم أسوة بمن مضى من أشكالهم وأشباههم من الزنادقة وأمثالهم.

والحمد لله وحده، وصلواته على خير خلقه محمد وآله الأطهار الأخيار وسلم تسليماً

---

(١) يقصد الإمام القاسم بن إبراهيم جد الإمام الهادي عليهم السلام. تقدمت ترجمته.

كتاب
الرؤيــا

١- علم الله تعالى.

٢- وجود الله في الأماكن ماذا يعني؟

٣- الإنسان بين عقله وجوارحه.

٤- الرؤيا وأقسامها



كتاب الرؤيا

[من كلام الإمام المهدي الحسين بن القاسم بن علي صلوات الله عليهما وعلى آبائهما الطاهرين، مما سأل عنه الحسن بن أحمد بن يعقوب

بسم الله الرحمن الرحيم

سألت يا أخي أكرمك الله بثوابه ونجانا وإياك من سخطه وعقابه عن أفضل مسائل السائلين وأشرف أقاويل القائلين فقلت][1].

إن سأل سائل فقال: هل الله في الأماكن بذاته أم هو في الأشياء بعلمه وإحاطته [فإن كان في الأشياء بذاته فهي محيطة به وإن كان في الأشياء بعلمه فعلمه إذاً غير حقيقة.

واعلم يا أخي أن الجواب فيما عنه سألت، أن علم الله هو ذاته وليس في الأشياء على الحقيقة بذاته، ولو كان علمه في الأشياء لحوته، ولأحاطت به وتضمنته ولزادت عليه وفصلته، ولو زادت على مقداره لصح نقصانه وانقطاعه، ولصح حدثه وابتداعه، ولابد لكل ناقص من صانع نقصه وأصغره، ولابد لكل مقطوع من قاطع حده وأقصره، وصنعه كما شاء ودبره، وقطع غايته وافتطره][2]: وإنما معنى قولنا إنه في الأشياء، نريد بذلك أنه مدبر

---

(١) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).
(٢) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

في الأرض والسماء، وفيما بينهما من الأجواء[1]، لم ينقطع من الأماكن تدبيره، ولم يعدم فعله وتقديره، وإدراكه للأشياء فهو علمه بها، وعلمه فهو قدرته عليها.

فأما من زعم أنه عالم قادر ولم يقل إن العلم والقدرة هما الذات، وكذلك ما وافقهما من الصفات، فقد جهل حقيقة العلم لتناقض قوله، ونفى إدراكه للمعلومات بجهله، وبلغ الغاية من[2] مكابرة عقله؛ لأنه قد أقر لله بإدراك معلوماته، إذ الدرك من أكرم صفاته، والدرك حق عند جميع ذوي الألباب، وليس شيئاً[3] غير الله رب الأرباب.

لأن الدرك يخرج على وجهين:

[١] فدرك من صفات المخلوقين.

[٢] ودرك هو من صفات رب العالمين.

فأما إدراك العباد: فهو علمهم، وعلمهم متعلق[4] بهم، وهو ما ركب الله من عقولهم، جمع بينه وبين أجسامهم، وكذلك علم حواسهم وأوهامهم.

وأما علم الله: فهو ذاته، وكذلك قدرته وحياته؛ لأن علمه لو كان سواه لكان مجموعاً إليه، ولكان له جامع فطره عليه، ألا ترى أن من قال إنه عالم ثم قال لا علم له، فقد نقض بأبين البيان قوله، وإنما أنكروا ذلك بجهلهم، وقلة[5]

---

(١) في (ج): الأحوال.

(٢) في (ج): في.

(٣) في (ج): شيء

(٤) في (ج): وعلمهم علم العباد.

(٥) في (ج): ضعف.

تمييزهم وعقولهم، وقد علم الله عز وجل[1] ذلك منهم، فلم يكلهم إلى أنفسهم، بل أمرهم باتباع آل نبيهم، وسبيل هدايتهم ولجاتهم.

[الإنسان بين عقله وجوارحه]

وسألت يا أخي -وفقنا الله وإياك لطاعته وأعاننا على اتباع مرضاته- عن الإنسان المخاطب المأمور المتعبد في جميع الأمور، المكافأ على البر والفجور، أهو العقل أم الجوارح؟

والجواب في ذلك: أن العقل حجة تعبد الله الخلق بعد كمالها، وأثاب وعاقب البرية بفعالها.

فأما العقل فلا يقع عليه الثواب والعقاب، وإنما هو شاهد على الخطأ والصواب، وإنما يقع الثواب والعقاب على الجسم والروح إذا اجتمعا، أو على الروح وحده وإن لم يكونا معا، فأما الجسم الموات فلا يعقل إذا فارقته الحياة.

[ما هي الرؤيا]

وسألت يا أخي - تولى الله حفظك، ووفر في الخيرات[2] حظك - عن الرؤيا التي يراها المؤمنون والكافرون، وكيف يلتقي[3] الأرواح، و هل تكون الرؤيا شيء ليس من الله سبحانه؟ وما[4] يصح من الرؤيا وما هو من الشيطان؟

---

(١) في (ج): علم الله سبحانه.

(٢) في (ج): ووفر في الثواب الجزيل

(٣) في (ج): تلتقي.

(٤) في (ج): وهل يصح.

[وسأبين لك إن شاء الله ما سألت عنه من الأرواح، وأوضح ذلك بأبين الإيضاح؛ لأن الله سبحانه لم يوجد شيئاً من الأشياء إلا ليستدل به عليه ويتوصل بدلائله إليه، والرؤيا أكرمك الله فهي][1] من الله وحده لا شريك له؛ لأن الرؤيا إنما تكون عند خروج الأنفس مع الأرواح، وخروج الأنفس من القلوب، فلا يتم إلا لعلام الغيوب.

والروح فهو خلق لطيف حجب الله فهمه، ولا سبيل إلى علم ما أخفى الله علمه، وإلا فأين من يفهم كيفية خروجه، ورجوعه في البدن وولوجه، وكيف خرجت الأنفس والعقول معه من الأجساد؟ وأين مخرجه من أجسام العباد؟ وكيف لا يعقل الروح نفسه عند هجوم المنام؟ (وكيف يرجى ويترك في جميع الأنام؟ حتى لا يعقل في أكثر الليالي والأيام)[2]؟! وما جعل الله سبحانه من حياة الأرواح وكمالها، وتوصيل جوارحها واعتدالها، فلا تتم إلا بلطف مدبرها وجاعلها، ومفتطرها (وصانعها ومقتدرها)[3] وفاعلها، لما فيها من صنعه وتدبيره، وبيان حكمته وتصويره.

وأما الرؤيا التي يراها المخلوقون، ويفهمها المؤمنون والكافرون: فهي أخبار من الله وكرامة للصالحين، وحجة على الظلمة الفاسقين؛ لأن إعلامه لهم بالحوادث قبل كونها دليل على علم المخبر بها؛ ولأولياء الله وأصفيائه من عجائب الرؤيا ما ليس لأعدائه، وذلك خاصة منه لهم، وإجابة لدعواتهم عند سؤالهم.

---

(١) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

(٢) زيادة من (ج).

(٣) ساقط في (ج).

وأما غير ذلك من رؤيا الشرور[1] ومكاره ما يرى النائم من الأمور، فمنه ما يحتمل التأويل، ومنه ما هو كائن على ما يرى[2] النائم في المنام، وذلك بإعلام الله ذي الجلال والإكرام،إذ لا[3] يصح الخبر بالشيء في حال عدمه، إلا من عالم أحاط به قبل كونه؛ لأنه لو كان جاهلاً به لما علمه قبل حدوثه، وفي هذا دلالة على الله رب العالمين، وحكمة تفضل بها على المخلوقين.

وأما ما روي عن النبي صلوات الله عليه وعلى آله[4] من قوله: «إن الحلم من الشيطان» فإنما أراد بذلك أن الله سبحانه أطلع العباد في المنام على أفعال الشياطين ليجتنبوها، وليتعوذوا بالله منها ولا يقربوها، لأنها (لا تضر)[5] من أخلص التوبة إليه من أفعالهم، واستعاذ به من سوء أعمالهم[6].

---

(١) في (ج): السرور.

(٢) في (ج): ما يراه.

(٣) في (ج): ولا.

(٤) في (ج): صلى الله عليه وآله الطاهرين.

(٥) زيادة من (ج).

(٦) قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الحسنة عن الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» رواه الإمام الهادي. انظر (درر الأحاديث) ٥٢/ ٧٤، وقال رسول الله ﷺ: «لم يبق بعدي إلا المبشرات، فقالوا: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له، جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» رواه الإمام الهادي (درر الأحاديث) ٥٣/ ٧٥.

[الوعيد]

[وسألت يا أخي وفقك الله لهدايته وأتم ما أولاك من نعمته عن الرد على من زعم أن الله لا يعذب أحد من العباد، وإنما أوعدهم ليزجرهم بالوعيد من الفساد، وأنه رغبهم ورهبهم بغاية الترغيب فأراد لذلك المصلحة والتأديب، فالرد على من قال بذلك في وعد الله ووعيده أنه لا يخلو في ترغيبه وترهيبه لعبيده من أن يكون أدّبهم بأصدق المقال، وإما أن يكون رهبهم بالكذب والمحال، فإن كان رهبهم بالصدق والحق فلابد من تعذيبهم ونكالهم على ما اكتسبوا من قبيح أعمالهم وإن كان ترهيبه لهم باطلاً فالكذب من أقبح المقال وأبطل الباطل، وأضل الضلال، وإنما تولد الكذب والسفه من الهوى وما تضمن القلب من البلوى، والخالق لا يشتهي ولا يهوى، وأيضاً فإن الكذب لا يركن إليه ولا يصدق ولا يعتمد عليه، وهذه صفات الأشرار الجهلة الفجرة الكفار، تعالى عن ذلك الواحد القهار][1].

* * *

(١) ما بين المعكوفين، ساقط في (ج).

كتاب
الرد على من أنكر الوحي بالمنام بعد خاتم النبيين

١- أقسام الوحي.
٢- معنى الوحي.
٣- تفسير الرؤيا.



(كتاب: الرد على من أنكر الوحي بالمنام بعد خاتم النبيين)
صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين

[بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جاد علينا بأنواع دلائل الهدى، وعصمنا بذلك من الحيرة والردى، نحمده على ما لا يحصى من آلائه، ونسأله أن يجعلنا من أوليائه، وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له شهادة من زالت عنه شبه المحال، وانقطعت عنه طرق الضلال، وأيقن بوحدانية ذي الجلال، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ونبيه وخاصته ووليه، شهادة من صدقه فيما أتى به، وسلم له في جميع أسبابه، وأشهد أن الله ختم به أنبيائه وأعز به أوليائه، وأذل به أعدائه، وأكمل به الدين، وأعز به المؤمنين، وأرغم به الشياطين][1].

فليس يدعي النبوة إلا كاذب في المقال، متكمه في الضلال؛ لأن الله ختم به نبوته، وأكمل به حجته، فلما قبضه الله إليه واختار له ما لديه، خلفه الله[2] في أمته بأخيه وذريته، وجعلهم هداة بريته، فهم خلفاء الله في خلقه وأمناؤه على وحيه، لا يسلم أحد إلا بولايتهم، ولا يهلك إلا بعداوتهم، فنعوذ بالله

---

(١) ما بين المعكوفين، ساقط في (ج).
(٢) ساقط في (ج).

من الملكة في الدين، واتباع مردة الشياطين، فلقد[1] جهل الحق من جهلهم، وعادى الله من جهل فضلهم، إذ هم فرع الرسول، وسلالة البتول، وخيرة الواحد الجليل.

وليعلم من سمع قولنا وفهم تأويلنا، أن الوحي الذي ذكرنا ـ فيما تقدم من كلامنا ـ أن الله ختمه بنبينا هو هبوط الملائكة، وما كان يسمع موسى من المخاطبة، فذلك الذي ختمه الله وقطعه بعد محمد -صلوات الله عليه وعلى آله وسلم- لأنه علم أنه أفضل الآدميين، ففرق بينه وبين أهل بيته أجمعين، بأن جعلهم له تابعين، وبشريعته مقتدين، ولو علم في ذريته أفضل منه لأزاح ختم النبوة عنه، ولجعل بعده أنبياء[2] مثله، ولما أبان [الله][3] على فضلهم فضله.

[أقسام الوحي]

والوحي: فهو على أوجه معدودة، وأسباب محدودة.

فمنه: ما يكون على ألسن الملائكة المقربين.

ومنه ما [يكون][4] يخلق في أسماع المرسلين.

ومنه: ما يقذف في القلوب.

ومنه ما يرى في المنام، وكل ذلك لا يتهيأ إلا لذي الجلال والإكرام.

---

(١) في (ج): فقد.

(٢) في (ج): أمناء.

(٣) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

(٤) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).

وأما الوحي فإنما يسمى وحياً لأنه شيء خفي لا يسمعه إلا الموحى إليه، ولا يطلع أحد سواه عليه؛ لأنه سر من أسرار الحكمة، وكرامة من أجل النعمة، ولطف من أحسن اللطف والرحمة.

فأما[(١)] **خطاب الملائكة** فلا يكون بعد النبي صلوات الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً ولا يدعيه إلا كاذب من الأنام، وكذلك ما كان يسمع موسى عليه السلام من الكلام.

وأما[(٢)] **الوحي** الذي جعله الله في المنام، فلا ينقطع أبداً عن أهل الفضل والإسلام، ولأئمة الهدى من ذلك ما لا يكون لأحد من المخلوقين، ولا يلقى[(٣)] إلى أحد من المؤمنين، لأن الأئمة شركاء النبيين، وفي ذلك ما يقول أمير المؤمنين الهادي إلى الحق المبين ـ صلوات الله عليه[(٤)] ـ.

---

(١) في (ج): وأما.

(٢) في (ج): فأما.

(٣) في (ج): ولا يمكن أن يلقى.

(٤) في (ج): عليه صلوات رب العالمين.

باب تفسير الرؤيا

[قال يحيى بن الحسين الهادي إلى الحق رضي الله عنه][1]: بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[2].

وكان يقول صلوات الله عليه وآله وسلم[3]: «لم يبق بعدي إلا المبشرات» قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: «الرؤيا الصالحة يراها العبد أو ترى له جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»[4].

وكان يقول صلوات[5] الله عليه وآله وسلم: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان»[6] وقد فسرنا الحلم في كتاب الرؤيا بأبين البيان.

---

(١) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).
(٢) أخرجه الإمام الهادي في الأحكام (ج٢/ ٥٥٠).
(٣) في (ج): صلى الله عليه وآله وسلم.
(٤) أخرجه الإمام الهادي في الأحكام (ج٢/ ٥٥٠).
(٥) في (ج): صلى.
(٦) أخرجه الإمام الهادي في الأحكام (ج٢/ ٥٥٠).

[مشاهدات]

ولقد شاهدنا بحمد الله من عجائب الأسرار المكتومة، ما لو ذكرناه لما صدق به إلا من امتحن الله قلبه للإيمان، وإني لأحتاج الحاجة[1] فأطلبها من مولاي تبارك وتعالى فأرى في المنام قائلاً يقول: إن حاجتك التي تطلب في موضع كذا وكذا، أو عند فلان.

وربما تحيرت في سبب فأطلب منه البيان فما ألبث في منامي إلا يسيراً حتى أرى قائلاً يقول: قد استجيبت الدعوة ثم شرح لي ذلك القائل كلما سألت عنه حتى أرى من البيان أكثر مما طلبت.

وربما أغفل عن الشيء فأرى في المنام من يقول: لا تغفل عن هذا الشيء فإن فيه خيراً أو[2] مصلحة، وإن كان شراً قال: لا تغفل عن هذا واحترز منه فإن فيه هلاكاً وشراً.

وربما أرى في المنام سراً مكتوماً، وعلماً مكنوناً، مما سيكون ويحدث من الخير والشر والموت والقتل فيقال: سيحدث هذا الأمر في الشهر الفلاني، أو في اليوم الفلاني في أول النهار، وسيقتل فلان وسيموت[3] فلان، وهذا على الدوام والحمد لله، وربما أخبرت بعداوة العدو وولاية الولي، [فأحترز من العدو وأنبسط إلى الولي][4].

---

(1) في (ج): لأحتاج إلى الحاجة.
(2) في (ج): و.
(3) في (ج): أو سيموت.
(4) زيادة من (ج).

وربما أمتحن الله أولياءه الفينة بعد الفينة، وربما احتاج إلى معنى من المعاني فأرى صورة ذلك المعنى في المنام، وإلى ما يؤول وكيف يكون، وربما أطلب من الله حاجة أجهلها، وأطلب منه بيان ما أريد من صلاحها، فإذا هجم عليَّ النوم رأيت رجلاً يصف لي الحاجة التي أطلب ويقول: أنا أشير عليك بطلب حاجتك هذه ولكنها تعسر عليك من وجه ذا وذا، وتسهل من وجه كذا وكذا وحاجتك التي[1] أشير عليك بها صفتها ونعتها وحليتها كذا وكذا أصلها كذا وكذا. فأنظر ذلك جهاراً على ما وصف لي في المنام.

وربما أغفل عن النعت والصفة لوجه من وجوه الحكمة، وضرب من ضروب المحنة، وربما اشتبهت علي الإجابة بالألغاز والتعريض والإشارات حتى يتبين لي الجهل من نفسي، والعجز عن إدراك مرادي، فأدعو إلى الله عز وجل يا رب إني لم أفهم ما أوميت إليه، ولم أقف بفهمي عليه، [فبين لي أمره فإنني لا أقدر على فهمه][2]، فإذا نمت هجم عليَّ تفسير تلك الألغاز بأبين ما يكون من البيان، وأوضح ما يحتاج إليه من البرهان.

وقد يجب على العاقل إذا ورد عليه ما لا يفهمه من اللغز والإشارة والتعريض أن لا يعجل ولا يتقحم على الشبهة، فإن التقحم بغير بينة لا يؤمن معه الزلل والخطأ؛ لأني رأيت في المنام قائلاً يقول: إن من الرؤيا ما لا يتبين عند رؤية النائم، وربما رأيت شيئاً والمراد سواه.

---

(١) في (ب): حاجتك هذه التي.

(٢) ما بين المعكوفين زيادة من (ج).

قال الإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم صلوات الله عليه وعلى آله الطاهرين[(١)]: ولعمري لقد رأيت ـ (أي جربت)[(٢)] ـ ذلك فربما رأيت السيد في المنام وإنما الرؤيا لعبده، وربما رأيت الأب وإنما الرؤيا لولده، وربما رأيت الرؤيا للرجل وإنما هي لسميه أو قرينه[(٣)].

[كيفية تفسير الرؤيا]

وليس للعاقل أن يفسر الرؤيا لنفسه ولا يعتقد ظاهر ما يرى في منامه؛ لأن الرؤيا من حكمة الله، وغور حكمة الله لا يدرك، ومن الرؤيا بيان ولغز وإشارات، [وأخبار وبشارات][(٤)]، ومواعظ وآداب وعلامات، وليس يفسر كثيراً من الرؤيا بالوهم إلا قليل الورع جاهل أحمق، لأنك ربما رأيت شراً وتأويله خير، وربما رأيت خيراً وتأويله شر، وليس يبين الحكيم كل أموره للعباد، وليس يريد بكتمانها التعمية والتجهيل، وإنما يريد بذلك ألا[(٥)] يتكلوا على البيان، فيغفلوا عن استعمال العقول، والغفلة ربما كان فيها الهلاك، وإنما يريد أن يمتحنهم بترك البيان لينظروا ولا يغفلوا؛ لأن الإتكال على البيان لا يوجب البحث والنظر[(٦)] والطلب، وترك النظر يوجب البلادة، والبلادة توجب الوقوع (في المصائب)[(٧)] والوقوع في المصائب يوجب الهلاك.

---

(١) ما بين المعكوفين ساقط في (ج).
(٢) في (ج): لقد جربت ذلك.
(٣) في (ج): قريبه.
(٤) ما بين المعكوفين زيادة من (ج).
(٥) في (ج): أن لا.
(٦) في (ج): يوجب ترك النظر والبحث والطلب.
(٧) زيادة من (ج).

وترك البيان يوجب الفاقة، والفاقة توجب الخوف، والخوف يوجب الطلب، والطلب يبعث الحيلة مع التثبت والأناة والتبيين والتمييز والكشف والبحث؛ لأن الحكيم عز وجل لا يرضى بالفساد، ولا يقصده لأحد من العباد، ولا فساد أعظم من إهمال العقل، والإقامة في البلاهة والجهل؛ لأن في ذلك الزهد في الحكمة، ومن زهد في الحكمة فقد رضي بالضلالة، والضلالة مذمومة، ومن اختار المذموم على المحمود فقد أبلغ[1] الغاية في الخطأ.

[معنى التوكل]

وقد زعم قوم أن التوكل على الله في جميع الأسباب واجب وجهلوا حقيقة التوكل؛ **وإنما حقيقة التوكل** اليقين[2] بالله عز وجل، والرضى بجميع ما قدر وقضى، ولو كان التوكل هو أن يغلق عليه المتوكل بابه[3] ويهلك نفسه، لكان من لم يفعل ذلك غير مؤمن بخالقه، ولو جاز له أن يفعل ذلك لجاز له أن يحج إلى بيت الله الحرام بغير زاد وأن لا يستعد لأعداء الله في الجهاد، ولا يطلب العلم الذي ينجو به من عذاب الله في يوم المعاد، وإذا صار إلى ذلك فقد ألقى بنفسه إلى التهلكة، وخرج من الحقيقة إلى البدعة، وهذا جهل ممن ظنه وتوهمه، فضلاً عمن عمل به واعتقده، لأن الدنيا دار المحنة والحاجة، وليست بدار الآخرة والنعمة، والله يقول عز من قائل: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[الجمعة:١٠]. وهذا كثير في القرآن بين غاية البيان.

---

(١) في (ج): بلغ.
(٢) في (ج): حقيقة التوكل على الله اليقين.
(٣) في (ج) المتوكل عليه بابه.



تثبيت إمامة الإمام القاسم بن علي

رضي الله عنه

1- تثبيت إمامة والد المؤلف

2- بيان فضل والده

3- بيان فضل أهل البيت عليهم السلام

4- حجج الله تعالى

5- المهدي المنتظر عليه السلام



كتـــاب
تثبيت إمامة الإمام القاسم بن علي رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي إعلولى عرشه فقهر، وبين عدله فظهر، وأشـق نـوره فبهـر، وحكم في خلقه فعدل، وعم إحسانه فشمل، وحسن بلاؤه وتباركت أسمـاؤه وعظمت آلاؤه، وكثرت أدلاؤه، وعز أولياؤه، وذل أعـداؤه، وبلغـت حجتـه ونفذت مشيئته، وتمت كلمته، وظهرت نعمته، وبانت حكمته، وجلت دلائله، وخاب مزائله، وخذل خاذله، وعز ناصره وأنارت بصـائره، وعجـز واصـفه، ونجا خائفه، وضل مخالفه، وعظم شأنه، ووضح برهانـه، ولاح تبيانـه، وعـلا سلطانه، وبعد عن مشابهة خلقه ومماثلة صنعه، وجل عن ظلم عبيده، وصدق في وعده ووعيده، فهو لا إله إلا هو العلـي الحميـد، الواحـد المجيـد، المبـدئ المعيد الشديد، الغفور الودود، الواحد الأحـد الفـرد الصـمد، العزيـز المنيـع، البصير السميع، الحكيم العليم، الرحمن الرحيم، الكريم الحليم، قرب سبحانه من خلقه بغير ملازقة، وبعد بغير مفارقة، ودنا بغير معاينة، ونأى بغير مباينة، فهـو دان بغـير مجـاهرة، شـاهد لا بمحاصـرة، واحتجـب لا بمسـايره، وخلق لا بمؤامرة، ودبر لا بمشاورة، وظهر بغير ملامسة، وبطن بـلا ملابسـة،

موصوف لا بمعاينة، قيوم لا بمصابرة، عالم لا بمباشرة، غني لا بمكاثرة، حليم لا بمنازعة، مجيب لا بمراجعة، متكلم لا بمشافهة، مبرهن لا بمواجهة، فحججه على خلقه بوالغ، ونعمه عليهم سوابغ، فجعلنا الله لأنعمه من الشاكرين، وآلائه من الذاكرين، والحمد لله رب العالمين، الذي عجز عن نعته الناعتون، وضل عن وصفه الواصفون، ولم تدركه العيون، ولم يتوهمه المتوهمون، ولم تبلغه خواطر القلوب، ولم يخف عليه شيء من الغيوب، وانتهرت عن كنهه ضمائر المخلوقين، والحسرت عنه قلوب المربوبين، فالأبصار عن دركه مبتهرة، والقلوب عن ذاته مبهرة، وحججه على خلقه زاهرة، وشواهد صنعه ظاهرة، تعلن بالنداء لسامعها، وتشهد بالحكمة لصانعها، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة من ذل له ولأوليائه، وعز وغلظ على أعدائه، وأشهد أن محمد عبده ورسوله ونبيه وحبيبه وصفوته ونجيبه، بعثه الله للخلق بشيراً ونذيرا، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا، فبلغ رسالة ربه ونصح لأمته حتى قبضه الله إليه، واختار له ما عنده ولديه، بعد أن أوضح سبيل الهدى، وكشف به دياجير الدجى، فصلوات الله عليه وعلى من طاب من ذريته وعترته وأشهد أن أحق الناس بمقامه من كان له أخاً في حياته، ووصياً بعد وفاته، ومعدناً لسره وأمانته، وشقيقاً في نسبه وخلافته، علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وولي أولياء الله المتقين، وأخو رسول رب العالمين صلوات الله عليه وعلى نسله وعلى من طاب من ذريته الطاهرين الأخيار الأبرار الصادقين صلوات الله عليهم أجمعين، وسلم ورحم وكرم وشرف وعظم.

وأشهد أن الإمامة من بعده لولديه السبطين ابني الرسول المفضلين، صلوات الله عليهما وعلى من طاب من ذريتهما، وسار بسيرتهما، ثم نقول من بعد توحيد الله خالقنا، والقول بالحق في الله ربنا، إن حب الدنيا أول كل محنة، والركون إليها وإلى زهرتها أول كل فتنة، والموت أول منتظر، والحياة أول كل مدبر، فانظر أيها المغتبط لم خلقت وإلى ما تصير، وبم وعدت فقصاراك أن تكون أرضاً موطئة وأحاديث مذكورة أو منسية، فبادر إلى الله بالتوبة قبل حلول الأجل، واطلب الإقالة قبل فوت المهل.

وبعد:

[عتاب]

فقد بلغنا عن بعض أهل مقالتك ومن تعلق بدينك وهدايتك، قولاً لا يتكلم به عاقل، ولا يراه من الخلق إلا غافل، فأردنا أن نبين لك فساد قولهم إن شاء الله لتجتنبه، ونشرح لك الحق لتتبعه، لعلمنا بنصفتك وطاعتك، وفضلك ونزاهتك، فكان مما بلغنا عن بعض أهل مقالتك من يقول ويزخرف من عداوة آل الرسول أنه يزعم أن رفض الإمام التقي واجب، وعداوته فرض لازب.

[الثناء على والده الإمام القاسم]

يعني بذلك الإمام التقي الفاضل الزكي القاسم بن علي إمام المتقين وولي المسلمين، وخليفة الله في العالمين، من طاب لمجاده ومحتده، وكرم أصله ومولده، واحتذى من الرسول جميع أفعاله، وانتسج منه جميع أعماله، وقد علم الله سبحانه ما يكون من ظلم هذه الأمة وعداوتها وتكمهها في الضلال وعصيانها.

[بيان فضل عترة النبي صلى الله عليه وآله وسلم]

وعلم ـ جل جلاله عن أن يحويه قول أو يناله ـ أن سيكون في خلقه من يصد عن الحق والهدى، ويتبع الغي والردى، فاختار لدينه ذرية طيبة، وعترة [منتخبة] منتجبة، ومن الرجس والأدناس متبرية، فالحمد لله الذي اصطفاهم فطهرهم وفضلهم على خلقه وأكملهم، واختارهم لعلمه وانتجبهم واختصهم لهدايته فهذبهم، فلم يجعل لأحد معهم في وراثتهم نصيباً، ولم يجعل من خالفهم مصيباً، فآخرهم بأولهم مقتدون، وفي العلم والهدى متلدون، وبالجود والفضل مرتدون، ومن الرسول مشتقون، وللهدى والرشد موفقون.

فالحمد لله الذي جعلهم للحكمة موئلاً، وللدين محلاً ومعقلا، وخصهم بولادة خاتم النبيين وأخ الملائكة المقربين وخص بولايته من والاهم، وخذل من نصب لهم وعاداهم.

والحمد الله الذي وفقهم وهداهم، ونصرهم وأتاهم بقواهم، وخذل أعداهم فأصمهم وأعماهم، وضلل سعيهم فأرداهم، فلن يوفق أبداً من عصاه، ولم يخذل من خافه واتقاه، ولن يضل عن رشده من هداه، وسنعود إلى ما بدأنا به من ذكر هذا القول وأصحابه من هذه العوام، وجهالها وعُماة الأمة وضُلالها، ممن جهل الله فلم يعرفه، وعمي عن دلائله فلم يخفه، وجاهر بكبائر عصيانه وقذفه بزوره وبهتانه، فهو عن الله متحير غافل، وعن الرشد والحق زائل، وعن اليقين به جاهل، فهو يظن بجهله لخالقه أنه إذا أحاط ببعض شرائعه أنه حجة على الخلق لصانعه، فهو يعود إغمار هذه الأمة بجهده، ويدعوهم إلى ما عمي عنه من رشده، فهو دائب في عداوة آل الرسول، خارج عن حقائق

العقول، منكمه في حنادس الإظلام، غرق في لجج الأوهام، لا يفيق من سكرته ولا يستيقظ من نومته، قد رِين بعمله على قلبه لما باء به من سخط ربه، فهو يظن ـ لما هو فيه من جهله برب الأرباب ـ أنه أولى بالحق من ورثة الكتاب، فعما قليل يحصد ما زرع، ويذم غداً ما ابتدع.

وهيهات أن يحتج لله على عباده، أو أن يذب عن دينه وكتابه من هو بجهله لرب العالمين مشارك لمن عاند المرسلين، سالك لسبيل المعتدين، مجانب لطرق الراشدين، حائر عن منهاج المهتدين.

[صفات والده المنصور]

أفهذا يا أخي عند من عقل أولى بالصواب والحكمة وفصل الخطاب، أم ذرية الرسول ونسل البتول، ومن هو لله سبحانه مطيع، وفي مرضاته جاهد سريع، عرف الله حق معرفته، وتنصل إليه من خطيئته، وولـه قلبه بمحبته، وتقرب إليه بطاعته، وأيقن بوعده ووعيده، ونزهه عن ظلم عبيده، هو ولي لرب العالمين وحبيب للملائكة المقربين، وشريك لأفاضل النبيين، فمعرفته لله معرفة للصادقين، ومقامه مقام السابقين، قد باع من الله نفسه، وكشف بالمنابذة للظالمين رأسه، وعبد الله ليلاً ونهارا، وإعلاناً وإسرارا، وفارق المال والمحل، وعطل القرابة والأهل، قد أخشن لباسه وفراشه، وأقل نومه ومعاشه، ولم يزل طول دهره عابدا، خاشعاً راكعاً ساجدا، شاكراً لربه حامدا، داعياً إلى الله جاهدا، وفي حطام الدنيا زاهدا، قد عرف الله فقصده فأبلا في طاعته جسده، فأتاه الله رشده فهداه وسدده، وأتاه تقواه، قد غمرته المحن والهموم، والنوائب والغموم، فهو لذلك جذل ولماله ونفسه باذل، فقلبه بخالقه منوط،

ووزره مَحْطُوطٌ، قد نظر الدنيا بعين الزوال، وأيقن عنها بالارتحال، فقطع منها أمله، وانتظر أجله، فهو للموت منتظر، وفي الله مهاجر، واقف على طريق نجاته، متخلص من موبقاته، فجسمه بالمحن مغمور، وقلبه بذكر الله معمور، قد عمر آخرته بخراب دنياه، وآثر طاعة خالقه ومولاه، وأخلص لله سريرته، وعمر بالإيمان آخرته، وجعل عند الله ذخيرته، وزرع رياض التقوى فأنبتها، ورفع قواعد الإسلام فأثبتها، وجعل في الله رغبته، وللمؤمنين ولايته، وللجبارين غلظته، وللفاسقين عداوته، أصفح الخلق عن المذنبين، وأرأفهم بالضعفة والمساكين، وأعناهم بالفقراء المحتاجين، العامل لله بجهده، المؤثر على نفسه وولده، واصل الأرحام، أبو الأيتام، وحليف القرآن، ذو الجود والإحسان، والفضل والإيمان، كافل الأرامل، كامل الفضائل، الإمام المنصور والعلم المذكور، ولي الواحد المجيد، أخ العدل والتوحيد، فصلوات الله عليه ورحمته ورضوانه وبركاته وغفرانه، ونظر الله وجهه وغفر له وتقبل سعيه وعمله، وحشرنا في زمرته، وجعلنا من حزبه ورفاقه، وما عسيت أن أصف من فضائله، وأذكر من جميع فعائله، لكنا نميل إلى الاختصار، ونرغب عن التطويل والإكثار.

[إمامة الوصي]

فزعموا أن الله عز وجل لم يبعث بعد وليه المرتضى أماماً، ولم يدع بعده من آل محمد صلوات الله عليه وآله وسلم إلا ظالم، وأن الحجة من بعده ما سطر من الكلام في كتبه، وأنهم بزعمهم قائمون بها مترجمون لما غمض منها، هم ومن وافقهم على دينهم، واتبع ما قالوا من ألاعيبهم، وقد رد الله عليهم

في مذهبهم، وما ابتدعوا في دين الله ربهم، فقال سبحانه فيما نـزل في محكم كتابه، وأوثق وثائق أسبابه لنبيه صلوات الله عليه فيما أوحى من الفرقان إليه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾[الرعد:٧].

فكم يا أخي من قوم بعد الإمام قد ذهبوا، وكم قد ذهب من القرون فعطبوا.

وأما قولهم إن كتب الإمام وما سطَّر حجة لله على جميع البشر، فلعمري أن قبول ما فيها واجب على جميع المخلوقين، لا ما ذهبوا إليه من رفض الأئمة الباقين، والتعلق بكتب الماضين، ولو كان ما قالوا عند من عقل صدقاً، أو كان ما نطقوا به من الزور حقاً، لكان ذلك رداً لرب العالمين وإثباتاً لقول المخالفين، إذ كلهم متعلق بكسب من عدم شخصه، رافض لمن كان من الأئمة بعده، ولو جاز لأحدٍ منهم أن يقف على إمامة رجل، ويرفض من بعده لجاز ذلك لمن كان من الروافض قبله، ولجاز لهم من ذلك ما جاز له، ولصارت العوام أولى بالإمامة من آل نبيهم، ولنقضوا قول ربهم، ولما كان لقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ معنى، ولكان تمرداً وعبثاً، ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا﴾[الإسراء:٤٣].

ولو احتمل القول تأويلاً غير تنـزيله لأبطل المخالفون ذلك التأويل جميع قوله، ولتأولوا في أئمته مثل تأويله، ولما فرق بين أقاويلهم ورفضهم وتأويلهم، وزعموا أن كتاب الله حجة على خلقه، وليس مع الكتاب من يقوم به، فهلا سمعوا ما ذكر الله في كتابه، وما قال لنبيه من أن ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾[الرعد: ٧]من الله، أفهذا عندهم من كتاب الله أو من غيره، وهم يقرون أن الباطل لا يشبه الحق، وأن الضلال لا يشبه الهُدى، فإن كان قولهم هذا حقاً عندهم فقد قال به من رفض أئمتهم، وسبقهم إليه من كان قبلهم، وقالوا في

ذلك قولهم، وتأولوا تأويلهم، فالحق إذا لم يزل عندهم للباطل مثلاً، وما في الكتاب من العلم جهلاً، إذ لم يزل المبطلون بهذا القول يحتجون، وبه على من رفضوا يتأولون، ولن تشتبه حجج المتقين والمبطلين ولن يوجد المحقون بذلك قائلين، ولا لتأويلهم متأولين، ولا لقولهم أبداً قائلين، وهذا مما لا يقول به أبداً لبيب، ولا يعتقده من الخلق مصيب، فلو لم يكن لنا من الحجج إلا ما في المعقول لكان فيما ذكرنا كفاية لأهل العقول.

[الرجوع إلى أهل الذكر]

فكيف؟! إلا أن الله قد رد عليهم في مقالهم وأكذبهم في سوء أفعالهم، فقال تعالى جده، وخذل من عصاه وعانده: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النحل:٤٣] ولا يخلو قول الله لعباده أن يكون عبثاً وتمرداً، أو يكون أراد معدوماً، أو يكون أراد موجوداً.

فإن قال قائل: إن الله أراد العبث والتمرد كفر، كفر من الحد وجحد، وهذا فما لا يقولون به أبداً، ولا يوجد أحد منهم لشيء من ذلك معتقدا، وإن قال إنه أراد بذلك كتب من عدم من آل الرسول خرجوا بقولهم من المعقول؛ لأن الحكيم لا يأمر بسؤال بياض ولا سواد، وإن كان والحمد لله من النور والهدى ما لا ينكره إلا من ظلم واعتدى، وأيضاً فلو كان هذا على مجاز الكلام لكانت هذه حجة على كل إمام، ولبطلت حجج الله آخر الأيام، فكل ما قام بالحق قائم، قال له المعارضون: إنما هذا القول في كتب من عُدم منهم، ولكانت هذه الحجة على أئمتهم، ولكانوا محتجين لمن عارضهم مقرين بصحة قول من عاندهم؛ لأن هذه حجة المعارضين الذين هم لأئمتنا رافضين،

إذ كلهم للأئمة رافض، ولقولهم معارض، وبكتب أمواتهم متمسك، ولسبيل إخوانهم سالك، فليت شعري ما الفرق بينهم وبين كلامهم وأشباههم في الناس وأمثالهم، إذا كانوا لكتاب الله دافعين، ولحكمته تاركين، فلعمري لو قال قائل: إن الأشياء كلها عدم لكان أهون من أن يرد من الكتاب محكماً، ولو قال: إن القمر شمس والشمس قمر لكان أهون مما على الله افترى، ولو قال: إن النهار ليل والليل نهار لكان أهون مما نسب إلى العلي الأعلى، فنعوذ بالله من الحيرة والعمى، فهذا غاية الخروج من المعقول والرد لقول الواحد الجليل، إلا أن هذا الذي يزعم أن الليل نهار أهون جرماً ممن رد كتاب الله جهاراً. وزعموا أن لله حجة مغمورة، إذ لم يكن ثم حجة مشهورة، غير من هو عندهم معارض، ولكلام الأئمة بزعمهم رافض، والله سائلهم عما ذكروا من المحال، وأفحشوا في أولياء الله من المقال، وأكذبوا ما قال فيهم الله ذو الجلال، فأخرجوا الله بحجتهم ـ هذا المغمور ـ من الحكمة والعظمة والتدبير، إذ زعموا أن الله يحتج على عباده وينفي الفساد من بلاده، بحجة لا تُرى ولا تبصر ولا تسمع بها ولا تذكر، ولا تأمر بمعروف ولا تنهى عن منكر، ولا يرد [بها] على أحد من المبطلين ولا ينصر [بها] الحق والمحقين.

[حجج الله تعالى]

وأيضاً فإن الحجة لله من السابقين والمقتصدين أغضب لله من جميع المخلوقين، فجعل هؤلاء القائلون المحتجون على الله الجاهلون أنفسهم أعضد عندهم من حجة ربهم المغمور الذي يعتقدون في مذهبهم، وإنما سمى الحجة حجة لاحتجاجه على الفاسقين وقمعه للظلمة المنافقين.

وأيضاً فليس من حكمة الحكيم أن يحتج على عباده بحجة من آل بيته، ثم يخفيها عنهم ويغمرها ولا يعلمهم بها ويسترها ويحاسبهم على ما لم يعلموا ويعذبهم على ما لم يفهموا، أجل الله عز وجل لبعيد عن هذه الفرية وأمثالها ونظائرها من القول وأشكالها، وإنما معنى ما روي من الحجة الباطنة عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه هو المقتصد من آل الرسول، وقد روي عن رسول الله صلوات الله عليه وعلى الطاهرين من آله وسلم تسليماً أنه ذكر الحجة ثم قال: إما السابق وإما المقتصد وإنما المقتصد مقتصداً لاقتصاده عن المراد، وسمي حجة لاحتجاجه على جميع العباد، وزعموا أن الإمام لا يقتصد أبداً ولا يوجد قبل سبقة مقتصداً ولا يزال سابقاً، وقد رد الله عليهم وأكذبهم في قولهم إذ يقول عز من قائل لنبيه المصطفى وأمينه المرتضى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ﴾[الضحى:٧] ولم يكن ضلاله صلوات الله عليه وعلى آله وسلم ضلالة شرك ولا مرية ولا شك، وإنما كانت ضلالته جهلاً بما لم يؤت إلا بعد كماله، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾[الشورى:٥٢] فكيف بمن دون ذلك من أوليائه.

[المهدي المنتظر]

وفي ذلك ما يقول رسول الله ﷺ تسليما فيما ذكر من المهدي وما سيكون من اقتصاده قبل دعوته وجهاده: «ستأتي بعدي فتن متشابهة كقطع الليل المظلم» فيظن المؤمنون أنهم هالكون فيها، «ثم يكشفها الله عنهم بنا أهل البيت برجل من ولدي خامل الذكر، لا أقول خاملاً في حسبه ودينه وعلمه ولكن لصغر سنه وغيبته عن أهله واكتتامه في عصره» فبين صلوات الله عليه وعلى آله وسلم أنه يريد بذلك الاقتصاد لا ما ذهب إليه أهل اللداد،

فلعمري لو لم يتكلم الرسول صلوات الله عليه وعلى آله وسلم ولم يقل في ذلك حرفاً لكان في قول الله شفاء للقلوب، وكفى به لكل عبد منيب.

[حديث الثقلين]

فكيف؟! ألا إنه قال ـ بإجماعهم لو انتفعوا بقلوبهم وأسماعهم ـ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض» ولا يخلو قوله صلوات الله عليه وعلى آله «لن يفترقا» من أن يكون باطلاً أو حقاً، فنعوذ بالله من تكذيب الرسول ومكابرة حجج العقول، فلقد كفر من كذب كتاب الله رب العالمين، ورد قول الرسول الأمين، وتعلق بأوهامه، وظنونه، وقبل وحي شياطينه، واعتمد على المتشابه من الأقاويل، وجهل مخارج السير والتأويل، وفارق محكم التنزيل، واتكل على الأقاويل المهلكات، وقبل ما روي من المتشابهات، وتبرأ من الأمهات المحكمات، ولن يقول أحد يعقل أن بعد ما ذكرنا مقنع، ولا أن لما ذكرنا من التنزيل قاطع، ولا يقول أحد أن الأئمة أولى من كتاب الله بالصدق وأقرب إلى الصواب والحق، ولا يقول أحد من الأنام إن كتب الإمام الهادي ﷺ أولى من قول ذي الجلال والإكرام، ولا يقول أحد من أهل العقول والتمييز، بإبطال شهادة الحكيم العزيز، ولكنا نقول إن شاء الله ونعتقد ما لا ينكره من الناس أحد: إن شهادة الله صادقة وإحاطته بالأشياء سابقة، وأنه لم يشهد إلا بما علم بصحته مما لا يقدر أحد على إزاحته، وأن قوله ثابت مجيد، وأصل قوي شديد، وصراط مستقيم، شديد، لا يضل من تمسك به أبداً، ولا يميل عن الحق والهدى، وأن قول أئمتنا لا يخالف الكتاب ولا يحيد عن الحق والصواب، وإنما اختلف من

أقاويلهم تمسكنا فيه بتأويلهم، وتبرأنا إلى الله من تكذيبهم، واعتمدنا على قول ربهم، واتبعنا من ذلك أحسنه وأقربه إلى الحق وأبينه، وما اشتبه علينا من كلامهم رجعنا فيه إلى أصول أحكامهم كي لا نبوء بآثامهم؛ لأن الله سبحانه ألطف بنا وأرحم من أن يعذبنا على ما يكون من وقوفنا، وطلب سبيل نجاتنا، وما نرتجي من عفوه من حسن ظنوننا، واطراحنا لأهواء أنفسنا، واعتمادنا على محكم كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والله على ذلك المستعان، وهو حسبنا وعليه التكلان، وصلى الله على سادتنا الملائكة المقربين، والأنبياء والمرسلين، والأوصياء والأئمة السابقين، والمقتصدين، وذريتهم الطاهرين، والحمد لله رب العالمين، وصلواته علىٰ خير خلقه أجمعين، سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله الطيبين الأخيار الصادقين، وسلم تسليماً، وحسبي الله وكفى ونعم الوكيل.

كتاب

مختصر في التوحيد

وفيه مسائل عن الإرادة وغير ذلك

من كلام الإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم

مما سأل عنه رزين بن أحمد

١- إرادة الله تعالى

٢- العلم والقدرة

٣- الصفة ومتعلقاتها

٤- الأمطار وهطولها

٥- التفكر في النفس

٦- الأدلة على وحدانية الله تعالى

٧- الأدلة على ثبوت صفاته

٨- عدم مشابهته لصفات خلقه

٩- نفي الأجسام عن الله تعالى



بسم الله الرحمن الرحيم

سألت يا أخي أرشدني الله وإياك للتقوى، وجعلك رشيداً مُرشداً، عن الإرادة، فقلت: هل بين إرادة الله لجميع ما خلق فرق وإرادته لتغييره؟

وقلت: إني قلت وغيري إن إرادة الله لا تسبق مراده، وقلت: إن الله عز وجل قد أخبرنا بالموت والبعث والثواب والعقاب والجنة والنار.

وقلت: كيف يخبر عن شيء لم يرده بعد أو كيف يريد شيئاً لم يفعله بعد وأنت تعلم أن الفعل هو إرادة الله للمفعول وأنت تعلم أن الإرادة لا تقع إلا بالفعل، والفعل لا يقع إلا بالإرادة مع الضمير وذلك عن الله منفي.

الجواب: اعلم يا اخي أرشدك الله أنه لا فرق بين إرادة الله في الفناء والإنشاء؛ لأنه كله فعل لما أراد أفناه أو أنشاه؛ لأنه كله فعل، وإنما اختلفت إرادته لسبب أعرفك به، وهو مثل إرادته للأرض فذلك اختراع للكل، وأما إرادته لتبديلها فذلك تغيير بعض صفاتها وليس إفناء الشيء وإبطاله كله، مثل تبديل صفته، فمن هذا الوجه جاء الفرق لا من غيره، فاعلم ذلك وقس عليه ما أشبهه إن شاء الله.

وأما إرادة الله عز وجل للموت والبعث والثواب والعقاب والجنة والنار، فلا يخلو من أحد وجهين:

[١] إما أن يكون موعداً من الله أخبرنا بما علمها أنه سيكون من فعله وإرادته.

[٢] وإما أن يكون ضميراً لم يفعله بعد.

فإن قلت: إنه ضمير، فهذا يستحيل عن الله سبحانه؛ لأن الضمير والنية عرض من صفات الأجسام، والله ليس بجسم تحله العلل؛ لأنه لو كان جسما لم يعْدُ من أن يكون مفترقاً أو مجتمعاً، والمفترق مفصّل لابد له من مفصِل، والمجتمع موصل لابد له من موصل، والله مفرق الأشياء وجامعها ومفتطرها وصانعها، وفي نفي التجسيم من الأدلة ما لو شرحناه لطال به الكلام، وفيما ذكرنا كفاية إن شاء الله تعالى.

وإن قلت: إن ذلك موعد من الله لم يرده بعد فذلك الحق وليس قولنا: إن الله لم يرده نفياً لما وعد وإنما معنا قولنا: لم يرده، أي: لم يخلقه، وكذلك قولنا: إن الله يريد عقاب الكافرين وثواب المؤمنين، إنما نريد به أن الله سيريد يوم القيامة، ولسنا نقول إنه اليوم مريد لذلك على التحقيق، وإنما نريد أنه سيفعل؛ لأن الإرادة هي فعله لما أراد، ولو كان اليوم مريداً لكان فاعلاً، ولو كان فاعلاً لكانت الآخرة في الدنيا، وهذا فاسد.

فإن قال: فإذا قلتم أنه لا يريد ثواب المؤمنين وعقاب الكافرين فقد نفيتم إرادته.

قيل له ولا قوة إلا بالله: مسألتك هذه تحمل ثلاثة أوجه:

[١] إما أن يكون عنيت الثواب والعقاب بأنفسهما في دار الدنيا.

[٢] وإما أن يكون عنيتهما في دار الآخرة.

[٣] وإما أن يكون عنيت الضمير في الدنيا، والفعل غداً.

فإن كنت عنيت ذلك الفعل من الله في الدنيا فهذا باطل لا يقول به عاقل ولا جاهل، وإن كنت عنيته في الآخرة فذلك مرادنا وبه اعتقادنا، وعليه كلامنا، وإن كنت تعني أنه سبحانه يضمر فهذا ما لا يليق بالله ولا يجوز عليه لما قدمنا.

وسألت يا أخي تولى الله حفظك عن العلم والقدرة أهما الذات أم غير ذلك؟

الجواب في ذلك: أن العلم والقدرة صفتان من صفات الذات هما الذات والذات هما.

واعلم أن الله سبحانه واحد ليس له صفة متعلقة به ولا مباينة له؛ لأن التعلق والمباينة إنما تقعان على الأجسام والأعراض، والله عز وجل ليس بجسم ولا عرض.

وسألت تولى الله حفظك عن الصفة أهي مباينة للموصوف أو ممازجة له؟

الجواب: اعلم يا أخي أن المباينة لا تقع إلا بين جزئين متغايرين كل جسم غير الآخر، وكل متمازجين فهما جزءان مزجا فصارا جزءاً واحداً، والله يتعالى عن ذلك علواً كبيراً؛ لأن الممازجة والمباينة والتغاير من صفات الأجسام، وليس ذلك من صفات ذي الجلال والإكرام.

وسألت عن الفروع من الخلق مثل الحيوان والزروع أسبيلهما في التصوير كسبيل أولهما أم قد وكل الله بصنعهما تناسلهما؟

الجواب: اعلم يا أخي أن الله سبحانه لم يوكل بالصنع غيره فأي سبب حدث بعد عدم تصويره لم يخل أن يكون في تلك الحزّة التي صور فيها تصور بتصوير مصوره، أو بتصوير غير مصوره.

فإن قلت: أنه يصور بغير فعل مصوره فهذا يستحيل لما في ذلك من حكمه تقدير مقدره، ولما فيه من بيان تدبير مدبره.

ودليل آخر: أنه لو كان موكلاً بالتناسل لم يخل من أن يكون الله وكله في حال وجوده أو في حال عدمه، فإن كان وكله في حال العدم فهذا يستحيل لأن الموكل لا يكون معدوماً.

وإن قلت: إنه وكل في حال وجوده فالتوكيل فعل الموكل وهو الله سبحانه إذ ليس في طبع الموكَّل أن يصنع نفسه ولا غيره، وفي هذه المسألة من الدلائل ما لا يخفى على أحد، فاعلم ذلك. ألا ترى أن النطفة لو وكلت بتصوير نفسها لم تخل من أحد وجهين: إما أن تكون وكلت بشيء هو فعل خالقها لها، فإن قلت: إن النطفة وكلت بما ليس من فعلها فهذا يستحيل؛ لأن الحكيم لا يأمر من لا يأتمر ولا يأمر بشيء هو من فعله، وكيف يأمر بالحكمة وهو مجريها أم كيف يأمر البرية بالبري وهو باريها.

وسألت عن الغيث كيف يمطر مرة ويسكن مرة ويجتمع ويفترق ويصب في مكان دون مكان وهو لا يعقل أمراً أُمِره.

الجواب: اعلم يا أخي أن هبوط الغيث في مكان دون مكان حكمة من الله جل ثناؤه وبلاء لخلقه حسن بلاؤه فهو إن يسكن فذلك دليل على مُسكنه، وإن أصاب فذلك دليل على رحمة خالقه.

وقلت: هل ذلك بتوكيل له من الله أم بفعل من الله يفعله.

واعلم أن التوكيل من الله سبحانه لا يكون إلا لمن يعقل مثل المتعبدين الموكلين بالصلاة والصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام.

فأما هذه الجمادات التي ليس من طبعها الائتمار، فإنما معنى ائتمارها إجابتها لفعل فاعلها وإجابتها، فهي فعلها واستمرارها وعلوها وانحدارها، وإقبالها وإدبارها، واجتماعها واقترابها، وحركتها وسكونها، وتنقلها وتصرفها، وكل ذلك فعل غيرها بها إذ ليس من طبعها ما ذكرنا من تدبير مدبرها.

وسألت يا أخي تولى الله رشدك أن أذكر لك طرفاً من التوحيد وجملاً منه مغنية، وأنا أذكر لك ذلك إن شاء الله.

اعلم يا أخي [أمتعنا] الله بطول حياتك، أن الدليل على الله سبحانه ما ظهر من عجائب صنعه، وأقرب الأدلة إلى الإنسان نفسه، فمن نظر إلى ما في نفسه من الأدلة كان له في ذلك كفاية كافية ودلالة واضحة شافية؛ لأنا نجد الإنسان نطفة من ماء مهين لا سمع فيه ولا بصر ولا شعر ولا شم، ثم نراه من بعد ذلك حياً سوياً سميعاً بصيراً فلما رأيناه كذلك لم يخل عندنا من أحد ثلاثة أوجه:

[١] إما أن يكون خلق نفسه.

[٢] وإما أن يكون له خالق غيره.

[٣] وإما أن يكون ليس له خالق.

فإن قلت: إنه خلق نفسه فهذا محال؛ لأنا نجد الإنسان في حال كماله عاجزاً عن الزيادة في نفسه والنقصان، فعلم إذ عجز في حال كماله وبلوغه وحياته عن الزيادة في نفسه، والتبديل لصورته أنه في حال الضعف والنقص والموت أعجز وأضعف.

وإن قلت: كان بلا مكون فهذا محال؛ لأنك إذا قلت كان بلا مكون أوجبت أنه متروك، وإذا أوجبت أنه متروك ولم يخلقه خالق أوجبت عدمه، وإذا أوجبت عدمه نفيت وجوده، فأخبرني عن هذا الموجود المتروك ما الذي جعل وجوده أولى من عدمه، إذ المتروك ليس وجوده أولى من عدمه؛ إلا أن تقول إن وجوده أولى من عدمه؛ لأن له صانعاً، فترجع إلى الحق، إذ لا توجد حكمة إلا من حكيم، ولا بيان علم إلا من عليم، كما لا يوجد نظر إلا من ناظر، ولا أثر إلا من مؤثر، ولا سمع إلا من سامع، ولا بناء إلا من باني، ولا كتاب إلا من كاتب، ولا نظامه إلا من ناظم.

باب
الدليل على وحدانية الله سبحانه

إن سأل سائل فقال: ما الدليل على أن الله واحد؟

قيل له: اعلم أيها السائل، دلّنا على أنه واحد أنه لو كان معه إله آخر لم يخلُ من أن يكونا متفقين أو مختلفين، فإن كانا مختلفين لم يخلُ من أن يقهر أحدهما صاحبه أو لا يقدرا على ذلك، فإن تكافت قواهما فلما يقدرا جميعاً على ما أرادا من الاختلاف، فهما عاجزان مخلوقان، وإن قدرا على ذلك فهما عاجزان إذ لم ينج أحدهما من القهر، وكان كل واحد منهما مقهوراً.

ودليل آخر: أنهما إذا قدرا على الاختلاف لم يخلُ من أن يختلفا فيبطلا أو يختلفا فيعجزا أو يختلفا فيبطل أحدهما، فإن اختلفا فبطلا فهما ضعيفان جسمان مخلوقان، وإن اختلفا فعجز كل واحد منهما عن صاحبه وتكافيا فهم عاجزان إذ عجز كل واحد منهما عن صاحبه، وإن اختلفا فبطل أحدهما وثبت الآخر فإن الربوبية للثابت القاهر، وإن اتفقا لم يعدُ من أن يكون اتفاقهما خوف الاختلاف أو خوف العجز، أو عبثاً منهما وسفهاً، فإن اتفقا خوفاً من الاختلاف فهما عاجزان؛ لأن العاجز ضعيف والضعف من صفات

المخلوقين، وإن اتفقا لأن يستعين كل واحد منهما بقـوة صـاحبه فهمـا أيضـاً ضعيفان؛ إذ كان كل واحد منهما محتاج إلى قوة صاحبه، والحاجة من صـفات الأجسام الناقصة، وإذا كان كل واحد منهما يحتاج إلى الزيـادة في قوتـه فهـذا دليل على نقصان قواهما وفاقتهما، وإن اتفقا عبثاً وسفهاً فالعيب والسفه من أفعـال المخلـوقين المحتـاجين ذوي الطبـائع المصـورين؛ لأن العبـث لـيس بمحكم متقن.

باب
الدليل على الصفات

واعلم يا أخي أن صفات الله عز وجل على وجهين:

[١] صفات قديمة.

[٢] وصفات محدثة.

فأما الصفات التي لم يزل يوصف بها فالعلم والقدرة؛ لأنه لو كان قدر بعد أن لم يقدر لكان قبل ذلك غير قادر، ولو كان غير قادر لكان عاجزاً، وكذلك لو كان علم بعد أن لم يعلم لكان قبل العلم جاهلاً، وهذا محال.

وأما الصفات المحدثة فالإرادة والرزق والثواب والعقاب؛ لأنه لو كان لم يزل مثيباً معاقباً لوجب أن يكون المثاب والمعاقب معه في حال القدم، وكذلك لو كان لم يزل مريداً لوجب أن يكون المراد معه أزلياً، وهذا محال.

وأما الكرم والرحمة فهما صفتان لله سبحانه لم يزل يستحق معناهما لقدرته عليهما وأما هما في أنفسهما، فمن صفات الحدوث ألا ترى أن الرحمة هي النعمة، والثواب والنعمة والثواب محدثان، ولكنا نقول لم يزل الكريم مستحقاً للرحمة، وإن لم يكن ثم مرحوم لقدرته على الرحمة فقط.

باب
نفي الصفات عن الله سبحانه

اعلم أن الله عز وجل لا يوصف بصفات خلقه وتفسير ذلك أن قدرة الله عز وجل هي هو، وعلمه هو هو، وقدرة المخلوق هي قوة الجسد، واستطاعة الجوارح وعلم الإنسان هو يقينه بما جلبت الحواس إلى قلبه واتصل إلى عقد معقوله بعد جهله، وكذلك إرادة الله فهي فعله لا غير ذلك، وإرادة المخلوق محبة قلبه واهشاش مودته وضميره ونيته قبل فعله، ومحبة الله ثوابه وغضبه عقابه، ومحبة الإنسان هواه وبغضه كراهته، فاعلم ذلك وافهمه إن شاء الله.

باب
نفي صفات الأجسام عن الله ذي الجلال والإكرام

واعلم أن الله سبحانه ليس بداخل في الأشياء ولا خارج كخروج الأشياء ولا بينه وبين خلقه مكان ولا هو في مكان ولا هو فوق الأشياء ولا هو تحت الأشياء ولا محيط بالعالم كإحاطة الإناء بالماء وغيره من الأشياء، وأنه فوق الأشياء بقدرته وفي الأشياء بعلمه ومحيط بها بخبره، وأن بصره هو نفي العمى عنه وبصره بالأشياء، وسمعه نفي الصمم عنه، وليس ثم بصر ولا سمع على شبه الخلق، وأنه ليس بشخص محدود ولا عدد معدود، ولا بذي كل ولا بعض ولا طول ولا عرض ولا عمق ولا لون ولا طعم ولا رائحة ولا محسه ولا حواس ولا فكرة ولا يقين ولا شك ولا تمييز ولا محبة ولا بغض، ولا صبر ولا غيظ، ولا جهل ولا خاطر، ولا يمين ولا شمال، ولا خلف ولا أمام، ولا فوق ولا تحت، ولا افتراق ولا اجتماع، ولا حركة ولا سكون، ولا ارتفاع ولا اتضاع، وأنه بخلاف ما وقع عليه وهم أو أدركه ظن، وأنه لا يخطر على القلوب، وأنه لا يعرف شيء من الأشياء إلا أن لهذا الصنع صانعاً ليس له شبيه ولا مثيل ولا نظير ولا عديل.

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته الطاهرين وسلم تسليماً.

كتاب
مسألة في الإرادة

١- الإرادة القديمة.

٢- الإرادة الحادثة.



مسألة في الإرادة

سأل عنها علي بن عبد الله

بسم الله الرحمن الرحيم

سألت يا أخي تولى الله رشدك، عن كلامي في إرادة الله عز وجل، ولم أقل من ذلك إلا ما قال أئمتنا صلوات الله عليهم، وذلك أن الإرادة قد هلك فيها كثير من الناس، فقيل فيها بأقاويل كثيرة فرددناها إلى العقول، فلم تخل عندنا من أحد أوجه:

[١] إما أن تكون قديمة كقدم العلم والقدرة.

[٢] وإما أن تكون خاطراً يحدث بعد عدمها، ويكون قبل الفعل.

[٣] وإما أن تكون هي الفعل.

فأما من زعم أن الإرادة قديمة كقدم العلم والقدرة فقد خرج من المعقول، وذلك أن هذه الإرادة القديمة بزعمهم لا يخلو أن تكون في حال قدمها ضميراً أو نية أو فعلاً، فإن [قلت]: كانت فعلاً فقد أوجبت قدم الفعل والفعل لا يكون قديماً؛ لأن الفعل حادث والحادث فلابد له من محدث، وهذا أبين الفساد والله يقول عز من قائل: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[يس:٨٢] فلو كان لم يزل مريداً لكان لم يزل فاعلاً، ولو كان لم يزل

فاعلاً لوجب أن يكون الفعل معه أزلياً، وهذا متناقض وربنا محمود، وإن كانت ضميراً فهي همة ونية والهمة والنية شهوة، ومحبة حالة في جسم، والله ليس بمحل للأعراض والنيات ولا يشتمل على الشهوات؛ لأن الضمير والنية لا يتعلق إلا بجسم محدود مفترق أو مجتمع، والمفترق لابد له من مفرق والمجتمع لابد له من جامع ومفتطر صانع.

ودليل آخر: أن هذه الإرادة القديمة لا تخلو من أن تكون جسماً أو عرضاً أو رباً خالقاً أو عدماً أو فعلاً، فإن قالوا إنها عرض، والعرض لا يحل إلا جسماً والله ليس بجسم كما قد ذكرنا، وإن قالوا: إنها جسم لم يخل ذلك الجسم من أن يكون حادثاً أو قديماً، فإن قالوا إنه حادث نقضوا قولهم، وإن قالوا: إنه قديم لم يخل من أن يكون مفترقاً كما ذكرنا أو مجتمعاً والمجتمع موصل، والموصل لابد له من موصل، والمفترق مفصل لابد له من مفصل، والله موصل الأشياء ومفصلها ومفرقها وجامعها ومفتطرها وصانعها.

ودليل آخر: أن الإرادة لو كانت قديمة غير الفعل وحادثة لم يخل من أن تكون متعلقة أو مباينة له، والتعلق والمباينة من صفات الأجسام التي دللنا على فساد القول فيها.

فإن قال: إن الإرادة شيء مباين مغاير معه أزلي أوجبوا أزلية شيء مع الله مغاير له.

فإن قالوا: بل هي شيء متعلق به لم يخل من أن يكون تعلقت بكل منه أو بعض.

فإن قالوا: تعلقت بأحدهما مما كان له كل وبعض فله طول وعرض، وهذا القول القبيح قول بعض الحشوية الكفرة وقول بعض الإمامية المشبهة.

وإن قالوا: إنها رب مع الله خرجوا من الإسلام، وإن قالوا إنها عدم فالعدم لا شيء.

وأما من قال إن الإرادة هي الفعل فقد أصاب؛ لأن إرادة الله سبحانه فعله للمفعولات وفعله للمفعولات فهو إنشاؤه للمنشآت، وإنشاؤه للمنشآت فهو إيجاده للموجودات، وصلى الله على سيدنا محمد النبي وعلى آله الطاهرين وسلم تسليماً.



كتاب
الأدلـــــــة

١- الدلالة على الله تعالى.

٢- الأدلة على حكمة الله تعالى.

٣- صفات الله وأقسامها.

٤- الفرق بين صفات الله وصفات خلقه



بسم الله الرحمن الرحيم

قال الإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم بن علي عليه السلام: إن الله جل جلاله خلق الخلق لإظهار حكمته، ودلهم على نفسه بآثار صنعه، وجعل أقرب الأدلة عليه لخلقه ما ركب فيهم من عجائب فعله، فكل ما فطر فهو دليل عليه، وهاد جميع العباد إليه؛ فالحمد لله الذي هدانا إلى معرفته وامتن علينا بإظهار حكمته، وابتدأنا بفضله ورحمته، وبعد:

يا أخي - وفقك الله- فقد سألت عن أولى ما سأل عنه السائلون، وقال به في دين الله القائلون، إذ لم يوجد الله سبحانه الخلق إلا لما عنه سألت، ولم يقصد الحكمة إلا لما قصدت، من إبانة الدليل على وحدانيته، والإقرار بعد ما صنع بإلهيته، والتوصل بذلك إلى رحمته.

فعلِمتُ عند سؤالك عن الدليل على الله سيدنا، أن قد وفقت إن شاء الله لسؤالنا، وحبيت منه بأفضل جوابنا، وأنور الأدلة على مولانا وخالقنا، ورأينا عند ذلك أن دلائل الله أجل من أن تحد، وأكثر من أن تحصى وتعلم، فقصدنا من ذلك أهونه، وأيسر ما تحتاج إليه وأبينه، واستغنينا به إن شاء الله تعالى عن غيره، إذ كان في قليله كفاية عن كثيره، ورجونا أن لا يعزب عنك الاختصار، وأن يمكنك بعد ذلك الإمعان والإكثار، فنسأل الله أن يعينك على طاعته وأن يوفقك لمرضاته.

باب الدلالة على معرفة الله سبحانه

قال ﷺ: إن سأل سائل فقال: ما الدليل على معرفة الله سبحانه؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: الدليل على معرفته ما صنع وخلق من بريته وأقرب الأدلة إلى الإنسان نفسه، وذلك أنا وجدنا الإنسان نطفة من ماء مهين، ثم رأيناه بعد ذلك مؤلفاً مركباً موصلاً مفصلاً محكماً مُدَبَّراً، فعلمنا أن له مُدبِّراً خالقاً إذ لابد لكل تدبير من مدبر ولابد لكل تأليف من مؤلف، ولابد لكل تفصيل من مفصل، ولابد لكل توصيل من موصِّل، ولابد لكل حكمة من محكم، كما لابد لكل بناء من بان، ولابد لكل كتاب من كاتب، وكما لابد لكل أثر من مؤثر.

والدليل على حكمة الله في صنعه الإنسان: أنا نجده أجزاءً وأصنافاً، وكل صنف منه قد جعل لشيء بعينه، ولا يجعل الشيء لصلاح الشيء إلا عالم، وذلك مثل المفاصل التي جعلت للحركة، ومثل المداخل والمخارج للأغذية، ومثل العقل الذي جعل للتمييز بين الأمور، واجتلاب الخيرات ونفي الشرور، ومثل العين التي جعلت للنظر، والأذن التي جعلت للسمع، واليد التي هي للبطش، والرِّجل التي جعلت للخطو والمسير، وغير ذلك مما لا يحصى من التدبير، ومثل خلق الأنثى للذكر، وما فطر عليه من ذلك جميع البشر، ففي هذا والحمد لله من بيان الحكمة ما لا ينكره منكر، ولا يتحير فيه متحير.

[الدليل على أن الحكمة لا تكون إلا من حكيم]

فإن سأل فقال: ما الدليل على أن هذه الحكمة التي ذكرتم من صانع حكيم، ومدبر خبير عليم، وما تنكرون أن هذه الحكمة من طبع قديم.

فسنورد عليه من القول بياناً، ونوضح له إن شاء الله هدىً وبرهاناً، فاستمعوا لجواب قوله تهتدوا، وضمنوه قلوبكم ترشدوا، فنقول ولا قوة إلا بالله:

الدليل على أن ذلك من الله سبحانه: أن خلق الإنسان حكمة، والحكمة صفة حكيم، وكذلك في الإنسان آثار العلم، لأن الحكمة لا تهيأ إلا بالعلم من الحكيم، والعلم صفة عليم، وكذلك نجد في الإنسان جميع ما يحتاج إليه من المصالح والإصلاح دليل على الرحمة، والرحمة صفة رحيم؛ فإذا كان في الإنسان آثار الحكمة والعلم والرحمة فهذه صفات الواحد الحي؛ لأن الطبع الميت لا يعي ولا يعقل ولا يحكم ولا يرحم، ففي أقل من هذا دليل على الله سبحانه، وعز عن كل شأن شأنه، وفي هذه الأحرف اليسيرة ما يقطع جميع الملحدين، ويدمغ بمن الله أقاويل الجاحدين، وفيهن ما كفى وأغنى أهل العقول عن التطويل، وعن ما لا يفهم من ترهات الأقاويل.

وقد زعم غيرنا أنه لا يستدل على الله إلا بالأعراض والأحوال، وأتوا في ذلك بكثير من المقال، وقد يصح بعض ذلك من غير الطرق التي ذكروا، ويستنبط من غير ما أثروا، غير أني حسبت أن ذلك يدق على كثير من المتعلمين، ويطول لو شرحناه على المسترشدين، فلا تعتمدوا من الأقاويل على ما لا يفهم، ولا تخدعوا أنفسكم بما لا يعلم، فليس بحكيم من خدع نفسه بغير مقنع من الجواب، وشغل قلبه بما لا يفهم من الخطاب، ورضي من العلوم بغير الصواب.

باب الوحدانية

قال ﷺ: **إن سأل سائل فقال**: هل مع الله إله آخر؟

قيل له ولا قوة إلا بالله: ليس مع الله إلـه ولا شـريك ولا مثيـل، ولا نظـير ولا شبيه ولا عديل.

فإن قال: وما الدليل على صحة ما ذكرت؟

قيل له ولا قوة إلا بـالله: الدليل على ذلك أنهما إذا كانا اثـنين لم يخلـوا مـن أحد وجهين: إما أن يكونا مجتمعين أو مفترقين.

فإن كانا مجتمعين: فهما جزءان ملتزقان.

وإن كانا مفترقين فهما جزءان مفترقان.

وإن اجتمعا أو افترقـا فهمـا مخلوقـان؛ لأن الافـتراق والاجتمـاع لا يكونـان إلا في الأجسام، وما يتعالى عنه ذو الجلال والإكرام، لأن المجتمع موصل لابـد له من موصّل، والمفترق مفصّل لابد لـه مـن مفصّـل، والله موصّـل الأشـياء ومفصـلها، وخـالق الأجسـام وجاعلـها، ومفرقهـا وجامعهـا، ومبتـدعها وصانعها.

[باب الصفات]

قال عليه السلام: اعلم أن صفات الله عز وجل على وجهين: صفات قديمة، وصفات محدثة.

فأما الصفات القديمة: فالعلم، والقدرة، والعلم والقدرة فهما الله عز وجل وكذلك القول في حياة الله عز وجل إنما هي الله وحده لا شريك له.

قال عليه السلام: وأما الصفات المحدثة: فالإرادة والمشيئة، والسخط والرحمة، والبغض والمحبة، فالإرادة هي المشيئة والمشيئة هي الإرادة المعنى واحد، والإرادة فهي المراد وهو الفعل لا غير ذلك.

والسخط: فهو البغض، وهو الغضب، وهو العقاب، المعنى في ذلك كله واحد.

والرحمة: فهي الرزق، وهي الرأفة، المعنى واحد وإن كثرت الأسماء.

والمحبة: فهي الثواب والتوفيق والتسديد.

والدليل على أن العلم والقدرة والحياة هي الله عز وجل: أن هذه الصفات قديمة وليس ثمة قديم غيره عز وجل، وإذا لم يكن ثمة قديم سواه فهي الله، وفي ذلك والحمد لله من الأدلة عندنا ما يكثر لو شرحناه ويطول به الكتاب لو ذكرناه، وفيما ذكرنا والحمد لله مقنع لكل لبيب، وكفاية لكل عبد منيب.

[باب الفرق بين صفات الله وصفات خلقه]

قال ﷺ: إن الله عز وجل لا يوصف بصفات خلقه، وتفسير ذلك أن قدرة الله هي الله سبحانه، وكذلك علمه هو، فقدرته علمه وعلمه قدرته، وقدرته حياته وحياته قدمه، وقِدَمه حياته، فافهم هذه الصفات الأربع فإنها هي الله وحده وإن اختلفت الأسماء الحسنى.

وقدرة المخلوق هي غيره، لأن المخلوق جسم، وقدرته عَرَض، وهي قوة الجسد واستطاعة الجوارح، وكذلك علم الإنسان وغيره وهو عرض، والإنسان جسم، وعلمه فهو نفسه بما جلبت الحواس إلى قلبه، واتصل علمه إلى عقد معقوله بعد جهله.

وكذلك إرادة الله سبحانه فهي فعله لا غير ذلك، وإرادة المخلوق محبة قلبه واهتشاش مودته وضميره ونيته قبل فعله، ومحبة الله ثوابه، وغضبه عقابه.

ومحبة الإنسان هواه، وبغضه كراهيته، فاعلم ذلك وافهمه إن شاء الله.

[باب نفي صفات الأجسام على الله تعالى]

قال عليه السلام: اعلم أن الله سبحانه ليس بداخل في الأشياء، ولا خارج كخروج الأشياء، ولا بينه وبين خلقه مكان، ولا هو في مكان، ولا هو فوق الأشياء، ولا هو تحت الأشياء ولا يحيط بالعالم كإحاطة الإناء بالماء وغيره من الأشياء.

وإنما معنى قول الموحدين أنه فوق الأشياء: أنه قاهر غير مقهور، وغالب غير مغلوب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[الأنعام:١٨].

ومعنى قولهم: إنه في كل مكان، يريدون بذلك أنه مدبر في كل الأماكن، عالم فليس يخلو جميع الخلق من علمه وتدبيره، وذلك قوله سبحانه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾[المجادلة:٧].

ومعنى قولهم: إنه محيط بخلقه يريدون بذلك أنه خبير بهم، عالم بجميع أسبابهم، وذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾[الجن:٢٨].

وأن بصره عز وجل هو سمعه، وسمعه بصره، وبصره وسمعه فهما علمه.

ومعنى السمع والبصر: فهو الله وحده، ألا ترى أنه لم يزل سميعاً بصيراً كما لم يزل عالماً قادراً، وإذا صح قِدَم السمع والبصر، فليس ثمة قديم إلا الله عز وجل فهما الله لا شريك له.

وأنه ليس بذي شخص محدود ولا عدد معدود، ولا بذي كل ولا بعض، ولا طول ولا عرض ولا عمق، ولا لون ولا طعم ولا رائحة، ولا محسة ولا سمع ولا بصر، ولا ذوق ولا شم ولا لمس، ولا فكر ولا نفس، ولا شك ولا ظن، ولا محبة ولا بغض، ولا له صبر ولا غيظ، ولا جهل ولا خاطر، ولا يمين ولا شمال، ولا خلف ولا إمام، ولا فوق ولا تحت، ولا افتراق ولا اجتماع، ولا حركة ولا سكون، ولا ارتفاع ولا اتضاع، وأنه بخلاف كل ما وقع عليه وهم، أوأدركه ظن، وأنه لا يخطر على القلوب، وأنه لا يُعرف بشيء من الأشياء إلا بأن لهذا الصنع صانعاً ليس له شبيه ولا مثيل، ولا نظير ولا عديل.

قال عليه السلام: وإنما نفينا عنه هذه الصفات لأنها من صفات الأجسام، المتعلقة بالصور والأجرام، والخالق لا يشبه صنعه، لأنه تعالى عن ذلك لو أشبهه لكان محدثاً مصنوعاً مثله، ولو كان محدثاً لكان مربوباً، ولما كان خالقاً ولا رباً، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً.

* * *

كتاب
الولاء والبراء

مما سأل عنه أبو عبد الله محمد بن يقظان

١- الولاء لأولياء الله.

٢- العداوة لأعداء الله.

٣- كيفية التعامل مع الوالدين الفاسقين.

٤- كيفية التعامل مع الزوجة الفاسقة.

٥- كيفية التعامل مع الأبناء الفاسقين.



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلواته على خاتم الأنبياء وعلى آله الطاهرين:

سألت يا أخي -تولى الله حفظك- عما أوجب الله على عباده من الولاية لأوليائه، والعداوة والمباينة لأعدائه.

والجواب في ذلك: أن الله عز وجل بين للعباد ما يأتون وما يذرون، وافترض عليهم قبول ما به يؤمرون، فكان مما أمرهم به وأوجب عليهم من أصول دينه عداوة أعدائه الأشرار، ومحبة أحبائه الأخيار، فقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات:١٠] فوجبت موالاتهم، وقال: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[هود: ١١٣] فوجبت عداوتهم، إذ ليس من حكمة الحكيم أن يساوي بين المحسنين والمسيئين، وذلك قوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[القلم:٣٥،٣٦].

ثم اعلم -أكرمك الله بهدايته وأتم عليك ما أولاك من نعمته- أن الهجرة واجبة على جميع المكلفين، لا يعذر الله في تركها أحداً من المخلوقين، ولها وجوه وأبواب وسنذكرها ونشرحها بعون الله ونفسرها.

[متى تجوز المباينة؟]

ولا يجوز لأحد أن يهجر ويباين قبل الدعاء إلى الرحمن، ولا تكون الهجرة إلا بعد البيان، والتلطف والبر والإحسان، وقد روي عن النبي -صلوات الله عليه- أنه كان يقرب الناس ويدنيهم إليه، ويلطف بهم ويفرش ثوبه لهم،

لتكمل الحجة بذلك عليهم، وليستعطف قلوبهم بإحسانه إليهم، وفي ذلك ما يقول الله عز وجل فيما أوحى إلى رسوله ونزل: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[النحل:١٢٥] وقال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[فصلت: ٣٤].

فإذا فعل ذلك وقربهم بالموعظة الحسنة إلى ربهم فهو مستوجب لإحسان الله وثوابه، ناج عند الله من سخطه وعذابه، فإن هم أجابوا إلى ما دعا إليه فقد وجب حقهم على الله وعليه، وكان له عند الله كأجر كل من أجابه، وزاده الله على أجره وأثابه.

وينبغي له حينئذٍ ألا يحملهم فوق طاقتهم، ولا يكلفهم جميع الشرائع في آخر ساعتهم، لأن الطبيب لا يحمل على المريض ما لا يطيق، ولا يكلفه من الأدوية ما لا يليق.

وإن أبوا إلا التمادي في الضلال، واتباع الكفرة الفجرة الجهال، وجب عليه الإعراض عنهم، والتنحي بجهده وطاقته منهم،و ينبغي له إذا هجرهم الا يفحش في كلامه لهم إلا أن يطلبوا قتله فيدفعهم، وإن أمسكوا عن قتاله قطعهم، ولم يجز له بعد المقاطعة أن يحل معهم، وإن نابذوه في دينه نابذهم، ولم يجز له أبداً أن يخضع لهم، وحرمت عليه مكاتبتهم، ولم يجز له أبداً مقاربتهم، وإن أقروا بفضله عليهم، فلا بأس بالبر والإحسان إليهم، ولا يحرم عليه الانتفاع بهم إذا كان ماقتاً لهم في فعلهم، داعياً لهم طول دهره إلى ربهم، وكان مع ذلك لا يركن إليهم، ولا يأكل شيئاً من ذبائحهم، ولا يجيز شهادتهم، ولا يجيب دعوتهم، وكان يكتمهم أسراره، ويخمل عندهم أموره وأخباره،

ففي أولئك ما يقول الله سبحانه وعز عن كل شأن شأنه: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[الممتحنة:٨، ٩]ففرق عز وجل بين هؤلاء الفاسقين وبين هؤلاء الظلمة المحاربين.

وإذا أعرضت عن الفاسقين وعن قربهم، واستعنت في ساعات حوائجك بهم، فإعراضك وموعظتك حجة لله عليهم، إذ أنت مع ذلك لا تركن إليهم، وإن هجرتهم على فسقهم ولم تستعن في حوائجك بهم، فذلك جائز لك، غير حرام عليك، حتى يرجعوا صاغرين إلى الله وإليك.

[كيفية التعامل مع الوالدين]

ويجب على المسلم في والديه، إذا لم يقبلا من الحق ما في يديه، أن يتباعد منهما بجهده، وكذلك من خالف الحق من أهله وولده، غير أن الله سبحانه أوجب للأبوين من الكسوة والنفقة إذا كانا فاسقين ما لم يوجب لغيرهما من الأقربين ولم يحكم به لسواهما من المخلوقين.

[كيفية التعامل مع الزوجة]

ويجب على الرجل في زوجته إذا لم تقبل إلى الحق، ولم ترجع من المحال إلى الصدق، أن يهجرها ملياً من الدهر أو يطلقها، ولا يحل له أبداً أن يدنو منها، إلا أن تتوب إلى الله من العصيان، وتُقْبل صاغرة إلى طاعة الرحمن.

[كيفية التعامل مع الأبناء]

ويجب عليه في بنيه: أن يؤدبهم، ويستقبل بالنصفة قلوبهم، ويُحبّب إليهم الدين ويقربهم، فإن أبوا إلا عتوهم وكفرهم، وجب عليه أن يبعدهم ويهجرهم.

وهذا جواب ما سألت عنه من ولاية المسلمين، وعداوة أعداء الله المجرمين، والحمد لله رب العالمين، وصلواته على خاتم النبيين وعلى آله الطاهرين.

* * *

كتاب
تفسير الصلاة

١- معاني أذكار الصلاة.

٢- التوجه والافتتاح.

٣- تفسير سورة الفاتحة.

٤- تفسير سورة التوحيد.

٥- الركوع والسجود.

٦- التشهد.

٧- السلام.



وقال عليه السلام في كتاب تفسير الصلاة

بسم الله الرحمن الرحيم

سألت يا أخي أكرمك الله بهدايته، وجاد علينا وعليك برحمته، عن تفسير ما أوجب من الصلاة على العباد، وشغلهم به عن الغي والفساد، ودعاهم به إلى الخير والرشاد.

إلى قوله: وإنما تعبد الله المكلفين بالصلوات والخشوع، والتذلل والدعاء إلى الله والخضوع، ليشغلهم بذلك عن التكبر والإعجاب، لما في التكبر والقسوة من سوء الآداب، وفساد القلوب وتغير الألباب، ولأن التذلل أولى بالعبادة، وأبعد لهم من الغفلة والفساد؛ لأن من خضع لله وذل فقد سلم لأمر الله وقبل، ومن سلم لأمره سلم من الموبقات، ونجا برحمة الله من المهلكات.

فأول ما نبدأ به إن شاء الله حكمة الله في الأمر بالطهور، وما تفضل به علينا من المصلحة في التقدير، **فنقول**:

إن الله عز وجل بنى الكلام على الطهارة من الأقذار، والنزاهة من الأدران والآثار.

إلى قوله: والصلاة في لغة العرب هي الدعاء إلى الله والابتهال، والتضرع والطلب والسؤال.

والأذان: فهو الإيذان والإعلام والإخبار بوقت الصلاة والإفهام، والتنبيه بالدعاء إلى الصلاة للغافلين، وذلك حجة لله على كل من سمعه من السامعين، وهو أصل من أصول الدين، وداعية إلى الحق المبين.

[تفسير أذكار الصلاة]

فأول ما يقول القائل في الصلاة عند وجوب ما حد الله من الأوقات: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.

ومعنى قوله: أعوذ؛ هو أستجير بك يا رب وألوذ، من فعل الشيطان المبعد المرجوم، ومعنى السميع فهو العليم، تأكيد وتكرير لذكر الحليم الحكيم.

ثم يقول: الله أكبر الله أكبر، يريد الله أقدر الله أقدر، وأعز من جميع المخلوقين وأعظم قدراً من جميع المربوبين.

ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله، يريد بقوله أشهد أعلم أنه واحد أحد، فإن كان لا يعلم ذلك فليتعلم، وإلا فهو كاذب إن شهد وأقر بما لم يعلم.

وكذلك تفسير قول القائل: أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً رسول الله ﷺ إلى خلقه وأمينه على وحيه.

ثم ذكر الدليل على أن الله واحد وعلى نبوة النبي ﷺ ... إلى قوله: وسنرجع إن شاء الله إلى تمام التفسير بعون الله الواحد العليم الخبير فنقول:

معنى قوله: حي على الصلاة: هلم إلى الصلاة.

ومعنى: حي على الفلاح: هلم إلى الخير والربح والنجاح، والبقاء والسلامة والصلاح.

ومعنى: حي على خير العمل: هلم إلى خير أفعال العباد، وأفضل الحسنات بعد الجهاد.

ومعنى: قد قامت الصلاة: وجب فرضها وقام، وثبت على المصلين ودام.

ومعنى: الله أكبر الله أكبر، قد ذكرناه في الكلام.

باب التوجه والافتتاح[1]

فإذا توجه تعوّذ بالله وهو مستقبل القبلة، وليسكن أطرافه ولا يعجل في شيء من صلاته، وليذكر وقوفه للحساب، ويلهم نفسه الخشية من العقاب، ويقل: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾الآية[الأنعام:٧٩] إلى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[الأنعام:١٦٣] ولا يتكلم بكلمة من صلاته إلا ويريد بها الدعاء إلى الله سبحانه، وعز عن كل شأن شأنه.

ومعنى قوله وجهت وجهي: يريد توجهت إليك يا رب وأقبلت إلى طاعتك، واتباع أمرك وإرادتك.

ومعنى فاطر السماوات والأرض: هو الذي صنعهما وافتطر خلقهما وابتدعهما.

ومعنى قوله حنيفاً مسلماً: الحنيف: فهو المستقيم الخاشع.

والمسلم: هو الذي سلم لأمر الله تسليماً وانقطع إليه ورضي عن الله وتوكل عليه، فلم يرض من الأشياء كلها إلا بما ارتضاه، ولم يوال أحداً غير من والاه، واتصل بالله سيده ومولاه.

---

(١) وهنالك كتيب مفيد قيم عن شرح ألفاظ الصلاة للإمام أحمد بن يحيى المرتضى رضي الله عنه سماه (حياة القلوب). طبع بتحقيقنا.

ومعنى قوله وما أنا من المشركين: الذي أشركوا مع الله في عبادتهم، وشركوا بين الله وغيره في عملهم، إما بعبادة الأوثان، وإما بالنفاق والتزيين والإنفاق لطلب الشر والسمعة والجاه عند المخلوقين والرفعة، كما قد رأينا من أفعال الفاسقين، والظلمة المنافقين المشركين بين الخالق والمخلوقين.

ومعنى قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الأنعام:١٦٢] يريد بذلك اللهم إني جعلت دعائي وديني وحياتي ما حييت لك وموتي في الضعف لك، لا أصرف شيئاً من ذلك في غير مرضاتك.

ثم يفتتح الصلاة فيقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾[الإسراء:١١١] الله أكبر.

ومعنى قوله الحمد لله: هو أمر من الله للعباد أن يحمدوه فيقولوا بأفواههم، ويعتقدوا بقلوبهم، ويعملوا بجوارحهم، فمن حمد الله بهذه الأوجه فقد أطاعه واستوجب من الله ثوابه.

ومعنى قوله لم يتخذ ولداً: فهو لم يلد ولداً، فيكون أصلاً والداً، لأن الوالد مخرج للولد، والمخرج لا يكون إلا من الجسد، والجسد لا يكون إلا متحركاً مستمراً، أو ساكناً لابثاً مستقراً، وإذا كان [في] هذين الحالين مضطراً لم يكن خالقاً مدبراً، وإذا كان كذلك لم يستحق شكراً.

ومعنى قوله ولم يكن له شريك في الملك: فالملك هو الخلق المملوك، الذي ليس مع الله فيه شريك.

ومعنى قوله ولم يكن له ولي من الذل: هو أنه غير محتاج إلى معين يواليه، وينفي عنه الذل مما يعاديه.

ومعنى قوله الله أكبر: فهو أعز وأعظم وأقدر.

تفسير سورة الحمد[1]

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[الفاتحة:١]: معنى بسم الله فهو بذكر الله نبدأ.

ومعنى الله: هو الذي تفزع إليه القلوب وتَلِهُ ولهاً إليه، وهو الشوق عند المهمات، والنوازل والمصائب والملمات، قال الكميت بن زيد يمدح آل رسول الله صلى الله عليه وآله:

ولهت نفسي الطروب إليهم ... ولهاً حال دون طعم الطعام

يعني بالوله الشوق.

ومعنى الرحمن: هو ذو الرحمة والإحسان.

ومعنى الرحيم: مثل تأويل الرحمن، وهو تأكيد لذكر الرحمة وزيادة في البيان، وإنما أراد سبحانه أن يخبر العباد برحمته ليرجوه ويطيعوه فيما أمرهم ولا يعصوه.

ومعنى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة: ٢] فهو الشكر لله رب العالمين،

---

(١) وهنالك تفسير قيم معاصر لـ(سورة الفاتحة) للسيد العلامة الجليل عبد الله بن محمد بن إسماعيل حفظه الله تعالى، وهو عظيم النفع كثير الفائدة، طُبع وصدر عن (مركز الرائد).

والرب: فهو السيد المالك ليوم الدين، والدين في هذا الموضع فهو الجزاء على الأعمال، والمكافأة على الهدى والضلال.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هو نطيع ونوحد ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[الفاتحة: ٥] من العون والهداية والتوفيق للطاعة والدين.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٦] هو أرشدنا يا رب إلى الطريق المستقيم؛ لأن الصراط في لغة العرب هو الطريق، وإنما جعل الله عز وجل هذه السورة للدعاء إليه رحمة منه للعباد، ووسيلة إليه في طلب الرشاد، فهي أشرف ما دعا به الداعون، وتضرع إلى الله به الطالبون.

تفسير سورة التوحيد

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾[الإخلاص:١-٤].

معنى قل: أمر من الله عز وجل بالقول.

ومعنى الأحد: فهو الواحد الذي ليس بذي أجزاء ولا عدد، وهو الواحد أيضاً في فعله الذي لا يفعل مثله أحد.

ومعنى قوله: (**الله الصمد**): هو المقصد، المصمود إليه في الحوائج والمعتمد.

والكفؤ: هو المثل والنظير فنفى عز وجل أن يكون له أحد كفؤاً ولا نظيراً.

باب الركوع والسجود

فإذا ركع بتكبيرة وضع يديه على ركبتيه وسبح فقال: سبحان الله العظيم وبحمده، ثلاث مرات.

ومعنى سبحان الله: هو بعدان الله من شبه المخلوقين.

ومعنى العظيم: فهو الجليل المقدار، والقادر على فعل ما أراد.

ومعنى وبحمده: هو بحمده وطاعته نقول ونعمل ونعتقد ونقر ونشهد.

فإذا رفع رأسه من الركوع قال: سمع الله لمن حمده.

ومعنى سمع الله: هو أجاب الله دعاء من أطاعه، يريد بذلك الدعاء إلى الله أن يستجيب منه ويرحمه ويجيب دعاءه، ويرحم تضرعه ونداءه.

ثم يكبر ويخر لله ساجداً، وفي التذلل والخضوع جاهداً، ويقول عند سجوده وتمكنه على الثرى بوجهه: سبحان الله الأعلى وبحمده ثلاثاً، سبحان الله: قد فسرناه.

ومعنى الأعلى: هو المستعلي القادر.

ومعنى بحمده: قد فسرناه.

باب الجلوس في التشهد

فإذا صلى ركعتين وجلس بعدهما قال: بسم الله وبالله والحمد لله.

ومعنى بسم الله: هو بذكر الله نبدأ.

ومعنى وبالله: هو وبالله نستعين على طاعته.

والحمد لله: هو الشكر والعمل بطاعة الله.

والأسماء الحسنى كلها لله، ومعنى ذلك: أن كل صفة محمودة فالله مستحق أن يسمى بها ويوصف، وينعت بها ويعرف، والصفات كثيرة العدد، والموصوف بها واحد أحد.

ومعنى أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله: قد فسرناه فيما مضى من كلامنا.

ومعنى اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد، هو اللهم ارحم محمداً وآل محمد.

ومعنى بارك على محمد: هو اللهم اعطه البركات، وامنن عليه بالخيرات وعلى آله.

كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، الحميد: هو المحمود، والمجيد: هو الجواد الكريم.

السلام عليكم ورحمة الله، يعني الملكين اللذين عن اليمين وعن الشمال، وَكَّلَهُمَا الله بحفظ الأعمال، وأمرهما أن يكتبا على العبد كل فعل ومقال؛ فرحم الله عبداً أمسك لسانه عما لا يعنيه، وخشي من فعله أن يكتب عليه، واستكثر من الحسنات، وجاهد نفسه عن السيئات، وبكى على نفسه واشتغل بعيوبه وتاب إلى ربه واستغفر لذنبه.

ومعنى السلام عليكم: هو السلامة لكم ورحمة الله وصلواته عليكم.

قال ﷺ: وأنا أسأل الله عالم الغيب والشهادة أن يمحو عني ما كتبا علي من الزلات، وأن يغفر لي ما تقدم وتأخر من العثرات، ويغفر لمن ولدني من المؤمنين والمؤمنات، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين وآله الطيبين وسلم.



بيان الإشكال

فيما حُكي عن الإمام المهدي من أقوال

تأليف

السيد العلامة حميدان بن يحيى القاسمي

المتوفى في أواخر القرن السابع الهجري

تحقيق

عبد الله بن حمود بن درهم العزي



مدخل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد:

فهذه الرسالة التي بين يديك الكريمتين تبحث في الإشكالات المثارة حول الإمام الحسين بن القاسم العياني رحمه الله تعالى، تأليف الإمام أبي عبد الله حميدان بن يحيى القاسمي رحمه الله تعالى، المتوفى أواخر القرن السابع، وقد قمت بتحقيقها ونشرها خدمة للباحثين ودفاعاً عن هذا الإمام المظلوم، وأفردتها في رسالة مستقلة وضمنتها ترجمة موسعة للإمام الحسين العياني رحمه الله تعالى، وقد رأيت إلحاق هذه الرسالة بهذا المجموع لتكن في متناول الباحث مع رسائل هذا المجموع.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله الطاهرين



مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وبعد:

فمن خلال تحقيقنا لكتب ورسائل الإمام الحسين بن القاسم بن علي العياني رحمه الله تعالى، المتوفى سنة(٤٠٤هـ) وجدنا أن ما ينسب إليه من الأقوال الغريبة المخالفة لما عليه أهل البيت عليهم السلام لا يمت إلى الحقيقة بصلة، وليس من الإنصاف أن نحاكمه إلى ما قيل عنه، وإنما إلى ما قال به هو في كتبه ورسائله، والتي لم نجد فيها عبارة أو حتى إشارة أو قرينة تدل على ما نسب إليه من تلك الأقوال.

ومن العجيب أن بعض المؤرخين نقل تلك الأقوال ونسبها إليه، وجعلها كحقائق يجب التسليم بها والاعتماد عليها، وهي في الحقيقة أوهام نفسية وتلفيقات كاذبة وافتراءات ظالمة لا أساس لها من الصحة.

ومن أجل أن يكون المطلع الكريم على بينة من ذلك حاولت أن أجمع أهم تلك الأقوال المنسوبة إليه، وأنقل من كلام الإمام الحسين العياني ما يدل على بطلانها ويوضح بهتانها، وبينما أنا في حالة الجمع لذلك وقفت على هذه الرسالة التي بين يديك للسيد العالم النحرير أبي عبد الله حميدان بن يحيى القاسمي المتوفى في أواخر القرن السابع الهجري، وإذا بها قد اشتملت على أهم ما أريد إيضاحه، فعمدت إلى تحقيقها ونشرها؛ كمساهمة مني في الدفاع

عن علم من أعلام أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، وهو في غنى عن جميع الدفاعات، بريء من التهم والافتراءات، ولن ينقص من مقامه الكريم قول القائلين أو افتراء المفترين، وإنما النقص والنقيصة على كل قائل مرتاب ومفتر كذاب، وسبحان القائل ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق:١٨] والله الحكم والموعد القيامة.

هذه الرسالة وطريقة تحقيقها

وهذه الرسالة التي بين يديك تمثل نموذجاً لكيفية المحاكمة العادلة لمن نسبت إليه أقوال مفتراة، وقد حاولت أن تخرج كما أراد لها مؤلفها –رحمه الله تعالى – فعملت على الآتي:

١- دفعتها إلى الكمبيوتر للصف.

٢- تمت مقابلتها على المخطوطة المصفوف عليها في نفس الجهاز.

٣- أخرجت بروفات للمقابلة الثانية على المخطوطة.

٤- قسمت النص إلى فقرات والفقرات إلى جمل حسب الحالة المناسبة لكل فقرة.

٥- استخدمت العلامات المتعارف عليها في التحقيق كالفاصلة والقوس...إلخ.

٦- كتبت ترجمة موسعة قدر الإمكان للإمام الحسين العياني استعرضت من خلالها لمحات من سيرته وتعداد لكتبه ومناقشة لما نسب إليه، وترجمت لمؤلف هذه الرسالة ترجمة مختصرة.

وصف المخطوطة

وقد اعتمدت في تحقيق هذه الرسالة على مخطوطتين:

الأولى: تقع ضمن مجموع للسيد العالم النحرير حيدان القاسمي ـ رحمه الله تعالى ـ يقع في (٢٩٢)صفحة وهذه الرسالة تقع في (٧)صفحات مقاس الصفحة(٢٥×١٤) وعدد أسطرها (٢٩) سطراً. وهي موجودة بمكتبتي وقد وقع الصف عليها، ورمزت لها بالرمز(أ).

والثانية: تقع أيضاً ضمن مجموع بمكتبة السيد العلامة محمد بن محمد المنصور حفظه الله، وهي من ص١٦٩ إلى ١٨٠، مقاس ٢٠×١٤، عدد أسطرها ٢٣ سطراً، وقد رمزت لها بالرمز (ب).

وفي الأخير

أسأل الله العلي القدير أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، وأن يرزقنا العلم النافع والعمل به، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد الأمين
وعلى آله الطيبين الطاهرين.

عبد الله بن حمود بن درهم العزي
اليمن- صعدة
٢٩/ شوال/ ١٤٢٤هـ

ترجمة المؤلف

نسبه

هو السيد العلامة المحقق النحرير حميدان بن يحيى حميدان بن القاسم بن الحسن بن إبراهيم بن سليمان بن الإمام القاسم العياني بن علي بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب -عليهم جميعا السلام- .

نشأته

نشأ -رحمه الله تعالى- نشأة مباركة، سالكاً طريق آبائه الأطهار ، مقتفياً آثارهم، مدافعاً عن مذهبهم، قال المؤرخ ابن أبي الرجال في كتابه (مطلع البدور) : «إمام كبير بليغ متكلم...» إلى قوله: «وكان علامة في الكلام، مطلعاً على أقوال أهله ومتبحراً في ذلك، متقنا غاية الإتقان»

مؤلفاته

له العديد من المؤلفات، منها مجموعه العظيم الذي يتضمن:

١- بيان الإشكال فيما حُكي عن المهدي من أقوال(وهو الذي بين يديك الكريمتين).

٢-التصريح بالمذهب الصحيح.

٣- تعريف التطريف.

٤- تنبيه أولي الألباب على تنزيه ورثة الكتاب.

٥- تنبيه الغافلين على مغالط المتوهمين.

٦- جواب المسائل الشتوية والشبه الحشوية.

٧-حكاية الأقوال العاصمة من الاعتزال.

٨-الزلزلة لأعضاء المعتزلة.

٩- المنتزع الأول والثاني من كلام الأئمة.

وله غيرها.

شيء مما قيل فيه

* قال الإمام الواثق بالله المطهر بن محمد بن المطهر المتوفى سنة (٨٠٢هـ):

أما حيدان من شاد العلا فلقد أحيا بتصنيفه قولاً لـه بالي

* وقال السيد العلامة محمد بن يحيى القاسمي، المتوفى في منتصف القرن التاسع الهجري، شارحاً هذا البيت: «يريد عليه السلام بذلك السيد الإمام، أبهة الأيام،

درة تاج آل طه» معنى الأسامي والحقائق، ذاتي ماهيات السوابق واللواحق، جواست[1] المعالي مستخرج دفائن الجواهر واللآلي المقتصد، والعالم المجتهد، محيي علوم آل رسول الرحمن، أبو عبد الله حميدان بن يحيى حميدان».

إلى قوله ﷺ «له من التصانيف الغريبة والأنظار الصائبة العجيبة».

وفاته عليه السلام

وبعد حياة حافلة بالعطاء المثمر، وإثراء مجالس العلم دراسة وتدريسا وتصنيفا توفي ـ رحمه الله تعالى ـ في أواخر القرن السابع الهجري، وهو ممن عاصر الإمام أحمد بن الحسين المتوفى سنة(٦٥٦هـ).

مصادر ترجمته

من مصادر ترجمته (أعلام المؤلفين الزيدية:٤١٠) مصادر الفكر العربي:١٠٨، مطلع البدور (خ) مصادر العمري: ١٧٢، التحف شرح الزلف:١١٢، تاريخ اليمن الفكري في العصر العباسي:٣/ ٣٠٦، المستطاب(خ) وغيرها.

(١) مجمع المعالي وحاويها.

[مقدمة المؤلف]

أما بعد حمدِ الله تعالى على جزيل آلائه، والصلاة على محمد خاتم أنبيائه وعلى السابقين والمقتصدين من أبنائه، والسلام على جميع الصالحين من أوليائه.

فإنه لما صحت لنا إمامة الإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم [بن علي بن عبد الله بن محمد بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل] عليهم السلام لأجل تكامل شروط الإمامة المعتبرة في كل إمام، ولما خصه الله تعالى به من الفضائل والخصائص المشهورة، ولما وضع على حداثة سنه من العلوم الباهرة الكثيرة، ولحسن سياسته وسيرته، وظهور عدله ولطفه برعيته، واستظهاره بما أوضح من الأدلة الدامغة لجميع مخالفيه.

ولما روي من إشارة النبيﷺ إلى قيامه في الوقت الذي قام فيه، وأشباه ذلك مما عجز رفضته عن إنكاره لاشتهاره حتى التجأوا إلى التحيل، بأن يكون بعضهم من خواصه وأنصاره، ليتوصلوا بذلك إلى اللبس والتدليس في كتبه والصد بالكذب والتحريف عن سلوك مذهبه، وحتى إن من الناس من نسبه لأجل ذلك إلى الجهل، ومنهم من وصفه بزوال العقل، ومنهم من غلا ففضّله على السلف، ورفض من بعده من أئمة الخلف، أردت إذ ذاك أن أعرف ما المعوّل[1] عليه، وما الذي يجب أن ينسب من الأقوال إليه، فانتزعت

(١) وفي (ب): ما المعمول ـ نسخة.

من مشهور ألفاظه الصريحة المذكورة فيما أجمع عليه من كتبه الصحيحة أقوالاً أخبر ﷺ فيها أنه قد كذب عليه في كثير مما ينسب إليه، وأقوالاً حذر فيها من الاغترار ببعض المتنسكين، وبما سطر في الكتب من مشكل روايات المدلسين، وأقوالاً علم فيها كيف يعمل فيما يقع في بعض العترة من الإشكال وفي مشكل ما ينسب إلى الأئمة عليهم السلام من الأقوال، وأقوالاً عارض بها ما ينسب إليه من البدع، وكَثَّر بها عليه من الشَّنَع.

[أقوال الإمام التي بيّن فيها أنه كُذب عليه]

أما الأقوال التي أخبر فيها أنه قد كذب عليه فمنها:

قوله في (**باب السلم**) من كتاب (**مختصر الأحكام**): «ولست أصدق بكل ما روي عن رسول الله ﷺ، لقلة الثقات، وطول الزمان، وها أنا أسمع في حياتي من الروايات الكاذبة عليّ ما لم أقل ولم أفعل، فربما يسمع بذلك أولياء الله فيصدقون به والعهد قريب».

وقوله في بعض اجوبته لعبد الملك بن غطريف[1]: «وذكرت أني فضلت نفسي على الأنبياء عليهم السلام وحاش لله ما قلت ذلك في شيء من الكلام ..إلى قوله: فمتى سمعت أني فضلت نفسي عليهم أو ذكرت أني أعلم وأبدع[2] منهم ما أحسب إلا أن ذلك نقل إليك، واشتبه اللفظ والكلام عليك».

---

(١) عبد الملك بن غطريف، من علماء المطرفية وكبارهم كان من المعادين للإمام الحسين بن القاسم، وقد سبق منه العداء لوالده.

(٢) في(ب): (أورع).

وقوله في بعضها: «فذكرت في كتابك أنك مسترشد معاتب، ثم حرفت قولي، فصح أنك معاند كاذب، وأنت والحمد لله من درك ما رجوت خائب، والله سائلك عما حرفت من كلامنا، ومناقشك على الكذب الذي أتيت به علينا، والكلام الركيك الذي نسبته إلينا».

وقوله في بعض أدعيته التي ذكر فيها أصناف رفضته: «ومنهم من هو مجتهد في إهلاك عرضي واغتيابي وانتقاصي» وفي بعضها: «اللهم طهرني من كذب الألفاف، ونزهني من روايات الهمج السفساف»، وفي بعضها: «يا رب أسألك الخلاص من عشرة من لا يعرفني، فقد والله أقرحت عشرتهم قلبي، إن أمرتهم بأمر لم يقبلوه، وإن نهيتهم عن منكر لم يتركوه، وإن أدّبتهم بأدب لم يحفظوه، وإن سمعوا مني رواية لم يأتوا بها على وجهها، وإن رأوا حكمة لم يقفوا على فهمها».. إلى قوله: «وإن رأوا مني علماً حرّفوه جهلاً».

فصل: يشتمل على أربع مسائل مما تنبّه على النظر

الأولى: أن يقال: «إذا قد ثبت بالدليل كون المهدي عليه السلام إمام حق يجب تصديقه في كل ما قال وادّعى، فهل يجب تصديقه فيما ذكر وأخبر به من أنه كذب عليه في بعض ما نسب من الأقوال إليه، أم لا؟».

الثانية: هل ذلك الكذب الذي أخبر به موجود الآن، أم لا؟

الثالثة: إذا كان ذلك الكذب موجوداً هل هو الأقوال المختلف فيها أم الأقوال المجمع على صحتها؟

الرابعة: ما الفرق في التشنيع على المهدي عليه السلام، بين قول من زعم أنه ترقى من القول بتفضيله النبي على نفسه، والتكذيب لمن نسب ذلك إليه، إلى القول بتفضيله لنفسه على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والرجوع إلى تصديق من كان نسب ذلك إليه، وأي بدعة أفحش من هذه البدعة، وهي جعل قول عبد الملك أصح وأشهر من قول المهدي عليه السلام.

[كلام الإمام حول مشكل الروايات]

رجع[1]

وأما الأقوال التي حذر فيها من الاغترار ببعض المتنسكين، وبما يسطر في الكتب من مشكل الروايات، فمن ذلك قوله عليه السلام في كتاب (الرد على أهل التقليد والنفاق): «ومن بان لك منه النفاق فلا تبسط إليه وإن تنسك وأعرض عن القبح وأمسك، لأنه لا يؤمن عند إظهاره للديانة أن يجعل ذلك سبباً للخيانة».

وقوله في كتاب (الرد على الدعي): «ولم يدخل على أمة من الأمم إلا من مَأمنها، ولم تفتتن القرون الماضية إلا لمن يوهمها بأنه من المودة على دينها».

وقوله في كتاب (الرد على الدعيّ) -أيضاً-: «وإن كان من خاف من شيء، أو شك فيه عقدة في رقبته وتقحم عليه، ودعا جميع المسلمين إليه، لحكّم الشك على اليقين، ولما فرّق بين الباطل والحق المبين».

---

(١) هذه علامة الرجوع إلى مواصلة الكلام عن الإمام المهدي عليه السلام وإنما جعل المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ هذه المسائل كدعوة لإعمال الفكر وإجالة النظر.

وقوله في كتاب (الرحمة): «وليس كل ما روي حقاً، ولا ما سُطِّر صدقاً مما يخالف علماء آل الرسول، وتحيله ثواقب العقول».

وقوله في كتاب (التوفيق والتسديد): «فقد رأينا من تكبر عن الجهل وهو لا يعلم، ويحمله الكبر أن لا يقول: الله أعلم».

فصل

انظر كم بين قوله عليه السلام في هذا، وبين [قول] من زعم أنه من قال في أمره: الله أعلم، كانت النار أولى به.

[كلام الإمام حول أقوال الأئمة وكيفية التعامل معها]

وأما الأقوال التي علم عليه السلام فيها كيف يعمل في من أشكل أمره من العترة وفيما أشكل من الأقوال المنسوبة إلى الأئمة فمن ذلك:

قوله عليه السلام في (رسالته إلى شيعة أبيه عليهما السلام): «ولا تقلدوا واحداً من آل نبيكم ممن اشتبه عليكم أمره منهم، وكلوه إلى ربكم، ولا تقلدوه دينكم، ولا تقاطعوا في الوقوف أحداً من إخوانكم، ومن تبين لكم رشده فاتبعوه، ومن بان لكم غيه فاجتنبوه، ومن اشتبه عليكم حاله فارجوه وكلوه إلى خالقه ولا تعادوه، فالمؤمنون وقّافون عند الشبهات».

وقوله في كتاب (تثبيت إمامة أبيه عليهما السلام): بعد كلام: «وإن قول أئمتنا لا يخالف محكم الكتاب، ولا يحيد عن الحق والصواب، وإنّ ما اختلف

من أقاويلهم تمسكنا فيه بتأويلهم، وتبرأنا إلى الله من تكذيبهم، واعتمدنا على قول ربهم، واتبعنا من ذلك أحسنه، وأقربه إلى الحق وأبينه، وما اشتبه علينا من كلامهم رجعنا فيه إلى أحكامهم كي لا نبوء بآثامهم، لأن الله اللطيف بنا أرحم [من] أن يعذبنا على ما يكون من وقوفنا، وطلبنا لسبيل نجاتنا، وما نرجو من عفوه لحسن ظنوننا واطراحنا لأهواء أنفسنا، واعتمادنا على محكم كتاب ربنا وسنة نبيناﷺ، والله على ذلك المستعان، وهو حسبنا وعليه التكلان».

وقوله في كتاب (**منهج الحكمة**): «من أراد أن يستفيد من خاتم النبيين ومن أمير المؤمنين، فليقف على ما وضع الهادي إلى الحق [(١)] صلوات الله عليه، وكذلك ما وضع المرتضى لدين الله [(٢)] ﷺ، من العدل والتوحيد والحلال

(١) الإمام الهادي إلى دين الله القويم، يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم . أحد أئمة الزيدية العظماء، ورموز الآل الأكرمين . جم الفضائل، كثير المناقب . ولد سنة (٢٤٥) بالمدينة المنورة، انتشر فضله في الآفاق وذاع صيته في أصقاع البلاد .طلبه ملوك اليمن وعلماؤها، فخرج إلى اليمن، فحل بحلوله الخير، أصلح بين القبائل المتحاربة، وجاهد أصحاب العقائد الفاسدة من الباطنية، ونشر الدين الإسلامي بكل إخلاص وتجرد . وألف المؤلفات العظيمة في كثير من الفنون ومن هذه المؤلفات : (كتاب الأحكام) ـ ط ـ في الفقه ـ وكذلك (المنتخب والفنون) ـ ط ـ وكتاب (التفسير)، وله (المجموعة الفاخرة) التي تحتوي على نيف وعشرين رسالة تعالج قضايا العقيدة ولم يزل مجاهداً ناشراً للعلم حتى توفي سنة (٢٩٨هـ) بصعدة وقبره بجامعه المشهور، مشهور مزور .

(٢) الإمام المرتضى لدين الله محمد بن يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عليهم السلام، أبو القاسم، جبريل أهل الأرض، أحد أئمة الزيدية وعظمائها الأفذاذ . ولد سنة (٢٧٨هـ) . دعا بعد وفاة أبيه، ثم تخلى عن الإمامة . وله مؤلفات في مختلف الفنون ومنها كتاب(الأصول) في العدل والتوحيد، وكتاب(الإيضاح) في الفقه، وكتاب (الرد على الروافض)، وكتاب (الرد على القرامطة)، وكتاب (الشرح والبيان) ثلاثة أجزاء، وكتاب (تفسير القرآن) تسعة أجزاء، وغيرها كثير، توفي سلام الله عليه سنة (٣١٠هـ) وقبره بمشهد أبيه مشهور مزور .

والحرام، وغير ذلك من شرائع الإسلام، لأنهما أخذا العلم الذي جاء به رسول الله ﷺ ولا يلتفت إلى اختلاف المختلفين، ولا يعتمد على أقاويل القائلين، فإني وطئت من العلوم مهجها، واعتزلت - والحمد لله - همجها، فما رأيت علماً أشفى، ولا أبين، ولا أكفا، مما أتيا به من خالص الدين، ومحض اليقين، رواية عن خاتم النبيين وسيد الأولين والآخرين، أخذاه عن آبائهما، وحفظاه عن سلفهما، أبا فأباً، وجداً فجداً، حتى ينتهي إلى الأصل أمير المؤمنين، عن سيد المرسلين، عن الروح الأمين وإخوانه الملائكة المقربين، عن الله رب العالمين وفاطر السموات والأرضين، فالحمد لله الذي جعلنا من المقتدين ومن علمهما مستفيدين، فمن علمهما اشتفيت، وبهداهما اهتديت، وبهما في جميع الأمور اقتديت، وفي آثارهما مشيت».

وقوله في كتاب (الرحمة): «وليعلم من سمع لنا قولاً أنه منهما، وإن شاء الله لا نتكلم بخلاف قولهما، ولا ندين الله بغير دينهما، ودين من حذا بحذوهما من ذريتهما، فمن سمع لنا كلاماً فليعرضه على كلامهما، فما خالف قولهما فليس لنا، وما وافق ذلك فهو منّا».

فصل: [كلام الإمام حول الاغترار بما نسب إليه]

فإن قيل: إن الفضلاء من قرابة المهدي عليه السلام هم الذين رووا تلك الروايات، وهي إلى الآن مشهورة في كتبهم.

فالجواب: إن فضل الفضلاء من قرابة المهدي رحمة الله عليهم لا يمنع من اغترارهم، ووجود الخطأ في كتبهم، وإن مخالفة ما يوجد من الخطأ في كتبهم

لا ينقص من فضلهم، وذلك لأن جميع الفضلاء من الأنبياء وغيرهم يجوز عليهم تصديق ما ليس بصحيح، ولذلك قيل: إن النبيﷺ أذن، ووصفه الله سبحانه بأنه يؤمن للمؤمنين أي يصدقهم.

وقال المهدي عليه السلام عقيب ذكره الروايات الكاذبة عليه: «فربما يسمع بذلك أولياء الله فيصدقون به والعهد قريب»، فانظر كيف وصفهم بأنهم أولياء الله، مع تجويزه لتصديقهم للكذب عليه.

فإن قيل: إن أولئك الفضلاء حكوا أنهم سمعوا تلك الروايات عن المهدي عليه السلام.

فالجواب: إذا ثبت كونها خطأ فأكثر ما يجب من حقهم أن يتأول فيهم كما يتأول[1] في المهدي عليه السلام لو صحّ أنهم قالوا ذلك ولم يصح بل في الرواية المشهورة أن علي بن القاسم رحمة الله عليه وهو أعلم أخوة المهدي وأخصّهم به قال: ما صح عنده من كلام الناس إلا رواية روتها له امرأة المهدي اللّغويّة[2]. رجع.

[الإمام يفند الإشاعات ويكشف زيفها]

(رجع)[3] أما الأقوال التي عارض بها ما شنع به عليه من الروايات فمما عارض به قول من زعم أنه فضل نفسه على النبيﷺ قوله في كتاب (الرد على من أنكر الوحي بالمنام): «وليعلم من سمع قولنا، أو فهم تأويلنا

(١) وفي النسخة (ب) نتأول.
(٢) يقال إنها تنسب إلى قبيلة من قبائل الظاهر تدعى لغوه.
(٣) إشارة إلى رجوعه لمناقشة بقية الموضوع.

أن الوحي الذي ذكرنا فيما تقدم من كلامنا أن الله ختمه بنبينا ﷺ هو هبوط الملائكة، وما كان يسمع موسى من المخاطبة فذلك الذي ختمه الله وقطعه بعد محمد ﷺ لأنه علم أنه أفضل الآدميين، ففرق بينه وبين أهل بيته أجمعين بأن جعلهم له تابعين، وبشريعته مقتدين، ولو علم في ذريته أفضل منه لأزاح ختم النبوة عنه، ولجعل بعده أنبياء مثله، ولما أبان على فضلهم فضله».

وقوله في كتاب (تفسير غريب القرآن): «وبلغنا والله أعلم عن بعض الإمامية أنهم قالوا: «محمد رسول الله، وخاتم النبيين المهدي، وكذب أعداء الله في قولهم، بل محمد خاتم النبيين، وسيد الأولين والآخرين»[1].

وقوله في كتاب (التوفيق والتسديد): «وسألت عن العقول هل هي مستوية أم بينها اختلاف؟

والجواب: إن اختلاف عقول الناس كاختلاف قواهم، فمن كانت قوته تبلغ أداء الفرائض وجبت عليه، ومن لم يطق فلا يكلفه الله ما يعدم لديه ولا يصل بقوته إليه، وإنما العقول على وجوه معروفة، وأحوال بينة موصوفة، منها عقول سادتنا الملائكة المقربين، ومنها عقول الأنبياء والمرسلين، وعقول الأوصياء المستخلفين، وعقول الأئمة الطاهرين، وبعد ذلك عقول المكلفين.

فأفضل العقول عقول الملائكة الأكرمين، ثم عقول الأنبياء أكمل من عقول الأوصياء، ثم عقول الأوصياء أكمل من الأئمة في العقول، وأفضل

---

(١) هذا القول لم يثبت عن الإمامية، ولم نره في كتبهم المعتمدة، ولذا قال الإمام رحمه الله تعالى: (وبلغنا -والله أعلم- عن بعض الإمامية) إشارة منه إلى عدم تأكده من هذا القول، وأنه من الأقوال الشاذة التي لا يعول عليها عند الإمامية أنفسهم وهم ينكرونه أيما إنكار.

في الاعتقاد والقول، ثم للسابقين من الفضيلة على المقتصدين، كمثل فضل الأنبياء على الوصيين، وللأئمة المقتصدين من الفضل ما لا يكون لفضلاء المؤمنين، وأفضل الناس كلهم فضلاً وأكملهم ديناً وعقلاً محمد خاتم النبيين صلوات الله عليه وعلى أهل بيته الطاهرين».

[جواب الإمام على من زعم أن كلامه أبهر من القرآن]

ومما عارض به قول من زعم أن كلامه أبهر من كلام الله سبحانه، قوله في تفسير (غريب سورة الأنعام): «ولا يعلم دليلاً أبين من القرآن، ولا أشفى ولا أوضح من الفرقان، ولا أبهر ولا أنور في البيان مما جاء به محمد وأهل بيته في البرهان».

وقوله في كتاب (تثبيت إمامة أبيه عليهما السلام)«ولا يقول أحد:إن كتب الأئمة أولى من كتاب الله بالصدق، وأقرب إلى الصواب والحق».

وقوله في (جوابه لمن سأله) عن معنى قوله: «إن أدلة المعقول أقطع للملحدين من أدلة المسموع».

وقوله: «إن تفسير الأئمة عليهم السلام للمتشابه أبين من المتشابه: إنما معنى قولي أنه أقطع للمشبهين والملحدين أنه أبين من المتشابه من كتاب الله للمتعلمين، فأما أن يأتي أحد بمثل آية من كتاب الله فلا يدعي ذلك إلا كاذب».

[جواب الإمام على شبهة أنه لا حجة بعده]

ومما عارض به قول من زعم أنه لا حجة بعده، قوله في كتاب (**تثبيت إمامة أبيه عليهم السلام**): «وأما قولهم: إن كتب الإمام وما سطر حجة على جميع البشر، فلعمري إن قبول ما فيها من الحق واجب على جميع المخلوقين، لا ما ذهبوا إليه من رفض الأئمة الباقين، والتعلق بكتب الماضين، ولو كان ما قالوا عند من عقل صدقاً وكان ما نطقوا به من الزور حقاً لكان ذلك رداً لقول رب العالمين، وإثباتاً لقول المخالفين، إذ كلهم متعلق بكتب من عدم شخصه، رافض لمن كان من الأئمة بعده، ولو كان لأحد منهم أن يقف على إمامة رجل برفض من بعده لجاز ذلك لمن كان من الروافض قبله، ولجاز لهم من ذلك ما جاز له، ولصارت العوام أولى بالإمامة من آل نبيهم، ولنقضوا قول ربهم، ولما كان لقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[الرعد: ٧] معنى، ولكان تمرداً وعبثاً، فتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً» ..إلى قوله: «وزعموا أن لله حجة مغمورة إذا لم يكن ثم حجة مشهورة غير من هو عندهم معارض، ولكلام الأئمة رافض، والله سائلهم عما ذكروا من المحال وأفحشوا في أولياء الله من المقال، وأكذبوا ما قال فيهم ذو الجلال، فأخرجوا الله بحجتهم هذا المغمور من الحكمة والعظمة والتدبير، إذ زعموا أن الله يحتج على عباده وينفي الفساد من بلاده، بحجة لا ترى ولا تبصر ولا يسمع بها ولا تذكر، ولا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن منكر، ولا يرد على أحد من المبطلين، ولا ينصر الحق والمحقين».. إلى قوله: «وأيضاً فليس من حكمة الحكيم أن يحتج على عباده

بحجة من أهل بيت نبيه ثم يخفيها عنهم ويغمرها، ولا يعلمهم بها ويسترها، ثم يحاسبهم على ما لم يعلموا، ويعذبهم على ما لم يفهموا، أجل إنه عز وجل لبعيد عن هذه الفرية وأمثالها ونظائرها من القول وأشكالها، وإنما معنى ما روي من الحجة الباطنة عن أمير المؤمنين عليه صلوات رب العالمين: هو المقتصد من آل الرسول، وقد روي عن النبي ﷺ: أنه ذكر الحجة، ثم قال: «إما السابق وإما المقتصد» وإنما سمي المقتصد [مقتصداً][1] لاقتصاده عن المراد، وسمي حجة لاحتجاجه على جميع العباد» .. إلى قوله: فكيف؟! ألا إنه قد قال ـ بإجماعهم لو انتفعوا بعقولهم وأسماعهم ـ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي، كتاب الله وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض»[2] ولا يخلو قوله ﷺ: «لن يفترقا حتى يردا علي الحوض» من أن يكون باطلاً أو حقاً، فنعوذ بالله من تكذيب الرسول، ومكابرة حجج العقول، ولقد كفر من كذب كتاب رب العالمين، ورد قول الرسول الأمين، وتعلق بأوهامه وظنونه، وقبل وحي شياطينه، واعتمد على المتشابه من الأقاويل، وجهل مخارج السور والتأويل، وفارق محكم التنزيل، واتكل على الأقاويل المهلكات، وقبل ما روي من المتشابهات، وتبرأ من الأمهات المحكمات».

وقوله في كتاب (شواهد الصنع): «أصل الإمامة في العقول، لأن الحكيم قد علم أنه لا بد من اختلاف بين المخلوقين، فجعل في كل زمان حياً مترجماً

(١) زيادة في (ب).

(٢) سبق تخريجه.

لغوامض الأمور، مبيناً للخيرات من الشرور، ولا يعدم ذلك في كل قرن من القرون، إما ظاهراً جلياً، أو مغموراً خفياً.

فإن قيل: وما الظاهر الجلي؟ وما المغمور الخفي؟

قيل ولا قوة إلا بالله: أما الظاهر: فالسابق المنذر لجميع الخلائق، وأما الخفي: فالمقتصد المحتج لله على جميع العباد، الآمر بالمعروف والناهي عن الفساد، بغير قيام ولا جهاد».

[جواب الإمام على من زعم أنه المهدي]

ومما عارض به قول من زعم أنه مهدي عيسى، وأنه لا بد لمهدي عيسى من غيبة قبل قيامه، تفسيره عليه السلام لقول الله سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾[النساء: ١٥٩] قال: «يحتمل أن يريد إلا من قد آمن وأتى بالمستقبل بمعنى الماضي، ويحتمل ما روي عن الأئمة عليهم السلام أن الله سبحانه يظهره في آخر الزمان يدعو إلى طاعته وطاعة المهدي، ويُصَلِّي خلفه»، وتفسيره لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[التوبة: ٣٣] قال: «هو وعد من الله سبحانه لرسوله، فكان ما وعد»، قال: «وأتى في الخبر عن الأئمة عن النبي عليه وعليهم السلام، أن هذا الظهور يكون على يد المهدي عليه السلام يقهر جميع أديان الأمم».

وتفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾[الأحزاب:٢٧] «أي ستملكونها، وقيل: سيملكها القائم من آل محمد في آخر الزمان»، وتفسيره لمعنى ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المهدي أنه يؤتم عرسه، قال عليه السلام «معنى يؤتم عرسه أنه يتركها عند قيامه اشتغالاً بالجهاد عنها»، وتفسيره لمعنى ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام

في الحجة الباطنة بأنه المقتصد، واحتج على ذلك بقول النبي ﷺ «سيأتي من بعدي فتن متشابهه كقطع الليل المظلم فيظن المؤمنون أنهم هالكون فيها، ثم يكشفها الله عنهم بنا أهل البيت برجل من ولدي خامل الذكر، لا أقول خاملاً في حسبه ودينه وعلمه، ولكن لصغر سنه وغيبته عن أهله واكتتامه في عصره»، فبين ﷺ أنه يريد بذلك الاقتصاد لا ما ذهب إليه أهل اللداد.

فصل [تعجب واستغراب]

انظر كيف يجوز أن يضاف إليه ما عابه على غيره وسماه فرية وكفراً ولداداً، ونحو ذلك، وكيف يجوز الخروج من هذا المعلوم المجمع عليه إلى الروايات المظنونة المختلف فيها، ومن أقوال أئمة الزيدية إلى أقوال غلاة الإمامية.

[جواب الإمام على من زعم أنه يقوم آخر الزمان]

ومما عارض به قول من روى عنه أنه لا يموت ولا يستشهد حتى يقوم في آخر الزمان.

قوله في (**رسالته إلى شيعة جده القاسم بن إبراهيم**[1] عليه السلام): «فالعياذ بالله كيف

---

(١) الإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن ابراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام ـ نجم الآل الأكرمين .ولد بالمدينة سنة (١٦٩هـ) فاق أقرانه، وكان وحيد عصره، وفريد دهره، وعين زمانه، فقهاً وعلماً، وتواضعاً، وورعاً، وشجاعة ـ مكث بمصر ما يقارب عشر سنوات نشر خلالها عقائد أهل البيت، وكان المأمون يشدد في طلبه . ولما توفي شقيقه محمد بن إبراهيم قام بأمر الإمامة، وبايعه رؤساء العترة، حتى سميت بيعته البيعة الجامعة لإجماعهم عليها . طاردته الجيوش العباسية مرارا في اليمن =

يداري في الحق من أصبح وأمسى منتظراً لسفك دمه، وقد وطئ وطأة المتاقل على رقاب أعداء الله».

وقوله في كتاب (الدامغ) يصف نفسه ﷺ: «وأصبح متوقعاً للموت والفناء، وعاد الفقر أحب إليّ من الغنى».

وقوله في كتاب (الأسرار): «فوالذي أنا في يده ما نمت نومة حتى أناقش نفسي، وأتذكر ما اجترحت في يومي وأمسي، لأن النائم ربما حيل بينه وبين انتباهه كما يحال بين اليقظان ومنامه».

وقوله في بعض (أدعيته): «وأكثر همي الشهادة في سبيلك، والغضب لدينك، وأنا حريص في ذلك، فيا رب لا تخيب آمالي، ولا تخترم دون الشهادة أجلي، وعجّل يا مولاي ذلك، وارحم تضرعي».. إلى قوله: «وعلى أن أبذل جسدي وعرضي ولساني، حتى تفرق بين روحي وجسدي، وتقطع فيه أجلي. اللهم خذ بذلك عهدي وميثاقي، واشهد علي وكفى بك شهيداً، اللهم إني أشهدك وأشهد ملائكتك وحملة عرشك وأهل سماواتك وأرضك، أني لا أرجع ولا أنثني ولا أستقيلك في بيعتي حتى ينقطع عمري، ثم أزور قبري، أو يذهب لك في العطب لحمي ودمي» وانظر كيف يجوز أن يضاف إليه ﷺ أنه لم يف بعهده وميثاقه، وكيف يجوز أن يترك تصديقه في هذا وشبهه، لأجل روايات لا دليل على صحتها، ولا ثقة بمن أسندت إليه من النسوان والمتشيعين الذين حكى عنهم بعض إخوة المهدي ﷺ.

والحجاز، خلف لنا تراثا فكرياً رائعاً ومنه: (كتاب العدل والتوحيد)، (والدليل الكبير على الله)، (والرد على الروافض)، (والرد على الملحد)، وله الكثير من المؤلفات التي تزيد على العشرين مؤلفاً. أخباره كثيرة، ومناقبه غزيرة - توفي سنة (٢٤٦هـ) بالرس رحمه الله تعالى.

[جواب الإمام المهدي على من زعم حكايته في المنام]

ومما يعارض به قول من زعم أنه كان يرى ما حكي عنه في المنام قولهﷺ في كتاب (الإمامة): «واعلم أن الإمامة لا تصح بالملاحم والمنام، ولا تبطل إمامة الأئمة بالأحلام، لأن الرؤيا وإن كانت من حكمة الله جل جلاله، وعظمة نعمته وإفضاله، فإنها تحمل على التأويل، ولا يعتبر ظاهرها في جميع الأقاويل والحكم لا يصح بكل أسبابه، لما في النظر والتمييز من ثوابه مع ما في النظر من لقاح العقل وبطلان الحيرة والجهل، وربما رأيت الرؤيا للرجل، وإنما المراد بها سواه من ذريته أو بعض إخوانه وقرابته».

[الخاتمة: مناقشة واستنتاجات]

فصل يشتمل على مسائل

الأولى: إذا كان للمهدي ﷺ أقوال مجمع على صحتها وأقوال مختلف فيها، ما الواجب أن يتبع[1] من ذلك في وقت الفترة؟

الثانية: إذا كان لا بد لله سبحانه من حجة من العترة في كل عصر، وكان كل حجة بعد المهدي ﷺ لا يصدق بما أشيع[2] عليه، هل يجب الاقتداء به مع ذلك، أم يجب رفضه؟

الثالثة: إذا كان مهدي عيسى ﷺ لا يعلم أنه هو إلا بعد ظهور عيسى، ولا يعلم أن عيسى هو هو حتى يحيي الموتى، فكيف يعلم مع عدم ذلك؟

الرابعة: إذا كان فضل النبي ﷺ مجمعاً على كونه معلوماً بالنص، فكيف يجوز نسخه بفضل مختلف فيه؟

---

(١) في (ب): نتبع.

(٢) في (ب) وبعض النسخ: (شنع).

الخامسة: هل تصح إمامة من يدعي خلاف ما أجمعت عليه الأمة، مع أن من شرط صحة إمامته أن لا يخالف شيئاً من الأدلة، وأن يكون مقتدياً بمن قبله من الأئمة، وغير مخالف لإجماعهم.

السادسة: لو صح القول بتفضيل المهدي على النبي، هل يكون فضله عليه معقولاً أو مسموعاً تفضلاً أو مجازاة، وهل يكون قبل ظهور عيسى أو بعده؟

السابعة: إذا قام من العترة بعد المهدي عليه السلام إمام وأنكر بعض ما يجب في كتب المهدي عليه السلام من الروايات هل يكذب أو يصدق كما قال القاسم بن علي عليه السلام(١) في كتاب (ذم الأهواء والأوهام) في مثل ذلك: «واحذروا رحمكم الله من فتنة الهوى، ومخالفة حجج الله التي تعاين وترى، ولا تأتموا بالأخبار التي ترد عليكم من أئمة الهدى، فإن الله لم يجعل حججه خبراً فاسداً، ولا كتاباً مفرداً ليس معه من ذرية الرسل معين».

---

(١) والد الإمام الحسين العياني وهو من فضلاء أئمة أهل البيت عليهم السلام.
وينحدر نسبه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فهو الإمام المنصور بالله القاسم بن علي بن عبد الله بن محمد ابن الإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام له العديد من المؤلفات منها (كتاب الأدلة من القرآن على توحيد الله) وكتاب(التوحيد) وكتاب(التجريد) وكتاب (التنبيه والدلائل) وأنا بصدد جمعها وتحقيقها.
وقد توفي عليه السلام سنة ٣٩٣هـ ومشهده ببلاد عيان مديرية حرف سفيان مشهور مزور وخلف من الأولاد: الإمام الحسين العياني، وإخوانه: سليمان ويحيى وعبد الله وعلي وجعفر

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم،،،
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم[1] ...

---

(١) جاء في آخر المخطوطة: (قال القاضي الأجل الأوحد الأفضل العالم العامل الأكمل، أبو عبد الله محمد بن جعفر بن الشبيل بن غالبيه رحمه الله تعالى: لما سمعت من السيد الشريف الفاضل حميدان بن يحيى هذه المجموعة التي جمعها، وذلك بعد أن نسختها من الكراريس التي بخطه ومن جملتها هذا الذي من كلام مولانا الإمام المهدي لدين الله الحسين بن القاسم -سلام الله عليه ورضوانه- قلت فيه ﷺ أبياتاً وهي هذه:

هـذا إمـام عـالم عامـل ... أبـرأ إلى الـرحمن مـن بغضـه
ومـن مـوالاة لأعدائـه ... ومـن غلـو فيـه أو رفضـه
قـف واتـق الله إلـه السـماء ... يـا أيهـا الطـاعن في عرضـه
إن تـك منه اليـوم مـستعرضـاً ... ففـي غـد تنـدم مـن قرضـه
أديـن أن الحـق مـا قالـه ... من صفة الباري ومـن فرضـه
وأن مـن في فضـله قـد غـلا ... أكـبر جرمـاً مـن ذوي بغضـه
فخف إلـه الخلـق يـا مـن غـلا ... في خلط ما قد شيب في محضـه
مثل ابن غطريف الذي لم يقـل ... في كلـه الحـق ولا بعضـه
قال ابـن غطريـف الـذي قالـه ... فشـمر المهـدي في نقضـه
فـرد مـا قـال ولم يرضـه ... إذ أسـخط الله ولم يرضـه
صـلى عليـه الله مـن راحـض ... طاب وطاب الدين من رحضه



الفهارس العامة للكتاب

أولا: فهرس الآيات القرآنية

ثانيا: فهرس الأحاديث



فهرس المحتويات